نظرات في كتاب الله
٦



حنان لحام



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

سورة النمل - الآية (٥٩)

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

سورة البقرة - الآية (١٢٧)

مِن هدي سورة البقرة

تم بحمد الله وتوفيقه طبع هذا الكتاب بعد موافقة الإدارة العامة لشئون المصاحف ومراقبة المطبوعات برئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض برقم ٥/٣٧٥ وتاريخ ١٤٠٨/٤/١ هـ.

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



دار الهدى للنشر والتوزيع

الرياض - شارع طارق بن زياد
شرق مستوصف المرقب - هاتف ٤١٢١٩٧٤
ص.ب ٢٥٥٩٠

مقدّمة

بسم الله الحمد لله . والصلاة والسلام على رسل الله ومن تبعهم إلى يوم الدين . . وبعد :

فقد ترددت كثيراً قبل أن أبدأ بتفسير سورة البقرة ، شعوراً مني بثقل الأمانة ورغبة في أن لا يأتي الموضوع عالة على غيره من كتب التفسير . .

إنني أتطلع إلى تجديد في الفهم والتفكير يتناسب مع الفتح الذي حصل في آيات الآفاق والأنفس . وليس هذا يسيراً علينا نحن الذين لبثنا قروناً في دائرة مغلقة غائبين عمّا يجري حولنا من نمو وتقدم . . نخاف من كل جديد ونرفض كل تجديد . . وخاصة في عالم التفسير . . فقد أوقف المسلمون الاجتهاد والتزموا المأثور مرددين قول رسول الله ﷺ «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[1] . .

فهل الاستفادة من الكشف العلمي في تعميق فهمنا لآيات القرآن هو الذي نهى عنه رسول الله ﷺ وسماه : تفسيراً بالرأي . . ؟!

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

رحم الله ابن تيمية حيث كان يشكو من غياب التفسير الصحيح . . ويتطلع إلى اليوم الذي تُفسِّرُ فيه آياتُ الآفاق والأنفس آيات الكتاب وتشهد لها . ويقول : (إن صريح المعقول لا يخالف صحيح المنقول) . **ويعتبر الآيات الثلاث (الكتاب ـ الآفاق ـ الأنفس) أدلة العلم** . ورحم الله محمد إقبال فقد كان يتطلع إلى رؤى جديدة في كتابه (تجديد التفكير الديني) ويقول : حقاً إن النبوة قد ختمت ولكن الباب قد فتح على مصراعيه أمام الآفاق والأنفس «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم» **وبإمكان البشرية أن تهتدي وتسعد بهذا الوحي الجديد** .

إن التفسير بالرأي هو : **اتباع للهوى وخروج عن قواعد الدين والعلم** . . هو شطحات انفلتت من الموضوعية . . لا برهان لها ولا ترتكز إلى دعامة . . ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ (الحج / ٨) .

وإنني إذ أكتب هذه الكلمات لأدرك مدى صعوبة تمرير مثل هذه الأفكار إلى أجوائنا الإسلامية . . خاصة إن لم نتمكن من دعمها بعكاز الأشخاص . فالمسلمون ما زالوا في مرحلة عالم الأشخاص . . حيث تسود الفكرة المجسدة وتطارَدُ الفكرة الجديدة مهما كانت موضوعية إن لم تجد لها مرجعاً في كلام عالِم موثوق به في تراثنا . ومع ذلك فإنني أحمد الله الذي أنعم على الأمة المسلمة بمجددين في كل عصر . . تعرف الأمة قدرهم ولو بعد حين . وأشعر أنني حين أتجرأ وأقول : نحتاج إلى أسلوب مبتكر في فهم كتاب الله وكتابة التفسير . . إنما أنهل من معين هؤلاء المجددين و أهتدي بالنور الذي رفعوه للناس . . ويكفي أن أضرب مثلاً على ذلك جهود سيد قطب ـ رحمه الله ـ حيث جاء كتابه في التفسير (في ظلال القرآن) آية لعصره . . فقد استفاد فيه

مما جد من علوم في عصره . . وحاول أن يخاطب معاصريه بما يلائم عقولهم .

أعود فأقول . . إنني إذ أباشر هذا العمل . . أدرك ضآلتي أمام الموضوع ، ولا أزعم أنني حققت ما أتطلع إليه . . وإنما هي خطوة متواضعة ومحاولة أولية أقوم بها لاختزال المفاهيم المألوفة من الآيات . . **ولتركيز وتوضيح مفاهيم جديدة بدأت تحتل مكاناً في ميدان الأفكار .**

وستأتي أجيال من بعدنا تفهم أكثر . . وتضيف إضافات جديدة تتجاوز فيها فهمنا . . وتشعر بضآلة ما قدمنا . . لكنها خطوة على الطريق . **ففي كل عصر ينبغي أن يحدث اختزال للمعرفة القديمة وتطلع إلى مزيد من النمو . .**

والله أسأل أن يأخذ بأيدينا لما يحب ويرضى . ويلهم الدارسين العاملين فهماً أوفى وسعياً أهدى . والله الهادي لأقرب من هذا رشداً .

حنان لحام

دمشق ١ محرم ١٤٠٩ هـ



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

موضوعات القرآن عامة تدور حول أربعة : الله ـ الإنسان ـ الكون ـ اليوم الآخر .

فالله : هو خالق الإنسان والكون ، استخلف الإنسان وسيحاسبه عن هذه الأمانة .

والكون : دليل على قدرة الله وعلمه ـ ومسخر للإنسان إن عرف سننه .

والإنسان : عبد مستخلف من الله الذي سخر له الكون ومنحه الهداية والقدرة على الاختيار .

واليوم الآخر : ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ (طه /١٥) . حيث ينال الإنسان ثوابه أو عقابه .

فإذا ركزت السور المكية على : الله والكون واليوم الآخر . فإن المدنيّة تركز على الإنسان وتعلمه كيف يؤدي دوره ويحقق الأمة الراشدة المستخلفة في الأرض . وبعبارة أخرى يمكن أن نقول : إن القرآن يؤسس البنيان الفكري والسلوكي للإنسان بتنسيق علاقات هادفة للإنسان مع الله والناس والكون . **فالعلاقة مع الله عبودية ، ومع الناس عدل وإحسان ، ومع الكون تسخير** . هذه النوعية المحددة من العلاقات هي التي تميز الإسلام عن سائر المبادىء الأخرى . وبقدر ما يلتزم المجتمع المسلم بهذه العلاقات يحصل على السلامة والرقي والريادة للآخرين ، إضافة الى ثواب الآخرة .

سورة البقرة : هي أطول سورة في القرآن . . مدنية ، جمعت بين دفتيها آيات من أوائل ما نزل في المدينة وآيات من أواخر ما نزل منه . ورد في فضلها أحاديث عدة منها : «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله شيطان» [1] .

وموضوعاتها : تدور حول إعداد الجماعة المسلمة لحمل الأمانة والقيام بدورها في هداية البشر وتبصيرها بأسباب هلاك الأمم السابقة (كي تستفيد من تجارب السابقين) . . وتكشف أعداء المسلمين وكيدهم ـ خاصة بني اسرائيل ـ وكيفية التعامل معهم . وقد افتتحت السورة بالإيمان وصفاته . ثم عادت ـ بعد جولة طويلة في مجالات شتى ـ فاختتمت به . . . وكأنها تقول للقارىء : هذا هو الإيمان إن كنت تريده . .

---

(١) رواه مسلم .

هَيكَل السُّورَة

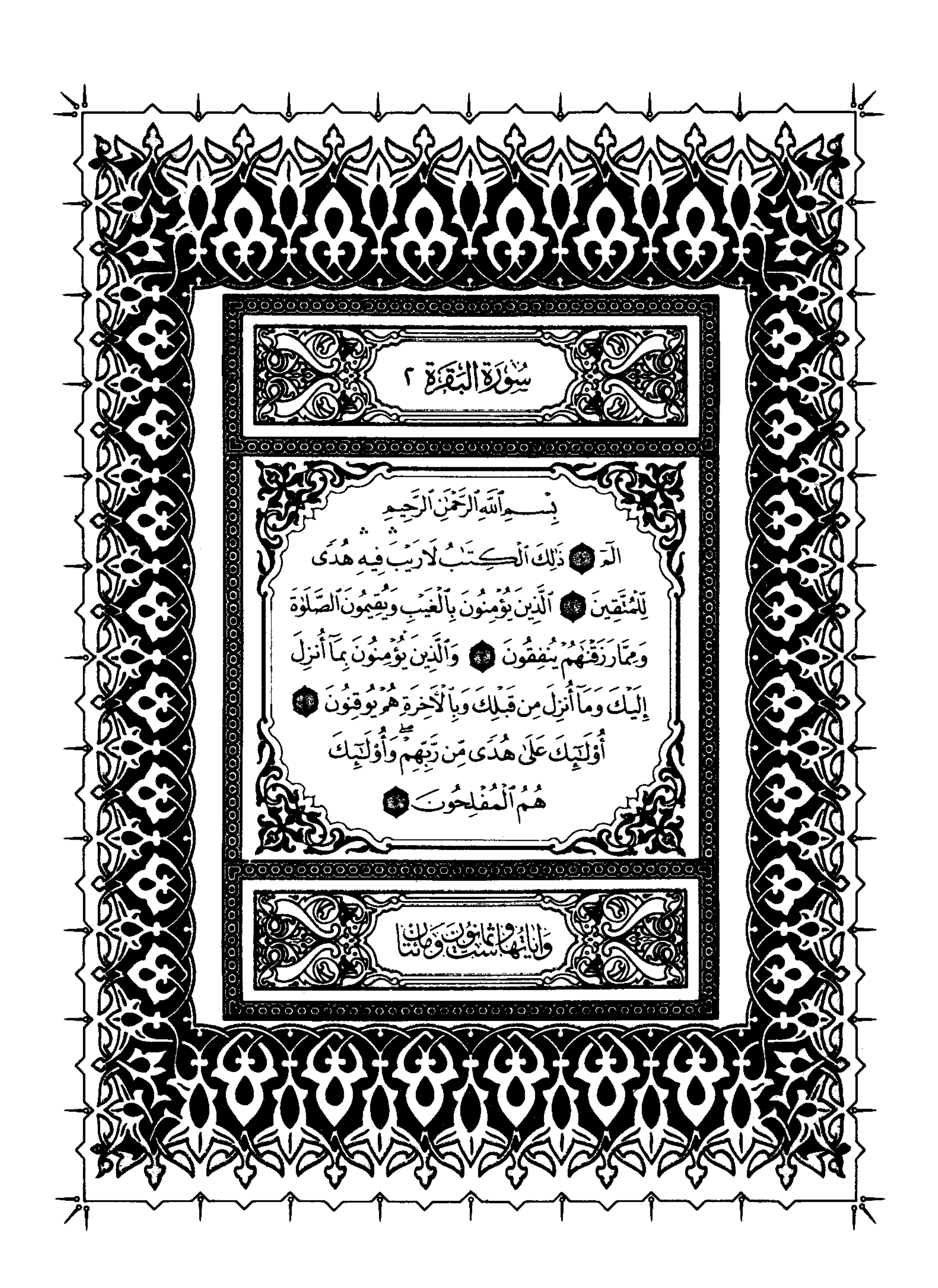
الموضوع **الصفحة**

الفصل الأوّل

المتَّقُون - الكَافِرُون - المنَافِقُون

(١ ← ٢٠)

- الكتاب فيه هدى .
- المتقون وصفاتهم .
- الكافرون .
- المنافقون .


سورة البقرة ٢
بسم الله الرحمن الرحيم
الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾
وآياتها ثمانون وست ومائتان

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ
أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ
فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

▪ ١ ▪
الكتاب فيه هدى

تفتتح السورة بمقدمة هامة تتعلق بهذا القرآن وكونه حقاً لا ريب فيه يحمل بين دفتيه الهداية ولكن لا ينتفع منها إلا المتقون .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

تحدث المفسرون عن هذه الأحرف التي اُفْتُتِح بها كثير من السور . وطرحوا معاني عدة . ولا شك بأن تقدم العلم يضيف ويكشف المزيد ، وقد أشار إلى ذلك الشيخ رشيد رضا في المنار حيث قال : (لا يزال يوجد في الناس حتى علماء التاريخ واللغات منهم من يرى أن في هذه الحروف رموزاً إلى بعض الحقائق الدينية والتاريخية ستظهره الأيام)[1] . ولعل من هذه الحقائق ما ذكره الدكتور خالص جلبي حين تحدث عن مراحل العلم ومعنى الحرف فقال : (عندما تكونت الكتابة تشكلت ذاكرة جديدة للبشرية ، وحصلت طفرة هائلة للبشرية ، لأن المعلومات البشرية بدأت بالتراكم والتكديس والتفاعل ، وبدأت بذور نهضة الحضارات حيث أن الكتابة بدأت بصياغة البشرية صياغة جديدة . هذه المرحلة من اكتشاف الكتابة تعتبر أخطر تطور في تاريخ البشرية لأن اكتشاف الحرف كان معناه تحويل النطق إلى كتابة تعبر عما تريد وتنقله إلى الأجيال القادمة) . وهذا معنى كبير أشار إليه القرآن بالتركيز على الحرف في كثير من فواتح السور

---

(١) تفسير المنار ، الجزء الأول ، صفحة ١٢٣ .

﴿ألم﴾ مثلاً ، أو في الإشارة إليه عند خلق آدم ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ (البقرة/ ٣٠) . القدرة على التعبير بالكتابة . . . . إن اكتشاف الكتابة رافق دخول الإنسان الحضارة . إن الإنسان لم يدخل التاريخ لولا الكتابة ـ على الأقل التاريخ المقروء ـ لذا كان من الأهمية أن يفتتح القرآن بالحرف ما يزيد على عشر سور وهو يؤكد على الحرف) [1]. إنها القدرة على اختزال المعرفة بالحرف . . . وحبس العلم الذي تحصله الأجيال بالرمز . ومع أن الإنسان قد كشف الكتابة منذ أكثر من خمسة آلاف سنة . . ولكن تعميم هذا الخير لم يتم حتى الآن ، حيث أن ما يقارب نصف البشرية ما زال أمياً . ومعظمهم على الخط الجنوبي : طنجة ـ جاكرتا [2] . هذا مع كل اللفتات القرآنية إلى العلم والحرف والقراءة . فتأمل مدى تخلف المسلم عن القرآن . . . !!

ومع ذلك فينبغي الحذر من الوقوع في العبودية للحرف . **فلا بد أن تكون لدينا قدرة على تصحيح التراث الذي نقله إلينا الحرف** . لأن الكتابة هي الصورة الخطية لما كان في أذهان الناس من معارف وظنون . . وما زال العلم في تطوره يحذف ويضيف ويجري التعديلات على الصور الذهنية القديمة . **فعلينا أن نتوازن أمام التراث . . . فلا نرفضه كلياً . . ولا ندعه يكبلنا** . . بل نتحرك نحو الأرشد والفهم الأسلم . ﴿رب زدني علماً﴾ (طه/ ١١٤) .

ومن المفسرين من قال : إن هذه الأحرف أسماء يرمز بها إلى السور . . وأن كل حرف مختزل من كلمة . . إن هذا يلفت نظرنا إلى أهمية الاختزال والاستفادة من الحروف في تطوير أسلوب مختزل في تداول العلم . . ألم تقدم لغة مورس خدمات جُلَّى في اختزال الرسائل ؟ ألم يفكروا في ابتكار أسلوب كتابي مختزل يستعمله الطالب الجامعي في نقله للمحاضرات . . ؟ وقديماً فكر المحدثون بشيء من ذلك فصاروا يرمزون ببعض الأحرف عوضاً عن كلمات فوضعوا مثلاً (ثنا) عوضاً عن (حدثنا) . . والكتب العلمية الآن حافلة بالرموز اختزالاً وتسهيلاً . . فلا ينبغي للمسلم أن يشعر بالحرج من مثل هذه المحاولات إذا حققت نفعاً فإن القرآن قد فتح هذا الباب .

---

(١) الطب محراب الإيمان ، د.خالص جلبي ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٠ .

(٢) وآخر إحصاء قرأته لنسبة الأمية في العالم العربي ٦٢٪ .

ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ

هل هناك شك بأن القرآن من عند الله . . ؟!

لعل العرض السريع لبعض الأدلة التي تؤكد هذه الحقيقة يكون مفيداً في دعم الإيمان وترسيخه أمام محاولات الدس والزعزعة . فمن الأدلة :

١" ـ أنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثله فهو الكتاب الذي حوى الإعجاز في كل الجوانب دون تناقض أو اختلاف ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (النساء/٨٢) .

٢" ـ اللفتات العلمية الموجودة فيه والتي لم تكن معروفة في الماضي وكشفها العلم الحديث كقوله تعالى : ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ (الذاريات/٤٩) الذي يقرر فيه قاعدة الزوجية التي بني عليها الكون .

٣" ـ حديث القرآن عن الأمم الماضية كما قال تعالى : ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ (هود/٤٩) ، حيث لم يمارسوا دراسة التاريخ . إن مزيداً من دراسة الآثار والتاريخ يقدم شهادة أوضح للقرآن في هذا المجال .

٤" ـ حديثه عن المستقبل : كقوله عن المشركين : ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ (القمر/٤٥) . وقد حدث هذا في معركة بدر وغيرها . . . بينما الآية مكية . وكقوله : ﴿غلبت الروم . وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ (الروم/١ ـ ٣) .

ولكل عصر براهينه . . . فلقد كانت العصا هي برهان موسى وآيته في الماضي . . وجاء عيسى بآياته المعجزة في عالم الطب . وكانت معجزة محمد ﷺ آيات الكتاب لمعاصريه ، وآيات الكتاب والآفاق والأنفس لمن يأتي من بعد . وعصرنا الآن عصر الصناعة . . . فأكبر دليل تبرزه للناس على صدق هذا الكتاب هو إخراج الصورة الاجتماعية له وإنتاج النماذج التي تمثل هدي القرآن (كما ذكر عن رسول الله ﷺ أنه كان

خُلقه القرآن) . . بحيث يمكن مقارنة النموذج الذي يصنعه القرآن مع النماذج الأخرى التي تصنعها المبادىء البشرية . وقياس الفارق في التماسك والإنتاج بين إنسان القرآن وغيره ، وبين مجتمع القرآن وغيره من المجتمعات . إن إعطاء الإحصائيات الدقيقة في هذا المجال هو أكبر دليل يشهد للقرآن . وعند ذلك يتحول الإيمان إلى علم لا يتجرأ على المراء فيه أحد لأنه عند ذلك يعرّض نفسه لسخرية تشبه السخرية بمن يقول : إن الزئبق أشد متانة من الفولاذ . وعندها يدخل الناس في دين الله أفواجاً . **وهذا هو الفتح المعاصر الذي ينبغي للمسلمين أن يحققوه .**

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

أين الذين يطلبون الهداية من الله ؟ إن الله تعالى يقول : إن هذا القرآن هدى يدلك على طريق الحق والخير بشرط واحد . . أن تكون من المتقين . . . فما التقوى ؟! نتذكر هنا ما قاله أُبيّ بن كعب لعمر رضي الله عنهما : أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ فقال عمر : بلى . قال : فما عملت ؟ قال : شمرت واجتهدت . قال : فذلك التقوى . فهي الخوف والاجتهاد الدائم لوقاية النفس من الزلل حتى لا تقع في غضب الله . يقول رسول الله ﷺ : «من خاف أدلج[1] ومن أدلج بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»[2] . فهو التبكير في المسير . ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ (طه/٨٤) .

وحتى لا يلتبس الأمر علينا ونحتار في تحديد التقوى والمتقين يسرع القرآن بإعطائنا تعريفاً تفصيلياً دقيقاً للمتقين فيصفهم .

---

(١) من خاف : أي التأخر والبيات في موضع غير آمن . أدلج : أي سار من أول الليل .
(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

ـ ٢ ـ

المتقون وصفاتهم

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

١" ـ يؤمنون بالغيب .

٢" ـ يقيمون الصلاة .

٣" ـ مما رزقناهم ينفقون .

٤" ـ يؤمنون بالرسل .

٥" ـ يوقنون بالآخرة .

الآيات هنا نموذج لمقاطع كثيرة مبثوثة في السور تهتم برسم سمات الشخصية المؤمنة وتحديد صفاتها .

١" ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾

والغيب ما غاب عن حواس الإنسان ومداركه . والإيمان بالغيب نابع من الإيمان بالله وصفاته العليا التي تنزهه عن التماثل مع العباد في علمه وتقديره وتدبيره للعوالم . . والإنسان المعاصر قد كشف له العلم عن عوالم عجيبة غائبة عن حواسه . . **فبات الإيمان بالغيب ضرورة علمية وموقفاً علمياً لا بد أن يتحلى به كل من يحترم العقل والعلم . .**

ولا بد من الانتباه هنا إلى أن بعض الغربيين كان يستعمل كلمة الغيب بغير معناها . فيطلقها على الأوهام والظنون ويسمي التفكير البعيد عن العلم : تفكير غيبي . . ويقصد به الإنسان الذي لا ينظر إلى سنن الكون ويخطط بحسبها . . وإنما

يترك كل شيء للصدف والأقدار . والمسلمون كأنهم مصابون بهذا الفكر اللاعلمي الآن . . ولعل الذي أوقعهم بهذا المرض هو سوء الفهم للإيمان بالغيب . وكأن المسلم لا شعورياً يظن أن الله لا يكون قادراً علياً بكل شيء إلا إذا عجز الإنسان وجهل . . ! ! ألا يدل الجهاز الدقيق على مهارة صانعه . . ؟! فكيف لا يدل هذا المخلوق الفذ ـ الذي سُخِّرت له السموات والأرض ـ حين يزداد علماً وقدرة . . كيف لا يدل على القدرة اللانهائية التي أبدعته . . ؟!

لهذا أجد أن موضوع الغيب يحتاج إلى فهم سليم متوازن يجتنب الخطأين . ولقد حاول رشيد رضا ـ رحمه الله ـ في المنار توضيح ذلك حين قال : (هناك غيب حقيقي وغيب إضافي . . فكل ما خلقوا غير مستعدين لإدراكه من موجود ومعدوم فهو غيب حقيقي بالنسبة إليهم . وكل ما خلقوا مستعدين لإدراكه دائماً أو في بعض الأحوال فهو إن غاب عنهم غيب إضافي) [1] . والإنسان مطالب أن يزداد علماً ورقياً وتسخيراً حتى يقوم بدوره في الخلافة بشكل أفضل .

٢" - وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ

الصلاة هي الدعاء . . وهي الصلة بالله . وإقامتها إتقان أدائها بأركانها . . أي توفر الإخلاص والصواب فيها . فالإخلاص : صدق التوجه لله بخشوع وخضوع . والصواب : القيام بشروطها وأحكامها فيما يتعلق بالطهارة والحركات والتلاوة والأذكار والحرص على أدائها في وقتها . والمرجع في ذلك كله قوله ﷺ : «صلوا كما رأيتموني أصلي»[2] . ومراجعة هذه الأحكام كما جاءت في السنة أمر ضروري . . كأن يتناول المسلم أحد الصحيحين فيقرأ الأحاديث التي وصفت وضوء رسول الله ﷺ وصلاته فيتعلم منه مباشرة . . إن هذا ضروري وميسور ولا يحتاج إلى تفرغ . . بل إنه يشعر المسلم بصلة حميمة مباشرة مع رسول الله ﷺ . ولكن كم من المسلمين شعر بأهمية ذلك . . ؟!

---

(١) راجع شرح الآية ٥٩ من الأنعام ـ الجزء السابع من تفسير المنار .
(٢) البخاري وأحمد .

وإنه لدليل على تخلف المسلم عن أداء واجبه أن يؤلف بعض المستشرقين معجماً للحديث يتضمن أحاديث الكتب الستة المشهورة للحديث[1] . بينما يعجز المسلم عن دراسة أحد الصحيحين . !! مع العلم بأن المسلم يحتاج إلى أكثر من ذلك . فهناك كتب تتحدث عن الصلاة مثل فقه السنة لسيد سابق (الجزء الأول) ، وصفة صلاة النبي لناصر الدين الألباني ، وروح الصلاة لعفيف طبارة . وكل واحد منها يفيد في جانب . فمنها ما يوضح أحكام الصلاة ومنها ما يتحدث عن حكمتها وفوائدها وضرورتها للفرد والمجتمع . وفرق كبير بين صلاة المسلم الذي اطلع على هذه الأبحاث وصلاة الآخر الذي لم يقرأ ولم يطلع . وهذا ماأشار إليه رسول الله ﷺ حين قال : «إن العبد ليصلي الصلاة ما يكتب له منها إلا عشرها ، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها»[2] . إقامة الصلاة : تربية للفرد وإصلاح له باعتباره لبنة في بنيان المجتمع لا بد من توفر المتانة فيها حتى يثبت البنيان .

٣" - وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ

وفي العبارة لفتة هامة : فهو رزق من الله وليس من صنعك ، وفي ذلك تربية للفرد وإصلاح للمجتمع . فهو تطهير للنفس من الشح . والشح لا يكون في المال فحسب . . . ولقد أشار القرآن إليه في معرض الحديث عن الصلح والإحسان بين الزوجين : ﴿والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ (النساء/١٢٨) . ولهذا عمم الرزق هنا ولم يحدده بالمال ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ من كل شيء أعطاكه الله تعالى . . المال والعلم والوقت والجاه والمركز . . وفي رأس القائمة : من الخلق الحسن . عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق»[3] .

---

(١) وهو المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين ونشره الدكتور أ - ي - ونسنك .

(٢) حديث صحيح . رواه ابن المبارك في «الزهد» وأبو داود والنسائي بسند جيد .

(٣) أخرجه البزار في مسند الحاكم في المستدرك وهو حديث حسن .

إن إيجاد نفسية العطاء عند المسلمين يمثل عنصراً هاماً في التربية الإسلامية «اليد العليا خير من اليد السفلى»[1] . لأن المجتمعات تبنى بالواجبات التي يقوم بها الأفراد . وهذا يحتاج إلى توضيح وترسيخ أرجو أن أقوم بشيء منه في مواضع أخرى من السورة كقوله تعالى : ﴿وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم﴾ (البقرة/٤٠) .

ولعل من الملاحظ في هذا المجال أن الله سبحانه وتعالى جعل سعادتنا تتحقق بمقدار ما نساهم في عون وإسعاد الآخرين . فالسعادة التي نحس بها عند أداء خدمة للآخرين لا تدانيها سعادة الملذات والمسرات الأخرى . جرب أن تقوم في يومك بأكبر عدد ممكن من تلك الصدقات الميسورة التي ذكرها النبي ﷺ «تعدل بين الإثنين صدقة . وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة . والكلمة الطيبة صدقة . وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة . وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[2] . جرب ذلك . . وسترى أن يومك كان مباركاً هنيئاً .

إن مجتمعاً تمثل هذه التوجيهات في حياته لا يعرف الصراع الطبقي وحقد الطبقات . . قد وصل التكافل فيه إلى مستوى قد يدهش له الاشتراكيون . يقول أبو سعيد الخدري : بينما نحن في سفر مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له قال : فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً (يلتفت إلى جانبيه بحثاً عن شيء يدفع به حاجته) فقال رسول الله ﷺ : «من كان معه فضل ظهر[3] فليعد به على من لا ظهر له . ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له» . قال فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل[4] (أي : زيادة عن حاجته) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه وأوله : «كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس» .

(٣) فضل ظهر : كل ما يركب من الدواب .

(٤) رواه مسلم .

ويقول عياض بن خليفة : رأيت عمر عام الرمادة وهو أسود اللون . فقيل له : ومم ذاك ؟ قال : كان رجلاً عربياً يأكل السمن واللبن فلما أمحل الناس حرمهما حتى يحيوا . فأكل الزيت حتى غير لونه وجاع فأكثر[1] .

٤" - وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ

هذه ميزة يتفرد بها المسلم الحقيقي وهي عدم التعصب واحترام الأنبياء كلهم والإيمان بهم وبما أنزل عليهم . وقد ذكر محمد أسد في كتابه (الطريق إلى الإسلام) كيف أنه دهش من جواب أحد المسلمين لما سُئِل : لِمَ لم يسمح للمسلمة أن تتزوج من كتابي ؟ فقال : إن الكتابية ستعيش في جو يحترم فيه نبيها لو تزوجت من مسلم بينما يحدث العكس لو تزوجت المسلمة من كتابي .

وقد سئل اللورد هدلي بعد أن أسلم : أتركت دينك ؟ فقال : بل صرت مسيحياً أفضل . (اللورد هدلي في كتابه : إيقاظ الغرب للإسلام) .

والمماثلة بين الرسل والكتب السماوية كافة هي من حيث الإيمان بها واحترامها . أما من حيث الاتباع فإنه للقرآن لأسباب منها :

١ ـ أن القرآن أرسل للناس كافة إلى يوم القيامة . بينما الرسالات السابقة كانت خاصة إما بقوم أو بعصر .

٢ ـ إن الكتب السماوية تعرضت للتبديل والتحريف والكتمان ولم تبق محفوظة بألفاظها الأصلية . بينما حفظ الله القرآن من التبديل فلم يتغير منه حرف .

٣ ـ إنه الكتاب الإلهي الأخير فهو مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه .

٤ ـ إن القرآن قد حوى الأسس والتنظيمات الكاملة لحياة الفرد والمجتمع بما يمكن أن يوصف بالثبات والمرونة . فلا تتغير القيم . . ولا يُجمِّد النمو . وإنما تقدم ضمن إطار القيم .

---

(١) ذكر في أخبار عمر للطنطاويين . منقولاً عن ابن الجوزي وابن سعد .

٥"- ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

اليقين هو الاعتقاد المطابق للواقع الذي لا يقبل الشك ، وعكسه الشك . (بينما العلم عكسه الجهل) . والإيمان بالآخرة يجب أن يصل إلى درجة اليقين بحيث نقول : لا يمكن إلا أنّ يكون هناك آخرة . ولكن كيف يصل الإيمان بالآخرة إلى درجة اليقين مع أنها من الغيب . . ؟

تحدث أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ عن ذلك في رسالة له عن اليوم الآخر ففصّل كيف أن العقل يصل بالاستدلال إلى ذلك . وقد سبق أن تناولت هذا الموضوع بشيء من التفصيل في كتابي (من هدي سورة لقمان)[1] . والقرآن يخاطب الإنسان في كثير من الآيات : انظر أيها الإنسان إلى مظاهر الرعاية والتقدير التي أحاطك بها الله سبحانه . . ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟! ألم يك نطفة من مني يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ؟ فجَعل منه الزوجين الذكر والأنثى ؟! أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟!﴾ (القيامة/٣٦ ـ ٤٠) . ولكن الطابع المادي لهذا العصر جعل الناس يهملون اليوم الآخر . . فهم يواجهون الحقائق بمنطق جديد . إنهم يبحثون عن الفائدة العاجلة قبل كل شيء لكل أمر يعرض عليهم .

ولعلنا ـ نحن المسلمين ـ قد قصرنا إذ لم نهتم بوجهة نظرهم ولم نحاول إبراز الجانب الدنيوي من الإيمان بالآخرة ، مع أن القرآن تحدث عن الآخرة من عدة جوانب مثلاً :

١ ـ تحدث عنها من ناحية المبرر لحدوثها : ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ (طه/١٥) . فالدنيا مهما نظمت لا يمكن أن تتحقق فيها العدالة المطلقة بإعطاء كل إنسان ما يستحق من جزاء . وهذا أكبر دليل على حتمية الآخرة .

---

(١) من هدي سورة لقمان ـ صفحة ٣٥ .

٢ ـ وتحدث عنها من ناحية إمكانية الحدوث : ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة . . .﴾ (يس/٧٩) .

٣ ـ وتحدث عنها من ناحية الفائدة الدنيوية لمن يؤمن بها : ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون﴾ (النحل/٢٢) . ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ (سبأ/٧) . فالذين لا يؤمنون بالآخرة محرومون من طمأنينة القلب ، معرضون لحياة العذاب والضلال . . ـ وهذا يتضمن تحدياً علمياً للناس ، إذ أنه يجعل النتائج هي التي تحكم على العقائد وصلاحيتها ـ وبقي علينا نحن أن نثبت ذلك للناس بالدراسات العلمية والإحصائية . . فعندما نستطيع أن نقدم مقارنة علمية واقعية بين نموذجين ـ على مستوى فردي واجتماعي ـ أحدهما يؤمن باليوم الآخر والثاني خاوٍ من الإيمان . . وعندما يظهر للعيان أن النموذج الخاوي من الإيمان يعيش في عذاب وضلال ، عند ذلك نكون قد قدمنا البرهان العلمي ـ الذي يناسب العصر ـ على ضرورة الإيمان باليوم الآخر للفرد والمجتمع . وكما قلت عند قوله تعالى ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه**﴾ . . إن استطعنا أن نفعل ذلك يصبح الإيمان علماً لا يجرؤ أحد على المراء فيه وعند ذلك يدخل الناس في دين الله أفواجاً .

والإيمان بالآخرة هو الضمان الأول للاستقامة . صحيح أن فطرة الإنسان تحب الخير ولكن قد يترك الخير إذا عرضه للخسارة أو الأذى إن لم يكن مؤمناً بالآخرة . ولذا فإننا نرى أنه لا تكاد تخلو صفحة من القرآن من إشارة إلى الحشر أو مشهد من القيامة . ولقد تحدث المفكر الهندي وحيد الدين خان عن الإيمان بالآخرة في كتابه (الإسلام يتحدى) وعقد باباً كاملاً من الكتاب بحث فيه أدلة الآخرة من جوانب عدة . . أحدها جانب السلوك ـ أو الأخلاق ـ فهو يقول فيه : (إن بعض الفلاسفة والمفكرين رغم تنكرهم لكثير من حقائق ما وراء الطبيعة يسلمون بأهمية الإيمان بالآخرة لأثره الأخلاقي . وفولتير أيضاً لا يؤمن بحقائق ما وراء الطبيعة ولكنه يرى : أن أهمية الإله والحياة الآخرة عظيمة جداً . حيث أنهما أساسيان لإقامة المبادىء الأخلاقية . وفولتير يرى أن هذه العقيدة وحدها كفيلة بإيجاد إطار أخلاقي أفضل للمجتمع ولو أن هذه

العقيدة زالت فلن نجد دافعاً للعمل الطيب وسيترتب على ذلك انهيار النظام الاجتماعي . إن الذين يرون أن الآخرة فكرة خيالية ينبغي أن يفكروا : كيف أصبحت فكرة خيالية ذات أهمية قصوى بالنسبة إلى واقع حياتنا ؟ لماذا لا نستطيع بدونها إقامة نظام اجتماعي سليم ؟ . . . . . . إن هذا الجانب المنطقي من الاستدلال يثبت حقية هذه النظرية [أي أن الآخرة من كبريات حقائق الكون] على مستوى التحقيق المعملي العلمي)[1] . وقد يأتي اعتراض هنا : وهو أن المجتمعات المتحضرة الآن ليس لديها هذا الإيمان ومع ذلك نجد الصدق والأمانة والنظام . . . وربما في مستوى أعلى مما عندنا في عالمنا المعاصر ؟! هذا الاعتراض فيه مغالطات منها :

١ ـ أن أخلاقهم نسبية ـ عنصرية ـ فهم أخلاقيون فيما بينهم ـ في عالم الكبار ـ أما مع الشعوب المستضعفة التي يستغلونها فلا داعي للأخلاق .

٢ ـ ثم أنها أخلاق مصلحية يحافظون عليها في المعاملات التجارية لأنها تضمن لهم الرواج .

٣ ـ ثم أن الأخلاق لا تنهار دفعة واحدة فهي حين تنشأ تكون مبنية على الفكرة الدينية لكنها تشكل بعد ذلك إلفاً اجتماعياً يترسب في أعماق اللاشعور فلا يزول بسهولة ولو ضعفت الفكرة الدينية . وإنما تضعف الأخلاق تدريجياً وتنحسر ببطء . . مثلاً تنحسر الأخلاق عن السياسة ثم عن العلاقة بين الجنسين . . ثم . .

٤ ـ وينبغي أن نتذكر أن حياة الأمم وخط سيرها لا يمكن مراقبته خلال سنة أو سنتين لأن دورة الحضارة تستغرق أجيالاً بل وقروناً . . فلتحديد الخط البياني لحضارة معينة لا بد من دراستها عبر الأجيال والقرون حتى نكشف صعودها أو هبوطها .

أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

---

(١) كتاب الإسلام يتحدى ، الباب الخامس ، صفحة ١٠٢ . وهو باب جدير بالقراءة لمن أراد الزيادة في عرض أدلة الآخرة .

يقرر الله سبحانه وتعالى أنه حين توجد الجماعة التي تتصف بهذه الصفات فإنها ستكون على هدى من الله وستحصل على الفلاح . ولا يحدد الفلاح هنا بأنه فلاح الآخرة . . وإنما يتركه ليعم فلاح الدنيا والآخرة . فكأن الآية تقول لنا إن وجود العدد الكافي من النوعية اللازمة لا بد أن يؤدي إلى النجاح والفلاح . . حيث أن النتائج في الدنيا تكون جماعية ـ بحسب سلوك الأكثرية ـ أما في الآخرة فهي فردية . ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ (الأنفال/٢٥) .

فعندما يفشل المسلمون في تحقيق الفلاح في حياتهم . . . عليهم أن يرجعوا ويدققوا : أين كان النقص والخطأ . . فإن القرآن يقول لهم : ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ (آل عمران/١٦٥) . وحتى الآن لم نرتفع إلى مستوى الآية فلا نريد أن نعترف بأن الخطأ من عندنا ولا نقبل بالنقد الذاتي . ونحن دائماً مستعدون لأن ندين الآخرين ونحملهم مسؤولية فشلنا . . بل ويصل بنا الأمر إلى أن نقول : فعلنا كل ما في وسعنا ولكن الله أراد هكذا . . . فنضع مسؤولية أخطائنا على الله تعالى . . ! وكأن الله قد حكم بالنصر لليهود والكفار ولكل الناس . . . إلا المسلمين فإنهم مهما بذلوا فإن إرادة الله تعاكسهم ؟!

تلك هي الثقافة السلبية التي تمثل أغلالاً وآصاراً تشلنا عن الفهم الصحيح والعمل الناجح . .

■ ٣ ■

الكافرون

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

الصنف الثاني من الناس :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾

والكفر هو التغطية . يقال عن الليل المظلم كافر لأنه يغطي ويحجب . وهؤلاء كفار لأنهم غطوا الحق وحجبوه ، أو غطوا عقولهم وقلوبهم وحجبوها عن النور .

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾

والقلب يستعمل في القرآن بمعنى العقل ، وكذلك اللب . بدليل قوله تعالى : ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ (الأعراف/١٧٩) . والفقه : هو فهم الأمور بدقائقها . فالقلب والسمع والبصر هي وسائل للمعرفة أنعم الله بها على الإنسان حتى يتمكن باستخدامها من الكشف والفهم والقيام بدوره على الأرض . وإن وجود هذه الوسائل عند الإنسان يجعله مسؤولاً أمام الله ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ (الإسراء/٣٦) . ولهذا حمل الأمانة دون سائر المخلوقات . لكن الكافر صنف من الناس وسائل المعرفة معطلة لديه ونوافذ الهداية مغلقة أمامه . والآية ترد الأمر إلى الله ﴿ختم الله﴾ . فكيف حدث هذا ؟! وهل فرض الله عليهم الكفر ومنعهم من الإيمان ؟! فما معنى أن يكون لهم العذاب العظيم طالما أنه لا خيار لهم ؟!

هذه مشكلة قائمة في نفس المسلم وتسبب له أزمات إيمانية وفكرية وحركية . وعلة ذلك أن المسلم لا يرى إلا جانباً واحداً من الموضوع . . إنه لا يرى إلا عمل الله وحده . . وقد تأصل الموضوع وتعمق حتى سيطر على لا شعوره . . حتى إن العمليات البسيطة من التوضيح لم تعد تنفع في علاج المشكلة . . . وكأن الموضوع يحتاج إلى حفر مستمر لاقتلاع هذه النظرات الخاطئة من الأعماق . . وكثيراً ما نخدع ونظن أننا شفينا من هذا المرض . . ولكن أحداث الحياة تكشفنا وتفضحنا فترانا عندما نفشل في عمل من الأعمال ـ كتربية الأولاد أو تصحيح انحراف المجتمع ـ نقول بتسليم عميق مطمئن : هكذا أراد الله . . !!

ولست أدعي أنني بمحاولتي للفهم وكشف الغموض قد حللت المشكلة ولكن حسبي أن أساهم في اقتلاع بعض الجذور ويأتي مِن بعدي مَن يكمل العمل . وإن كتاب : (حتى يغيروا ما بأنفسهم) للأستاذ جودت سعيد يتوسع ويساهم في كشف هذه المشكلة وتخليص المسلم منها .

وفي تفسير ابن كثير للآية نجد عرضاً جيداً لبعض آراء السلف الصالح وكلام القرطبي عنها حيث ذكر حديثين . الأول : «تعرض الفتن على القلوب كالحصير . . . » . والثاني : يمثل فيه ﷺ كيف تصبح الذنوب كالران على القلب ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ (المطففين/١٤) . والحديثان يوضحان كيف أن خطوة الانتصار الأولى التي يحققها الإنسان تعين على الاستمرار في الإنتصار . وكذلك الأمر بالنسبة للهزيمة الأولى فإنها تهيئك لأن تهزم باستمرار إلا إذا انتبه الإنسان وأدرك أنه أخطأ فرجع عن خطئه ومحا آثار الهزيمة من نفسه . عند ذلك يكون قد سجل لنفسه انتصاراً يعينه على أن يكمل الطريق . وهذا الفهم يوضح العلاقة بين عمل الله وعمل العبد . وذلك موضوع قائم بذاته تحدث عنه القرآن بأساليب عدة : ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد/١١) . وكثير من الآيات غيرها تقرر بوضوح أن هناك عملين والعلاقة ثابتة بينهما ؛ وهي أن عمل العبد يكون أولاً . . . وبحسب نوعيته يكون عمل الله . وحين نفهم هذه القاعدة نستطيع أن نفهم الآيات الأخرى التي ذكر فيها عمل الله وحده ﴿يهدي من يشاء﴾ ، ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ . وحتى آية التغيير تختم بشكل قد يلتبس على كثير من المسلمين ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، **وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال**﴾ (الرعد/١١) .

إن قدرتك على الاختيار تنتهي عندما تقوم بعمل ما . . . فإذا كان العمل الذي قمت به سبباً للخسارة فلا بد أن تحدث النتيجة إلا إذا قمت بأسباب أخرى تصلح فيها الموقف . والتوبة هنا لا تعفيك من نتائج الدنيا وإنما تعطيك الآخرة . لأن الله يغفر . . ولكن قوانين الدنيا لا تغفر ولا بد أن تعطيك نتيجة ما عملت : ﴿ليس بأمانيكم ولا

أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزَ به﴾ (النساء/١٢٣) . وهكذا فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً .

وفهم الآيات المحكمات التي ذكرت فيها القواعد بوضوح يوصلك إلى فهم الآيات المتشابهات . ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخَر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم . .﴾ (آل عمران/٧) . وأما أن تترك المحكمات وتتجه إلى المتشابهات تتعنت وراءها فهو الزيغ وضلال القلوب . وقديماً قيل (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) .

وتظهر المشكلة في صورة أخرى عندما يعترض المسلم على هذا الفهم محتجاً بالحديث «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً . . . . . . ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد»[1] . إن هذه الكتابة هي علم الله . . . ولا يكون الله إلهاً متفرداً عن الناس ما لم يتصف بالعلم المطلق المحيط بأطراف الزمان والمكان . لكن علمه سبحانه بالمستقبل لا يسلب الإنسان قدرته على الاختيار . وكثير لا يدركون هذا ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (الأنعام/٩١) . . ونحن قليلاً ما نتذكر أو نعي معنى تنزيه الله سبحانه . . فنظن أن الله مثلنا . . مثلاً : نحن نستطيع أن نصنع ساعة تدق متى شئنا لكنها لا تدق متى شاءت . . أي أن الآلة التي يصنعها الإنسان لا تملك حرية واختياراً . . لكن الله سبحانه وتعالى صنع الإنسان كساعة تدق متى شاءت . . أما نحن فلن نستطيع أن نصنع أجهزة تخرج عن إرادتنا . فالفرق واضح الآن : وهو أن الإنسان يعرف كيف ستتحرك هذه الآلة التي صنعها ومتى تتعطل . لكن هذه الآلة لا قدرة لها على الاختيار . لكن الله سبحانه وتعالى يعلم مسبقاً ماذا سيفعل هذا الإنسان وكيف ينهي دوره على الأرض مع بقاء هذا الإنسان يملك حرية الاختيار . فموضع الخطأ هنا : هو تشبيه الله بالإنسان ـ دون شعور منا ـ من حيث القدرة والعلم . . سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (الشورى/١١) .

---

(١) متفق عليه .

تأمل معي هذا الدعاء الذي كتبه الأستاذ جودت سعيد معبراً عن إدراكه لهذا الموضوع :

[يارب ، أنا عبدك لا أكف عن شكرك . أنت ربي ورب السموات والأرض ومن فيهن .

يارب : أشكر لك القدرة التي وهبتني فأستطيع بها أن أرفع يدي إلى رأسي .

يارب : أنا لا أشعر ـ بهذه الهبة منك ـ أنني في غنى عنك . . كما سوف لا أشعر بالغنى عنك إذا منحتني القدرة لأن أرفع يدي فأغير بها مجرى الأفلاك في السموات التي سخرتها لي . .

يارب : أعترف لك بما أكرمتني به ولا أرى قدرتك تقف عند حد فيما تريد أن تكرمني به .

يارب : اعتذاري عمن صعب عليه أن تبلغ كرامتك للإنسان هذه المنزلة . . وبراءتي ممن تمرد وظنَّ أنه في غنى عنك حين تمتع بما أكرمته به . .

يارب : أُلطف بنا لنرجع عما نخطىء به إليك . .

وقد ذكر ابن تيمية أربعة أنواع من القدر مقسمة بحسب الفهم :

ـ قدر المشركين : ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ (الأنعام/١٤٨) ، فهؤلاء لم يروا إلا عمل الله .

ـ وقدر المجوس : أنكروا قدرة الله ولم يروا إلا قدرة الإنسان . . منهم المعتزلة في الماضي والملحدون الماديون في هذا العصر .

ـ وقدر إبليسي : فقد اعترف إبليس بالعملين . لكنه وجدهما متعارضين ﴿فبما أغويتني لأقعدنّ لهم . . .﴾ (الأعراف/١٦) .

ـ وقدر المؤمنين : وقد رأوا الجانبين وآمنوا بأنه لا تعارض بينهما . فهم يحمدون الله عند النجاح ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا . . .﴾ (الأعراف/٤٣) . ويلومون

أنفسهم عند المصيبة ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف/٢٣) .

وشر الناس من كان مشركاً عند المصيبة (فيرد الأمر لله) . . مجوسياً عند النعمة ، فيقول كما قال قارون : ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ (القصص/٧٨) . وأكثر الناس الآن هكذا[1] .

ثمة ملاحظة أخيرة حول الآيتين :

هل الآية ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

يفهم منها اليأس من هؤلاء وترك إنذارهم . . ؟ !

إن رسول الله ﷺ لم يفهم منها ذلك واستمر ينذر ويبلغ . . فقد قال الله له : ﴿فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر﴾ (الغاشية/٢١ ـ ٢٢) . . ولا بد من التبليغ واستيعاب الوسائل المتاحة له حتى نتبرأ من التبعة أمام الله . ﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟ قالوا : معذرة إلىٰ ربكم ، ولعلهم يتقون﴾ (الأعراف/١٦٤) .

وإن مرض الأكثرية كما يقرره القرآن هو الجهل : ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾ (الأنبياء/٢٤) . وإن تغيير النفوس وإزالة الأختام التي عليها ومعالجة أمراضها . . بل وصياغتها بحسب المثل الأعلى . . إن هذا علم قد بدأ به البشر وهو قابل للزيادة والتقدم . .

ولعل القرآن قد بشر المسلمين بالوصول إلى هذه المرحلة حين قال : ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾

---

(١) انظر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، الجزء الأول ، ص ٣٩٤ . والجزء الثالث ، ص ١١١ . والجزء الرابع ، ص ٧١٤ ، الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ ، مطابع الرياض .

(التوبة/٣٣) . أي أنه سيأتي يوم يصبح فيه الإسلام هو دين العالم . وبشارة رسول الله ﷺ تؤيد ذلك : «ليبلغن هذا الأمر مابلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مَدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل . عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل به الكفر» [1] . وهذا لا يتم ما لم يجتهد المسلمون في دراسة علم النفس والاجتماع والسعي إلى الارتقاء والتقدم بهما . . حتى يتمكنوا من تغيير النفوس وإزالة الأغلال والآصار عنها . وما أشرفها من مهمة تصدى لها رسول الله ﷺ . . . ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ (الأعراف/١٥٧) .

■ ٤ ■

المنافقون

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد الأول ، ناصر الدين الألباني .

مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

آ ـ النفاق :

الصورتان السابقتان للمؤمن والكافر صريحتان واضحتان . . أما الصنف الثالث الذي نتحدث عنه الآن فهو المنافق . . يتلوى ويأخذ صوراً متعددة . . يجهر بشيء ويُسر شيئاً غيره . والآيات تتوسع في الحديث عن هذا الصنف لصعوبة كشفه وشدة خطره على المجتمع . . الآيات تصفهم . . ثم تحدد مصيرهم . . ثم تضرب لهم مثلين .

تكلم الغزالي في (إحياء علوم الدين) عن النفاق والإخلاص وذكر أقوالاً أسوق منها ما يأتي :

ـ قال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء . والعمل من أجل الناس شرك . والإخلاص أن يعافيك الله منهما .

ـ وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته .

ـ وقالوا : من رأى في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص .

ويتحدث عن العلم والعمل والإخلاص فيربط بينها بعلاقة فيقول :

ـ ويقال : العلم بذر ـ والعمل زرع ـ وماؤه الإخلاص [1] .

ـ وقيل : الناس كلهم هلكىٰ إلا العالمون . والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون . والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون . **والمخلصون كلهم على خطر عظيم .**

وكأن الغزالي ينبه المؤمن إلى خطورة حالة الأمن ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ (الأعراف/٩٩) . فكيف يأمن المسلمون والله يقول لهم : ﴿أوَلا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ؟!﴾ (التوبة/١٢٦) .

فالمؤمن يعيش حالة التوتر بين الخوف والرجاء . . ويخشىٰ على نفسه من النفاق . ألم يبك الصحابي حنظلة على نفسه وهو يقول : نافق حنظلة . . لأنه لمس اختلافاً في مشاعره وحالته النفسية عندما ينصرف من مجلس الرسول ﷺ إلى أموره الدنيوية . . ؟! ألم يتشبث عمر بحذيفة لما عرف أن النبي ﷺ قد أسرَّ إليه بأسماء بعض المنافقين وهو يناشده : أمنهم أنا ؟ فقال : لا . ولا أؤمِّن منها أحداً بعدك [2] .

---

(١) جعل العمل ثمرة لاندماج العلم بالإخلاص . وهذا ما عبر عنه جودت سعيد في كتابه : العمل قدرة وإرادة .

(٢) ابن كثير في تفسير الآية ١٠١ من سورة التوبة .

إنها الطريق التي تعهد الشيطان أن يملأها بالألغام ليوقع الإنسان : ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ (الأعراف/١٧) . فكيف يأمن من وعى ذلك . . ؟!

ولقد قيل لابن عباس : أي رجل كان عمر ؟ قال : كان كالطير الحذر الذي كان له بكل طريق شرك [1] . تلك هي حالة التوتر التي تدفع الإنسان إلى المزيد من العمل الصالح : ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ (الأنبياء/٩٠) . وقد ذكروا أن للنفاق نوعين :

الأول : نفاق في العقيدة : وهو الذي يخلد صاحبه في النار . وهم الذين تقول عنهم الآية هنا .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

والثاني : نفاق عملي وهو من أكبر الذنوب لأن فيه ترك طاعة الله ورسوله التي تعتبر الدليل الأول على الإيمان الحقيقي ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . . .﴾ (النساء/٦٥) . وهذا النفاق العملي على درجات أيضاً . فهناك المنافق الخالص . والذي فيه شعبة من نفاق . . كما قال ﷺ : «ثلاث من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً . ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» [2] .

لم يظهر النفاق إلا بعد وقعة بدر لأنه لم يكن للمسلمين شوكة يحسب لها حساب . . فلما كانت وقعة بدر قال عبد الله بن أبي بن سلول ـ الذي كاد يتوج ملكاً على الأوس والخزرج قبل الهجرة ـ : (هذا أمر قد توجه) . وأظهر الدخول في الإسلام ، ودخل معه طوائف على طريقته .

(١) أخبار عمر للطنطاويين .
(٢) جاء في الصحيحين .

عرفنا النفاق بأنه اختلاف بين السر والعلانية . . ولكن أناساً في مكة مالت قلوبهم إلىٰ الإيمان واستمروا يظهرون الكفر . فهل هذا نفاق . . ؟!

القرآن يسمي هذا استضعافاً . . ويعتبر الموت على هذه الحالة كفراً موجباً لعذاب جهنم ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾ (النساء/٩٦ ـ ٩٧) .

هذا النوع الذي نطلق عليه في عصرنا أسماء مختلفة ـ انتهازي مثلاً ـ فهو يشبه النفاق من ثلاثة جوانب :

١ ـ يخالف سره علانيته .

٢ ـ خوفه ورجاؤه من الناس أقوى وأعظم من خوفه ورجائه لله ؛ (وهذا شرك في أحد جوانب التوحيد) .

٣ ـ عاقبتها واحدة وهي : جهنم .

ولئن كانت هناك رخصة إلى حد ما في مكة مع بعض الضعفاء الذين قال عنهم الله : ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فأولئك عسىٰ الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً﴾ (النساء/٩٨ ـ ٩٩) . فينبغي أن نذكر أن كلمة : لا إله إلا الله وحدها كانت تعرض قائلها للقتل والتنكيل . . فهل يمكن مقارنة أوضاع العالم الآن بظروف مكة ؟! إن هذا جدير بالتأمل والتقصي . .

ولهذا لا يكفي أن نقول بأن الإخلاص هو أن تعتز بإيمانك وإنما : أن تعتز بإيمانك في موقف يهاجم فيه المؤمنون ويضطهدون ، وأن تتواضع ولا تتبجح بالإيمان في موقف ترجح فيه كفة المؤمنين .

ولكن قد نتساءل : هل كل من يكتم ذنوبه يكون منافقاً ؟ يتابع الغزالي بحثه فيذكر قول عمر رضي الله عنه لرجل : عليك بعمل العلانية . فقال : وما عمل

العلانية ؟ قال : **(ما إذا اطلع عليك أحد لم تستح منه)** . إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد ولا يخلو الإنسان من ذنوب بقلبه أو جوارحه وهو يخفيها ويكره أن يطلع الناس عليها . فإن كان يسترها ليرى الناس أنه ورع خائف من الله وهو ليس بخائف من الله فهو النفاق والرياء . والأمر ليس كذلك إن سترها بدافع :

١ ـ الحياء من الله والناس . فالحياء شعبة من الإيمان .
٢ ـ وحتى لا يجمع إلى ذنبه ذنباً آخر وهو الجهر بالسوء وإظهاره بين الناس .
٣ ـ الخوف من أن يقتدي به غيره إن كان قدوة .

إن هذه الدوافع لستر الذنوب من دوافع الإيمان ولا تدل على نفاق . أما ستر الطاعات فهو الأفضل إلا في حالة واحدة وهي حالة القدوة ، لأن في ذلك تشجيعاً للناس على الطاعة ونشراً عملياً للخير . روي أنه كان يمر الإنسان في طرق البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت . فألَّف أحدهم كتاباً في دقائق الرياء ، فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه . فكانوا يقولون : ليت ذلك الكتاب لم يؤلف .

وهناك نقطة أخرى هامة : وهي كيف يعامل المسلم المنافقين ؟

إن رسول الله ﷺ امتنع عن قتل المنافقين تجنباً لأن تحدث الشكوك في بعض النفوس ويتخذها أعداؤه فرصة للدعاية ضده . فقد ثبت في الصحيحين أنه قال لعمر : «أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه» ، أو كما قال . وتعليماً لأمته أن الناس يعاملون على ظاهرهم في الدنيا . أما النوايا التي في القلوب فالله يتولى أمرها . لكنه ﷺ استعمل أنواعاً من التأديب معهم كما أمره الله سبحانه وتعالى : ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم . فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ (النساء/٦٣) . **فالإعراض والموعظة والقول البليغ ـ الذي يؤثر في النفس ويبين لها خطأها ـ إنما هي أساليب لمعالجة نفوس هؤلاء وتقويمها . . وعلى المسلم أن يتعلم متى يستعمل كل أسلوب . . كالدواء يختلف بحسب درجة المرض .**

ب ـ صفات المنافقين :

١" ـ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾

الخداع : هو الكذب والغش والتغرير . وقد كانوا يحاولون خداع المؤمنين . . فالله سبحانه يضم المؤمنين إلى صفه ويعتبر كل عمل موجه إليهم إنما هو موجه إليه سبحانه . فليطمئن المؤمنون إلى كنف الله وليحذر المنافقون فإنهم يحاربون الله سبحانه وتعالى . . إنهم يظنون أنهم يغررون بالآخرين ويلعبون بهم . . لكنهم في الواقع يخدعون أنفسهم ويغررون بها . .

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

فأي نباهة وأي ذكاء . . ؟!

٢" ـ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾

ومرض القلب : أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله . وهو العلم والحكمة والمعرفة ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ (الأعراف/١٧٩) .

تلك هي الصفة الثانية التي يصف بها المنافقين . فما كنهها . . ؟

تحدث الغزالي في إحياء علوم الدين عن مرض القلب . . فكان مما قال :

[خاصة القلب ما يتميز به عن البهائم . . . . وتميز عنها بمعرفة الأشياء على ما هي عليه وأصل الأشياء ومخترعها هو الله . فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئاً . وعلامة المعرفة المحبة . فمن عرف الله تعالى أحبه . وعلامة المحبة أن لا تؤثر عليه الدنيا ولا غيرها . . ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من

الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (التوبة/٢٤) . فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض] [١] .

إن مرض القلب الذي يتحدث عنه القرآن هو ما يسمى الآن مرض النفس واختلال طبيعتها بصفة من الصفات : رياء أو جهل أو شك أو حقد ولؤم . . الخ . وهو ما يدرسه علماء النفس ويحاولون علاجه . هذه الأمراض يقول عنها الغزالي :

[إزالتها فرض عين . ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها . . والعلاج هو مقابلة السبب بضده . وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب . وأكثر ما ذكرناه من فروض الأعيان . وقد تركها الناس كافة اشتغالاً بما لا يغني . . . . . ويتهافتون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات . والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع . فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال مالا قائم به] [٢] .

وكأن الغزالي بكلامه هذا يصف مرضنا الآن . . وقد مضى على كلامه تسعة قرون ـ توفي سنة ٥٠٥ هجري ـ فانظر إلىٰ أي مدى صار مرضنا مزمناً ومستعصياً . . ؟!

فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ

لأن المرض يبدأ باعتلال بسيط فإذا لم يطلب المريض العلاج له ازداد واستفحل كما يحدث في أمراض الجسم . وإذا شعر بضرورة العلاج لكنه لجأ ـ لجهله ـ إلىٰ الدجالين والمشعوذين بدلاً من أن يرجع إلى الأطباء . . ازدادت المشكلة تعقيداً . . فإن كان لا يثق بضمائر الأطباء فإن الحل المنطقي الوحيد : هو أن يتعلم الطب ليداوي نفسه .

---

(١) كتاب إحياء علوم الدين ، الجزء الثالث ، صفحة ٦٣ .
(٢) المرجع السابق ، الجزء الأول ، صفحة ١٥ وصفحة ٢١ .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

أطلق العذاب ولم يحدده ليشمل الدنيا والآخرة . وذكر سببه الذي قام به الناس

بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

فهو عذاب نفسي أولاً لأن المرض مؤلم . . . وهو عذاب العواقب والنتائج الدنيوية لما يقومون به من أعمال ثانياً . . وهو عذاب الخزي والهون في الآخرة عقاباً لهم ثالثاً . .

٣" ـ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

والمفسدون يسمون فسادهم صلاحاً في كل عصر : تحرر . . تقدم . . ويرفعون الشعارات البراقة التي لا تحمل وراءها إلا الفساد والإفساد . وكلها شعارات للزحلقة ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ (النجم/٢٣) . أو ليس عجيباً أن يسموا الربا (فائدة) ، والفسق والتهتك (فناً جميلاً) . . وتخريب المجتمع (حرية) . . والتغرير بالمرأة (تحريراً لها) . . ؟!

إنها رجعة إلى ما قبل الجاهلية الأولى . . لأن أعراف الجاهلية نفسها كانت تستنكر ذلك (وهل تزني الحرة ؟!) .

إنهم يقولون عن فسادهم صلاحاً . . وذلك إما لسيطرة الهوى عليهم وإعطائهم الأولوية لزينة الحياة الدنيا . . أو لرغبتهم في إضلال الآخرين حتى لا يتميزوا عليهم ويكشفوا ضعفهم ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ (النساء/٨٩) . أو لأن الفساد تأصل في أعماقهم وتعودوا عليه فهم لجهلهم يقومون بالفساد ولا يدركون عواقبه ؛ لهذا يقول الله عنهم .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

ومرة أخرى يشير إلى اللا شعور[1] . . ويقول عن هؤلاء بأن الفساد صار خلقاً لا شعورياً لهم . فهم لا يشعرون بالذنب على ما يفعلون . فهل هذا يعفيهم من التبعة طالما أن الأمر لا شعوري عندهم ؟!

إن الإنسان حين يقوم بعمل لأول مرة يكون هذا ضمن شعوره . فإن حاول أن يفسد أو يخدع الناس لأول مرة أحس بالذنب فالأمر يكون في دائرة الشعور . . لكنه حين يكرره حتى يتعود عليه يصبح الأمر عادة يقوم بها لا شعورياً دون أن يحس بالذنب . . فيكون قد غرر بنفسه حين دنّسها وعوّدها على الخداع والفساد . . . ولهذا قال الله عنهم :

وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

والحديث الذي يرويه ابن مسعود يوضح ذلك : «وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . . . . وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[2] . وهكذا في أعمالنا كلها . . تبدأ ضمن شعورنا فنكررها حتى تترسخ تدريجياً إلى اللا شعور وعندها تصبح هذه الأعمال أخلاقاً وعادات نقوم بها لا شعورياً .

واللا شعور : موضوع يبحثه علماء النفس ويقولون بأن سلوك الإنسان أكثره يصدر عنه . فما اللا شعور ؟!

اللا شعور كان يوماً ما شعوراً حين عَرَفْتَهُ ومارسته لأول مرة ثم تحول إلى عادة لا شعورية . أو أنه كان شعوراً عند الأجيال السابقة ثم وصل إلى لا شعورنا . مثلاً نحن نمارس إشعال النار والكتابة بشكل لا شعوري . . ولكن كم تعب الإنسان الأول حتى وصل بوعيه إلى إشعال النار وتعلم الكتابة . . وهكذا فإن الإنسان يعيش معلومات

---

(١) فقد ذكره سابقاً عند صفة الخداع .

(٢) رواه مسلم .

هائلة ولو كان بدوياً أمياً . . لأنه يحمل في لا شعوره خلاصة تجارب البشرية وتراثها الضخم . . ويأخذ هذا كله من بيئته ويمتصه لا شعورياً منذ طفولته . وعلى هذا الأساس نرى الإنسان يتصرف وفق وجهات نظر خاطئة أحياناً لا يعيها هو ولا يعرف كيف وصلت إليه . . مثلاً : الفتاة التي تنشأ في مجتمعنا تتجه إلى الزينة ولا تهتم بما يجري حولها من الأحداث الاجتماعية والعالمية ولا تشعر بأن لها دوراً في هذه الأمور . إن وضعها هذا ناتج عن مجموعة من الانطباعات التي انتقلت من البيئة إلى لا شعورها فهي تتصرف بحسبها . . هذه المفاهيم الموروثة وهذه الانطباعات المنعكسة هي التي يطلق عليها مالك بن نبي : الثقافة .

والحقيقة أن الأسماء والمصطلحات لا أهمية لها . وإنما المهم أن نفهم مم يتركب الإنسان وكيف يتشكل ويصاغ حتى نعرف كيف نغيره وكيف نصوغه ابتداءً . . كيف ننشيء الجسور إلى شعوره وإلىٰ لا شعوره حتى نعبر عليها ونجري عمليات الحذف والإضافة حتى يتشكل وفق المثل الأعلى الذي نريده . . وإن علماء النفس الآن يتابعون هذه الأبحاث ويستعملون طرقاً للوصول إلى اللا شعور مباشرة كالإيحاء مثلاً الذي نلمسه في أسلوب الدعاية للمنتجات والبضائع . . بحيث أنهم ينجحون في إيصال الباطل إلى اللا شعور ﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ (الأنعام/١١٢) . فلم لا نكشف عن الطريق حتى نوصل الحق إلى اللا شعور سواء عن طريق الشعور أو بالقفز إلىٰ اللا شعور مباشرة . . ؟!

وكيف ندعي أننا نريد تغيير المجتمع ولم ندرس بعد شيئاً من هذه الدراسات ؟ ! وحين نصل إلى هذه النقطة تواجهنا ـ كمسلمين ـ عقبات لا بد من التخلص منها . من هذه العقبات قولنا : يكفينا القرآن والسنة . على الرغم من أن القرآن قد وجهنا إلى طلب العلوم والسير في الأرض ودراسة التاريخ ودراسة كيف بدأ الخلق في كل شيء . . والرسول ﷺ قد وضح الأمر في حديث زياد بن لبيد حين ذكر ﷺ أمراً وقال : «وذاك عند ذهاب العلم» فتعجب زياد وقال وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة ؟! فقال ﷺ : «ثكلتك أمك يا بن لبيد إن

كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة . أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء ؟»[1] .

إن كنوز القرآن مفتاحها العلم . . وكلما ازداد الإنسان علماً صار أقدر على فهم القرآن والاستفادة من أحكامه .

وهنا تعترضنا عقبة ثانية . . قولهم : إن العلم لا يوثق به لأنه يتبدل فهو يثبت اليوم ما ينقضه غداً . . !!

لهذا لا بد من تحديد العلم وتمييزه عن الظن والهوى . . فالقرآن أعطى الثقة المطلقة للعلم وأدان الظن والهوى : ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ . (النجم /٢٣) . فالعلم هو القانون أو بمصطلح القرآن السنن التي قال عنها : ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ . (فاطر /٤٣) . **إن الظن هو النظرية . . وهو الذي يتبدل ويتغير . . والنظرية هي خطوة في طريق العلم . . فإذا ثبتت صحتها ، وتمكن العالِم من البرهنة عليها أصبحت علماً وقانوناً .**

وعقبة ثالثة قولهم : إن الذين برعوا في العلوم الآن هم من غير المسلمين فكيف نقرأ لهم ونتعلم منهم . . ؟ إن القرآن يقول لنا : ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران /١٣٩) . فكيف نكون تلاميذ لهم . ؟

ولكن القرآن أيضاً يقول لنا : ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ (الأعراف /٨٥) . والرسول ﷺ جعل فدية بعض الكفار من أسرى بدر أن يعلموا أولاد المسلمين القراءة والكتابة . فعلينا أن نتعلم منهم ما برعوا فيه من الاختصاصات .

ولعل المسلمين الآن قد شعروا بأهمية بعض العلوم كالطب والكيمياء والفيزياء و . . وشبابنا يتوجهون للاختصاص في مثل هذه العلوم . . أما علم النفس والاجتماع فلا يشعر المسلم بأهميتها . . ويقول : إن الصحابة رضوان الله عنهم الذين هم خير القرون بشهادة الرسول ﷺ : «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسير الآية ٦٦ من المائدة وصححه .

يلونهم»[1] . لم يتعلموا هذا وقد بنوا مجتمعاً إسلامياً دون أن يدرسوا علم الاجتماع . . وعالجوا النفوس دون أن يخوضوا في علم النفس . . وبنوا حضارة دون أن يكون لهم علم بالتاريخ ودورة الحضارات .؟! وهنا يبدو الموضوع شائكاً أكثر . . لأن المسلم ينظر إلى الصحابة نظرة مثالية ترفعهم عن أي نقص أو خطأ . . ويجسد الإسلام فيهم . . حتى إنه لا يستطيع أن يميز الفكرة عن الأشخاص . . والإسلام عن الصحابة . . فالإسلام دين الله المنزه عن أي خلل . . القادر على إنشاء صور متجددة لارتقاء الإنسان ونمو الحضارة . . أما الصحابة فهم إحدى الصور البارعة التي أنشأها الإسلام متفوقة على معاصريها . . . وهم جيل القمة في الحضارة الإسلامية الماضية . .

إن الصحابة والسلف الصالح قد سعوا إلى السبق في علوم عصرهم . فلما قال لهم الله سبحانه: **﴿وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة﴾ (الأنفال/٦٠)** ، وكانت القوة البارزة في عصرهم الأسلحة وفنون القتال المادي . . أتقنوا هذه الجوانب وتفوقوا فيها . . ولكن الصراع الآن أخذ طابعاً جديداً والقوة قد تنوعت أشكالها . . وصار العلم والأفكار هو السلاح الذي يعتمد عليه في قهر الشعوب واستغلالها . وصارت الدراسات النفسية للفرد والشعوب هي الكليات الحربية التي يتدرب فيها المختصون ليتعلموا كيف يوقفون شعباً ما عن تقدمه وكيف يصوغونه وفق ما يريدون من أهداف . ولقد تمكنوا بعلمهم هذا من جعلنا نشتري السلاح منهم لنقتتل فيما بيننا به . فكسبوا المعركة من جميع الجوانب ودون أي تكاليف . . .

فمتى ندرك أننا بحاجة إلى الكمية الكافية من المتخصصين في هذه المجالات كي نحصن أنفسنا ـ على الأقل ـ من الوقوع في حبائلهم .؟ فكيف بمن يتطلع إلى إنقاذ العالم . .

إنَّ من الثابت أن لبناء المجتمعات وصيانتها من الهدم أو الزوال سنناً ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها ، ولقد تيسر للبشرية في العصر الحديث معرفة العديد من هذه السنن . وإذا كانت الأجيال الأولى قد وفقت في بناء حضارة ، فإن غياب المعرفة في

---

(١) أخرجه مسلم .

سنن البناء والصيانة من الهدم من قبل البعض قد ساهم في تهدم أوضعف تلك الحضارة .

والإنسان قد يتمتع بصحة جيدة لكنه إن كان يجهل قواعد المحافظة على صحة الجسم فإنه سيتعرض للمرض والاعتلال . . ولقد آن الأوان لبناء المجتمع الرباني الذي يحمل في جنباته أسباب البقاء والنمو المستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولن يتم هذا حتى نهيىء العدد الكافي من المهندسين الاجتماعيين . . وحتى نوجد تياراً متدفقاً للعلم . . حتى لا يقبض العلم بقبض العلماء . . وإنما إن ذهب عالم خرج من ورائه علماء . .

ولا شك بأنها طريق طويلة وشاقة . . وتحتاج إلى استنفار الجهد والوقت . ولكن المشكلة أن المسلمين لم يكشفوها بعد . ولم يقتنعوا بأنها هي الطريق الموصلة للهدف ، ولهذا يتجهون تارة إلى هنا وتارة إلى هناك . . ورحم الله إقبال حين قال :

لحظـــة يا صـــاحبي إن تغفــلِ ألــف ميــل زاد بعــد المــنزل

أقول هذا وأنا أعلم أنني مازدت على أن استعرضت بعض العقبات ـ لا كلها ـ ولم أزِلْها من الطريق . لأن إزالتها تحتاج إلى جهود أكبر وسعي متواصل ومتكامل من الدعاة إلى التحديق في وقائع الحياة والله المستعان . .

نعود إلى الآية :

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

إن اللاشعور قابل لأن ينبش ويدرس ما فيه ويجرى عليه التعديل . . وطالما أن الأعمال التي اعتادها الإنسان هي التي ترسخت وشكلت اللاشعور فإن الطريق مفتوح باستمرار لإجراء التعديلات اللازمة وترسيخ ما نريد بالممارسة ، وحذف ما نريد بالتعود على الإقلاع عنه . ولكن الأمر يحتاج إلى صدق في العزيمة ودرس متواصل في النفس

الإنسانية وكيفية التعامل معها . لهذا يؤاخذ الإنسان عن الفساد الصادر عن لا شعوره لأنه مطالب باستمرار بتزكية نفسه فالنفس تشمل الشعور واللا شعور . ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها﴾ (الشمس /٦-١٠) .

٤" -

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ

استعلاء . . يجعلهم يشعرون أنهم فوق النقد . .ويترفعون عن أن يذكروا بمن سبقهم في الإيمان والإخلاص الذي دلت عليه طاعة الله ورسوله . . !

لقد أعلنوا الإيمان بالقول . . لكنهم يرفضون إيمان القلب والجوارح ويرفضون طاعة الله ورسوله التي سبقهم إليها الناس ويدفعهم كبرياؤهم إلى اتهام المؤمنين والتجني عليهم . . كما قالوا لنوح عليه السلام : ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ ؟! (الشعراء /١١١) .

والسفه : ضعف الرأي وخفة العقل وقلة المعرفة بمواضع المنفعة والضرر . **والسفيه في نظر الناس اليوم هو الذي يضحي بمصلحته العاجلة في سبيل تطبيق أمر الله . . !!**

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ

هم السفهاء لأنهم لا يفكرون بما هو خير وأبقى ولا يتأملون العواقب البعيدة المدى ولا يمتد بصرهم إلى أبعد من ساعتهم التي يحيونها الآن . . إنهم هم السفهاء فقد حرموا أنفسهم من خيري الدنيا والآخرة .

وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

ولو كانوا من أصحاب الشهادات العليا فإنهم يجهلون التاريخ ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها . .﴾ (سورة محمد / ١٠) . وجهلهم بما هو خير وأبقى . . . هو الذي يجعل الآية تصفهم بعدم العلم . . وهل العلم مجرد المعرفة النظرية للأمور ؟ أم أنه دراسة بعض الجوانب المادية من الحياة ؟ ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ (العنكبوت /٧) .

إن الدراسات النظرية لا تصبح علماً حتى تتفاعل مع الواقع وتخطط له آخذة في حسابها العواقب السريعة والبعيدة المدى . . إن العلم هو إدراك السنن التي تمكّن الإنسان من التسخير . . بحيث يصل إلى سعادة الدنيا والآخرة بأقل التكاليف الممكنة . . إن المعرفة الصحيحة لا تصبح علماً عند الإنسان حتى تسيطر عليه فلا يستطيع مخالفتها . . (العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص) .

٥" - ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾

ذكر المفسرون أن الإشارة إلى ﴿شياطينهم﴾ في ذلك الوقت يقصد بها اليهود الذين كان لهم كيد متواصل في تأليب الناس على النبي والمؤمنين . والكلمة بعد ذلك عامة . فإن هؤلاء المنافقين يَتَلَوَّنون بحسب الظروف حرصاً على مصالحهم . .

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

لقد قاموا بالأسباب وطغوا فالله يمد لهم ويزيدهم طغياناً . واستهزؤوا بالمؤمنين فالله يستهزىء بهم ويتركهم يعمهون : أي يتخبطون في ضلالهم . والعَمه : هو عمى القلب وظلمة البصيرة .

وفي آيات أخرى يعرض علينا صورة من استهزاء الله بهم يوم القيامة : ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم . قيل ارجعوا وراءكم

فالتمسوا نوراً . فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير﴾ (الحديد /١٣-١٥) .

جـ - عاقبة المنافقين :

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾

كان الهدى مبذولاً لهم لكنهم اشتروا به الضلالة . . وهذا التعبير أبلغ من قوله (استبدلوا) لأن المشتري يكون قد قصد الربح بما اشترى . فما أشد غفلة هؤلاء التجار الذي يظنون أنهم أذكى من الجميع ويخدعون الجميع ويستأثرون بالمغانم . . وإذا بهم قد خسروا كل شيء . ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ (الكهف /١٠٢-١٠٥) . لوتأملنا صورة هؤلاء لوجدنا أن حرصهم على سلامة أنفسهم هو الذي يدفعهم إلى هذه التصرفات . . وهذا إحساس فطري عند كل إنسان : إنه يحب السلامة لنفسه . . ولكن هل يحصل الإنسان على سلامة نفسه وسلامة أسرته وأولاده إن لم يهتم بسلامة المجتمع ؟!

يقول مالك بن نبي رحمه الله في إحدى محاضراته في دمشق (بشيء من التصرف) :

[. . حتى إذا رجعنا إلى أنانيتنا - وأعوذ بالله من الأنانية - فيجب أن نعرف أن مصير الإنسان ليس بيده بل هو مقيد بأوضاع المجتمع الذي يعيش فيه . . فالمولود الذي تكون ولادته على ما أسميه : (محور واشنطن - موسكو . . بامتداده إلى طوكيو) . ما هو حظه في الحياة حسب الطريقة الإحصائية التي لا يستطيع أحد التلاعب بها ؟ إن حظه في الرعاية الصحية - حتى قبل أن يولد برعاية أمه عند الحمل - وفي التعليم . . وفي العمل

وهو رجل . . هذه الأمور تكون مهيأة له بنسبة تفوق ٩٠٪، أما إذا ولد على محور طنجة ـ جاكرتا فإن حظه في الرعاية الصحية بين ٣٠و٢٥٪ وحظه في التعليم ٤٠٪ وحظه في العمل أقل من ٢٠٪ . في الهند وحدها يوجد ٨٥ مليون عاطل عن العمل ـ وإذا ولد بالهند فسيكون له حظ أن يكون منبوذاً بنسبة ٢٥٪ . فالقضية ـ حتى إذا رجعنا إلى أنانيتنا وأردنا أن نحقق شروط حياتنا نحن وربما على حساب المجتمع فإننا لا نستطيع هذا إلا في حدود ضيقة جداً لأن المجتمع يفرض علينا أوضاعه . . فالقضية دائماً هي قضية (نحن) وليست قضية (أنا) . وليس هناك قضية (أنا) في العالم إلا في بيوتنا . . وفي الأمور التي يجب أن نستعين فيها بأنفسنا ومجهوداتنا . . فإذا أردنا الخير لأنفسنا يجب أن نريد الخير للمجتمع وأن نقوم بتقديم ما يقتضيه خير المجتمع . . لأننا سنكون تحت رحمته شئنا أم أبينا . .

وهذا المجتمع الإسلامي الذي نراه اليوم في خضم المعركة (الأيديولوجية) بين المجتمعات الأخرى . . نراه كسفينة تكتسحها الأمواج من كل جانب . . الموجة الصهيونية والإلحاد . . والشيوعية . . الخ . فسفينتنا مهددة بالغرق . . ويجب أن نعلن حالة الطوارىء ـ أو ما أسميه حالة إنقاذ ـ. ما هي صلة الإنسان الذي يجد نفسه على متن سفينة في حالة خطر مع باقي المسافرين . . حتى ولو كانوا على غير دينه . . في تلك الحالة ينبغي أن تتحد كل الجهود . . وأن يتطوع الركب كله في سبيل إنقاذ السفينة . وهذا يذكرنا بحديث رسول الله ﷺ الذي استعمل فيه صورة السفينة للتعبير عن المجتمع الإسلامي . . . «فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً . وإن أخذوا على أيديهم ـ أي منعوهم من الخرق ـ نجوا ونجوا جميعاً»[1]] .

فمتى يدرك المنافقون والانتهازيون والمرتزقة أن تجارتهم خاسرة ما لم يحاولوا تحقيق الربح للمجتمع . . وأنهم غرقى ما لم يحاولوا إنقاذ السفينة . . ؟!

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾

إلى الطريق الصحيح لحماية النفس . . وما أدركوا السبيل إلى ما هو خير وأبقى . ويضرب لهم مثلين :

(١) رواه البخاري .

د ـ مثلان للمنافقين :

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

شبّه انتقالهم من البصيرة إلى العمى بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وأبصر بها انطفأت ناره وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي . . وهو مع ذلك أصم وأعمى وأبكم

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

فكيف يهتدي إلى الطريق الصحيح . . ؟! وهكذا فإن تعطيل وسائل المعرفة يجعل الإنسان ضائعاً في الظلمات لا يملك (بوصلة) يحدد بها الاتجاه .

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾

كأنهم يمشون ـ في هذا المثل الثاني ـ في جو عاصف صاخب فيه **ظلمات** : الشك . . والكفر . . والنفاق . . والجهل . **ورعد** : كأنه يقصد به ما يزعج القلوب من الخوف الشديد لأنهم يحسبون كل صيحة عليهم ويتوقعون الفضيحة في كل لحظة . . **وبرق** : وهو ما يلمع في قلوبهم أحياناً من نور الإيمان أو التأثر بالآيات ثم ينطفىء . هؤلاء يخافون الموت ويخافون مواطن الشدة . ولا يعرفون كيف ينقذون أنفسهم، فهم كالنعامة تظن أنه يكفيها عند الخطر أن تخفي رأسها . . فهم يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا صوت الصاعقة ـ كالذين يقولون لا نريد أن نسمع حتى لا نتعذب ـ وقد أنذر الله بالعذاب كل من يخالف أمره فإذا أغلقوا أسماعهم عن هذا النذير فالسنة ماضية والهلاك محتوم وما يهلكون إلا أنفسهم حين يتجاهلون السنة والقانون .

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾

من جميع الجهات . فأين يفرون من قبضة الله ولا يملكون خروجاً منها . . ؟! لقد حسبوا حساباً لكل شيء وخافوا من كل شيء إلا من الله . . ؟! تلك هي الثقافة التي نحملها معنا أينما كنا . . ثقافة الوهم والخوف من كل شيء . . إلا ممن بيده كل شيء . . !!

﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾

كالذي يتعرض لنور قوي ثم يذهب النور فكأنه ذهب ببصره . .

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾

يقول ابن عباس : كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه . وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله تعالى : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة . . .﴾ [1] .

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾

إن عدم الانتفاع من نعم الله يستوجب الحرمان منها عقاباً من الله القدير فليحذروا . . قيل بأن المثلين لنوعين من المنافقين . . والمثل الأول للنوع الأشد نفاقاً وكأن نفاقهم في العقيدة والله أعلم .

---

(١) ذكره ابن كثير في الجزء الأول من تفسيره .

وهكذا نرى المشهد يصور ما هم عليه من ضلال واضطراب ورعب وحيرة . . هذا هو المرض النفسي الذي يعاني منه المنافقون . .

ولا تتغير الصورة الاجتماعية للقوم حتى تشفى هذه الأمراض النفسية . . ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد / ١١) . ومن هنا تبدو الضرورة الملحة لدراسة علم النفس والاجتماع لتغيير الثقافة المسيطرة على الأعماق . . وصياغة الإنسان وفق مفاهيم القرآن .

الفصل الثاني

دعوة عامة للإيمان
(٢١ ← ٢٩)

- عبادة الخالق .
- الايمان بالوحي وإعجاز القرآن .
- جزاء المؤمنين .
- مَثَل البعوضة .
- تعريف الفاسق .
- دليل البعث .
- تسخير الكون .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ
وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟
ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ
رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ
وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾
۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا
فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ

بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ
وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾
كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ
ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ
ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾



- ١ -

عبادة الخالق

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

بعد أن استعرض القرآن هذه الأصناف الثلاثة . يوجه النداء للناس كافة . . نداء نلمس فيه الرحمة والتلطف والاهتمام بشأن هذا الإنسان الغافل ومحاولة إنقاذه . .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾

فهي دعوة عالمية ونداء للبشر كافة أن يختاروا الصورة الكريمة المستقيمة الفعالة . .

. . وإن طريق الوصول إلى التقوى هو عبادة الرب سبحانه وتعالى . في كتاب المصطلحات الأربعة لأبي الأعلى المودودي تحديد للمعنى اللغوي والقرآني لأربع كلمات منها : الرب ـ والعبادة . نختصر منه المعاني الآتية للرب :

١ ـ المربي الكفيل بقضاء الحاجات والقائم بالتربية والتنشئة . ﴿معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾ (يوسف /٢٣) .

٢ ـ السيد الرئيس الذي يجتمع حوله قومه ﴿هو ربكم وإليه تحشرون﴾ (يونس /٣٤) .

٣ ـ السيد المطاع وصاحب السلطة النافذ الحكم . ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ (التوبة /٣١) .

٤ ـ المالك والسيد . . ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ (قريش /٣) .

وأما العبادة فيقول بأن الأصل في معناها : الخضوع والتذلل : أي استسلام المرء وانقياده لأحد غيره انقياداً لا مقاومة ولا عصيان معه . وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة . ويحدد لها ثلاثة معانٍ لغوية :

١ ـ العبد : المملوك خلاف الحر .

٢ ـ العبادة : الطاعة مع الخضوع . وقد استعملها القرآن بهذين المعنيين معاً : ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ (المؤمنون /٤٧) . ﴿وتلك نعمة تمنها علي أن عبَّدت بني إسرائيل﴾ (الشعراء /٢٢) . وتأتي بالمعنى الثاني فقط ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان﴾ (يس /٦٠) .

٣ ـ عبده : تنسك وتأله له . ويشمل هذا أشكال العبادة والشعائر والدعاء وطلب الحاجات . وكلاهما مقصود في قوله تعالى ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ (الأحقاف /٥-٦) .

وفي تفسير المنار شرح معنى العبادة في الإسلام بأنه : كل عمل غير محظور تحسن فيه النية لله تعالى فهو عبادة . . فالتوجه إلى الله وحده وابتغاء مرضاته هو المعنى الذي يجعل جميع الأعمال عبادة .

المهم أن الآيات تتضمن دعوة للناس جميعاً إلى دين الله وبيان أصوله وهي :

- توحيد الله خالق الإنسان والكون .
- الإيمان بالقرآن والتحدي به .
- نبوةُ محمد ﷺ الذي أنزل عليه الكتاب .
- الجزاء في الآخرة .

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

ذكر في المنار حول هذه الآية ما ملخصه : [إن الله لم يجعل ميزة خاصة للسلف فلم يعطهم ما لم يعط أحداً غيرهم فهم مخلوقون مثلكم . . ولقد أسبغ الله نعمه عليكم ووعدكم في القرآن ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ (إبراهيم /٧) . فقد ساوى بينكم وبين من قبلكم في المواهب الخَلْقية وكل النعم مقدورة لكم كما كانت مقدورة لمن قبلكم . فإذا زادوا على سلفهم شكراً يزادون نعماً وما الشكر إلا استعمال المواهب والنعم فيما وهبت لأجله . . فالذين يقولون إننا لا نقدر على فهم الدين بأنفسنا من الكتاب والسنة لأن عقولنا وأفهامنا ضعيفة وإنما علينا أن نأخذ بقول من قبلنا لأن عقولهم كانت أقوى وكانوا على فهم الدين أقدر . . بل لا يمكن أن يفهمه غيرهم . . أولئك كافرون بنعمة العقل وغير مهتدين بهذه الآية الناطقة بالمساواة في المواهب] .

يضع صاحب المنار هنا يده على مرض أصاب المسلمين وهو تقديس السلف أو بصورة أعم : مشكلة التجسيد .

والتجسيد هو الخلط بين الفكرة وصاحبها ، وعدم القدرة على فصل الفكرة وتجريدها للنظر في مدى أحقيتها وصلاحيتها . وإنما نقبل الفكرة أو نرفضها بحسب ثقتنا بقائلها . وهذا يؤدي إلى أخطاء فكرية كثيرة . منها :

١ ـ أن ثباته على الفكرة يكون نسبياً . . إذ أن الثبات النسبي يحصل في حالتين :

١" ـ عندما يحدث تنازع بين فكرة الإنسان وغرائزه أي بين المثل الأعلى والمصلحة العاجلة . فيثبت طالما أن ثباته لا يعرض مصالحه العاجلة لأي أذى .

٢" ـ أو عندما تكون الفكرة غامضة أو مجسدة . كما حدث في غزوة أحد إذ تراجع بعض المسلمين عن متابعة القتال عندما أشيع أن الرســول ﷺ قد مات . وكأنهم شعروا بانتهاء المهمة ووقوف الفكرة لانتهاء صاحبها . لهذا استنكر القرآن هذا الخلل

وربط الثبات بالفكرة لا بالرجل ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . ؟!﴾ (آل عمران /١٤٤) . وفي المقابل نجد الثبات المطلق عند الصحابي الذي جرَّد الفكرة عن حاملها . . فهو ينادي الهاربين : لماذا ترجعون ؟ فيقولون : إن الرسول قد مات !! فيقول : موتوا على ما مات عليه نبيكم . وفي موقف أبي بكر عند وفاة النبـي ﷺ حيث استطاع بإدراكه وثباته أن يرد الناس إلى الصواب فقد وقف يتلو الآية ويقول : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت[1] .

٢ - إن قدرته على إدراك الحق تكون ناقصة لأن الأشخاص ليسوا معصومين من الخطأ . . ولأنه ينظر إلى الموضوع من وجهة نظر واحدة ولا يحاول تأمل آراء الآخرين المخالفين لمن يثق به . يقول الغزالي في الإحياء : [فاعلم أن من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال . فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكاً طريق الحق][2] .

ولهذا ركز القرآن على ضرورة تجريد الحق عن الأشخاص في نصوص كثيرة . منها :

- ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ! تلك أمانيهم . قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (البقرة /١١١-١١٢) .

- ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب . كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (البقرة /١١٣) .

- ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (البقرة /٦٢) .

---

(١) هذا الموضوع مستوحى من بحث كتبه المرحوم هشام النحاس .

(٢) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ١ ، ص ٢٣ .

فالأسماء والانتماءات ليس لها شأن . . وإنما الشأن لما يحمله الإنسان من فكر وما يقوم به من عمل . **هكذا يعلمنا القرآن التجريد** .

ويقول في آيات أخرى واصفاً عباد الله : ﴿فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾ (الزمر /١٧ـ١٨) .

وإنني أسمع المسلمين يكررون في دعائهم : اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . . ولكن . . أحقاً وعوا ماذا يعني ذلك . . ؟

إن الله يريد منا أن نستمع القول من هنا وهناك . . أن نسمع للجميع إن أمكن . . ونختار الأحسن فنطبقه .

ولقد تحدث مالك بن نبي عن هذا الموضوع كثيراً . . وكان يقول : إذا قال العدو ١+١=٢ فيجب أن تكون لدينا القدرة على أن نقول : صدقت . وإن كنا لا نثق به ، وإذا قال من نثق به ١+١=٣ أن تكون لدينا القدرة على القول : أخطأ غفر الله له .

ويذكرني هذا بقول رسول الله ﷺ للصحـــابي الذي تولى حراسة بيت المال ثلاث ليالٍ يأتيه فيها من يحثو من المال مدعياً الفقر . . فيشفق عليه ويطلق سراحه على أن لا يعود . . والرسول ﷺ يقول له : كذبك وسيعود . . وفي المرة الثالثة يقول الأسير : إن أطلقتني علمتك شيئاً . . إذا أَوَيْتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال معك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فيقول الصحابي للرسول عندما يسأله : ما فعل أسيرك ؟ـ زعم أنه يعلمني شيئاً . . ويذكر له ما قال . فيبتسم ﷺ ويقـول : «صدقك وهو كذوب . ذاك شيطان» [(١)] .

٣ ـ وهنا نصل إلى أخطر نقطة في الموضوع . . وهي أن وجود هذا المرض في العالم الإسلامي هو الذي يسهل عمليات الصراع الفكري التي تقوم بها مراصد الاستعمار في عالمنا . . [(٢)] فلقد درس أعداؤنا ثقافتنا ومفاهيمنا . . وعرفوا مواضع الخلل في تناولنا

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) تناول مالك بن نبي الموضوع بتفصيل في كتابه : الصراع الفكري .

للأفكار . . فهم يتخذون أساليب فنية عجيبة لتحطيم الأفكار الحيوية التي تظهر وتوشك أن تزعج النوم العام في عالمنا . وذلك بتسليط أضواء خاصة على أصحاب هذه الأفكار . . ويختلقون لهم المآزق . . وقد يلتقطون لهم صوراً مورِّطة . . ويلفقون بعضها لإثارة الشكوك والتهم . وكم نجحوا في صرف الناس عن مؤلفات وكتب قيمة وحيوية .

أذكر في هذا المجال أنني سئلت مرات :ـ كيف تقرأين تفسير المنار وتأخذين منه ومحمد عبده ماسوني ؟! ولربما اهتمت بعض الأخوات ممن شهدن هذا الموقف بالأمر وعبرن عن رغبتهن في التحقق : أهو ماسوني فعلاً أم لا ؟! لكنني كنت أشعر أن الذي ينبغي أن يشغل ذهني واهتمامي أكثر هو الوصول إلى مستوى السماع للجميع والقدرة على اختيار الفكرة الأصوب والأحسن . ولا يهم إن كان ماسونياً أم لا ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ (البقرة / ١٤١) .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن النبي ﷺ عرف خطورة التجسيد وأوصى المسلم أن يتجنب مواضع التهم وأن يكون واضحاً مستقيماً حتى لا يسيء إلى الفكرة التي يحملها دون أن يشعر . فلقد قال للرجلين من الأنصار عندما رأياه مع صفية : «على رسلكما إنما هي صفية بنت حيي» . فقالا : سبحان الله . . ؟! وكَبُر عليهما فقال ﷺ : «إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً» [1] .

ولكن لا يمكن أن يعصم المسلم من الخطأ وإن احتاط . . لهذا ينبغي التكرار والتأكيد على الناس حتى لا يخلطوا بين المسلم والإسلام . . الإسلام دين الله لا يخطىء . . أما نحن المسلمون فإننا بشر نخطىء ونصيب . . وهذا ليس سهلاً فكم من الناس نفر من الإسلام بسبب أخطاء بعض مشايخ المسلمين وعلمائهم . . وحتى العالم الغربي ربما أعرض عن الإسلام لما يرى من الصورة المزرية المعاصرة للمسلمين .

---

(١) رواه البخاري في الاعتكاف .

حدث مرة ـ وأنا منهمكة في بحث موضوع التقليد وهو ذو علاقة وثيقة بالتجسيد ـ أن دخل عليَّ ابني ـ وكان في العاشرة من عمره تقريباً ـ وذكر لي أن أحد الشباب الطيبين كان يحدثه في المسجد ويبرهن له على ضرورة الالتزام بشيخ وعدم السماع لغيره حتى لا يتشتت القلب وذكر له العبارة المشهورة : من لا شيخ له فالشيطان شيخه [1] .

عندها شعرت بشيء من خطورة المأساة . فالمسألة ليست في أن نحصن أنفسنا ونخلصها من هذا الوباء وإنما علينا أيضاً أن نكشف اللقاح الواقي لنحصن به أولادنا . . فكيف نعطي الحصانة لأولادنا في مجتمع لا يأخذ الفكرة إلا مجسدة . . ؟! وكيف أعطيه الجواب المناسب بحيث أصل إلى هدفين : تعريفه بطريق الحق ، مع إبقائه مفتوحاً تجاه المسلمين قادراً على السماع لهم واحترامهم . . واختيار الحسن من كل طرف . . ؟!

شعرت بالمأساة لأنني لا أعرف (كيف) . . ولم أدرس الدراسة الكافية لأعرف كيف أعالج هذه المشكلة . . ومع ذلك كان لا بد من أن أجتهد في الأمر بقدر ما أستطيع فقلت :ـ اتفقنا لا بد لنا من شيخ . . ولكن ينبغي أن نبحث عن شيخ لا يخطىء . . وبعد محاورة بسيطة . . أطرق يفكر باحثاً في ذهنه ثم قال :

ـ كل الناس يخطئون . . !
قلت :ـ أليس هناك مَن لا يخطىء ؟
وفكر مرة أخرى ثم لمعت عيناه وصاح :
ـ القرآن لا يخطىء . . وسنة الرسول ﷺ . .

---

(١) في الإحياء صفحة ٢٢ من الجزء الأول . قال الجنيد رحمه الله : قال لي شيخي يوماً : إذا قمت من عندي فمن تجالس ؟ قلت : المحاسبي. فقال : نعم خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه الكلام ورده على المتكلمين. ثم لما وليت سمعته يقول : جعلك الله صاحب حديث صوفياً ولا جعلك صوفياً صاحب حديث . أشار إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه . . . هذا كلام أئمة الصوفيين فتأمل حال المعاصرين . . ؟!!

وكنت أعرف أن هذا حل مؤقت . . والمشكلة لم تحل بالشكل الكافي . فلو قُدِّر لابني أن يحتك بجميع الجماعات الإسلامية لوجد أن كل جماعة تدعي أنها على القرآن والسنة لا تحيد عنهما قيد شعرة . . لأن كل جماعة قد فهمت القرآن والسنة كما تريد . . والذي لا يفهم في الحساب لا يستطيع أن يعرف أيهما على حق أهو الذي يقول : ٢+٢=٤ أم الذي يقول : ٢+٢=٥ ؟!!

فالمشكلة هي فقدان العلم - كما أخبر رسول الله ﷺ - وكلما تقدم العلم فإنه يصحح لنا فهمنا للقرآن والسنة . لأن فهمنا هو الذي يحدث فيه الخطأ. والله سبحانه وتعالى يوجهنا ﴿وقل رب زدني علماً﴾ (طه /١١٤) ، ﴿وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾ (الكهف /٢٤) . ويقول لنا إن آيات الآفاق والأنفس (العلوم بفروعها) هي التي تفسر لنا القرآن ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (فصلت /٥٣) . وطالما أننا لا نهتدي بآيات الآفاق والأنفس . . فستبقى كل جماعة من الجماعات لا ترى الحق إلا كما يتصوره رئيسها أو شيخها . . وتستنكر ما سواه .

إن هذا كله يدل على أننا نعيش في مرحلة طفولة فكرية . . هي مرحلة الأشخاص . بحيث أن الفكرة لا تمشي عندنا بدون عكاز (شخص موثوق به) .

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ

. . ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ (تبارك /٣) .

وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

التذكير بنعمة الماء ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي ..﴾ (الأنبياء / ٣٠) . وإخراج الثمرات مختلف أشكالها وألوانها . .

إن الذي صنع هذه الآيات أحق بالعبادة والطاعة فكيف تجعلون له أنداداً . ؟!

فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا

الأنداد جمع ند : وهو الشريك والكفء . وأنتم تعلمون . ولو سئلتم : من خلقكم ؟ من يرزقكم ؟ من يدبر الأمر ؟ ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله﴾ (لقمان / ٢٤) . فلماذا تستغيثون وتدعون غير الله . ؟! ولماذا تخضعون لغير الله في المبادىء والنظم والقوانين ؟! لماذا تجعلون له أنداداً . . بل وتفضلون أمرهم على أمر الله وتقدمون ظنونهم على سنن الله وآياته في الآفاق والأنفس ؟! فتجعلونه أقل الأنداد تعظيماً عندكم . . !!

ولقد كانوا يبررون أعمالهم : ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ (الزمر /٣) . . ﴿كنا مستضعفين في الأرض﴾ (النساء /٩٧) . . ﴿إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾ (الأحزاب /٦٧) . إلى غير ذلك من المبررات التي تكشف عن جهلهم وضعفهم . .

عن ابن عباس في هذه الآية قال : **الأنداد** : هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل . وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي . . وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت . وقول الرجل : لولا الله وفلان . . لا تجعل فيها فلاناً . هذا كله به شرك[1] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير .

إنها عملية تنقية للإخلاص من كل الشوائب حتى يصبح القلب خالصاً لله وحده . وكما يقول صاحب الإحياء : من الرياء الخفي : أن يُسَرَّ إذا اطلع الناس على طاعته . فمن ينجو . . ؟! ولا يخفف عنا إلا قول رسول الله (ﷺ) : «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»[1] .

■ ٢ ■

الايمان بالوحي وإعجاز القرآن

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

يتحداهم بآيات الكتاب بعد أن تحداهم بآيات الكون . وهذه الآية مدنية وقد سبقتها آيات مكيات في هذا التحدي . . وعلى ثلاث مراحل :

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (الإسراء/٨٨) .

﴿أم يقولون افتراه . . ! قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ (هود /١٣) .

﴿أم يقولون افتراه . ! قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (يونس /٣٨) .

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه على شرطهما .

فتحداهم أن يأتوا بمثله . . ثم أن يأتوا بعشر سور مثله . . ثم بسورة مثله . .
ولقد كانت المعجزات تأتي مع الأنبياء . بحسب الفن الذي مهرت به كل أمة . .
فكانت عصا موسى لقوم شاع فيهم السحر . . وإبراء الأكمه والأبرص و . . . مع عيسى لقوم شاع فيهم الطب . . وكان القرآن لقوم برعوا في البلاغة والأدب في عصر محمد ﷺ . . وللبشرية كلها إلى يوم الدين . . وهي ترتقي في العلم والرشد . . وتزداد رؤية لآيات الآفاق والأنفس . .

لقد حمل القرآن إعجازاً فوق مستوى معاصري الرسول محمد ﷺ . . وهو الإعجاز العلمي ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ . .
وقد بدأ الناس يدركون بعض جوانب هذا التحدي القرآني . . في التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والنفسي . . وحتى في تحقيق السلامة والوقاية للجسم الإنساني . .

إن القرآن هو المعجزة الباقية ، بينما اندثرت معجزات الأنبياء . . وهو الذي خاطب العقل ولم يحاول قهره . . وهذا ما يتناسب مع رقي البشر وتقدمهم في العلم والفكر . ولهذا رجا النبي محمـــد ﷺ أن يكون أكثر الأنبياء أتباعاً يوم القيامة .

إنه الكتاب الذي لا يفقد طلاوته وحلاوته . . يتحدث عن العلوم فلا يصيبه جفافها . ويتحدث عن الأحوال الشخصية بآيات مليئة بنداوة التقوى وشفافية الضمير .
ويتحدث في المال والاقتصاد فلا يخالطه الفتور والبرود . . وإنـــه لا يهمل تربية الضمير والفكر في كل ذلك . . ولا يترك أحاسيس الإنسان ويعرض عنها . . إنه كتاب العليم الخبير الذي تعلقت به أرواح المؤمنين . . وخالطت آياته شغاف قلوبهم . . فلا يتخلى عنهم في أي خطوة منَ الطريق .

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا

يقرر إنزال الوحي على رسول الله ﷺ ويصفه بالعبودية لله . . فهو عبد الله ورسوله لا أكثر ولا أقل . . وفي قوله تعالى : ﴿عبدنا﴾ من التكريم والتقريب ما يكفي . .

فإن حدث الشك والريب في حقيقة القرآن فإن هذا لا يكفي للإنكار . ولا بد من البرهان والدليل القاطع الذي يحوّل الشك الى يقين . .

فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ

بل

وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم

الذين يشهدون لكم بأنكم جئتم بمثله . .

وهذا تدريب للناس على الموقف العلمي . . إذ أنه :

١ ـ لا يجوز لك أن تنكر شيئاً بدون دليل .

٢ ـ لا بد أن ترجع لأصحاب الاختصاص وتطلب شهادتهم ورأيهم في الموضوع . فإن شهدوا بأن دليلك صحيح عندها يمكن قبوله .

وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾

إن كنتم صادقين في طلب الحقيقة . . وفي عرض الدليل .

ولقد ظل هذا التحدي قائماً . . ولم يشهد المختصون في البلاغة واللغة والأدب والاجتماع و . . . . بأن هناك كلاماً أو كتاباً يماثل القرآن .

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟

وهذا النفي والجزم الذي يتناول المستقبل لا يمكن أن يكون صادراً عن بشر . . ولكنه التحدي الصادر من العليم الخبير . .

يقول محمد أسد : [ليس من شخص بعيد عن الهوى يجادل في الإسلام ليزعم أن فيه شيئاً مخالفاً للعقل . إلا أنه مما لا شك فيه أن ثمة أشياء وراء حدود العقل الإنساني ، ولكنها لا تخالفه] [١] .

---

(١) محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق ، ص ١٠١ .

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قرن الله سبحانه بين الكفار والحجارة لأن نفوسهم كالحجارة لا تهتز لروعة القرآن. ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله . .﴾ (البقرة / ٧٤) . قلوب جامدة وعقول متحجرة لا تفكر ولا تتأمل في آيات الكون وآيات الكتاب . . فهم والحجارة سواء . .

إن المشهد سريع خاطف فتأملوه . . وانظروا إلى النار وهي تأكل الحجارة . . فكيف حال البشر معها وهم من لحم ودم . . ؟ !

والذين يسخرون ويتعجبون . . أين هي النار . .؟ وكيف لا تنطفىء ؟! هل رأوا ملك الله العريض؟ وهل فحصوا كل شيء فيه ؟

إن علماء الفلك يقولون : إن مجموعتنا الشمسية تمثل ذرة في مجرتنا التي تحوي على (١٠٠ ٠٠٠) مليون نجم . . وفي الكون من أمثال مجرتنا(١٠٠٠) مليون مجرة . . وقد يأتي يوم يكشفون فيه المزيد من بعض آفاق ملك الله العريض . .

والذي يستغرب وصف القرآن للنار فلينظر إلى الشمس التي يراها كل يوم . . إن حرارة مركزها كما يقول العلماء (٢٠) مليون درجة مئوية . . وهناك من النجوم المشتعلة ما هو أكبر من الشمس بحيث تبدو الشمس أمامه كالذرة . .

ولئن كان عجيباً أن يوجد أناس لا يؤمنون بجهنم لأنهم يحكمون على قدرة الله بما لديهم من قدرة . . فأعجب من ذلك أن يؤمن المسلم بالنار ولا يدفعه إيمانه إلى أن يحسب لها حساباً . . ؟ !

ولقد كان الإيمان باليوم الآخر وتصوره عند الصحابي هو الدافع المحرك للبذل والجهاد . . فهذا أنس بن النضر يندفع يوم أحد إلىٰ قلب المعركة متلهفاً وهو يقول : والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد . .

والآخر يبكي حين يُرَدُّ عن المعركة بسبب عرجته . . ويلح ويصرّ على اقتحامها قائلاً : والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة .

والثالث يصيح متهللاً حين يصيبه سهم في صدره : فزت ورب الكعبة . . بينما المسلم اليوم في خدر وغفلة عن اليوم الآخر . . . ولئن ذكِّر به أقنع نفسه بأنه ولله الحمد مؤمن . . وجهنم هذه للكافرين . .

والرسـول ﷺ يقول : «أنا فرطكم على الحوض من ورد شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً وليرِدَنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم فأقول : إنهم مني ! ! فيقال : إنك لا تدري ما عملوا بعدك . فأقول : سحقاً سحقاً لمن بدَّل بعدي»[1] كيف يأمن المسلم ورسول الله ﷺ يقـول : «يقول الله عز وجل : يا آدم . فيقول : لبيك وسعديك والخير في يديك . قال : يقول أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . قال : فذاك حين يشيب الصغير ﴿وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾[2] (الحج/٢) .

الآيات هنا تتحدث عن الترهيب والترغيب . والرهبة والرغبة هي أحد دوافع الحركة . . [وفعالية الإنسان وتوتره يكون في أقصى مداه كلما كان يقينه صادقاً فيما يطلبه ، وكلما كان ما يطلبه عزيزاً وما يهرب منه شراً كبيراً . وهذا ينطبق على كل عمل يقوم به الإنسان من العناية التي يبذلها الطالب في أداء وظيفته المدرسية إلىٰ المصابرة والمرابطة في القتال . لهذا لما سوىٰ الله بين الناس في الرغائب والمخاوف . . ميّز المؤمنين

---

(١)- رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري .
(٢)- رواه مسلم عن أبي سعيد .

بأن رغائبهم ومخاوفهم تتعلق بأشياء لا يملكها غير المؤمنين . فقال تعالى : ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ (النساء / ١٠٤) . ولا بد من التوازن الصحيح بين الخوف والرجاء لأن كلاً منهما إن زاد عن حده انقلب إلىٰ ضده فتتحول شدة الخوف إلى اليأس كما تتحول غلبة الرجاء إلىٰ الأمن والغرور . وكل منهما يبطل الفعالية ويهبط من مستوى التوتر . وكل منهما مذموم في القرآن أشد الذم ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ (يوسف ٨٧) . كما لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . وإذا نظرنا إلىٰ المسلمين بهذا المنظار نجدهم طرفي نقيض : فإما أن تجد الذي بلغ اليأس به إلى حد لا يخطر له رجاء في عودة الحياة الإسلامية بجهد الناس . وإما أن تجد الذي بلغ به الأمن والطمأنينة في أن المسلمين ليسوا محاطين بشيء من الأخطار . فهو يكرر القول الشائع : أمة محمد بخير . . وقلَّ أن تجد الإنسان الذي يشعر بالخطر الحقيقي ويدرك الأمل الصحيح في النجاح . . . وهذا ما يجعل المسلمين لا فعالية عندهم . .][1] .

فالشروط الكافية لجعل (الترهيب والترغيب) يؤتي ثماره ويحدث الفعالية عند الإنسان :

١ ـ كلما كان يقينه صادقاً فيما يطلبه . . كان توتره أعلىٰ .

٢ ـ كلما كان ما يطلبه عزيزاً وما يهرب منه شراً كبيراً .

٣ ـ التوازن بين الخوف والرجاء فلا يغلب أحدهما على الآخر . حتى لا يحدث الاستصعاب أو الاستسهال (أي اليأس أو الأمن) . وحالة التوازن هذه يمكن تصويرها بنفسية عمر الذي قال بأنه لو علم أن أهل الأرض كلهم دخلوا الجنة إلا رجلاً واحداً لخاف أن يكون هو هذا الرجل . ولو علم أن أهل الأرض كلهم يدخلون النار إلا رجلاً واحداً لطمع أن يكون هو هذا الرجل . ولكن متى يتخلص الإنسان من الاستصعاب والاستسهال ؟ ! إنه لا يتخلص من ذلك إلا إذا عرف الطريق الصحيحة للنجاة وكشف

---

(١) ـ الإنسان حين يكون كَلّاً وحين يكون عدلاً ، تأليف جودت سعيد ، صفحة ٣٨ .

الجهد اللازم الذي ينبغي أن يبذله حتى يصل إلى الهدف . ولهذا نضيف شرطاً رابعاً لحدوث التوتر والفعالية :

٤ ـ كشف الجهد اللازم بذله للخلاص مما نخاف والوصول إلى ما نريد .

بقيت لدينا ملاحظات نشير إليها بشأن موضوع الترهيب والترغيب في القرآن :

١ ـ كان الترهيب والترغيب أحد الأساليب التي استخدمها الله سبحانه في توجيه الإنسان وتحريكه ولم يكن هو الأسلوب الوحيد .

٢ ـ والترهيب والترغيب القرآني لم يكن قاصراً على نتائج الآخرة بل تناول نتائج الدنيا أيضاً ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلُ . . . .﴾ (الروم/٤٢) .

٣ ـ والنعيم والعذاب ـ فيما يتعلق بالدنيا والآخرة ـ في القرآن لا يقتصران على الجسم والغرائز والشهوات وإنما يتناول الهناء النفسي والكرامة الإنسانية . ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمىٰ﴾ (طه /١٢٤) .

٤ ـ من الأساليب الأخرى التي اهتم بها القرآن ـ غير الترهيب والترغيب ـ مخاطبة العقل وعرض الحقائق وأدلتها عليه . . ﴿أفلا تعقلون﴾ .

فهو يعرض حقائق العقيدة على العقل . . ثم يطالبه بتأمل أوامر الله وينظر في أحوال الذين يخالفونها والمشكلات والأزمات التي يتعرضون لها . . ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم . والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾(النساء /٢٦ ـ ٢٨) . إنه يطالب العقل أن يتأمل ويقارن بين من يتبع أسلوب الحياة القرآني ومن يخالفه . . ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمَّن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ (الملك /٢٢) ؟ !

٥ ـ وهذا الإدراك الواعي لنظام الإسلام وتميزه عن النظم الأخرى هو الذي يهيىء المسلم لأن يحمل رسالة عالمية ويعطيه مسوّغاً آخر للحركة ـ بالإضافة إلىٰ الترهيب

والترغيب ـ وهو الشعور بأنه يملك شيئاً يفتقر إليه الآخرون . . ولقد كان الجندي البسيط في جيش المسلمين يشعر بأنه قد خرج في الأرض مجاهداً ليخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور وليحرر الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد . ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ (النساء/ ٧٥) . ولقد حاول مالك بن نبي في (دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين) . . أن يحرك فعالية المسلم بإعطائه مسوِّغ الحركة بحيث يشعر أن العالم مفتقر إلىٰ القيم الأخلاقية التي يملكها . . وأن عليه أن يتحرك لينقذ الآخرين بها .

٦ ـ اهتم القرآن بإبراز جهد الإنسان . . وتحدث عن تسخير السموات والأرض لهذا الإنسان . وأشعره بأنه يملك التغيير ويستطيع أن يخلص نفسه من النار . فإذا اجتهد وأقنع آخرين وغيروا أفكارهم وأعمالهم فإن الله يوفقهم ويكلل جهودهم بالنجاح حتى في الدنيا .

ولعل العقبة الكؤود التي حالت بين المسلم والحركة منذ أجيال : هي فهمه الخاطىء لإرادة الله وقدره وظنه أن الأمر بيد الله وأن الإنسان لا يستطيع أن يغير شيئاً .

ولقد عالج جودت سعيد في كتابه : (حتى يغيروا ما بأنفسهم) هذه العقبة وحاول تحرير المسلم منها .

٧ ـ وكما أن الطفل لا يُربىٰ بالعصا . . ولا بإثارة خوفه وطمعه فحسب . وإن رُبيّ بهذا الأسلوب فإنه لن يكون في كبره إلا صورة مشوهة للإنسان . . وكذلك فإن الدعاة إلىٰ الله ينبغي أن لا يقتصروا في دعوتهم وتوجيههم للناس على جانب الترهيب والترغيب . إن عملاً من هذا النوع لا يعطي إلا صوراً (كاريكاتورية) عن المسلم بحيث يتضخم فيه أحد الجوانب وتضمر الجوانب الأخرى .

٨ ـ حين يقتصر التوجيه على الترغيب والترهيب من الآخرة . . فإن التنازع بين الشهوات والمثل الأعلى يبقى مستمراً . . وقد تتغلب الشهوات لمجرد الانقطاع عن

دروس الترهيب والترغيب . . لكن هذا التنازع يضمحل ويزول شيئاً فشيئاً كلما درس الإنسان وكشف ما هو خير وأبقى في حياته الدنيا . . لأنه عندها يكشف تدريجياً انطباق رغباته ومصالحه الدنيوية على الأوامر القرآنية . . فيحدث التلاؤم والتوازن في النفس الإنسانية . ويزيده هذا إخلاصاً لمثله الأعلى والتزاماً به .

■ ٣ ■

جزاء المؤمنين

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

في قوله تعالى :

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ

بشرى للمؤمنين بالحدائق الخضراء الناضرة . . تتدفق فيها الأنهار العذبة . . وتتدلى من أشجارها الثمار اليانعة . .

كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ

فهي تشبه أشكال ثمار الدنيا . . أو أسماءها ولكنها مختلفة عنها في الطعم والنكهة . يقول ابن عباس : (ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء) . أو أن حياة الجنة حافلة بالمفاجآت والمداعبة اللطيفة المتجددة بحيث يؤتون مرة بعد أخرى بثمار متشابهة في المظهر فإذا بها مختلفة في الطعم . . وهكذا يبدو نعيم الآخرة متجدداً لاينغصه السأم والملل .

وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ

من الخبث والقذر المادي والمعنوي .

وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

لمن هذا الخلود . . وهذا النعيم ؟

لكل من جاء بالشرطين اللذين نصت عليهما الآية : الإيمان + العمل الصالح . وبتعبير آخر يمكن أن نقول لمن حاز الإخلاص والصواب .

الإخلاص والصواب :

فالعمل لا يكون ناجحاً في الدنيا ومقبولاً في الآخرة إلا إذا توفر فيه الإخلاص والصواب .

الإخلاص : أن لا تشرك بعبادة الله أحداً وأن لا تبتغي من عملك سوىٰ مرضاة الله .

والصواب : أن يكون العمل موافقاً لآيات الله الشرعية والكونية . وسماه القرآن : العمل الصالح كما سماه الإحسان .

وقد نص القرآن على هذه القاعدة في آيات كثيرة منها :

١ - ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً**﴾(الكهف/ ١١٠) .

٢ - ﴿**بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ (البقرة/١١٢) .

٣ - ﴿**ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثىٰ وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة . .**﴾ (النساء/١٢٤) . والقاعدة يمكن تطبيقها في جانبين :

١ - **الأمور التعبدية** : فلا تقبل العبادة إلا بتوفر الشرطين معاً . يقول عمر بن عبد العزيز : (من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح) .

وقد حدث أن عبد الله بن مسعود وجد جماعة في المسجد وبأيديهم حصىً يسبحون بها . . وبإيعاز من أحدهم فيقول : سبحوا مائة فيسبحون . . كبروا مائة فيكبرون . فأنكر عليهم عبد الله ما أحدثوا إنكاراً شديداً . فقالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير . قال : (وكم من مريد للخير لن يصيبه)[1] .

٢ - **الأمور الدنيوية** : أي في تحسين أحوال المعيشة . كالزراعة والصناعة والتربية . . .

ولكن ما معنى الإخلاص والصواب في هذا الجانب ؟

الإخلاص أن تكون محباً للعمل مريداً له .

والصواب : معرفة سنن الله في الكون وآياته في الآفاق وفي الأنفس واستخدامها لتحسين العمل . وهذا الجانب تركه الله لنا لنبحث عنه ونكشفه خلافاً لما في العبادات حيث بينها لنا وفصّل في كيفيتها فكان الصواب هو ما بيّن الله ورسوله فيها .

---

(١) - رواه الدارمي ١/٦٨ مفصلاً في سننه بإسناد صحيح .

ومعرفة السنن والاستفادة منها موضوع أبرزه القرآن تحت اسم التسخير . ﴿مسخرات بأمره﴾ . **والمسخَّر** : هو الذي يخدمك ويطيعك بدون أجر مقابل . وقد نتساءل : إن الكون مسخَّر الآن لغير المسلمين . . فلماذا لا يتسخَّر لنا . . . ؟! إن الذي لا يعرف سنن الكون لا يتسخر له شيء منه . . بل إنه يصبح هو أيضاً من جملة المسخَّرات لمن كشف وعلم . . ولهذا تلعب بنا الدول الكبرى الآن كما تشاء . . أي أن العمل قد ينجح في الدنيا ولو كان فاعله محروماً من الآخرة إذا توفر في فاعله الحب للعمل وفهم سننه . ﴿**من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مـدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلًّا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً**﴾ (الإسراء/١٧ ـ ٢٠) . وإن الله ليعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب . لكنه لا يعطي الآخرة إلا لمن يحب .

وأبرز مثال على ضرورة الشرطين في هذا المجال : الأم التي لا يمكن أن نتهمها بفقدان الحب لولدها ، لكنها لا تستطيع تخليصه من الأمراض وتربيته التربية الناجحة إن لم تكن تعرف قواعد التربية والصحة .

وقد يرد اعتراض هنا : بأنه كم من أفراد ناجحين أسوياء خرجوا من بيئات جاهلة . . وكم من فاسدين خرجوا من بيئات صالحة . . فكيف نفسر ذلك . . ؟ !

إن هذه الأمثلة تشكل شذوذاً لا بد منه في كل قاعدة . والموضوع يتضح أكثر بالمقارنة بين النتائج في قريتين : الأولى وضعت لها المشاريع لتعليمها ورفع مستواها ونفذت . . والثانية تركت لشأنها . . فإننا نجد أن أكثرية السكان في الأولى يتخلصون من الجهل مع بقاء أقلية متخلفة . . بينما أكثرية السكان في الثانية استمروا في جهلهم وتخلفهم مع ظهور بعض النوابغ الذين اعتمدوا على أنفسهم وتعلموا .

ولعل هذه النتيجة التي توصلنا إليها تضايق الآباء والأمهات لأنها تسد في وجوههم سبيل الانفلات من المسؤولية عن أخطاء أبنائهم . . فلقد مضى علينا زمن طويل ونحن

نعلل النفس بأن الأمور ليست بأيدينا . . وهذا ابن نوح ـ عليه السلام ـ قد كان كافراً . . !! فالمشكلة بالنسبة لنا أننا نرى الأمور مقلوبة فتصبح الشواذ هي القاعدة . وهكذا تستمر الأوضاع المؤلمة لإنسان يمشي على رأسه . .

كذلك إن فقدان الإخلاص في الحضارة الغربية في وضعها الراهن ـ وقد بلغت في التسخير المادي شأواً بعيداً ـ أوجد في العالم أزمات خطيرة منها : الاستعمار والمجاعات . . والحروب . . إن فقدان الضمير في العالم الغربي قد جعل مصير العالم في كف عفريت[1] .

إن جهلنا بالطريقة الصحيحة التي يخدم بها الإسلام يجعلنا عاجزين عن تحقيق شيء في هذا المجال ـ مهما كان حبنا له قوياً ـ بل إن الجهل قد يؤدي إلى الإضرار بالقضية التي نريد خدمتها . ولقد أثار الخوارج في الماضي الفتن وسفكوا دماء المسلمين ونغصوا حياة العالم الإسلامي . . يدفعهم إلىٰ ذلك الرغبة في حماية الإسلام . . وقد شهد لهم علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بذلك حين سئل عنهم : أكفارٌ هم ؟ فقال : من الكفر قد فروا . . ! وبعض الصوفيين الذين بالغوا في التصوف والزهد حباً لله وحرصاً على رضاه . . ألم يخلِّفوا في العالم الإسلامي موجات انعزالية ساهمت في القضاء على حضارة المسلمين وتركت الدنيا للأمم الأخرى تستأثر بها وتمتص أرزاق المستضعفين . . ؟ !

وفي الوقت الذي عجز فيه العالم الإسلامي عن بعث نهضته لأنه لم يعرف (كيف) يحقق ذلك . . فإن العالم الغربي بدأ يتخلخل كيانه رغم القمة التي وصل إليها في معرفة (كيف) لكنه أصبح يعاني من فقدان المبررات والأهداف . . أي (لماذا) أعيش ؟ ! لماذا أعمل . . ؟ ! (أي فقد إخلاصه) . . ففي عالم مترع بالرفاهية بدأت تتصاعد إحصائيات الانتحار والأمراض العصبية والنفسية وحوادث الشذوذ والإجرام .

إن المثل الأعلى حين يكون خاطئاً ويرفق بطريقة صحيحة لخدمته . . قد ينجح في الدنيا لكن نجاحه مؤقت ولا بد أن يتردى ويتهاوى بعد ذلك . أما النجاح الراسخ فهو

---

(١) ـ راجع كتاب العمل قدرة وإرادة تأليف جودت سعيد فقد توسع في بحث الموضوع .

لأصحاب المثل الأعلى الصحيح والطريقة الصحيحة في خدمته .

وقد حدثنا القرآن عن الحضارة التي وصل إليها سليمان وقومه حتى أنه تمكن من تسخير الرياح والطير والجن . . وعن ذي القرنين ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً﴾ (الكهف /٨٤ـ ٨٥) ، فساح في الأرض يحرر الناس ويمد يد العون للمستضعفين . . ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ (النور /٥٥) . هذا وعد الله لكل أمة استوفت الشرطين : الإيمان والعمل الصالح (الإخلاص والصواب) ، وما كان الله ليخلف وعده . . فيا أمة الإسلام ابحثي عن موضع الخلل وتداركيه . .

هل النقص في الإخلاص أم الصواب ؟

في العالم الإسلامي : ما نسبة الذين يحبون الإسلام ؟ وما نسبة الذين درسوا آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس واستخدموا هذه الدراسات في أعمال إسلامية . . ؟ ! (فذاك هو الصواب ثم التسخير) .

هل قمنا بإحصاءات في هذين المجالين . . ؟

حتىٰ الآن لا نملك إحصاءات في ذلك . . وعلينا أن لا نتسرع في الخوض في طريق وعرة خطيرة حذرنا منها رسول الله ﷺ حين قال لأسامة «أشققت عن قلبه» ؟ ! فالرسول ﷺ يحذرنا من أن نتهم إنساناً بإخلاصه لأن القلوب علمها عند الله ولا يتجرأ مؤمن وعى توجيهات النبي ﷺ في هذا الموضوع ـ وهي كثيرة لا مجال لذكرها الآن ـ أن يلوك التهم بالكفر أو الخيانة والعمالة . وحسبنا أن نرى حب الجماهير للإسلام . . وتعلقهم بالأعياد الإسلامية . . ودموعهم تحرقاً إلىٰ الإسلام . .

أما حين نتساءل : أين الذين درسوا وتعلموا وكشفوا وعرفوا كيف يخدمون الإسلام . . ؟ فهنا نجد الميدان مقفراً .

وحسبنا أن نعلم أنه حتىٰ الآن لم توجد في العالم الإسلامي المدارس ، ولم يوجد الدعاة الذين يقومون بتدريس القرآن وتدبره من أوله إلىٰ آخره . فضلاً عن أن يشعروا بضرورة دراسة آيات الآفاق والأنفس . . ! ! (أي العلوم المادية والإنسانية) .

ملاحظات أخيرة في الموضوع :

١ ـ أيهما يأتي أولاً : الإخلاص أم الصواب ؟

هل يمكن أن يخلص الإنسان لمبدأ لم يقتنع بصلاحيته ؟

إن القرآن المكي عرض المثل الأعلى (الجانب العقائدي والأخلاقي من الإسلام) على عقل الإنسان . فاقتنعت به فئة من الناس فآمنوا به وأخلصوا له . . ثم جاء القرآن المدني فصار يعلمهم كيف يحققون مجتمعاً ربانياً أي جاءهم بمزيد من الصواب . فالمسلم بدأ من الصواب ـ حين اختار المثل الأعلى الجيد ـ فانبثق منه الإخلاص والإيمان ثم إن هذا الإخلاص كان يدفعه باستمرار إلى معرفة الصواب ـ فصار يسأل عن أمور دنياه كيف يتصرف بها ـ وكلما ازداد علماً كان يزداد إخلاصاً للإسلام . . كما قال الصحابي : (أوتينا الإيمان قبل أن نؤتى القرآن فلما أوتينا القرآن ازددنا إيماناً) أي أنهم لما آمنوا كانت الآيات التي نزلت من القرآن قليلة تأمرهم بالتفكير والتأمل لرؤية الحق في هذا المبدأ . فإذا استعملنا مصطلحات (القدرة والإرادة) يمكن أن نقول : إن الإنسان يبدأ من القدرة الفهمية التي تختار المثل الأعلى الذي اقتنعت به ثم تتعلق الإرادة بهذا المثل الأعلى فتصبح القوة الدافعة لتحصيل مزيد من القدرة اللازمة . لهذا يقول القرآن : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ (التوبة /٤٦) . فليست المشكلة هي عدم وجود الوسائل الكافية للعمل (أي القدرة) . لأن كل إنسان أعطي قدرة على الفهم فإذا تحركت إرادته استطاع أن يستخدم ما عنده من الوسائل ولو كانت بدائية . .

٢ ـ الإخلاص إن لم يلتق بالطريق الصحيحة ـ أي بالصواب ـ إما أن ينفجر في صورة عنف يمزقه . . أو يبدأ بالضمور والاختناق في صورة : (ما باليد حيلة) . .

ولتوضيح ذلك يمكن أن نشبه الإخلاص بقوة البخار (الطاقة البخارية) التي يمكن أن توجه وتنظم فتحرك أجهزة وتسير قطارات . . لكنها حين توجد في إناء محكم ولا تجد مصرفاً تفجر الإناء . . وحين لا نعرف كيف نستثمر هذه الطاقة فإنها تتبعثر في الهواء وتتلاشى (كما كان يحدث قبل أن يأتي مكتشف الآلة البخارية). فحالة الانفجار : يمثلها كل من يندفع وراء العنف وهو يظن أنه بذلك يخدم مثله الأعلى . وحالة الضمور والاختناق تمثلها أكثرية المسلمين الذين يتحسرون على الإسلام وقد جرفهم التيار بعيداً عنه . وقد يتطور الضمور إلىٰ درجة الانعدام . كما حدث لبعض شباب العالم الإسلامي الذين فقدوا ثقتهم بصلاحية الإسلام لهذا العصر . . واندفعوا شرقاً وغرباً باحثين عن مبدأ آخر . .

وتعظم البلية حين يحلل بعض الدعاة مشكلة تخلف العالم الإسلامي بأنها ترجع إلى نقص في الإخلاص ـ مثل قولهم : لدينا أفكار في القمة ولكن الناس فقدوا إيمانهم وإخلاصهم ـ وبناء على هذاالتحليل تأتي المعالجة بإعطاء حقن إضافية من الإخلاص . . وإهمال جانب الصواب وزيادة شحنات جديدة ترفع توتر الإيمان . . فتكون النتائج الملموسة هي المزيد من الانفجارات والمزيد من الآلام وتبديد الطاقات . . والوصول إلى الصواب يخرج المسلم من بين الانفجار والاختناق كما يُخرج الله اللبن من بين الدم والفرث لبناً سائغاً للشاربين . . وإبصار الموضوع بهذه الدقة هو الذي يخرج الإنسان من الظلمات إلى النور .

٣ ـ تمييز بين الإخلاص والصواب :

١ ـ الإخلاص يصل حداً لا يمكن الزيادة عليه . . فيصبح الإنسان مستعداً لبذل ماله وروحه في سبيل الله (أو المبدأ الذي يؤمن به) وليس هناك مستوى أعلى من ذلك . أما الصواب فهو قابل للزيادة باستمرار لأن العلم لا يقف عند حد .

٢ ـ الإخلاص يمكن أن يورث وراثة فينشأ الطفل وهو يحب الإسلام لأن أبويه يحبان الإسلام . كما أنه يمكن تجديده وتحريكه بسرعة وذلك بالتأثير والإيحاء

وبالعدوى . . فالناس يتحركون بكلمة مخلصة . . وبموقف تتجلى فيه التضحية فتحركهم القدوة الحسنة . لكنك لا تستطيع أن تعطي أولادك الصواب وراثة ولا بالتأثير السريع . . لأن الصواب لا يحدث عند الإنسان إلا بالدرس والكسب . فالطبيب لا يصبح ابنه طبيباً إلا بالدراسة الكافية .

٣ ـ فاقد الإخلاص لا يغفر له أبداً بينما قد يغفر للجاهل . «إنما الأعمال بالنيات» بل قد يكون له أجر إن اجتهد فأخطأ .

٤ ـ الإخلاص دافع محرك بينما العلم وسيلة . . الإخلاص يحدد الهدف (أي يعطي الإجابة على لماذا أعمل) . والصواب يحدد الخطة والوسيلة (أي يعطي الإجابة على كيف أعمل حتى أنجح) .

■ ٤ ■

مثل البعوضة

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

يقول ابن كثير : [لما ضرب الله المثلين للمنافقين . . قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال . . فأنزل الله هذه الآية] .

وعن قتادة : لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنزل الله الآية . .

هذه الأحداث تشير إلى إحدى حملات المشركين والمنافقين واليهود للتشكيك في صدق الوحي .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾

والاستحياء : من الحياء . وهو انكسار وتغير في النفس يُلم بها إذا نسب إليها أو عرض لها فعل تعتقد قبحه . والحياء كمال للنفس خلافاً لما يعتقد أولو الوقاحة الذين يعدونه ضعفاً . . «الحياء شعبة من الإيمان»[1] . **والحياء هو الوسط بين انحرافين يمثلان الإفراط والتفريط .**

فالإفراط هو **الضعف** : بحيث تضعف عن الإقدام على الأمر الحسن لأنه عند الناس ليس بحسن . . فهذا هو الضعف والجبن .

والتفريط هو **الوقاحة** : بحيث تقدم على القبيح وتجهر به دون خجل . «كل أمتي معافاة إلا المجاهرين»[2] .

والآية تقول : إن ضرب الأمثلة ليس عيباً في الكلام يدفع إلى الخجل والحياء . حتى ولو كان المثل عن بعوضة أو ما هو أصغر وأكثر حقارة منها أو ما هو أكبر . .

فليس هذا أمر يستحى منه . . والله رب الصغير والكبير والمعجزة في البعوضة هي نفسها في الفيل . . معجزة الحياة والخصائص المميزة لكل صنف . . بل ربما ظهرت أكثر في الصغير والحقير . بل إن ضرب الأمثلة ميزة ترفع من قيمة الموضوع لأنها تزيده رونقاً

---

(١) رواه مسلم . وأوله «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة» .
(٢) رواه مسلم .

وفهماً ووضوحاً وتعطيه من التأثير في النفس ما لا يتوفر بدونه . ولهذا استعملت كلمة (ضرب) عند ذكر الأمثلة لأنها تقرع حسّ السامع والقارىء وتفكيره . والمهم في الأمر أن يؤدي المثل دوره بنجاح . فانظر في قوله تعالى :

١ ـ ﴿يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ (الحج /٧٣) . هل نستطيع أن نصور عجز الآلهة ـ من الأصنام أو البشر ـ بأوضح وأعمق مما صوره المثل في هذه الآية . . ؟! وما أعجز هذا الإنسان الذي لا يقدر أن يسترد عافيته من تلك الذبابة التي سلبته إياها . . على صغرها وحقارتها . ؟!

٢ ـ ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ (العنكبوت/٤١) .

هؤلاء الذين يوالون أصحاب المراكز والسلطان يظنون أنهم بذلك يحمون أنفسهم وكأنهم لجأوا إلى حصن مكين . . ما أشد غفلتهم حين تركوا حصن الله وحمايته ولجأوا إلى بيت العنكبوت طالبين العز والمنعة . . ؟!

٣ ـ ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم . .﴾ (الجمعة /٥) .

وكيف يستفيد الحمار من الأسفار والكتب التي يحملها على ظهره . . ؟! إنها تثقل ظهره وتتعبه وهؤلاء الذين لم يفهموا الكتاب لن يستفيدوا منه . . ولن يجنوا إلا التعب. إن ما تخلّفه هذه الأمثلة في النفس بأسلوبها الساحر وصورها البارعة يجعل النفس تمتلىء نفوراً واشمئزازاً من أن تقع بهذه الأعمال والمخالفات . وحين نتذكر أن الإنسان مكون من وعي ولا وعي (شعور ولا شعور) فلا يكفي معه الإقناع العقلي وحده . . يمكن أن ندرك طرفاً من حكمة الله تعالى في استعماله لأساليب منوعة في القرآن للتأثير . . ومنها الأمثلة .

قال بعض السلف : إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله قال : ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ (العنكبوت /٤٣) .

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾

يعلمون أن القرآن حق . .

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾

يعترضون على الله في وقاحة من لا يعرف الله بجلاله . .

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾

فتأمل كيف يكون الأمر الواحد سبباً في الضلال وفي الهداية . . ؟! ألست ترى أن الشدائد تسلط على النفوس . . فأما المؤمن فتزيده الشدة التجاءً إلى الله لأنه يعرف أنها امتحان من الله يستوجب النصر والعلو في الدرجات ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾ (الأحزاب /٢٢) . وأما المنافق فتزيده من الله بعداً ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خيرٌ اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة . .﴾ (الحج /١١) .

ومع أن المهتدين حتى الآن هم أقل من الضالين فإن الله يصفهم بالكثرة ويقول :

﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾

. . وذلك لأنهم أكثر نفعاً وأعظم آثاراً من الضالين . . ففي الوقت الذي يضيع فيه الناس وقتهم وأموالهم . . فإن هؤلاء المهتدين يبذلونها بما فيه خير للجميع . . ولقد وضع الله نتاج المؤمنين بين حدين :

حد أعلى : ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ (الأنفال / ٦٥) .

وحد أدنى : ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً . . فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين . .﴾ (الأنفال /٦٦) . وبذلك يصبح المؤمنون كثرة وتكون الغلبة لهم على غيرهم . .

وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

يقال : فَسَقَتْ الرطبة : إذا خرجت من قشرتها . والفاسق هو الخارج عن طاعة الله .

في الآية عملان : عمل الله (يُضل) وعمل الإنسان (الفسق) . وسبق أن ذكرنا أن عمل الإنسان يأتي أولاً ثم يأتي عمل الله . ونحن حتى الآن لا نواجه فشلنا بمنطق الآية الكريمة : ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ . . بل نرده دائماً إلى الآخرين . . بل ونرجعه إلى إرادة الله . . وتحدد الآية من هم الفاسقين الذين يستحقون الضلال .

■ ٥ ■

تعريف الفاسق

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

١" -

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ

لقد تنكروا لدواعي الإيمان في نفوسهم بعد أن أخذ الله عهداً على فطرة الإنسان أن يؤمن بالله . . وتخلوا عن دورهم في أن يكونوا خلفاء لله على الأرض في تحقيق الخير .

بل إن المسلم يكرر بلسانه لا إله إلا الله . وهي عهد بأن لا يعبد ولا يطيع ولا يخاف أحداً إلا الله . . ولكن سرعان ما ينقض هذا العهد . . !!

٢" -

وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ

والقطع أشد من النقض . وكل ترك لأمر من أوامر الله هو قطع لما أمر الله بوصله . وقطع شبكة العلاقات الاجتماعية التي حرص الإسلام على إحكامها يأتي في رأس القائمة . . كصلة الرحم والجوار وعلاقة الأخوة في الإيمان . . إلى العلاقات الإنسانية بين جميع بني آدم ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ (الحجرات /١٣) .

٣" -

وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ

وأي إفساد أكبر من إفساد من أهمل هداية العقل وهداية الدين ؟!

إن هؤلاء مقطوعون عن الله . . وإن من يتولَّ عن طريق الله لا بد أن يفسد في الأرض ويقطع الأرحام ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟﴾ (محمد /٢٢) .

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

في الدنيا لأنهم أفسدوا . وفي الآخرة لأنهم لم يقدموا شيئاً لها .

- ٦ -

دليل البعث

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)﴾

ويستنكر الكفر على الإنسان مع وجود الدليل الناطق بوجود الله وقدرته على البعث .

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾

لقد كنتم تراباً من هذا الجماد الميت الموجود في الأرض . . فخلقكم الله في أحسن تقويم . . والمراحل الثلاث الأولى :الموت ، ثم الحياة ،ثم الموت . . نعرفها ولا نجد من يجادل فيها . . ولكن الناس يشكون في المرحلة الرابعة التي هي البعث للحساب . ولكن ألا يقدر على بعثك من خلقك من الموات ثم أماتك بعد أن كنت موفور الحركة ممتلئاً بالحياة ؟! ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ (يس / ٧٩) .

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)﴾

نلمس التراخي باستعمال (ثم) بين الحياة الثانية والرجوع إلى الحساب . . وذلك ليشعرنا بطول يوم الحساب وهذا ما يزيده هولاً : ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ (المعارج /٤) . فكيف تكفرون بالله . . ؟!

والكفر أنواع . . فإذا كان المسلم قد سلم من الكفر بالله الخالق . . فهل سَلِم من ترك حكم الله والخضوع لغيره . . ؟! وهل وحَّد الله في الخوف والرجاء . . ؟!

إن واقع المسلمين مليء بهذه الانحرافات عن الإيمان بسبب الجهل والاستضعاف . . فهو يجهل ميزة أوامر الله وأنها هي التي تحقق سعادة الدنيا والآخرة . . ويجهل معنى كلمة لا إله إلا الله التي يرددها يومياً . . ويزعم أنه مضطر لأن يترك أمر الله ويحاول إلقاء التبعة على المستكبرين . . ولكن القرآن يدين الضعفاء والمستكبرين ويحشرهما في مصير واحد . وسنتناول الموضوع بالتفصيل بإذن الله عند قوله تعالى في هذه السورة ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا . . .﴾ (البقرة /١٦٦) . وقد سبق أن قارنا المستضعفين بالمنافقين وكيف أنهم يتشابهون في ثلاث خصال .

إن السؤال : ﴿**كيف تكفرون بالله**﴾ . ينبغي أن يعيه المسلم قبل غيره .

كيف تخافون من العباد ولا تخافون الله . .؟!

كيف تطيعون العباد وتتركون طاعة الله ؟!

كيف تظنون أن مصيركم بيد العباد لا بيد الله . .؟!

لقد انطلق المسلم الأول وساح في الأرض ليحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد . . وعليه الآن أن ينطلق ليخلص الناس من القيود والأغلال التي تشل حركتهم وتحبس أفكارهم وأعمالهم . . ولن يتغير ما بالقوم من تخلف وانحطاط حتى يغير القوم ما بأنفسهم من خرافات وأوهام .

■ ٧ ■
تسخير الكون

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

وهذا دليل آخر على قدرة الله في الخلق والبعث . . وكما يقول ابن كثير : [وتفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة . . ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين . .﴾] .

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ

استوى : أي قصد وتوجهت إرادته إلى السماء فسوّاهن سبع سموات . وكما قال بعض السلف : الاستواء معلوم والكيف مجهول . وينبغي للمسلم أن يصون عقله من الضياع فلا يفكر إلا فيما يجدي وفيما يمكن الوصول إليه . أما أن يستنتج من الآية أن الأرض خلقت قبل السموات فهذا لا يمكن الجزم به لأن في القرآن آيات أخرى تجعل ترتيب الأرض بعد السماء . . وليس القرآن كتاب فلك وليست الغاية في مثل هذه الآيات ذكر الترتيب في الخلق . . وإنما الغاية تذكير الإنسان بالآيات من حوله وأن الكون خلق من أجله . وأما بدء الخلق فذلك أمر تركه للإنسان يبحث ويدرس فيه حتى يكشفه ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ (العنكبوت / ٢٠) .

وقول الله تعالى ﴿خلق لكم﴾ :

يوحي بكرامة الإنسان ودوره . فهو مستخلف على هذا الكون الذي خلق مسخراً له .

لكننا ـ نحن المسلمين ـ لم ننتبه حتى الآن إلى ضرورة فهم السنن والقوانين للوصول إلى التسخير . وسيبقى الكون مسخراً للآخرين ما دمنا لم نستكمل شروط التسخير . . ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ (يوسف / ١٠٥) . فالقوانين موجودة منذ خلق الله الكون والإنسان ولكن الإنسان يتأخر في كشفها بسبب غفلته عنها . ولعل إخفاق المسلم في هذا المجال يرجع إلى تصوره الخاطىء الذي أشار إليه سيد قطب ـ رحمه الله ـ في كتابه (هذا الدين) . فالمسلم يظن أن إسلامه وحده هو الذي يحقق له المعجزات وكأنه هو فوق القوانين والسنن ! وأن

النصر والتمكين في الأرض والتسخير . . كلها ينبغي أن تعطى للمسلم «بطريقة سحرية غامضة» . . !!

ولقد حصل هذا الفهم الذاتي المشوش عند بعض الصحابة في غزوة أحد . . فلما رأوا الهزيمة دهشوا وقالوا : أنّى هذا . . ؟! فكان الجواب : ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ (آل عمران /١٦٥) . ويعقب الله سبحانه وتعالى على خلق الإنسان والكون وتنظيم السموات :

وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿ألا يعلم من خلق ؟! وهو اللطيف الخبير﴾ (الملك /١٤) .

الفصل الثالث

قِصَّة استخلاف آدَم
(٣٠← ٣٩)

- آدم والملائكة .
- آدم والشجرة المحرّمة .
- عِبَرٌ من قصة استخلاف آدم .

وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ
قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ
نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ
(٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ
فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُواْ
سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ
(٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ
أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا
تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ (٣٣) وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ
لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ
(٣٤) وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا
حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥)
فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ
بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ (٣٦)
فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧)

قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ
هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾



■ ١ ■

ادم والملائكة

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ

وبعد ذكر الحياة والموت وخلق الأرض والسموات وتسخيرها . . تعرض الآيات علينا مشهداً علوياً يتحدث عن خلق آدم ودوره وامتحانه بالشجرة المحرمة . . والشيطان ودوره مع آدم . .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً

إن الله يُذكر الإنسان بالتكريم في الملأ الأعلى .. فهو الخليفة في الأرض يدير شؤونها بحسب ما يريد الله . فتستغرب الملائكة وتتساءل :

قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ

ويظهر من الآية أنهم فهموا طبيعة هذا الخليفة ـ أو أخذوا عنه فكرة ـ وأنه يحمل القدرة على الخير والشر .. وهم لا يعترضون على أمر الله وإنما يتساءلون عن الحكمة من خلقه .؟! ومن الطريف أن نرى أن الله قد سمح لملائكته أن تسأل عن الحكمة من إرادته سبحانه .. ويرد عليهم بالتنبيه إلى علمه الواسع .

قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

وقد خلق الإنسان لأمور يعلمها ـ سبحانه ـ ولا تعلمها الملائكة . ثم يقنع الله الملائكة عملياً بأنهم لا يصلحون للخلافة بينما يصلح لها الإنسان بما أعطي من إمكانات ومواهب ..

﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

لقد عرَّضهم لاختبار فشلوا فيه . . بينما نجح آدم بما وهبه الله من مقدرة وعلم . . وإلى هنا ونحن نشعر بمدى تلطف الله سبحانه في معاملة خلقه وإقناعه ملائكته . . وهو الجبار القادر الغني عن خلقه . . يتفرد في الحكم ولا يستطيع أحد أن يقف في وجه إرادته . . أليس في ذلك عبرة لنا نحن العبيد كي نتعلم كيف نعالج المعارضة بالحكمة والإقناع . . ؟

ما هذه الأسماء التي علمها الله لآدم ؟

هي أن الله أعطى الإنسان القدرة على أن يرمز لكل شيء برمز يتعرف عليه به . فالإنسان ينظر إلى الحقائق الخارجية فتتكون لديه صورة ذهنية عنها ـ قد تكون صحيحة أو خاطئة ـ ويعبر عن هذه الصورة الذهنية بصورة لفظية وهي التي يقول عنها هنا : **﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾** .

ثم يسجل ذلك بصورة كتابية وهذا يضمن تسجيل العلم وحفظ التراث للأجيال القادمة حتى تختزل طريق العلم (وهذا ما أشرت إليه عند تفسير الأحرف في أوائل السور) . وكأن تعليم الأسماء لآدم يشمل اللفظ والكتابة ـ والله أعلم ـ ﴿خلق الإنسان . علمه البيان﴾ (الرحمن /٣ـ٤) . ﴿إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (العلق /٣ـ٥) . ولنا أن نتصور مدى الصعوبة في حياة الإنسان لو أن الله لم يمنحه هذه القدرة . إذ لا تفاهم بين البشر بدون لغة . . ولا تطور للعلم بدون كتابة وتسجيل للخبرات . . أما الملائكة فلا حاجة لهم إلى ذلك . وليس ضرورياً لهم في وظيفتهم التي خلقهم الله لها . وفي قوله تعالى **﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾** .

كأنه يشير إلى شيء آخر لم تصرح به الملائكة . قيل : كان الذي كتموا قولهم :

لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم . وقيل هذه إشارة إلى ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والغرور وكان حاضراً مع الملائكة . .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ

إنه التكريم ورفع المقام للإنسان وإشعاره بسمو منزلته حتى على منزلة الملائكة لأنه وهب المعرفة والقدرة على تحصيلها . . وهذا ما يؤهله لكشف السنن والتسخير والخلافة في الأرض ذلك هو الإنسان الذي قال عنه الله تعالى : ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ (الإسراء /٧٠) . . إنه هذا التركيب الفذ العجيب من القدرة على التسخير والإرادة المستقلة التي تختار الطريق وتقاوم نوازع الشر بين جنبيها . . إنه المخلوق المتفرد في هذه العوالم . . ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (المؤمنون /١٤) .

والأمر بالسجود لآدم هنا لا يعني عبادة آدم . . بل هو طاعة لصاحب الأمر رب العالمين الذي أمر بالسجود لآدم إشعاراً بمكانته .

فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ

وفي سورة الكهف يقول : ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ (الكهف /٥٠) . يقول الحسن البصري : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس[1] .

فالملائكة فطروا على الطاعة لله ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ (التحريم /٦) . فالأقرب أنه لما أمر الملائكة بالسجود دخل إبليس في الأمر لأنه كان قد تشبه بالملائكة وتوسم بأفعالهم وحاضراً معهم ـ والله أعلم ـ لكنه اغتر بنفسه وتكبر عن أن يعترف لآدم بما عنده من فضل ومواهب . ورأس الشر الغرور الذي يدفع إلى الكبر .

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسير الآية .

والكبر يقود صاحبه إلى عصيان الله . و «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» (٢) . وهكذا سقط إبليس إلى أسفل سافلين . وقد نقل عن الليث بن سعد والشافعي قولهما : (إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة) (٣) .

وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ

لامتناعه عن تنفيذ أمر الله .

■ ٢ ■

ادم والشجرة المحرمة

﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

---

(١) رواه مسلم .

(٢) ذكره ابن كثير في التفسير .

ولأول مرة تشير القصة هنا إلى حواء . .

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ (٣٤)

ولا يتحدث القرآن عن خلقها بأكثر من قوله ﴿خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾ (النساء /١) . وقد يكون المعنى أنها خلقت من جنسه . والرابطة بينهما من السكينة والمودة توحي بأنهما نفس واحدة ـ والله أعلم ـ.

كذلك لا نملك دليلاً يجزم بأن الجنة التي سكن فيها آدم هي الجنة التي وعد بها المتقون أم مكان آخر . فلا نخوض في ذلك .

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (٣٥)

ما هي هذه الشجرة ؟ تكلم في ذلك ناس كثيرون . . لكن المهم أن نفهم أن الله تعالى قد زود آدم بهذه التجربة قبل أن يهبط إلى الأرض ؛ لأن حياته على الأرض ستكون فيها أشياء محظورة عليه . فإن لم يتجنب المحظور كان من الظالمين .

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾

لقد نجح الشيطان في جعلهما ينزلقان إلى المكانة السفلى عن ذلك المركز عند الله . ووسائل الشيطان كثيرة ومنوعة . . وقد أخذ على نفسه العهد بمحاولة إضلال آدم وذريته . . والترصد لهم ﴿لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم . .﴾ (الأعراف /١٧) . ومن الشائع عند الناس أن يضعوا الذنب على حواء في الأكل من الشجرة . وليس لدينا دليل يؤيد صحة ذلك . فالقرآن يلومهما معاً أحياناً ويلوم آدم وحده أحياناً أخرى .

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾

وهكذا بدأت المعركة التي لا تنتهي إلا بانتهاء الحياة بين الشيطان والبشر الذين أمر الله بهبوطهم إلى الأرض .

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦﴾

فهي سكنى وراحة ومتاع .. ولكن إلى حين .. إلى أجل معلوم .

ونهض آدم من عثرته وأدركته رحمة الله بما وضع في فطرته . فاتجه إلى ربه تائباً بكلمات هي من إلهام الله للإنسان النادم الصادق في توبته :

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾

وقد تكون هذه الكلمات هي التي ذكرها القرآن في سور أخرى ﴿قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف/٢٣) .

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝٣٩﴾

وهكذا صدر الأمر الإلهي بالهبوط . وجاء الوعد الكريم من الله بأن لا يترك الإنسان يضل في المتاهات ، وأن ينزل إليه على مر الأجيال هدى من السماء بأيدي رسل كرام لإنقاذ البشرية وتخليصها من الخوف والحزن .

وأي شيء تطمح إليه البشرية في الدنيا والآخرة أكثر من ذلك ..؟!

وأما الذين يرفضون حياة النور والهداية فلهم أن يترددوا كما شاؤوا في ظلمات الجحيم .

وإن البحث التاريخي والحضاري يقدم مزيداً من الوضوح حول أثر هداية السماء في حياة الأمم وحضارتها [1] . وينبغي للمسلمين أن ينشطوا في هذا المجال ليبينوا للناس أن تفاعل الإنسان مع الهدى كان هو المنطلق الذي انطلقت منه الحضارات كلها على وجه الأرض . إن دراسات من هذا النوع تلقي أضواء جديدة على الآية السابقة .

إلى هنا ينتهي هذا المشهد العلوي ويسدل الستار على صوت الإنذار الرباني . . ليفتح من جديد على مشاهد من حياة الإنسان على الأرض من خلال تجربة أمة معينة . . بني اسرائيل . . وقبل أن نتابع نقف قليلاً مع :

■ ٣ ■
عبر من قصة استخلاف ادم

١" ـ الإنسان حتى الآن ما زال على ظن الملائكة : ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ ، ولم يرتفع إلى علم الله فيه : ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ .

ففي عالمنا اليوم أكثر من خمسين ألف سلاح نووي ويبلغ مجموع قوى هذه الأسلحة الإنفجارية ما يزيد على قوة قنبلة هيروشيما أكثر من مليون مرة . علماً بأن قنبلة هيروشيما (١٩٤٥) قضت في لحظة واحدة على المدينة ومات مباشرة أكثر من سبعين ألف شخص ولقي أكثر من سبعين ألف شخص آخرين حتفهم في الأيام التي تلت . .

---

(١) تحدث توينبي عن ذلك في تاريخه . وتحدث مالك بن نبي في (شروط النهضة) عن أثر الفكرة الدينية .

(بعد خمسة قرون من هيمنة الغرب هيمنة لا يشاركه فيها أحد يمكننا تلخيص ميزانيته بثلاثة أرقام : في عام ١٩٨٢م مع حوالي (٦٠٠) مليار دولار من الإنفاق على التسلح وضع ما يعادل أربعة أطنان من المتفجرات على رأس كل ساكن من سكان الكوكب الأرضي ووزعت الموارد والثروات بحيث مات في السنة نفسها (٥٠) مليون نسمة في العالم بالمجاعة وسوء التغذية . فمن الصعب أن يسمى تقدماً بلا تردد ذلك الشوط التاريخي الذي قطعته الحضارة الغربية التي جعلت من الممكن فنياً لأول مرة خلال مليوني سنة أو ثلاثة . . . من الملحمة البشرية تحطيم كل أثر من آثار الحياة على الأرض) [١] .

إن الله يعلم أن بإمكان هذا الإنسان أن يقوم بدور جليل في منع الفساد وسفك الدماء فمتى يحقق الإنسان هذا الأمل الذي أصبح يتردد صداه بإلحاح في عالمنا هذا . . ؟!

٢" ـ الشجرة المحرمة : ترمز إلى أن الحياة لا تقوم لها قائمة بدون محرَّمات . . أي أن الإنسان لا يحيى بدون قانون (أي أوامر ونواهٍ أو واجبات ومحرمات) .

فالحيوان لا يحتاج إلى قانون لأن غرائزه منظمة فطرياً . . فهو لا يسرق ولا يقتل إلا إذا كان جائعاً . . أما الإنسان فإنه لا يشبع . والغريزة الجنسية عند الحيوان لها موسم معين بينما تمتد عند الإنسان في جميع المواسم فلا بد من قانون ينظمها . .

ثم إن حاجات الحيوان لا تتجاوز بقاء الفرد وبقاء النوع . ولكن الإنسان يتطلع إلى أكثر من ذلك . . إنه يرغب في ترقية النوع ويتطلع للوصول إلى الاكتمال . ولهذا سعى الإنسان ـ وما يزال يسعى ـ إلى تحسين وسائل معيشته وتحصيل المعرفة التي تعينه على الوصول إلى ما هو أفضل باستمرار . من أجل ذلك وجدت علوم وحضارات للإنسان ولم يتطلع الحيوان إلى ذلك . إنها ميزة الإنسان : الرغبة في الاكتمال التي يتحدث عنها علماء النفس ويذكرها القرآن حين يتحدث عن خلق الإنسان من مراحله

---

(١) من كتاب الإسلام وأزمة الغرب ، تأليف : رجا جارودي .

الأولى التي هي كمراحل الحيوان الجنينية . . إلى أن يقول : ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله . . .﴾ (المؤمنون /١٤) . فهو هذا الخلق الآخر الذي يتطلع إلى أسمى الدرجات . . ولهذا يبحث عن عقيدة (مثل أعلى) تجعله يرتقي بنفسه إلى مستوى الكرامة والسيادة على سائر المخلوقات . ولهذا كانت التجربة الأولى لآدم هي الشعور بضرورة وجود الشجرة المحرمة . وإلا تعذر على الإنسان أن يعيش ويحقق غاية وجوده .

وكل مجتمع على وجه الأرض له قانونه الذي يحيا عليه . وكل فرد ملزم بمراعاة المحرمات والواجبات التي يفرضها هذا القانون . وإلا تعرض للعقوبات . وكم تستهوينا كلمة الحرية . . لكن الأمر الواقعي المنطقي أنه ليست هناك حرية على وجه الأرض وإنما هو القانون والعدل . وتنحصر حرية الإنسان في أن له الحق في اختيار القانون الذي يريد والمجتمع الذي يريد الانتماء إليه . أي أن يختار الدين الذي يريد دون أي ضغط ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ (البقرة /٢٥٦) . وبعد أن يختار بملء إرادته يصبح مكلفاً بالالتزام بالقانون الذي اختاره .

والفروق بين المجتمعات هي الفروق بين مختلف القوانين التي تحكمها . فتختلف القوانين من حيث المصدر : بشري أو إلهي (دين سماوي) . فالقانون البشري معرض للنقص والخطأ . لأن علم المخلوق ليس كعلم الخالق . وصانع الجهاز أدرى بكيفية تشغيله وصيانته وإصلاحه .

وقد سبق أن أشرت إلى أن تنظيم الغرائز أمر في غاية الدقة (يشبه عملية شد الأوتار) . وينبغي أن يتم التنسيق بين غرائز الإنسان كلها وإروائها بشكل يتناسق مع المجتمع . فالكبت يؤدي إلى التجميد ، والإطلاق إلى التدمير . أما التنظيم فهو النمو . ولهذا فشلت الرهبانية والإباحية . وفشل إلغاء الملكية وإطلاقها دون قيد . . . فالقانون الإلهي هو أصلح القوانين لحياة الإنسان ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ (النمل /٨٨) . إنه الصراط المستقيم الذي يوصلك إلى الهدف بأقل وقت وجهد ممكن . ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ (الأنعام /١٥٣) .

٣" ـ القصة فيها تكريم للإنسان ورفع لمقامه . وكل مبدأ يحط من قيمة الإنسان ـ مهما أعطى من نتائج مادية ـ يشقيه ويحرمه من تحقيق الذات والاكتمال . وذلك لأنه يجعل المادة والإنتاج أغلى من الإنسان (كما حصل في الدول المتقدمة تكنولوجياً) .

٤" ـ مسؤولية الإنسان . . فهو خليفة الله في الأرض يملك الطاقات والمواهب التي تؤهله لقيادة العالم والإشراف عليه . فهو مطالب بتغيير الفساد . وكلمة (مـا بيطلع بيـدي) مغالطة وقعنا بها لتبرير قعودنا . وما الأعمال الكبيرة التي نراها برزت فجأة إلا نتائج لجهود مستمرة صغيرة بذلت قبلها . ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾ (القمر /٥٣) . ومما يذكر عن أديسون أنه لم يتلق العلم في المدرسة وفصل منها لتخلفه في الدراسة . فكانت عناية أمه به لتنمية مواهبه هي التي جعلت منه مخترعاً مشهوراً . ونحن مع الأسف نرى أعماله الكبرى التي قدمها للبشرية . . وننسى الجهد اليومي المستمر الذي بذلته أمه في توجيهه . .

٥" ـ أولوية القيم الأخلاقية عند الله : ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ .

وهذا يضمن استمرار صلاحية الإنسان للخلافة . وحين يكون المجتمع حريصاً على هذه الأولوية فإنه لا خوف عليه ولا يحزن . أما حين يصبح الجمال في الصدارة . . بحيث نضحي ببعض الأخلاق حرصاً على الجمال فهذا نذير الدمار للأمة . والتاريخ يشهد على ذلك في حضارة الرومان واليونان ، وفي صيحات الإنذار التي يطلقها المفكرون والمصلحون في أوروبا وأمريكا في عصرنا هذا .

٦" ـ آدم قال ـ كما جاء في سور أخرى ـ ﴿رب إني ظلمت نفسي﴾ (القصص /١٦) . ولم يقل : يا رب لا ذنب لي إن الشيطان هو الذي أغواني . . إن موقف آدم هذا جعله قادراً على تصحيح أخطائه والوصول إلى مغفرة ربه . أما إلقاء التبعة على الآخرين فهو الذي يعمي الأبصار ويجعل المسلم المعاصر عاجزاً عن كشف الخلل غافلاً عن سنة التغيير . وآية ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ (آل عمران /١٦٥) . قاعدة قرآنية عسيرة التطبيق على النفوس لكنها المفتاح ـ الذي ضاع منا ـ لكل المغاليق والسدود التي تحيط بنا .

إن كيد الآخرين لم يقف ولن يقف . والشيطان ماضٍ في إغوائه منذ آدم إلى يوم الدين لا يكل ولا يمل . . بعلم الله وإذنه ﴿واستفزز من استطعت منهم . .﴾ (الإسراء / ٦٤) . لكنه يقول في النهاية : **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾** (الحجر / ٤٢) .

إن المسلم الآن حين لا يرى في مشكلة تخلفه إلا جانباً واحداً ينحصر في كيد أعداء الإسلام . . إنه بهذه الرؤية القاصرة يضع المشكلة وحلها في صف المستحيلات . . لأنه لا يستطيع أن يجري عملية تصفية للشياطين يحذفهم فيها من الحياة . . !

وحتى الآن لم نكتشف أن صيانة العقل والنفس عند الإنسان تشبه قوانين صيانة جسمه . . إذ إننا نعلم أنه ليس بإمكاننا القضاء على الجراثيم في أنحاء الكرة الأرضية ولكن الأسلوب المجدي للخلاص من الأمراض هو تقوية الأجسام وإعطاؤها المغذيات والفيتامينات اللازمة وتحصينها باللقاحات المضادة للأمراض . . . إن الجرثوم لا يفتك إلا بالجسم الضعيف . . وإن الريح لا تكسر إلا الأشجار المنخورة . .

لقد قضينا قرابة مئة عام ونحن ندين الاستعمار ونلقي باللوم على الآخرين ونحملهم وزر تخلفنا . . وحتى الآن ما زالت مشكلاتنا بدون حل . . بل إنها تزداد تفاقماً .

٧" - ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ .

إنه نهي عن مجرد الاقتراب . . ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . وينبغي الانتباه والحرص على إبقاء مسافة فاصلة تحيط بالمحظور ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ (البقرة / ١٨٧) ، حتى لا يدخل الإنسان في منطقة الانزلاق كما تترك مسافة قبل الشلال - تكبر كلما عظم الشلال - وتمنع السباحة والتجديف فيها حتى لا يقع الإنسان تحت جذب التيار . .

٨" - إنها شجرة واحدة محرمة بينما أبيح لكم الاستمتاع بطيبات كثيرة . . بل إن الله سبحانه أباح الطيبات كلها ولم يحرم إلا الخبائث .

الفصل الرّابع

جَوْلَة مَعَ بَنِي إِسْرَائِيل

(عوامل تخلّف الأمم وتقدّمها)

(٤٠ ـ ١٢٣)

- تذكير ومطالبة .
- نجاة بني إسرائيل .
- إيتاء موسى الكتاب .
- طلبوا رؤية الله .
- أمرهم فبدّلوا .
- استسقاء موسى .
- مَنْ آمن وعمل صالحاً .
- الميثاق والسبت .
- قصة ذبح البقرة .
- كيف يؤمنون ؟!
- مواقفهم من الرسل والكتب والملائكة .
- أمانيّهم وتعصبهم .
- أعظم الظلم .
- تجلية الحقيقة .

يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِىٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَـٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٲكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَـٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٲجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّى فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِى نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ
وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ
﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم
بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ
بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ
وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا
غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ
ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟
وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا
وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ
بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ
ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ
مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم
بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا
هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ
ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ
وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾
قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ
تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟
ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ
قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾
فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ
ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾
وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ
فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ
أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ
وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذۡ
أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ
إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ
لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ
مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾
بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ
﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ
أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا
لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾
وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ
مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا
وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ
بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾

قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن
دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾
وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ
أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ
مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلۡ
مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ
مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ
﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ
وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ
إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾
أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ
لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ
مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ
كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾

وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ
ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ
وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ
وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ
مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ
مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ
أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟
وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ
﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟
ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾
مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ
أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن
وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ
كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟
وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم
مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ
لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ كَذَٰلِكَ قَالَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ
لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ
وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ
فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾
وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ
قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ
قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ
بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ
هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ
مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ
أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا
لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا
شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

تمتد الجولة مع بني إسرائيل على مدى أربع وثمانين آية من السورة وتأتي بعد قصة استخلاف آدم وكأن الله تعالى يعرض علينا نموذجاً لأمة استخلفها الله فترة طويلة من الزمن فكان لها أخطاء ، ووقعت في محن وابتلاءات يجدر بالبشرية أن تعتبرها تجارب مفيدة تنير لها الطريق .

وهكذا نرى الآيات تدخل ميداناً جديداً يخص عالم الاجتماع . فالحديث فيها عن عوامل تخلف الأمم وتقدمها مستوحاة من حياة أمة من الأمم كان لها شأن فيما مضى من التاريخ .

وكلنا نعلم كيف واجه اليهود دعوة محمد ﷺ في المدينة بتكذيب وكيد وادعاء وتبجح بأنهم أفضل الأمم عند الله . فها هي الآيات تتحدث عن تاريخهم لتحطم دعاواهم بكشف الستار عن أخطائهم وانحرافاتهم ولتكشف كيدهم ومكرهم للمسلمين ـ وخاصة الأنصار الذين كانوا حديثي عهد بمحالفة اليهود ـ ولتحذير المسلمين من المزالق التي وقع فيها اليهود فحرموا من التفضيل والاستخلاف في الأرض . ولهذا تأتي أثناء الجولة نداءات وتوجيهات للمؤمنين .

■ ١ ■

تذكير ومطالبة

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾

١ً - تذكير بني إسرائيل بالنعمة :

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ

يا بني العبد الصالح إسرائيل (يعقوب) المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق . واذكروا نعمة الله عليكم . . كما قال موسى في سورة أخرى ﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ (المائدة /٢٠) . فلقد كرمهم الله بالهداية واختارهم في زمانهم لحمل الرسالة .

ما هذا العهد الذي يطالبهم بالوفاء به ؟!

وردت في القرآن نصوص لعهود أخذها الله عليهم . مثل ﴿وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرنَّ عنكم سيآتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار . . .﴾ (المائدة /١٢) . وقبل آيتين في قصة استخلاف آدم ختمت بعهد على بني آدم كلهم .

وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ

أي أدوا واجبكم وبعد ذلك تحصلون على حقوقكم ويعطيكم الله ما وعدكم .

أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ

فالآية تبين العلاقة بين الواجب والحق . وتشير إلى عامل كبير في تخلف الأمم هو : **ترك الواجب والمطالبة بالحقوق** .

والموضوع ليس خاصاً ببني إسرائيل . فلقد قال الله سبحانه وتعالى للمسلمين : ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾ (محمد/٧) . والنظر المعكوس الآن هو أننا نريد أن نحصل

على حقوقنا حتى نتمكن من أداء الواجب . . !! يبدو هذا في جميع المستويات في عالمنا . .

فالفرد في الأسرة يقول : عندما يحترمني أفراد الأسرة أحترمهم . .
والزوجة تقول : حتى يعرف زوجي حقوقي عليه . . أعرف له حقه عليَّ . .
والزوج والأبوان . . والأبناء . . كلهم كذلك . .
والشعب يفكر دائماً بحقوقه على الحكام . . والحاكم يريد أن يعامل من شعبه بإخلاص وولاء . . وكلنا نفكر بهذا المنطق : أعطوني حقي حتى أقوم بواجبي . .

فهل سنصل إلى نتيجة . ؟ ولو تصورنا كمثال : في أسرة أو مدرسة : لو امتنع كل فرد عن أداء واجبه وأصر على الوصول إلى حقه قبل كل شيء . . فمن الذي سينال حقه ؟ لا أحد ؛ لأن واجبي هو حق الآخر . . وواجب الآخر هو حقي . . لذلك يتساءل غاندي : (وفي بلد كل فرد فيه يطالب بحقوقه من يستطيع أن يمنح هذه الحقوق ؟ ولمن ؟!) .

إن طريق الأنبياء كان : أداء الواجب وحث الناس على أداء الواجبات . . ولم يبدأوا بتوزيع الحقوق على الناس والوعد بها . نستطيع أن نلمس هذا حين بايع الأنصار رسول الله ﷺ في العقبة : يروي جابر . . . . فقلنا يا رسول الله علام نبايعك ؟ قال : «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم . . ولكم الجنة» فقمنا إليه . وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم . فقال : رويداً يا أهل يثرب فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله . وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم وتعضكم السيوف . فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله . قالوا : والله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبداً . قال فقمنا

إليه فبايعناه وأخذ علينا وشرط .. ويعطينا على ذلك الجنة [1] .

فلنقارن هذا الحادث التاريخي ـ الذي يتضمن انتخاب رسول الله ﷺ زعيماً ومبايعته على ذلك ـ مع مايجري في عالمنا الآن في عمليات الانتخابات حيث نرى إعلانات المرشحين تزخر بالوعود للشعب بإعطائه حق كذا وحق كذا ..

فلمَ كان الأنبياء يغامرون بهذه البداية بينما طريق الحقوق أسهل واستقطاب الناس حولها أسرع ..؟! وهل يمكن أن تبدأ نهضة الأمم بتوزيع الحقوق ؟

لقد بدأ المسلمون من واجبهم وصبروا على المحنة والعذاب .. حتى توجهوا إلى رسول الله ﷺ بشكواهم وقالوا : ألا تدعو لنا ؟ ألا تستنصر لنا ؟! فكان جوابه : إنكم تستعجلون [2] .. وكأنه يقول لهم : لم تؤدوا ما يكفي من الواجبات حتى تصلوا إلى حقوقكم .. وفي المدينة تقاسموا الواجبات وتنافسوا عليها قبل أن يأتي الوقت الذي يتقاسمون فيه الغنائم والحقوق .. ولقد تم بناء المسجد النبوي تطوعاً من الصحابة .. وكان عمار يحمل ضعف ما يحمل أصحابه من الحجارة .. وهكذا تم حفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب . وهكذا كانت تجهز الغزوات فيأتي كل فرد من هذا المجتمع الناشىء بما يستطيع أن يساهم به في تجهيز الجيش . لقد كان رسول الله ﷺ يستنفر طاقات المسلمين إلى أقصى حد عند الأزمات ولم يفكر باللجوء إلى الدول العظمى طالباً منها العون . وحادثة تقسيم غنائم حنين نموذج على هذه التربية النبوية فقد وزعها رسول الله ﷺ على المؤلفة قلوبهم من قريش وسائر العرب ولم يُعطِ منها شيئاً للأنصار .. فكأن الأنصار وجدوا في نفوسهم شيئاً من هذه القسمة . فاجتمع بهم رسول الله ﷺ وقال لهم : «يا معشر الأنصار : ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟» قالوا : بلى . ثم قال ﷺ : «ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟!»

---

(١) من رواية الإمام أحمد في البداية والنهاية لابن كثير .

(٢) حديث خباب بن الأرت .

قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ وبماذا نجيبك ؟ المنُّ لله ولرسوله . قال ﷺ «والله لو شئتم لقلتم فَصَدَقْتُمْ وصُدِّقْتم: جئتنا طريداً فآويناك وعائلاً فآسيناك وخائفاً فآمناك ومخذولاً فنصرناك . . » !! فقالوا : المنُّ لله ولرسوله . فقال ﷺ : «أوَجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم . . ؟ فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناءِ الأنصار» . قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا بالله رباً ورسوله قسماً[1] .

هذه هي النخبة التي رباها رسول الله ﷺ وهي التي قامت على أكتافها حضارة المسلمين . ومع الأسف تركنا نحن هذه الطريق ونهجت الأمم الأخرى الطريق نفسها : طريق الواجبات فنهضت . . . ها هو ماركس يخاطب العمال في عام ١٨٥٠ قائلاً :

«لسوف تقضون خمسة عشر عاماً أو عشرين أو خمسين في الحروب الأهلية والدولية لا من أجل تبديل الأوضاع الخارجية فحسب ولكن من أجل تغيير أنفسكم لتصبحوا أهلاً لتولي السلطة»[2] . بل قضوا سبعين عاماً وهم يبذلون ويؤدون الواجب تجاه الفكرة التي آمنوا بها . . وحتى بعد قيام الثورة الشيوعية في روسيا نراهم يتابعون طريق الواجبات والتسابق في عبورها ولعل طريقة استخانوف في التنافس على زيادة الإنتاج تبرز بوضوح خط السير الذي مشى فيه المجتمع الروسي .

كذلك في الصين : إن الفرد الصيني حتى الآن ما زال يقوم بواجبات أكثر مما يحصل على حقوق . وحين حاول ليوشاوشي أن يوقف موجة الثورة العارمة بأن ألقى للطبقة العاملة طبقاً إضافياً من الأرز وحسن الأجور فإن البروليتاريا الصينية لم تنخدع

---

(١) رواه الإمام أحمد وذكره ابن كثير في البداية والنهاية .
(٢) خطاب إلى فينيسن سبتمبر ١٨٥٠ .

بهذا الكرم . أما ماوتسي تونغ فلم ينطق إلا بكلمة واحدة لإعادة التوازن في صالح الفكرة . فقد أعلن عن إدانة النزعة الاقتصادية وسرعان ما استعاد الشعب سيره في طريق الثورة [1] . فليس المهم أن يشبع الصيني ويغرق في الرفاهية طالما أن صواريخ أمريكا ما زالت تهدده .

وحين نلقي نظرة على دولة العصابات التي شقت طريقها إلى قلب العالم الإسلامي رغم أنوفنا حتى صارت كالخنجر المسموم بين ضلوعنا والشوكة المضنية في حلوقنا . . هؤلاء اليهود قد مضى عليهم ما يقارب مائة عام وهم يبذلون ويضحون بالجهد والمال ويكرسون ما يملكون من طاقات في سبيل الفكرة التي آمنوا بها . . ففي عام ١٩٠٠ تقدم أحد رجالاتهم ـ قره صوه ـ يعرض على الباب العالي في الدولة العثمانية مبلغ خمسة ملايين ليرة هدية وعشرين مليون ليرة تقدم كقرض بدون فوائد وللمدة التي تريدها الدولة العثمانية مقابل السماح لليهود بشراء الأراضي في فلسطين والاستيطان فيها . وكذلك حاول هرتزل ـ صاحب فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ـ إقناع السلطان عبد الحميد بالسماح لليهود بالاستيطان فيها مقابل أن يسدد له ديون الدولة العثمانية كلها ورغم أن السلطان رفض باستنكار هذه ا لفكرة وطرد صاحبها ولكن استمرار اليهود في البذل والسعي من أجل قضيتهم وهدفهم جعلهم يدخلون إلى فلسطين ويصلون إلى ما يريدون بينما كان العرب ـ وما زالوا ـ مشغولين بالمطالبة بالحقوق والتنازع فيها على جميع المستويات دولاً وأفراداً . . محلياً وعالمياً . .

ولقد تنبه غاندي ـ زعيم الهند ـ إلى أهمية طريق الواجبات . . حتى إنه قال كلمة لشعبه «لن تستحق الهند حقها في الحرية طالما كان المار على الرصيف في شوارع مدنها مثل بومباي معرضاً للبصق من شباك فوقه» [2] .

وكانت طريقته الفذة في مقاومة الاستعمار البريطاني ـ والتي أطلقت عليها أسماء مختلفة مثل : العصيان المدني . . المقاومة السلبية ـ تنطوي على القيام بالواجب بشجاعة

(١) صفحة ١٢١ من مشكلة الأفكار لمالك بن نبي .

(٢) من كتاب فكرة الأفريقية الآسيوية ، تأليف : مالك بن نبي .

وثبات . . وكان هذا هو السلاح الوحيد الذي واجه به ظلم الاستعمار وحرر به شعبه وبلاده . . ولنا أن نتصور فعالية هذا السلاح حين نتأمل كيف قابل القرار الذي أصدرته سلطات الاحتلال بمنع شراء الملح إلا من السلطات . . إنه لم يقف خطيباً بين الناس منددا بالاستعمار مطالباً إياه بحقوق الشعب الهندي . . بل إنه فعل أمراً بسيطاً لكنه مدهش في آثاره . . خرج في مسيرة تحمل الدلاء إلى البحر ليعلم الناس كيف يحصلون على الملح بجهدهم . . وكان هذا العمل هو الذي حطم القانون . .

وهكذا كشف زعيم الهند لشعبه عن كنز مبارك ينحصر في أداء الواجب وكان هو القدوة العملية في ذلك حتى أنه كان يغزل ثوبه بيده ولا يأنف من الظهور به في المحافل الدولية رغم خشونته وغرابته لأنه يحمل قداسة القيام بالواجب .

وقد يشمئز المسلم لما نضرب له مثلاً بهؤلاء من الشيوعيين والبوذيين واليهود والهنادك . ولكن حتى هؤلاء قد تحركوا وكشفوا الطريق واستخدموا السنن للوصول إلى حضارة في الدنيا بينما جلس المسلم مع أمانيه وأحلامه يجتر ماضيه ويعلل النفس بأمجاده السالفة . . ويقنع نفسه بأن له الآخرة . . ولكن أنى لمن ترك الدنيا للظالمين يعيثون فيها فساداً ويكشفون العلوم والسنن ليسخروها في استعمار البشر ومص أرزاقهم . . أنى لمن تخلى عن دوره في الدنيا في إقامة القسط ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله . .﴾ (النساء/١٣٥) . . . أنّى له أن يصل إلى ما يصبو إليه .

«الحق ليس هدية تعطى ولا غنيمة تغتصب وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب»[1]. والمجتمعات تختلف بحسب نسبة الواجبات فيها على الصور التالية :

مجتمع تُؤدى فيه واجبات أكثر مما يوزع فيه من الحقوق = مجتمع متقدم .

مجتمع تُؤدى فيه واجبات تساوي ما يوزع فيه من الحقوق = مجتمع واقف في مكانه .

مجتمع تُؤدى فيه واجبات أقل مما يوزع فيه من الحقوق = مجتمع متدهور .

---

(١) من كتاب شروط النهضة ، تأليف : مالك بن نبي .

ولنا بعد ذلك أن نتأمل الصور المؤلمة في عالمنا .. المدرس .. والعامل .. والموظف .. هل يعطي كل منهم أكثر مما يأخذ .. اتباعاً لتوجيه نبينا ﷺ «اليد العليا خير من اليدالسفلى» ؟ ! بل إن الجميع يتنافسون على الأخذ .. وتلك هي جرثومة التخلف التي تنخر في كياننا .

وإذا كان الله سبحانه قد حكم على بني إسرائيل بالتيه في الأرض أربعين عاماً لنكولهم عن أداء الواجب وقولهم لموسى ﴿إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها .. فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ (المائدة / ٢٤) .. فلقد مضت علينا أجيال وقرون ونحن في التيه سادرون وروادنا مشغولون بالحديث عن روعة النور وبهائه وجرائم الشياطين الذين ينشرون الظلام .. ولكن كيف نصل إلى النور ونتخلص من الظلام .. ؟ !

إن الذي يرى ما يجري في مواقف المواصلات في بعض البلاد الإسلامية من فوضى وتزاحم ومخالفات ليتساءل : هل يتمتع الفرد في مجتمعنا بالضمانات المادية والمعنوية الكافية .. ؟

وحتى لا نخطىء ـ كما تعودنا ـ فنضع المحراث أمام الثور ونلقي بالمسؤولية على أكتاف الآخرين أحب أن نتذكر صورة صناديق القمامة التي وزعت في سائر الطرق والشوارع ومع ذلك فإنك ترى أعاجيب القذارة متناثرة في الشوارع والحدائق ووسائل المواصلات .. ومن منا لا يتخلص من تذكرة الحافلة أو منديله المتسخ أو أوراق السكاكر فيلقي بها كيفما اتفق .. ؟ !

إن الحل يأتي بأن تبدأ من نفسك فتروضها على أداء الواجب ثم تشجع الآخرين وتعلمهم .. ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرِّض المؤمنين﴾ (النساء / ٨٤) .

سيقولون : يا له من طريق طويل بطيء .. ! !

وحقاً إنه لكذلك .. لكنه هو الطريق الصحيح للوصول . وكلما تأخرنا في الاتجاه

إليه أو غفلنا أو تهاونا .. تأخرنا في الوصول إلى الحقوق ..

لحظة يا صاحبي إن تغفل ... ألف ميل زاد بعد المنزل

ولكن ما الذي يدفع الإنسان إلى أداء الواجب والتضحية بشيء من الحقوق . ؟ إنه المثل الأعلى .. وكل أمة لها مثل أعلى يدفعها إلى الحركة وهدف تسعى للوصول إليه وتكرس حياتها من أجله . فإذا تحدثنا عن روسيا والصين واليهود كنماذج في أداء الواجب .. فإننا لا نقصد أن نتعلم منهم مثلهم الأعلى ، ولا نقارن أو نسوي بينه وبين الإسلام الذي هو دين الله سبحانه وتعالى .. وإنما نتحدث عن طريقتهم في تحقيق مثلهم الأعلى ؛ فلقد كشفوا سنناً واستخدموها في إنشاء حضارتهم كان الأحرى بالمسلمين أن يسبقوهم في اكتشافها .. وهي سنن عامة يمكن أن تخدم الجميع . أما الدافع المحرك للمسلم الذي يجعله يندفع لأداء الواجب فهو : الخوف من الله والرغبة في رضاه .. وقد توجد معه دوافع أخرى كالرغبة في الخلاص من التخلف مثلاً .. ولكنه يبقى هو الدافع الرئيس .

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾

إن مخافة الله هي التي دفعت الصحابة إلى التنافس والتسابق على الواجب .. أبو بكر وعمر يتنافسان على خدمة امرأة عجوز .. وعمرو بن الجموح يريد أن يطأ بعرجته الجنة . .وعبد الرحمن بن عوف يقول لأخيه الأنصاري - وقد آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار - بعد أن عرض عليه نصف ماله ... بارك الله لك في أهلك ومالك ولكن دلني على سوق المدينة ... والمسلمون يسمعون آية تحريم الخمر تتلى في أسواق المدينة فيقوم كل منهم إلى ما يملك منها فيريقه . حتى يمج الشاربون ما في أفواههم من الخمر خوفاً من الله .. و «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل»[1] .

يذكر أن رجلاً صالحاً سمع سكيراً ينشد في العشر الأخير من شعبان :

إذا العشرون من شعبان ولوا ... فواصل شرب ليلك بالنهار

ولا تشرب بأقداح صغار ... فإن الوقت ضاق عن الصغار

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

فتأوه الرجل وقال : حقاً إن الوقت ضاق عن الصغار . . ! !

﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ (المؤمنون /٥٧ - ٦١) .

سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن هذه الآيات : ﴿الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة . . .﴾ أهو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ ! قال : «لا يا بنت الصديق ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل»[1] . إن الخوف من الله هو الذي يولد إرادة الحركة عند المسلم . . والمسلم الآن يقول : أريد ولكن لا أستطيع . . والقرآن يقول : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ (التوبة /٤٦) . ولقد كان بلال عبداً حبشياً لا يملك مالاً ولا جاهاً . . لكنه لم يقل : من أنا حتى أغير أفكار قريش وأعمال سادتها . . بل اندفع لأداء الواجب بإصرار ولم يرهبه شيء من العذاب والنكال . . .

إن الإرادة مثل القوة الكهربائية التي تحرك حين توجد الآلات والأجهزة . . والإنسان الذي شعر بالخوف من الله والرغبة في رضاه لن يتمكن أحد من إرهابه ولو بالقنابل الذرية . . قد يقضون عليه لكنهم لا يستطيعون إيقافه عن العمل . . ولقد كان ابن تيمية - رحمه الله - يؤلف كتبه في السجن ويكتب بقطع الفحم على الجدار .

ولكن مرة أخرى ينبغي أن نتذكر أن الإخلاص إن لم يُسْق بماء الصواب إما أن ينفجر في صورة عنف يمزقه أو يبدأ بالضمور والاختناق .

والأمة في صعود طالما تعطى الأولوية فيها للمثل الأعلى . . لكنها حين تتخلى عن مثلها الأعلى - وهو روح حضارتها - وتعطي الأولوية للغرائز والتمتع فهي في خط الانحدار[2] . . فكأن الآية هنا تذكر العامل الثاني في تخلف الأمة وهو : **ضعف سلطان المثل الأعلى** .

---

(١) أخرجه الترمذي .

(٢) تحدث عن ذلك مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة حين تناول دورة الحضارة .

٢"ـ آمنوا بمحمد ﷺ واستقيموا :

وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

وأتباع الأديان السماوية يُنتظر منهم أن يكونوا أول من يؤمن بالدين الجديد الذي جاء مصدقاً ومكملاً لما معهم . .

وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ

فما بالهم يتصدرون أعداءه ويسبقون الناس في التكذيب والكيد له . .

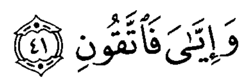
وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا

سئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال : الثمن القليل الدنيا بحذافيرها[1] .

ولقد دفعهم الحرص على المركز والسيادة إلى الإعراض وكتمان الحق الذي يعرفونه ـ وهو أن محمداً ﷺ رسول من عند الله ـ فوصفهم الله بأنهم قد باعوا آيات الله بثمن بخس . وكتموا العلم طلباً للدنيا . و«من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة»[2] .

وكل شيء تترك من أجله مجلساً تتعلم فيه آيات الله هو ثمن قليل بِعت به آيات الله . . وحرص المسلمين اليوم على العاجلة وإيثارهم الراحة واجتناب المشكلات يجعلهم يهملون تعلم وتعليم آيات الله . إننا نوحي لأولادنا بروح التسليم للمفاهيم السائدة وعدم معارضتها ولو كانت تخالف آيات الله . . لأننا نخشى عليهم أذية الناس . . ولا نخشى عليهم مما تَوَعَّد به الله تعالى كاتم آيات الله . . ؟ ![3] .

والله يقول :



بدلاً من أن تخافوا من المستكبرين وتسكتوا عن الحق من أجلهم . أو تخافوا من نقد الناس ومخالفة الرأي العام . . ﴿أتخشونهم . . ؟ ! فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ (التوبة /١٣) .

وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ

اللبس هو خلط الباطل بالحق . وكانوا يخلطون كلام الله بكلام من عندهم حتى لم يعد بالإمكان التمييز بينهما . وهذا اللبس يقع من المسلمين الآن فيسمون الربا فائدة

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسير الآية .

(٢) في سنن أبي داود عن أبي هريرة .

(٣) ارجع إلى الآية ١٥٩ والآية ١٧٤ من سورة البقرة في بيان عقوبة كتمان العلم .

والتهتك حرية . . . وهناك أيدٍ تعمل ليل نهار على خلط الباطل بالحق والتلبيس على المسلمين . ولسنا في حاجة إلى أمثلة كثيرة فإن الدعاية الآن فن قائم بذاته تفعل في هذا القرن فعل السحر وتقوم على دراسات نفسية مسبقة . . ﴿شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فَذَرهم وما يفترون﴾ (الأنعام /١١٢) . فهل هؤلاء هم سبب المشكلة ؟ . . وهل نستطيع القضاء على الشياطين وإنهاء دورهم على الأرض . . ؟ !

إن الشيطان سيبقى على الأرض إلى يوم الدين : ﴿قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم﴾ (الحجر/ ٣٧ ـ ٣٨) . ولكن العلة فينا نحن : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ (الحجر /٤٢) . . وهل يمكن لمن درس وتأمل في مضار التدخين أن يصدق ما تقوله له الدعايات عن سيجارة كذا وكذا . .؟ إن السبب الأول هو الجهل وكتمان الحق . . ولهذا يقرن القرآن بين الجريمتين :

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ .

فالإلباس والخلط لا يسري إلا بعد الجهل. وفي عالمنا قلَّ ما نجد برامج لتعليم القرآن كله والسنة الصحيحة . . ولهذا يصاب المسلم بالحيرة أمام الآراء المتضاربة فهو لا يملك الميزان الذي يزن به الأمور . . ولا نبخس بعض الجهود الإصلاحية التي حدثت في أنحاء العالم الإسلامي ـ من دروس وحلقات ـ لكن الهدف الأول منها : هو الوعظ والتذكير . . ولم يكن الهدف دراسة القرآن والسنة كلياً . .

وهذا الجهل جعل المسلمين يؤمنون ببدع كثيرة على أنها من صلب الدين [1] . . بينما تخفى عليهم منه أحكام وأفكار . . لو جاء من ينادي بها لاتَّهموه بالمروق من الدين . . !

وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

---

(١) يقول ابن تيمية : قال سفيان الثوري وغيره : «إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن البدعة لا يثاب منها والمعصية يثاب منها» المجلد العاشر من الفتاوى صفحة ٩ .

في البداية يحصل كتمان الحق مع العلم به . . ثم يأتي الجيل الذي بعده فيكتم الحق ويتنكر له وهو لا يعلم أنه الحق . لهذا اعتبر القرآن ذنب الكتمان من أفظع الذنوب وتهدد عليه بأشد العذاب . . فهو الذي يؤدي إلى الجهل ثم الضلال ثم النزاع والتفرق والوقوع بأيدي المضللين .

ولا شك بأن الشيطان مجرم بارع الخداع . . ولكن لِمَ نكون نحن الأغرار الذين تنطلي عليهم أساليبه . . ؟ ! ولا شك بأن الاستعمار يخطط لتدميرنا . . ولكن لماذا لا يستطيع أن يمارس جرائمه في بلاد أخرى كالصين واليابان . . ؟ !

إن المجتمع الذي يكتم فيه الحق ضعفاً وخوفاً وطمعاً هو مجتمع قابل للاستعمار .
فالعامل الثالث الذي تشير إليه الآيات في تخلق الأمم هو : كتمان الحق .

وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ

تدل الآية على أن أصحاب الأديان السماوية السابقة قد فرضت عليهم صلوات محددة ـ وإن اختلفت في الشكل والعدد عن صلاة المسلمين ـ والأمر هنا بإقامة الصلاة لتحقيق لبّها الذي هو حسن الصلة بالله الذي سيردعهم عن التكذيب والانحراف ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ (العنكبوت /٤٥) . ويطالبهم بإيتاء الزكاة ومساعدة الضعفاء والفقراء تهذيباً للفرد وتخليصاً له من الشح وإصلاحاً للمجتمع لأن الإنسان يتأثر من حالة مجتمعه ويتضرر من وجود الجهل والفقر والمرض فيه .

وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

لِمَ يأت هذا التوجيه مع أن الآية بدأت بالأمر بإقامة الصلاة ؟ !
ـ قالوا : جعل الزكاة بين الصلاة وصورة منها (الركوع) إبرازاً لأهمية الزكاة .
ـ وقالوا : إن هذا إلزام بأداء الصلاة مع الجماعة .
ـ وقد يكون المغزى هو المطالبة بالخضوع لأمر الله ـ لأنه هو المعنى الكامن في حركة

الركوع لله ـ

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وليس هذا خاصاً باليهود . فلقد قال الله تعالى للمؤمنين أيضاً ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ (الصف /٢) .

والبر : هو جماع الخير . . وحب الذات أصيل في الإنسان . . فكيف ينسون أنفسهم من الخير؟ ! هل يشكُّون في صحة وصلاحية ما يدعون الناس إليه . . ؟ أم يؤثرون العاجلة على ما هو خير وأبقى؟! إن هذا لضعف بيِّن في صدق يقينهم بدعوتهم . .

والعلة في الإنسان أنه كثيراً ما يغفل عن عيوب نفسه بينما ينتبه لأدق عيب في الآخرين ويعظهم عليه . فاحتاج الناس ـ والدعاة خاصة ـ إلى مثل هذا التنبيه . والأنبياء أئمة الدعاة إلى الله كانوا أول من يطبق أمر الله . فقد قيل للرسول محمد ﷺ ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين﴾(النساء /٨٤) . وقال شعيب لقومه : ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه . . ﴾(هود /٨٨) . وكل من يشغل مركز قدوة بالنسبة للناس عليه أن يحترس ويدقق في أعماله وتصرفاته فإن الله سبحانه وتعالى كثيراً ما يضاعف العذاب للقدوة : ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً . ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً . يا نساء النبي لستن كأحد من النساء . .﴾ (الأحزاب /٣٠) . . إن الدعاة إلى الله مطالبون بمزيد من الواجبات ومهددون بمضاعفة العقاب إن تخلفوا وتهاونوا . . بينما نجد رؤساء الدنيا يحقد عليهم الناس ويتعرضون للنقد لأنهم يميزون أنفسهم عن عامة الناس فلا يلزمون

أنفسهم بما يُلْزَمُ به العامة . ولقد قدم لعمر طعام فاخر أثناء زيارته للشام . فقال : هذا لنا . . فما لفقراء المسلمين الذين ما توا وهم لا يشبعون من خبز الشعير . . ؟ ! فقال خالد بن الوليد : لهم الجنة . . فاغرورقت عينا عمر وقال : لئن كان حظنا في هذا الطعام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بوناً بعيداً [1] . ولم يقبل أن يأكل طوال مدة خلافته إلا كما يأكل أفقر مسلم في بلاده .

يقول ﷺ «مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار . قال : قلت من هؤلاء ؟ قالوا : خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟ !» [2] . ويقول ﷺ أيضا : «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه . فيطيف به أهل النار فيقولون يا فلان ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه» [3] . فهل يكتفي الإنسان بالمحاولة الدائمة لإصلاح النفس . . ؟ ! ويترك الآخرين . . ؟

يقول سعيد بن جبير : «لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر . . .» [4] .

والالتزام بالمعروف لا يغني عن الأمر به كما يفهم كثيرون الآية ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ (المائدة / ١٠٥) فهماً مُحرفاً . ولكن الالتزام يحرض الآخرين . ولقد تساءل بعض الصحابة حين نزلت : ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرِّض المؤمنين﴾ (النساء / ٨٤) . هل يواجه الفرد الواحد جيشاً ؟ ! لكن من

---

(١) صفحة ٣٥٥ من أخبار عمر للطنطاويين .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) انظر تفسير ابن كثير .

يؤدي واجبه ويلزم نفسه سيتأسىٰ به غيره . فالالتزام بحد ذاته يحرض الآخرين . وأكثر الناس لا يقبلون الحق إذا كان الداعي إليه لا يطبقه . فالملتزمون وحدهم ـ ولو كانوا على باطل ـ هم الذين يوحون للآخرين بالالتزام . فالعامل الرابع في التخلف هو : **فقدان النقد الذاتي** .

وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ

الصبر والصلاة . . هذا هو الزاد في الطريق الطويل . . طريق الواجبات . . وهذا هو الوقود الذي يمد المحركات ويساعدها على مواصلة الحركة .

والصبر : هو حبس النفس والسيطرة عليها . وهو على نوعين : صبر على ما تكره وصبر على ما تحب . فالإنسان يكره المتاعب ويحب متاع الحياة الدنيا . . وهو حين يؤدي واجبه قد يناله الأذى ويحرم مما يحب . والصبر مرٌّ وثقيل على النفس . . فإنها تشتهي أن تنطلق وراء ما تحب فترد على الكلمة المؤذية بمثلها أو أشد . . والصبر قيد يكبح النفس ويحبسها . . قد يكون الصبر مراً في طعمه لكنه جميل في عواقبه وآثاره . . فهو الذي يضمن الاستمرار في العمل وهذا هو الطريق الوحيد للوصول إلى الهدف . حتى أن الهدف الذي يبدو بعيداً يجعله الصبر قريباً : ﴿فاصبرْ صبراً جميلاً إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ (المعارج /٥ ـ ٧) . . ومع أن الآية تتحدث عن يوم الحساب ولكن يمكن أن تنطبق على وصول المؤمن إلى هدفه . . ألم تأت النتائج سريعة باهرة بعد صبر النبي ﷺ والمؤمنين معه ؟ وفي صورة ما كانت تخطر على بال بعض الصحابة . . ؟ حتى إن عمر كان يقول : لم أفهم الآية ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ (القمر /٤٥) ، إلا عندما رأيت رسول الله ﷺ يوم بدر يرددها . .

ولكن كيف الوصول إلى الصبر؟ ومتى نستطيع أن نصبر؟

إن موقف الإنسان أمام الأزمات يختلف بحسب فهمه لأسبابها وأسلوب علاجها . . فشتان بين من يفر منها منتحراً . . ومن يستسلم لها عاجزاً . . ومن يستنفر جهده لكشف طريق الخلاص حتى يمشي به صابراً متحملاً آلام الطريق لأنه موقن بالوصول .

إن استسلام العاجز لا يمكن أن يسمى صبراً . . بل هو جهل وعجز . . وإنما الصبر ثمرة للعلم والفهم . . ولذا يقل الصبر عند الطفل وينمو مع نمو العلم والإدراك للأسباب وعواقبها . . فإذا كان الصبر نتيجة للعلم . . فهل يمكن أن نحصِّل العلم بدون صبر ؟ !

إن الصبر سبب ونتيجة في آن واحد . . ولكن على درجات ومستويات مختلفة . . فالصبر الذي يلزم لتحصيل العلم إنما هو نتيجة لحد أدنى من العلم وهو : أن تعلم أن تحصيل العلم هو الذي يوصلك إلى الهدف ويذلل لك العقبات . . هذا الحد الأدنى من العلم ـ الذي يمكن أن نعبر عنه بالموقف العلمي ـ ينتج حداً أدنى من الصبر يكفي للانطلاق في طريق العلم . . وبعد ذلك يزداد الصبر بازدياد العلم على طول الطريق . .

والقرآن يستنفر الصبر في نفوس المؤمنين حين يعلق آمالهم بأهداف أسمى وأبعد مدى من كل أعراض الدنيا . ويقول للمؤمنين : انظروا في صبر أصحاب الدنيا . . تأملوا في صبر الذين ناضلوا ليصلوا إلى حياة أفضل . . لقد عاشت فيتنام حياة الحرب عشرين عاماً وهي تقاتل أعتى وأحدث ما وصل إليه البشر من سلاح . . حتى تحررت من أمريكا . . فإذا كان صبر الآخرين هكذا فكيف ينبغي أن يكون صبر المسلم . . ؟ ! فكيف ينبغي أن يكون صبر المسلم . . ؟ !

﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون﴾ (النساء / ١٠٤) . ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا﴾ (آل عمران / ٢٠٠) . والمصابرة : أن تتفوق في صبرك على صبر الآخرين . . ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة . . استعانة بها على استحضار الصبر . . وذكر عن ابن عباس أنه نعي له أخوه وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ فالعامل الخامس هو : **فقدان العلم والصبر** .

إن هذه الوصية أو هذه الواجبات التي ينبه الله إليها في الآيات . . إنها لكبيرة . . وكما قال رسول الله ﷺ للذي سأله : دلني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال : «قد سألت عن عظيم . . وإنه ليسير على من يسّره الله عليه . . » .

إن هذه الوصايا وهذه الواجبات كبيرة وثقيلة . . فلا تستهينوا بالموضوع ولا تستسهلوا دخول الجنة . . فإن الانزلاق في درب السهولة يؤدي إلى الخسارة . . لأن الذي يستسهل الأمر لا يستنفر جهده ولا يقوم بالجهد اللازم ، فإذا واجهته عقبات لم تكن في حسابه ارتد يائساً وتحول من الاستسهال إلى الاستصعاب . . إن كل أمر لا يتوصل إليه إلا ببذل جهد مكافىء . . ذلك ما تقرره الآية :

وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾

فمن هم الخاشعون . . ؟ هؤلاء الذين يدركون أهدافهم وواجباتهم . . الذين عرفوا الطريق . . وعرفوا الزاد الذي يعينهم في الطريق . . وتذوقوا العون الذي يفيضه عليهم خشوعهم في الصلاة فمشوا في الطريق وتزودوا بالصبر والصلاة . يصفهم الله تعالى بأنهم :

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

والقرآن يستعمل كلمة الظن أحياناً بمعنى اليقين مثل قوله تعالى ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها . .﴾ (الكهف /٥٣) .

وأما صاحب المنار فيقول في هذه الآية : [إن مجرد وجود الظن بأننا سنقف بين يدي الله يدفع إلى الصبر وأداء الواجب فكيف إذا كان يقيناً . . ؟] .

إنها الرجعة إلى الله والوقوف بين يديه . . إنها نهاية المطاف مهما تمادت بنا الأيام . . وكلما انسلخ منا يوم ازددنا منها قرباً وتفلتت الفرص من أيدينا . . فهل نتدبر ؟!

يقول ﷺ : «بادروا بالأعمال سبعاً . . هل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنى مطغياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنداً [1] . أو موتاً مجهزاً [2] . أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر» [3] .

فيامن تشعر بصعوبة الصبر على أداء الواجب هل تطيق صبراً على النار . . ؟!
﴿فما أصبرهم على النار﴾ ؟! (البقرة / ١٧٥) .

ومَن مِن الناس لا يكدح ولا يصبر ؟! ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ (الانشقاق / ٦) . ولكن شتان بين من يستمر في كدح أبدي . . ومن يأوي بعد صبره إلى جنة لا تعب فيها ولا نصب .

قال رجل لأحد الحكماء : لا أستطيع الصبر على مشقة العلم . . فقال الحكيم : فتحمَّلْ إذن هوان الجهل . .

ومن يتهيب صعود الجبال … يعش أبد الدهر بين الحفر

٣ - تذكير بالنعمة وترهيب :

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

يتكرر النداء . . ويتكرر التذكير بالنعمة

(١) الفند : كلام المخرف .
(٢) مجهزاً : سريعاً .
(٣) رواه الترمذي .

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾

وضمير الإنسان يخجل ممن أنعم عليه ويأبى ـ إن كان حياً ـ إلا أن يقابل الإحسان بالإحسان . والقرآن يبدأ بهذا الأسلوب ولا يلجأ إلى التوبيخ المباشر . ويذكر بالنعم إجمالاً ثم يفصلها . .

﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾

ومعنى هذه الأفضلية هو اختيارهم لحمل الرسالة إلى الناس في زمانهم واستخلافهم في الأرض فهل يُفهم من ذلك صدق دعوى اليهود بأنهم شعب الله المختار ؟!

يتحدث المؤرخ ويلز في تاريخه عن اليهود على أنهم ـ على علاتهم ـ كانوا بالنسبة للأمم المعاصرة لهم . . الأمة التي ترتبط بفكرة إله أحد عادل يحكم في الأرض ويرتبط بوعد خاص قطعه على نفسه أن يحفظ الشعب اليهودي ويرفعه مكاناً علياً [1] .

[وواضح أن هذه السلسلة المتصلة بعضها ببعض من المجتمعات المتهودة كانت تنعم بتسهيلات وفرص عظيمة جداً من الناحيتين المالية والسياسية فكانوا يستطيعون أن يجمعوا الموارد والقوى . وكانوا يستطيعون أن يستثيروا وأن يهدئوا . وما بلغوا من الكثرة ولا الحضارة مبلغ الاغريق الذين كانوا حتى آنذاك أوسع انتشاراً . ولكن كان لهم تراث قديم من تماسك أقوى مما كان لدى الإغريق . فكان الإغريقي عدواً للإغريقي أما اليهودي فكان لليهودي أخاً ونصيراً . فحيثما حَلَّ يهودي وجد رجالاً لهم عقل مثل عقليته وتقاليد كتقاليده . فكان في وسعه أن يجد المأوى والطعام والقروض المالية والعون القانوني . من أجل هذا التماسك اضطر الولاة أن يحسبوا لهؤلاء القوم حساباً في كل مكان إما بوصفهم مصدر عون لهم ومنهلاً للقروض أومورداً للمتاعب . وهكذا حدث

(١) معالم تاريخ الانسانية (هـ.ج.ويلز) المجلد الثالث . صفحة ٦٧٥ .

أن اليهود ظلوا محتفظين بكيانهم كأمة . .][1] . . . . [فاليهودي لم يفتأ يؤمن بوحدانية الإله إيماناً راسخاً وهو لا يقبل أي إله آخر إلا الإله الواحد الحق . وإنه ليقف في روما كما يقف في أورشليم رافضاً في رجولة عبادة أي قيصر رب . كما أنه استمسك جهد طاقته بمواثيقه مع ربه . فلم يكن يسمح بدخول أية تماثيل إلى أورشليم . بل إن الأعلام الرومانية نفسها بما عليها من نسور اضطرت أن تبقى خارج المدينة .][2] .

ومع ذلك فإن المؤرخ يلاحظ بإدراك عميق أن : [الفكرة اليهودية كانت وما تزال مزيجاً عجيباً من رحابة أفق لاهوتيـة وطنية عنصرية حادة مركزة . .](٣) ويشعر بضرورة ظهور معلم جديد عظيم . . [يحرر الإدراك العميق لبر الله ووحدانيته التي لا تقبل تحدياً ولا جدلاً والتزامات الإنسان المعنوية قِبَل الله . وهي التي كانت دعامة لقوة العقيدة اليهودية السلفية . . يحررها من ذلك الضيق الاعتزالي الجشع الذي كان يخالطها في الذهن اليهودي مخالطة خارقة للعادة . كان ذلك المعلِّم هو يسوع (عيسى) الناصري . .](٤).

والادعاء والتبجح مرض يصيب الأمة عندما تتقلص أعمالها ويتضخم كلامها . ألم تدَّع أمم أخرى مثل هذه الدعوى . . ؟ ألم تقم النازية على تفضيل العرق الآري على سائر الأجناس . . ؟ بل إن المسلمين الآن ـ رغم تخلفهم ـ ينظرون إلى العالم نظرة استعلاء . والحق أنه قد آن لنا أن نخرج من دوامة العنصريات والقوميات الضيقة في هذا العصر الذي بدأ فيه الاتجاه إلى الوحدة والعالمية . خاصة وأن إسلامنا يدعونا إلى ذلك : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات /١٣) . وكما أن الفرد لا يكون فاضلاً بادعائه ذلك حتى يشهد له الناس ، كذلك الأمم لا يُعترف لها بالفضل بالمدح والفخر. . وإنما

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية ، ويلز ، المجلد الثالث ، ص ٦٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٧٨ .

(٣) صفحة ٦٧٥ من المصدر السابق .

(٤) صفحة ٦٧٩ من المصدر السابق .

بشهادة التاريخ لها . . وبما قدمته للإنسانية من خير . والمسلمون الآن يحتارون بين نقيضين . . بين عقدة التسامي الموروثة عندهم وبين واقعهم الذي يمثل الجزء المتخلف من العالم . . فيتخذون مواقف شتى :

١ ـ فطائفة تنظر إلى الأمم المتقدمة نظرة انبهار وتؤمن بضرورة تقليدها للوصول إلى حضارة . . (ويسميهم مالك بن نبي أتباع الحركة الحديثة . فهم ينظرون إلى الحضارة الغربية بمنظار طاهر مقدس ولم يروا منها إلا الجانب المضيء)(١) .

٢ ـ وطائفة تنظر إلى الحضارة الغربية على أنها شيطان دنس لأنهم لم يروا منها إلا الجانب المعتم . وهذه نقطة هامة ينبغي مراعاتها في تربية أولادنا وأثناء القيام بالأمر بالمعروف . . فإن أسلوب القرع بالعصا لا ينشىء إلا جيلاً من العبيد لم يتذوق حرية الفكر وكرامة الإنسان ولا يرجى منه أن يسعى إلى الارتقاء .

وكلا الموقفين خاطىء لأنه قاصر على رؤية جانب واحد . . فهي نظرات ذاتية لا تنظر إلى الأمر من جوانبه المتعددة . وإن فقدان العلم بالميزات الحقيقية التي تجعل من أمة أفضل من أخرى هو الذي يؤدي إلى مثل هذه المواقف الهزيلة . ولا ينبغي لنا أن نخدع برؤية مظاهر القوة والغنى في أمة تنكرت لقيم الدين والأخلاق وانطلقت تستعلي وتستعمر في الأرض . . فقد تعطى شيئاً من المكاسب الدنيوية تتناسب مع ما بذلت من جهود في هذا المضمار . . لكن عواقب الإفساد في الجوانب الإنسانية والتعبدية لا بد أن تظهر في أوانها ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ (لقمان /٢٤) .

فالأمم ـ كالأفراد ـ لا توزن بثرائها المادي ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى . .﴾ (الزمر /٣) . وإنما بصلاحها وحرصها على العدل ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ (القصص /٨٣) . ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ (الأنبياء /١٠٥) .

---

(١) راجع كتاب وجهة العالم الإسلامي لمالك بن نبي حيث تحدث عن الحركة الحديثة وحركة الإصلاح .

وهذا لا يمنع من الاعتراف بالجانب الذي بذلوا فيه جهداً وخرجوا بنتائج جيدة . فالقرآن يعلمنا : ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ (الأعراف / ٨٥) . إذ أننا لا نشك في أن أصحاب الاختصاصات ينجح كل منهم في اختصاصه . . وكذلك الأمم تحصل على التفضيل والأولوية في الجوانب التي وجهت إليها العناية بالفهم والممارسة . ويبقى التفضيل مقيداً بمدة الاستقامة على العمل الذي استحقوا به التفضيل . . فلما أفسد بنو إسرائيل في الماضي نكل الله بهم ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً﴾ (الإسراء / ٥) . يقول صاحب تفسير المنار عند الآية

وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

[إحياء لشعور الكرامة في نفوسهم . . . . وهذا أسلوب حكيم في الوعظ فينبغي لكل واعظ أن يبدأ وعظه بإحياء إحساس الشرف والشعور بالكرامة . . فإن النفس إذا استشعرت كرامتها وعلوها ونظرت إلى ما في الرذائل من خسة أبى لها ذلك الشعور أن تنحط الى هذه الخسائس .] .

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا

بعد التذكير بالنعمة والترغيب بالفضل يأتي التحذير من عاقبة الغفلة عن يوم رهيب مروع يقفون فيه أمام الله مجردين من كل عون . . حيث لا تجزي نفس عن نفس شيئاً . . ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور .﴾ (لقمان /٣٣) . إن جزاء الآخرة فردي . . فلا تنفع عند الله قرابة ولا شفاعة ولا وساطة . .

كما قال في آية أخرى : ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ (المدثر /٤٨) . إن الشفاعة في الدنيا تتمثل في رجوع الحاكم عن إيقاع العقوبة على المذنب لتوسط رجل ذي مكانة عند الحاكم فيرجع عن حكمه إرضاء للوسيط مع قناعته بأن العدل يقتضي العقاب . . أو يأتي مَنْ يدافع عن المحكوم ويبين أنه مظلوم بريء ويُطلع الحاكم على ما كان خافياً عليه من أدلة براءته . . فيرجع الحاكم عن حكمه . ففي الحالة الأولى يكون الحاكم ظالماً . . وفي الثانية يكون جاهلاً . فهل يمكن أن يحدث شيء من هذا مع رب العالمين ؟! ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾ (الإسراء/٤٣) .

فكيف نفهم بعض النصوص التي تثبت الشفاعة للنبي ﷺ ولغيره من الشهداء والصالحين ؟ من مثل حديث الشفاعة الطويل الذي يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ عن يوم القيامة وكيف يقصد الناس الأنبياء كلهم واحداً بعد الآخر طالبين منهم الشفاعة فيعتذرون . . فيأتون محمداً ﷺ طالبين منه الشفاعة «فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي . ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سَلْ تُعْطَه واشفع تُشفع . فأرفع رأسي فأقول : أمتي يا رب . . أمتي يا رب . . أمتي يا رب . فيقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب»[1] .

يقول صاحب المنار عن الشفاعة : [ليس معنى الشفاعة هنا أن الله يرجع عن إرادة كان أرادها لأجل الشافع وإنما هي إظهار كرامة للشافع بتنفيذ الإرادة الأزلية بعدَ دُعائه] . وقد ذكر النبي ﷺ أن شفاعته لا تقبل إلا فيمن يستحق : «ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضّال . أناديهم : ألا هلمَّ . . فيقال : إنهم قد بدلوا بعدك . فأقول : سحقاً . . سحقاً»[2] فكيف يدعي المسلم أن النبي ﷺ سيشفع له

---

(١) متفق عليه .

(٢) الحديث ١٢٩ من مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري .

لمجرد نطقه بالشهادة أو لأنه يصلي على النبي عدد كذا وكذا من المرات . . .؟!

وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ

أي فدية كقوله تعالى ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ (آل عمران / ٩١) .

وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)

ومن ذا الذي يستطيع نصرهم وإنقاذهم من عذاب الله وحكمه . .؟! لقد تعطلت كل وسائل الدنيا التي كنا نلجأ إليها في الخروج من الأزمات . . ولا ينفع العبد في ذلك اليوم إلا توبة نصوح كان قد تابها قبل فوات الأوان .

ومن المفيد أن نلاحظ أن التذكير باليوم الآخر مبثوث في ثنايا القرآن . . ولم يخصص له جزء معين أو سور معينة منه . . بل هو مطروق في كل صفحة منه تقريباً وبأساليب منوعة لغرض تربوي تأثيري . . فالتلاوة اليومية تحافظ على توتر المسلم وترقبه لليوم الآخر وتذكي حرارة الإيمان . . إن الإيمان البارد لا يستطيع أن يتغلب على العقبات البسيطة ولا يكفي لدفع الإنسان كي يترك المخالفات الصغيرة . . فمتى نُقدم على عظائم الأمور ؟!

وإن اهتمامنا بالدراسة والوعي والفهم لا يعني إهمالنا لتنمية التقوى . . وعالمنا الإسلامي يفتقر إلى التوازن لأنه حين يهتم بجانب يهمل الآخر . . كالذي يترنح على قدم واحدة . . ولا توازن إلا بالحرص على الجانبين : الإخلاص والصواب . والإخلاص في صورته السليمة ينبغي أن يكون دافعاً باستمرار إلى مزيد من العلم والعمل . . والذي يستحضر هول المحشر وضجيجه . . ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون . ما لكم لا تناصرون ؟! بل هم اليوم مستسلمون﴾ (الصافات / ٢٤) . والذي يعيش في كنف القرآن ويستحضر هذه المعاني لن يبقى على خموله وتردده . . وإنما يتحرك ويسرع

ويبحث ويفكر ليصل إلى طريق الخلاص . إنها حالة الاستنفار التي عاشها الصحابة حين كانت صورة الجنة والنار لا تفارق أذهانهم .. يجدون ريح الجنة في المعارك فيسرعون .. ويحسون لذع النار عند المعاصي فيفرون منها ..

■ ٢ ■

نجاة بني إسرائيل

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

يخاطب الله اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ وكأنهم هم الذين نجاهم في عهد فرعون .؟!

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ

إن القرآن ينظر إلى الأمة على أنها كيان واحد منذ نشأتها إلى هرمها ..ـ وهي النظرة التي ينظر بها بعض علماء الاجتماع والتاريخ ـ وإن أثر التراث على الأجيال لم يعد خافياً .. فنحن نحمل مفاهيم أسلافنا .. وتاريخهم يحفر آثاراً في لا شعورنا تنعكس على سلوكنا . فكأن القرآن يعلمنا كيف نفهم الأمم ويشعرنا بضرورة استحضار تاريخ الأمة التي نتعامل معها .. وكيف أن مناقشة التراث وتقييمه له أثر كبير في تصحيح

المواقف المعاصرة وتقويمها . .[1] والله أعلم .

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ :

سام الماشية : أي جعلها سائمة ترعى دائماً . . فكأنهم جعلوا لكم العذاب هو المرعى والغذاء الدائم الذي ترتعون فيه . ومن هذا العذاب : الأمر الذي أصدره فرعون بقتل الذكور من المواليد في بني إسرائيل وإبقاء الإناث على قيد الحياة لإذلالهم والحد من تكاثرهم .

وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

والبلاء هو الاختبار والامتحان . . ولقد كان العذاب والنجاة امتحاناً لهم . . وإن البلاء هو الحقيقة التي تواجهنا في كل لحظة ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ (الملك /٢) . ونحن نواجه امتحاناً مستمراً نقف فيه أمام الله . . فهل نرهبه ونستعد له كما يستعد الطلبة لامتحاناتهم المدرسية . .؟!

وبعد هذا البلاء نجاكم وأهلك عدوكم أمام أعينكم فكيف تعرضون عن طاعة الله وتنسون نعمه ؟!

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

ولقد كانت هذه النجاة جزءاً من البلاء ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ (الأنبياء /٣٥) . إن الله تعالى إذ يذكر هذه الأحداث التاريخية إنما يُعلِّم الإنسان أن الأحداث حلقات متعاقبة في سلسلة متصلة الأطراف . . فكل حادث يأتي نتيجة لما سبقه من

---

(١) سبق أن تناولت هذه الفكرة في تفسير سورة النساء عند الآية ١٥٣ .

الأحداث . . وسيكون أيضاً سبباً لما سيحدث في المستقبل . . وبهذا تبدو حياة الأمم حلقات متواصلة في قصة الحضارة . ولنا أن نتصور الأمم كالأعضاء والأجهزة المتعددة . . كل عضو أو جهاز له نسيجه وخلاياه الخاصة وحياته العضوية الخاصة به . . وعلاقته الاتصالية مع كيان الجسم كله . . وهكذا تبدو حياة الأمم في النهاية تيارات متدفقة تلتقي لتعطي الحيوية لهذا الجسم الواحد الذي هو حياة البشرية بأسرها . . ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ (لقمان /٢٨) . . وكما أننا نجري الفحوص والدراسات على سائر الأعضاء والأجهزة في الجسم الإنساني لنكشف موضع الخلل ونعالجه حرصاً على سلامة الجسم . . فكذلك ينبغي إجراء الدراسات والفحوص على حياة سائر الأمم في ماضيها وحاضرها لكشف الأمراض ومعالجتها حرصاً على سلامة الحياة الإنسانية وضمان نموها . . وهنا تبدو أهمية التاريخ وأهمية شهود الأحداث ومراقبتها وتحليل عواملها وأسبابها . . والقرآن أول كتاب يعطي الأهمية الكبرى للتاريخ ويجعل منه علماً لابد من دراسته وتسخيره لخدمة الإنسانية إذا كنا نرغب فعلاً بتحقيق رقي وتقدم إنساني . . بل لوقاية أنفسنا من دمار الدنيا قبل الآخرة ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾ (الروم /٤١) .

ولقد عني المسلمون الأوائل بالتاريخ بدفع من القرآن . . ثم دفعهم الحرص على الحديث والتدقيق في الرواة إلى كتابة الكتب في سير الرواة وغيرهم . . وبدأوا في كتابة التاريخ إلى أن ظهر ابن خلدون بتاريخه ذي المقدمة الشهيرة فحوّل كتابة التاريخ من مجرد سرد للحوادث إلى الكشف عن قانونها ورؤية أسباب نهضة الأمم وعلل سقوطها . . ثم استسلم العالم الإسلامي للركود وتخلى عن الدراسة والبحث فتلقفته الأمم الأخرى . . يقول حكيم صيني : إن الإنسان يحتاج إلى النظر في التاريخ ليعدل أفكاره (وبالتالي يصحح سلوكه) كحاجته إلى النظر في المرآة ليعدل قلنسوته .

ويفكر المؤرخ ويلز في أن يقدم خدمة للإنسان تنفعه وتدفعه نحو الرقي قدماً فلا يجد أفضل من كتابة تاريخه (معالم تاريخ الإنسانية) لأنه شعر بأن الإنسان أحوج ما يكون إلى معرفة تاريخ الإنسان ليصحح ويوحّد مسار الإنسانية .

من لم يَعِ التاريخ في سره ... لم يدر حلو العيش من مره
ومن وعى أخبار من قد مضى ... أضاف أعماراً إلى عمره

يقول محمد إقبال في الفصل الخامس من ديوانه الرموز : «ما التاريخ يا غافلاً عن نفسه ؟ أتراه قصصاً وأحاديث وخرافات ؟ إنه الذي يعرفك نفسك ويبصرك طريقك . . إنه حرارة الروح وأعصاب الملة [1] . إنه المسن الذي يشحذك كالخنجر ثم يضرب بك في هذه الدنيا . . أحكم تاريخك تحكم نفسك . وصِلْ بيومِك أمسكَ . إن حالك يطلع من ماضيك ويشرق من حالك آتيك . . فإن ترد الحياة الخالدة فلا تقطع سلسلة هذه الثلاثة . إنما الحياة موج هذا التسلسل .» [2]

ـ ٣ ـ
إيتاء موسى الكتاب

وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ

---

(١) كأنه يقصد : يجعلك تتحمس للأوامر لأنك فهمت حكمتها . (وهو أعصاب الملة) يقوم بإيصال الأوامر إلى الأعضاء .

(٢) محمد إقبال : سيرته وفلسفته وشعره لعبد الوهاب عزام صفحة ١٥٩ .

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾

كأنه يقول لهم : اذكروا نعمتي في عفوي عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه[1] . وفي إيتائكم الهداية من السماء . . كتاباً يفرق بين الحق والباطل . . .

وهنا إشارة إلى العامل السادس في تخلف بني إسرائيل وهو : **الانحراف في التوحيد** .

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ

وكأنه يزيد من تعنيفهم بترديد صفة الله : بارئكم - أي خالقكم - الذي تاهوا عنه حين عبدوا عجلاً لا يضر ولا ينفع . ويوجههم موسى إلى القيام بالتوبة التي طلبها الله منهم : وهي أن يقتل المؤمن منهم العاصي الذي عبد العجل . وقد تاب الله على من قتل ومن لم يقتل منهم .

هذه الآيات تكشف لنا كيف كان موسى عليه السلام يجاهد لتحقيق عملية التغيير الجذري في نفوس بني إسرائيل . وكانت الأخطاء تصدر عن قومه متتالية تشي بثقل

---

(١) انظر تفسير ابن كثير للآية .

ما تحمل النفوس من رواسب الوثنية وتشعر بضحالة فكرهم وضعف اتصالهم بالحقائق . . فما كاد شخص موسى يغيب عنهم حتى انفرط عقدهم وتخلوا عن الفكرة وانساقوا وراء شخص آخر (السامري) وسقطوا من جديد في وهدة الدجل والخرافة. وليس هذا شأن من كشف الحقيقة وارتبط بها . .

إن عملية التغيير الفكري ليست سهلة وكم اقتضت من المؤمنين خوض امتحانات عديدة تكشف لهم عن مدى ما حققوه من تغيير في صلاتهم مع الحقائق . وهنا يبرز الجانب الهام الوضيء من المحن والفتن . . إن أهميتها بالنسبة لعالِم الاجتماع كأهمية فحص الدم وقياس الضغط بالنسبة للطبيب . **فمن الضروري أن تظهر في كل عصر عجول وأوثان مختلفة تتزين للناس وتحاول بشتى الوسائل أن تلحق الهوان بالفكرة . . فيتساقط الضعفاء مبهورين ببريقها . . أما أتباع الحق . . أولئك الذين تذوقوا حلاوته حتى تفاعلت معه عقولهم وأرواحهم فهيهات أن يخدعوا ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾** (الحجر /٤٢) . وما أجدر المسلمين أن ينتبهوا ويحذروا . . فما أكثر العجول التي أرهبتم أو استهوتهم فخضعوا لها . . إن عجل الخرافة والبدع ما زال يبرق في عالمنا . . وخوار عجل التقليد والتقديس للأشخاص قد طغى على كل بادرة للاجتهاد والتجديد في الفهم . . ولن نتخلص **من أنواع الشرك ومظاهره حتى** نتحرر من الجهل . . **فإن الشرك في جوهره هو التفسير الخاطىء للكون وقوانينه بحيث** نتوهم الضار نافعاً ويخفى علينا ما ينفعنا فنعرض عنه . **ولذا عبر القرآن عن التوحيد أنه يُنال بالعلم** ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ (محمد/١٩) .

■ ٤ ■

طلبوا رؤية الله

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧ ﴾

قيل إن الذين قالوا :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

هم السبعون الذين اختارهم موسى من بني إسرائيل للذهاب معه إلى ميقات ربه (الثاني) . فطلبوا رؤية الله كشرط للتصديق . . والله أعلم .

ولقد ظهرت هذه النزعة المادية عند بعض المتأثرين بالعلم المادي الذي قصر اهتمامه على عالم المحسوس . لكنها لم تعد جديرة بالنظر إذ أن الإنسان يؤمن بأشياء كثيرة لا يراها ولا يلمسها ولا يدرك لها شكلاً (مثل : الروح والعقل والكهرباء . .) .

﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ﴾

عقاباً منه ـ سبحانه وتعالى ـ على هذا التطاول . . .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

إما بعثهم وأحياهم هم أنفسهم بعدما أخذتهم الصاعقة عقوبة لهم. أو أنه بارك في نسلهم بعد أن أوشكوا على الانقراض بعد الصاعقة.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾

قالوا في المن: إنها حلوى كانت تنزل من السماء... يقول ابن كثير: [والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كدٌّ]. والسلوى: طائر يشبه السماني كانوا يأكلون منه.

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾

فإن الله يحب من عبده أن يأكل من نعمته ويحمده عليها. فهل عرفوا قيمة فضل الله عليهم ..؟ وهل تواضعوا لله وأمره؟

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

والقرآن هو الكتاب الذي نبه إلى ظلم الإنسان لنفسه **واعتبره البؤرة التي تنبثق منها كل المظالم**.. «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.»[1].

إننا نتوهم أننا ضحايا ظلم الآخرين .. أو حتى .. ظلم القدر والعياذ بالله من هذا الظن!! فمتى ندرك أن ظلم الاستعمار لم يكن ليقع لولا وجود القابلية للاستعمار؟!

(١) صحيح مسلم.

وأن ظلم المستكبر ما ظهر لولا وجود المستضعف وظلمه لنفسه . . ؟! لم لا نذكر عند الأزمات قول الله لنا ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ ؟! (آل عمران / ١٦٥) .

■ ٥ ■

أمرهم فبدلوا

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

قيل إن القرية التي أُمروا بدخولها هي بيت المقدس وذلك بعد مقاتلة الجبارين الذين فيها مع وعدهم بالنصر . .

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا

ولكنهم قالوا : ﴿يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . . . . إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ (المائدة / ٢٤) . فكتب عليهم التيه أربعين سنة حتى نشأ جيل جديد بقيادة يوشع بن نون فتح المدينة ودخلها . . لكن على غير الهيئة التي أمروا بها . . وفي تفسير المنار يقول : [نسكت عن تعيين القرية كما سكت القرآن . فقد أمر بنو إسرائيل بدخول بلاد كثيرة . . وأمروا بالدخول خاشعين لله خاضعين لأمره (سجداً)

طالبين حط الخطايا عنهم] .

وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

ففي مواطن النصر يخضع المؤمن لربه ويستغفر لذنبه ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً .﴾ (سورة النصر). ولقد دخل محمد ﷺ يوم الفتح إلى مكة ساجداً على بعيره . . أما هؤلاء :

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ

يقول ﷺ : «فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا حبة في شعرة»[1] . فالتبديل والتحريف للآيات هو العامل السابع في تخلفهم .

فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

ويلفت نظرنا قول الله في الآية : ﴿فبدل الذين ظلموا﴾ . . أي طائفة منهم وليس كلهم بدلوا وهذا من دقة القرآن في الإخبار ومن إنصافه فلا يعمم الحكم بل يستثني حتى الأقلية . . ثم يقول : **﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً﴾** فكأن العذاب نزل خاصاً بالمخالفين . . **علماً بأن النتائج في الدنيا تأتي بحسب الأكثرية** . فإن كان الظالمون هم الأكثرية عم العذاب على الجميع . . **كذلك إن سكوت الناس عن المنكر وعدم محاولتهم رد المخالفين إلى جادة الصواب يجعل الجميع تحت صفة ﴿الذين ظلموا﴾** .

---

(١) رواه البخاري .

والآية تتضمن حكماً عاماً وإن كانت الحادثة خاصة . **وإنّ كل من يترك أمر الله وهديه ويتبع مبادىء أخرى وتقاليد مخالفة لأمر الله لَحري أن يذوق العذاب ويتنزل عليه الرجز** . . وهل جنى المسلمون من استبدالهم بشريعة الله غيرها إلا العذاب والخزي والاستعباد من الآخرين ؟ وما من أمة تنأى عن شريعة الحكيم العليم إلا باءت بخسارة الدنيا والآخرة . . **فلا تغرنكم الصورة الآنية البراقة** . . وانتظروا حتى تأتي العواقب الحقيقية . ﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون﴾ (الذاريات /٥٩) .

■ ٦ ■

استسقاء موسى

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

لقد أخرج لكم الماء من الحجر . .

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ

اثنتا عشرة عيناً بعدد الأسباط ـ وهم أحفاد يعقوب ـ الذين ينتمي إليهم اليهود وذلك من تمام نعمة الله عليكم حتى لا يحدث نزاع على الماء .

قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ

وفي ذلك إشارة واضحة إلى أهمية التنظيم والفرز في الأعمال الاجتماعية وأن خطط التوعية والتنمية ينبغي أن يراعى فيها تنوع الفئات في المجتمع . . فيخصص لكل فئة البرنامج المناسب ليكون المنهل الذي يروي ظمأها ويغطي حاجاتها .

كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

تمتعوا بنعم الله ولكن لا تنشروا الفساد في الأرض . وكل من يقوم بعمل فاسد يساهم في نشر الفساد . . لأنه سيكون قدوة لغيره . . أفلا يخجل الإنسان أن يأكل ويشرب من رزق الله ثم يخالف أمره وينشر الفساد في أرضه وملكه ؟ !

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ

أنقذهم الله من حياة الذل والهوان . . وللحرية ثمن وللعزة تكاليف . . وأطعمهم في الصحراء المن والسلوى وفجّر لهم الماء من الحجر و . . . ووعدهم بيت المقدس وذلك يقتضي منهم جهاداً وتضحية . . لكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن ولا أن يتحملوا التكاليف . . فصاروا يقولون : لن نصبر على طعام واحد . . ! ! كانوا يعيشون حياة الاستضعاف خاضعين لاستكبار فرعون ، **والاستكبار والاستضعاف** يمثلان مشكلة إنسانية عالمية(1) طالما فكر المصلحون في علاجها ، وحاول الثوريون القضاء عليها . . ولقد نزلت الديانات السماوية لتعيد صياغة الإنسان بشكل سوي وتنهي وجود الاستكبار على الأرض بأسلوب فريد . . فهي لا تبدأ بالمستكبر ـ فتحاول القضاء عليه ـ **وإنما من المستضعف** فتحرره من ذله وعبوديته لغير الله . . وتعلمه كيف يقول للطغيان : لا . . ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ (العلق / ١٩) . وجاء موسى عليه السلام ليحرر بني إسرائيل من الاستضعاف . . ونجح في تحرير نماذج منهم . . كما حدث لسحرة فرعون الذين انقلبوا بين عشية وضحاها من **موقف العبد الذليل المأجور** ﴿قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم وإنكم لمن المقربين﴾ (الأعراف / ١١٣) . . **إلى موقف الكرامة والعزة** الذي يُميز رجل الفكرة ، الذي يهب حياته لفكرته . . ﴿فألقي السحرة سجداً . قالوا : آمنا برب هارون وموسى . قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ ! إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمنَّ أينا أشد عذاباً وأبقى . قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقضِ ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . . ﴾ (طه / ٧٠ ـ ٧٣) . لكن بني اسرائيل لم يتخلصوا كلياً من نفسية الاستضعاف وذلك ما نلمسه من حنينهم إلى حياة العبودية ﴿**لن نصبر على طعام واحد**﴾ بل وحنينهم إلى الوثنية ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ ؟ ! (الأعراف / ١٣٨) . إن رواسب الاستضعاف يجب أن تُصفى وإلا حدثت نكسات إلى الوراء . . أو تغيرات عكسية

---

(١) الاستعمار والقابلية للاستعمار بمصطلح مالك بن نبي .

بحيث يتحول المستضعف إلى مستكبر حين يمكن له في الأرض . وقد كان موسى يخشى ذلك على قومه . . وحذرهم منه عندما قالوا : ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ! قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ (الأعراف / ١٢٩) . فليس المهم هو منع المستكبر من الظلم . . وإنما الأهم أن نربي أنفسنا بحيث لا نقع في الاستكبار أو الاستضعاف[1] . .

قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ

إن موسى لا يستنكر عليهم ذلك في أنواع الطعام فقط ـ حيث طَلبوا بقل الأرض بدلاً عن المن والسلوى ـ **بل يستنكر عليهم أن يكون الطعام وأنواعه أشهى إليهم من حياة الكرامة وحرية العقيدة** بعيداً عن طغيان فرعون . . ؟ ! حقاً إن العقيدة والكرامة لا تكون أغلى على النفس إلا حين تختارها وتضحي من أجلها ببعض ملذات الدنيا . . **أما حين تكون الدنيا أغلى من حرية العقيدة فقد انتكس الإنسان وانتكست الأمة** وستضرب عليها الذلة والمسكنة . ألم يعتبر المسلمون قول الحطيئة للزبرقان :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

هو أهجى بيت قيل في إنسان . . ؟ ! وذلك لأن الأمة المسلمة كانت وقتها في عصر الصعود والارتقاء .

ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ

قيل إن القصد بالمصر هنا : أي بلد من البلدان (لأنها لم تمنع من الصرف) . فقد كانوا في صحراء لا تنبت فكأن موسى يقول لهم : إن السماء لا تمطر الرغبات فإن كنتم تريدون المحصولات الزراعية فإن هذا لا يتم إلا إذا نزلتم بلداً من البلدان المجاورة

---

(١) يحسن الرجوع إلى موضوع الاستكبار والاستضعاف في كتابي (من هدي سورة النساء) ، ص ٣٠٣ .

واشتغلتم بالزراعة . وكما نعلم من الآيات السابقة ـ ومن قصة تيه بني اسرائيل في الصحراء ـ أن بني اسرائيل رفضوا دخول القرية لأن فيها قوماً وثنيين جبارين ﴿إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ ! ! (المائدة /٢٤) . إنهم لا يريدون البذل والجهاد . . والحياة لا تعطي إلا لمن يبذل ويجتهد .

وقيل : **﴿اهبطوا مصراً﴾** أي ارجعوا إذن إلى حياة الذل في مصر إذا كان الطعام أغلى عندكم من الكرامة وسلامة العقيدة .

وكثيراً ما يفسر أصحاب الفكر المادي سبب انحطاط الأمة وغفلة الإنسان بأنه كامن في سياسة التجويع التي يمارسها المستكبرون فيتحكمون في الأرزاق حتى ينشغل الإنسان بتحصيل قوته . . ويملؤون عليه يومه بالركض وراء الرغيف فلا يبقى له من وقته وجهده شيء يصرفه في السعي للارتقاء وتحسين الأحوال . يذكرنا هذا بمن قال (إن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام) !! وكأنه يتحدى قول المسيح عليه السلام : (ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان) .

لكن قصة صحيفة المقاطعة **أكبر دليل على خطأ تفسيرهم** فلقد جاع المسلمون حتى أكلوا أوراق الشجر . . والمشركون قد تعاهدوا على أن لا يشتروا منهم ولا يبيعوا لهم وأن لا يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم . . وحصروهم في شِعْب أبي طالب ثلاث سنوات والمسلمون ثابتون معتزون بعقيدتهم ماضون في جهادهم لتغيير النفوس ومحو الظلم من الأرض لا تثنيهم رغبة في طعام أو متاع عاجل . . بل إن سياسة التجويع التي اتبعها أشراف قريش انقلبت عليهم وكانت سبباً في تأليب أعوانهم عليهم . . إذ تحركت المشاعر الإنسانية لصالح المسلمين أصحاب الفكرة الصحيحة . وكان أن مُزِّقت صحيفة المقاطعة بأيدي المشركين لا المسلمين .

وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن سياسة التجويع عامل منبه للإنسان وليس مخدراً . ويمكن أن تكون تحدياً يحرك الإبداع في المصلحين (البروليتاريا الداخلية) بحسب تعبير توينبي .

فالمشكلة ليست في سياسة التجويع . . لكنها كامنة في الإنسان الذي يؤثر الطعام على التحرر من الاستعباد . . يؤثر اللذة على حياة الارتقاء مع العقيدة الصحيحة . . يؤثر الدعة على الكدح في سبيل مستقبل أفضل . **فإذا انتكس الإنسان إلى هذا المستوى فأي مصير ينتظر أمته ؟** :

فإعطاء الأولوية للغرائز من دون العقيدة عامل كبير في سقوط الأمم ، وهو العامل الثامن في تخلف الأمم .

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾

كأن الآية تصف لنا صورة العالم الإسلامي الآن . فإن الذلة لا تختص بأمة معينة بل تأتي ثمرة لأسباب ترتكبها الأمم .

والذلة : استعباد يعرض للأمة من عدو خارجي (الاستعمار مثلاً) . لكن المسكنة : شيء يخالط طبيعة النفس وهوان ينبع من داخل الإنسان **(قابلية للاستعمار) وبدونها لا يتمكن الاحتلال والاستعباد من البقاء في بلد .**

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾

فالآية تبين الأسباب . يقول صاحب الظلال رحمه الله عند آية مشابهة لهذه في سورة آل عمران :

[يكشف القرآن عن سبب هذا الذل إذ هو سبب عام يمكن أن تنطبق آثاره على كل أمة مهما كانت دعواهم في الدين . . . إنه المعصية والاعتداء . . . . قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس والكفر بآيات الله والاعتداء والعصيان . هذه هي المؤهلات

للحصول على غضب الله والذلة والمسكنة . . وهذه المؤهلات صار يتصف بها ذراري المسلمين ويتقدمون بها إلى ربهم فينالون عليها ما كتبه الله على اليهود . فإذا قال أحد منهم : لماذا نغلب في الأرض ونحن مسلمون ؟ فلينظر قبل هذا ما هو الإسلام ؟ ومن هم المسلمون ؟] .

فالعصيان والاعتداء هو العامل التاسع في تخلفهم .

ولقد ادعى اليهود أنهم شعب الله المختار ، كما ادعوا وسواهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . . فتأتي الآيات لتكذب هذه الدعوى وتعلم الناس أن ينبذوا التحزب والعصبية لجنسٍ أو قوم أو أتباع ملة . .

■ ٧ ■

من آمن بالله وعمل صالحا

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ

﴿الذين آمنوا﴾ لعلها إشارة إلى أتباع محمد ﷺ لأنهم آمنوا بجميع الرسل والكتب السماوية . **﴿والذين هادوا﴾** : جاء اسمهم من قول موسى (عليه السلام) :

﴿إنا هدنا إليك﴾ أي عدنا وتبنا إليك أو نسبة إلى أبيهم يهوذا .

﴿والنصارى﴾ : نسبة إلى الناصرة ، أو لنصرتهم عيسى (عليه السلام) ﴿نحن أنصار الله﴾ .

﴿والصابئون﴾ صبأ : أي مال عن دين آبائه . . والصابئة قوم على فطرتهم ليس لهم دين محدد يتبعونه لكنهم على التوحيد . وكانت قريش تطلق ذلك على كل من فارق ملة قومه . وأطلقت ذلك على محمد ﷺ وأصحابه .

منهم زيد بن عمرو بن نفيل ـ وقد توفي قبيل البعثة ـ الذي اشمأز من عبادة الأصنام ومعتقدات الجاهلية . فرحل إلى الشام وبحث في الأديان فلم يرتح إلى أي منها فرجع يتعبد الله ويوحده على ملة إبراهيم .

مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا

في الآية بيان لشروط دخول الجنة للناس من جميع الأديان مَنْ :

١ ـ آمن بالله .

٢ ـ واليوم الآخر .

٣ ـ وعمل صالحاً . والعمل الصالح كما يقول عابد الحرمين الفضيل بن عياض : **أخلصه وأصوبه** .

لا تهم الأسماء والانتماءات والشعارات إن لم يدعمها الجوهر واللب . . وهو الفكر والعمل . وهذا ما ينبغي أن يذكره المسلمون قبل غيرهم حتى لا تشتط بهم الأماني . «ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل . إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحن نحسن الظن بالله تعالى وكذبوا . لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ من حديث أنس مرفوعاً .

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يكرر التعقيب نفسه الذي ورد عند نزول آدم عليه السلام إلى الأرض ﴿**فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون**﴾ (البقرة /٣٨) . إن الإيمان والعمل الصالح هو الذي يحرر من الخوف والحزن في الدنيا والآخرة . . **وهذا ما ستؤكده آيات الآفاق والأنفس في انكشافها المستمر** .

■ ٨ ■

الميثاق والسبت

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يتكرر ذكر الميثاق . .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾

وهو بشكل عام يقصد به القيام بتكاليف الرسالة . . أما كيف رفع فوقهم الطور ؟ ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة﴾

(الأعراف /١٧١) .

وليس في ذلك إكراه على العقيدة . . لأنهم آمنوا بموسىٰ عليه السلام قبل ذلك . ولكن معجزة من الله لتذكيرهم بقدرة الله على إهلاكهم وإيقاظهم من سباتهم .

خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ

خذوه مأخذ الجد دون إهمال أو تخاذل . وقد وصف الله تخاذلهم واستخفافهم بالرسالة التي حُمِّلوها في آية أخرى : ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً . .﴾ (الجمعة /٥) . ولقد أمر النبي ﷺ والمسلمون أيضاً بمثل هذا . . فقيل له : ﴿قِم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً . إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ (المزمل /٢) فقال ﷺ : «قد مضى عهد النوم يا خديجة» .

فهل يأخذ المسلم الآن أمر الله مأخذ الجد ؟ هل يشعر أن آيات الله هي أهم وأغلى من كل شيء . . ؟ ! وأنه يجب عليه أن يحملها ويبلغها للناس مهما كلف الأمر ؟ !

ما سِرُّ هذه العطالة التي يعيش فيها المسلمون ؟ !

في كتاب (الإنسان حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً) تكلم الأستاذ جودت سعيد عن العطالة وشروط الفعالية . فذكر :

١ ـ الرغبة والرهبة .

٢ ـ وجود المبرر للحركة : أن تشعر أنك تملك شيئاً الناس بأمس الحاجة إليه .

٣ ـ أن تؤمن أن جهد البشر له أثر في صنع التاريخ .

والرجوع إلى الكتاب فيه فائدة ، فقد قَدَّم خطوات على المسلمين أن يتابعوها .

﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

صاحب الظلال يقول : لا يكفي الحماس والاندفاع والتضحية ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ (مريم /١٢) ولكن لا بد من معرفةٍ بما جاء في آيات الكتاب ودراستها وتذكرها . (كأنه يشير إلى أهمية الإخلاص والصواب معاً) .

وفي المنار يقول : ﴿**واذكروا ما فيه**﴾ أي المحافظة على العمل به . فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخاً في النفس مستقراً . يقول علي رضي الله عنه «يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل» .

وآفة العلم النسيان . والنسيان ذنب . . ثم يصبح حليف الكفر ﴿كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسىٰ﴾ (طه /١٢٦) .

وتأمل الآية ﴿**خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون**﴾ يجعلنا نشعر بارتباط قوي بين التوجيهات الثلاثة .

نعود إلى موضوع الذاكرة في كتاب (الطب محراب الإيمان) حيث يقول :

[وأما تفاوت الناس في ذاكرتهم فهذا وارد ولكن أصدق ما يقال في هذا الباب إن جميع الناس على الإطلاق يمتلكون مقدرة متقاربة من الذكاء والذاكرة . . . . والرقي الذهني إنما يأتي من الجهد المبذول . إن الدماغ لا يعرف التعب حتى لو عمل ما يزيد على عشر ساعات متواصلة ولكن البدن هو الذي يتعب بالقعود بكيفية معينة ولذا فإن العباقرة وعظماء المفكرين إنما تكونت مواهبهم من استغلال هذه القدرات الدفينة وهذه الطاقات الكامنة][1] . ويسأل : [هل بالإمكان تقوية الذاكرة وتنميتها ؟ إن الشيء الذي يقرره الطب ، والذي تأكد منه علماء النفس هو أن هذا الشيء في مقدور الإنسان . ولكن ما هي الشروط التي تتدخل حتى تنمو الذاكرة ؟][2] ويذكر الكاتب اثني عشر شرطاً

(١) صفحة ١٨٤ من كتاب الطب محراب الايمان (ج١) خالص جلبي .

(٢) صفحة ١٨٦ من المصدر السابق .

أختار منها اثنين فقط لعلاقتهما بالآية :

الاهتمام : [كلما اهتم الإنسان بالشيء وتعلق مصيره به حفظه أكثر] .

والتقوى : [أو ما نسميها بالنظافة النفسية الداخلية . . . . . . **التقوى** تحدث حالة نفسية عجيبة هي مزيج من الهدوء والاهتمام والخشوع والتقدير والتأمل والتدبر ووزن الأمور وهذا المزيج ينتج حافظة هائلة] ويذكر أمثلة على ذلك ذاكرة البخاري والسرخسي والشافعي . ويذكر قول الشاعر : (وينسب ذلك إلى الشافعي) .

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأنبأني بأن العلم نور ونور الله لا يُهدى لعاصي

والآن لنتأمل الآية من جديد : ﴿**خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون**﴾ .

﴿**خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون**﴾ .

التقوىٰ	**الذاكرة**	**الاهتمام**

تبدو العناصر الثلاثة حلقات مترابطة يدعم بعضها بعضاً . . فالاهتمام بآيات الله يجعلك تدرسها وتذكرها . . وهذا يعينك على بلوغ مرتبة التقوى . . والتقوى تزيدك اندفاعاً وتذكراً . .

وتذكر الآية عند ظرفها المناسب هي الحالة التي نصح بها والد محمد إقبال حين قال له : (**يا بني اقرأ القرآن وكأنه يتنزل عليك**) .

وهذا ما فعله أبو بكر مع عمر الذي هاله أن يقال مات رسول الله ﷺ . . فقرأ أبو بكر الآية : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . .﴾ (آل عمران /١٤٤) .

وهذا ما فعله خادم جعفر الصادق حين أوقع الإناء فتلطخت ثياب جعفر وغضب . فقال له الخادم ﴿**والكاظمين الغيظ**﴾ فقال جعفر : كظمت غيظي . فقال

﴿والعافين عن الناس﴾ فقال : عفوت عنك . فقال ﴿والله يحب المحسنين﴾ فقال : أنت حر لوجه الله .

ولن نتذوق حلاوة القرآن ونتفاعل معه إلا حين نذكر الآية في ظرفها المناسب في حياتنا اليومية .

ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

وفضل الله ورحمته لا يحجبان حتى عن المعرضين . سبحانه وتعالى يجعلون له أنداداً وهو يطعمهم ويسقيهم . . ويجيب المضطر إذا دعاه . . . ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة . .﴾ (فاطر / ٤٥) . صحيح أن الذنوب لها آثارها الدنيوية . . لكن الجزاء الحقيقي العادل في الآخرة .

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾

يذكرهم بعدوان أجدادهم في السبت . وكانوا قد طلبوا أن يكون لهم يوم مقدس في الأسبوع لا يعملون فيه للمعاش فجعل لهم السبت وحرم عليهم فيه صيد البحر فاحتالوا حتى اصطادوا فيه بشكل غير مباشر . وكان عدوانهم في البادىء سراً ثم شاع الأمر وكثر فيهم . . فمسخهم الله قردة . . وهل المسخ مادي أم معنوي (أي مسخ فطرتهم الإنسانية وردها إلى الحيوانية فأصبحوا كالقردة يقلدون . . وكالخنازير في قلة الشرف والقذارة) والمعنيان مقبولان وإن الله لقادر على كل شيء .

﴿خاسئين﴾ أي مطرودين أذلاء . وكان في ذلك عبرة للمعاصرين ولكل من يأتي من بعد :

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

من كانت لديه تقوى . . كانت له تجارب الماضين والمعاصرين درساً يستفيد منه ويتعظ . ومن هنا تبرز أهمية التاريخ كمعلم . . **وكل علم يمر بثلاث مراحل : الملاحظة (أو دراسة النماذج) وكشف القانون ثم التسخير أي الاستفادة من القانون في تحسين الحياة** . ولقد بدأت دراسة التاريخ بتسجيل الأحداث ثم ظهرت محاولات لكشف أسباب الأحداث وارتباطها بالنتائج أي القانون (وهو ما يطلق عليه القرآن سنن الذين خلوا من قبل) . . ويجب أن نصل إلى تسخير السنن التاريخية وهو الاعتبار والموعظة . والمسلمون اليوم قد انحرفوا وتوسعوا في **الحيل الشرعية التي استباحوا بها المحرمات كما فعل بنو اسرائيل من قبل** فأين التدبر والاعتبار ؟ !

■ ٩ ■

قصة ذبح البقرة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

في هذه الآيات : تذكر قصة البقرة التي سميت باسمها السورة ولا تذكر القصة في غير هذا الموضع من القرآن . وتعرض القصة بإيجاز ولا نملك أحاديث بروايات ثابتة تشرحها أكثر وصاحب المنار يذكر أن في التوراة ما يشبهها والله أعلم . وتبدأ القصة من منتصفها فيكشف الستار عن موسىٰ وهو يأمر قومه بذبح بقرة . . . وهو أسلوب مشوِّق يدفع القارىء والسامع للمتابعة :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ

يقول ابن عباس : (لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم) .

﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾

وفي قولهم هذا رمي لموسىٰ عليه السلام بالسفه والجهالة . وهذا من جهلهم بعظمة الله تعالى وما يجب أن يقابل به أمره من الاحترام والامتثال وإن لم تظهر حكمته في البداية .

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨﴾

ويلفت نظرنا قولهم ﴿ربك﴾ وكأنه ليس بربهم ؟ ! ولقد بدأوا في خط المماطلة والتعنت فيبدأ الله بالتشدد معهم . فهي بقرة لا فارض : وهي المسنة التي انقطعت ولادتها . ولا بكر : وهي التي لم تلد . ﴿**عوان بين ذلك**﴾ أي أنها متوسطة السن . ﴿**فافعلوا ما تؤمرون**﴾ ينبههم موسىٰ إلى ضرورة السرعة في التنفيذ . فهل انصاعوا ؟ .

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠﴾

والقارىء يتعجب من تملصهم واعتذارهم وتسويفهم .

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ

أي ليست مما ذلل لحراثة الأرض ، ولا للسقاية ، وهي سالمة من العيوب . وليس فيها لون آخر غير الصفرة .

﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾

وكأنه كان يتكلم بالباطل قبل ذلك ؟ ! !

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ٧١﴾

من كثرة تلكؤهم وتهاونهم . .

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢﴾

وهنا ينكشف لنا أول القصة . فلقد تخاصموا في القاتل وأخذ كل واحد يدرأ التهمة عن نفسه ويدفعها إلى غيره . . فأراد الله أن يريهم بعض مظاهر قدرته ويفضح الجناة . فأمرهم بذبح بقرة وأن يضربوا القتيل ببعضها .

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾

فيقال أن القتيل عاش وذكر اسم قاتله والله أعلم .

﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

بمثل هذا الذي ترونه واقعاً ولا تدرون كيف وقع . . وبمثل هذا اليسر .

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٧٣﴾

ولا يزال الله يكشف للناس من آياته . فأين الذين يعقلون ؟ !

والعقل هو الربط . فالعقل حين يقوم بالتدبر والتفكر يربط الأسباب بنتائجها فيربط الماضي بالحاضر بالمستقبل . . وبهذا يفهم ما يجري من حوله ويستطيع على ضوء الماضي والحاضر أن يتنبأ للمستقبل ويخطط له .

والتعقيب هنا على حادثة فيها معجزة تخشع لها القلوب بقوله : ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ يثير التساؤل . . إذ أنه يوحي بضرورة إعمال العقل لتدبر الحادثة .

بعض العبر من القصة :

١ ـ **أهمية الإسراع في تنفيذ أمر الله ورسوله ولو لم تفهم الحكمة فإن الله سبحانه** لا يأمر عبثاً ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ . وصحيح أن معرفة الحكم والحكمة هو الأفضل . لكن المؤمن يطيع ولو لم تظهر له الحكمة من الأمر .

٢ ـ **من شدَّد شدَّد الله عليه** : ورسول الله ﷺ ما خيرّ بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثماً ، و «إن الله سكت عن أشياء رحمة بكم فلا تسألوا عنها . اقرأوا إن شئتم ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . . . . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ (الأنعام /١٠١ ـ ١٠٢) . ولقد انزلق المسلمون في عهود تأخرهم في هذا المجال وتشددوا في اجتهاداتهم حول نقاط لم يرد فيها نص صريح . . حتى صوروا الدين حملاً ثقيلاً . . (مثل قضايا الطهارة ـ وكثير من قضايا المرأة) .

٣ ـ **الآية تقول** : ﴿قتلتم﴾ مع أن القاتل واحد . لأن الأمة كالجسد الواحد فهي مسؤولة عن تصرف كل عضو فيها لأنه يعود على الأمة كلها بالنفع والضرر .

٤ ـ **قدرة الله على البعث** : ولو بدون ضرب القتيل ببعض من البقرة ؛ ولكن كأن الله يريد أن يرسخ في الفكر الإيمان بالأسباب والمنهج السببي . ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ (المائدة / ٣٥) .

٥ ـ **أسلوب عرض القصة** : فيه التشويق والإثارة . وفيه الاختصار فلا يحدث تكرار أو ملل . مع تذكر أن الغاية من القصة في القرآن عامة هي التوجيه والعبرة .

٦ ـ **﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ : يجب أن يتفاعل العقل مع الآيات ، فإن** لم يحدث هذا التفاعل مع آيات الله في الآفاق والأنفس (فهي الآيات المرئية التي يشير إليها النص) أثمر ذلك قسوة القلوب . وهذا ما تنبه إليه الآيات :

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

إن الحجر يلين .. ولكن قلوب هؤلاء لا تلين .. ! !

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

كما حصل بالحجر الذي ضربه موسى بعصاه .. فاستجاب لأمر الله .

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

كما حصل في قوله تعالى ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً﴾ (الأعراف /١٤٣) و ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ ؟ ! (الحشر /٢١) فيا حسرة على المسلمين ..

ذكر الله هنا مرضاً يعتري القلوب : **القسوة وتبلد الضمير** وهو العامل العاشر في التخلف . ولقد وجه الله تحذيراً إلى المؤمنين من أن يصابوا بهذا المرض ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ (الحديد /١٦) . يتحدث مالك بن نبي عن هذا المرض في كتابه وجهة العالم الإسلامي في فصل : (فوضى العالم الغربي) فيقول : (**إن مشكلة الحضارة الحديثة هي : تخلف الضمير عن العلم**) ويقول

أيضاً : (إنها ظاهرة مشتركة في جميع الحضارات) . وهي ما يطلق عليه في مواضع أخرى من كتبه : (صناعة طردية ـ أي متقدمة ـ وأخلاق جذبية ـ أي منكمشه ـ) . يقول : (كلما زوروا الانتخابات وزيفوها في المستعمرات تعودوا هم في أوربا طعم التزييف في الحياة المدنية . وكلما فرضوا ألوان القيود على ضمائر الشعوب المستعمرة فقدوا هم معنى احترام الضمير . . . . **العالم الغربي قد اقتربت قيامته**) .

ويذكر كيف أنهم في عام ١٩٣٠ أحرقوا الفائض من القطن والقمح والبن على الرغم من أن شعوباً كثيرة لا تجد أثراً منها في بلادها . ومازالوا يفعلون ذلك حتى الآن ولا يرسلون بها إلى البلدان التي تقتلها المجاعة . حتى أن أَحَدَ الكُتَّاب عبر عن ذلك بصورة تمثل **التقدم العلمي في الآفاق كالصاروخ ، بينما الأخلاق كالسلحفاة** . فكيف يكشفون الآيات ويتقدمون في العلم ولا يردهم ذلك إلى الله . . ؟ !

وهل العلم موجود ولكن العلة في قسوة القلب ؟ ! وكيف نعالج هذا المرض ؟

يقول الرسول ﷺ : «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب . وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي»[1] .

ومما لاشك فيه أن ذكر الله يحافظ على تجدد القلب ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ ، والمداومة على الأذكار الواردة عنه ﷺ والتقرب إلى الله بالنوافل وصلاة الليل . . كل ذلك له أثره في إحياء النفوس والقلوب .

لكن العلم هو الذكر العملي ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر /٢٨) . وطالب العلم هو في ذكر متجدد لما ينكشف له من آيات الله في الآفاق والأنفس التي تحيي قلبه . **وإن إعراض القلب علته فقدان العلم كما يحلل القرآن ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾ (الأنبياء /٢٤)** . فكيف نقول : لديهم علم ولكن القلب قاسٍ . ؟ !

---

(١) رواه الترمزي .

(وينبغي أن ننتبه إلى أن الكلمات : قسوة القلب ـ تخلف الضمير ـ أخلاق جذبية كلها مترادفات حتى لا تضيعنا المصطلحات) .

الحقيقة هي أن العلم الذي وصل إليه البشر ناقص :

١ ـ فلقد تقدموا في علم الآفاق ولكن في مجال **الأنفس (العلوم الإنسانية) ما زال التقدم بطيئاً** . بل إن علمهم بآيات الكتاب ضحل ومشوه .

٢ ـ إن الفكرة تمر بمراحل : فهي تبدأ كالجنين ثم تصبح طفلاً . . ثم تنمو وتنضج حتى تبلغ الأوج وتسيطر على النفس وعندها يتغير السلوك ويتناسب مع الفكرة (لأن ما في النفس قد تغير) . **وعندما يتحول العلم إلى سلوك يصبح العلم ضميراً** وهذا هو الرسوخ في العلم ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ (آل عمران /٧) . وهي المرحلة التي أشار إليها مالك بن نبي بقوله : (إن العلم بحرصه على الحقيقة يصبح أخلاقاً لا تطيق الصبر على الخطأ من غير أن يجري التصحيح المطلوب عليه) [١] .

إن العلم بالعواقب البعيدة المدى (ما هو خير وأبقى) من شأنه أن يوقظ الضمير . أو على الأقل يردع الأمم المعاصرة التي تريد أن تخطط لمستقبل أفضل في عالم أصبحت تدرك مدى اتصاله ووحدة مصيره .

ويمكن أن نذكر كمثال من تاريخنا لنزيد الموضوع وضوحاً . فقد بدأ الانحدار في حضارتنا منذ الانشقاق على علي رضي الله عنه . . وبدأ الضمير في التخلف . نجد هذا في قول أحد المعاصرين للأحداث : [إن صلاتي مع علي أقوم لديني وطعامي مع معاوية أقوم لدنياي] . يمكن أن نلمس في هذه العبارة بداية الضعف في سلطان المثل الأعلى على النفوس . . حيث أعرض الناس عن نداء الضمير وكما وصفهم أحد أنصار علي له : (قلوبهم معك وسيوفهم عليك) .

---

(١) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي ، ص ١٨٠ .

فلو أن هذا الرجل كان يملك منظاراً زمنياً ـ أو علماً بالتاريخ وأبصر كيف أن أحفاده سيقتلون ويخسرون الدنيا وربما الآخرة نتيجة لهذا الخطأ الذي ارتكبه هو وأبناء جيله في إيثار المصلحة العاجلة على المبدأ الأخلاقي عندها كان يمكن أن يعلم ويتيقن أن صلاته وطعامه مع علي أقوم لدينه ودنياه . . فهل كان يتصرف كما تصرف عندها ؟!

وخلاصة القول : إنه ينبغي الاهتمام بالعلم الذي نزل من السماء والعلم الذي حصله البشر بجهودهم . ولا بد من تكريس الجهود لإنضاج العلم وإيصاله إلى الضمير . إن التفاعل مع الآيات وإعمال العقل فيها هو الذي يرسخ العلم في النفس حتى يصبح أخلاقاً . . ويحمي القلوب من القسوة .

■ ١٠ ■

كيف يؤمنون ؟!

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا

فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ
أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ
وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذۡ
أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ
إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ
لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾
وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾
ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا
مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ

وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

الآيات الآن تتجه بالخطاب إلى المؤمنين لتحذرهم .

قوله تعالى :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ

وهم على هذه الحال من قسوة القلب ؟ والذي يدفع إلى اليأس منهم أكثر : هو أن فريقاً منهم كانوا يحرفون الكتاب عن علم :

وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ

إنه النفاق والخداع . . فإذا تناجوا تواصوا بكتمان ما جاء في كتابهم بشأن النبي ﷺ .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

يقولون لبعضهم : كيف تحدثونهم بما آتاكم الله ليحاجوكم عند الله أفلا تعقلون ؟! وهي صورة بالغة السخرية من غفلتهم . .

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

هل نحس بذلك ؟! ولو أدرك الإنسان ذلك لأحسن في أعماله كلها . . واجتنب ظاهر الإثم وباطنه .

وبعد فهل نفهم من الآيات ألا ندعو اليهود إلى الحق ؟

التبليغ والتذكير واجب في كل حين ومع كل إنسان . . ولكن الآيات تحذر من علاقات الود التي كانت قائمة بين أهل المدينة واليهود قبل الإسلام واستمرت بعد ذلك انخداعاً بكلامهم وطمعاً في إسلامهم .

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

الآيات تذكر منهم صنفين :

١ ـ العامة : أميون لا يقرأون الكتاب ولا يعرفون منه إلا ما يغذي أحلامهم و . . أمانيهم . . (مثل قولهم نحن شعب الله المختار ـ والله غفور رحيم . . و . .) .

والآية تفرق بوضوح بين العلم والظن . **فالعلم هو الحقيقة وهو القانون بينما الظن هو النظر الذاتي وهو النظريات والأهواء .**

ولقد تلقوا هذه المفاهيم من علمائهم بروح التسليم ولم يخطر في بالهم أن يسألوا عن الدليل لأنها ترضي أحلامهم وأمانيهم . . وإنما العلم بالدليل . ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ وهذا منهج يغرسه القرآن في عقلية المؤمن. وهو الذي اقتبسته أوربا وشيدت به نهضتها على أساس العلم التجريبي . يقول صاحب المنار : [هذه الأماني توجد في كل الأمم في حال الضعف والانحطاط . يفتخرون بما بين أيديهم من الشريعة وبسلفهم الذين كانوا مهتدين بها وبما لهم من الآثار وتسول لهم الأماني أن ذلك كافٍ لنجاتهم وسعادتهم وفضلهم على سائر الناس . . . هكذا كان اليهود في زمن التنزيل وقد اتبعنا سننهم فظهر فينا تأويل قوله ﷺ «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع» وإننا نقرأ أخبارهم فنسخر منهم ولا نسخر من أنفسنا ونعجب لهم كيف رضوا بالأماني ونحن غارقون فيها ؟!] .

فمرض العامة هو الجهل وتقليد علمائهم وتصديقهم في كل ما يقولون دون طلب للأدلة أو تدبر فيها . أما الصنف الثاني :

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ

٢ ـ أهل الحل والعقد : يستغلون جهل العامة فيتلاعبون بهم ويجرفونهم إلى الهاوية . فيحرفون الدين ويبدلونه :

﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

حرصاً على المال والدنيا والوجاهة . . والدنيا بأسرها ثمن بخس قليل لو كانوا يعلمون . . إنه تصوير هام لمجتمع منهار : أمة جاهلة متخلفة وقادتها منحرفون ضالون مضلون . . فمن أين يأتي الخير ؟ !

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

فإذا انتبهوا إلى شيء من أخطائهم . . واجهوها باستعلاء وغرور .

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾

يذكر المؤرخ توينبي في تاريخه بعض التحليلات لانهيار الحضارة . فيتحدث عن الفئة التي كانت مبدعة في عصر النهضة وما تتعرض له من عجز :

[١ ـ الزعماء قد يصيبون أنفسهم بعدوى النوم المغناطيسي الذي بثوه في أتباعهم .

٢ ـ وهذا ما يدفعهم إلى استخدام العنف للاحتفاظ بقيادتهم] . بعد أن فقدوا سحر الإبداع الذي كان يستهوي العامة ويجعلها تتبعهم . وهكذا تتحول الفئة المبدعة إلى مسيطرة . ويفصل في عرض آفات الإبداع ، فيذكر منها تحت عنوان :

٣ ـ آفة الإبداع عبادة الذات الفانية [ينزع الفريق الذي تميز بمعالجة تحد واحد إلى الإخفاق بشكل واضح في معالجة التحدي التالي . . . . **الكبرياء يسبق السقوط** . . . . هذا الذي يعجب بعمله لا يُنجز شيئاً يدوم . . . إن السلبية البلهاء إزاء الحاضر تنبعث عن الافتتان بالماضي وهذا الافتتان خطيئة عبادة الأوثان التي تعرف بأنها تكريس العبادة ـ من ناحيتها الثقافية والمعنوية ـ للمخلوق عوضاً عن تكريسها للخالق] . ويذكر كمثال : اليهود وادعاؤهم أنهم شعب الله المختار وهذا ما أدى بهم إلى العقم الفكري ونبذ عيسى الناصري (عليه السلام) . ويذكر أمثلة أخرى ثم يقول : إن أولئك الذين يقيض لهم

التوفيق ذات مرة نزاعون في الفرصة التالية إلى الاستلقاء على مجاذيفهم [1] . إن النجاح يخلف شعوراً بالأمن يخدر عن السعي . فإذا بالأمر يدور في حلقة من الاختراع إلى الانتصار إلى النوم إلى النكبة .

حقاً إن هذا الذي يعجب بعمله يصاب بالعقم بعد ذلك . . وبنو إسرائيل مرت بهم عصور أنجزوا فيها أعمالاً طيبة استحقوا بها التفضيل على معاصريهم .

لكنهم أصيبوا بوثنية عبادةالذات الفانية . . والغرور وهو العامل الحادي عشر في تخلفهم .

فكيف يعالج المجتمع الذي يعاني من هذين الصنفين : علماء منحرفون وأكثرية جاهلة . . ؟

إن عملية التعليم والتوعية هي الدواء كي نتمكن من إنشاء تيار اجتماعي يهتم بمتابعة آيات الآفاق والأنفس . صحيح أنه ليس بالإمكان رفع مستوى الجميع حتى يصبحوا علماء . . ولكن إيجاد هذا التيار يجعل العلم لا يقبض بقبض العلماء ، ولا ينحرف بانحراف بعضهم . . وإنما يمد كل جيل بما يحتاج إليه من نخبة مبدعة تتولى الريادة وتنتصر على العقبات .

وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً

أربعين ليلة مدة عبادتهم للعجل بزعمهم . . وكانوا يقولون للمسلمين بصلف : (نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها) فقال لهم ﷺ : «اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً» [2] .

---

(١) يشبه استرخاء الفئة المبدعة بعد أن انتصرت على تحديات وعقبات . . بالملاح الذي أحسّ أنه وصل إلى الشاطىء فاسترخى على مجاذيفه .

(٢) رواه أحمد والبخاري والنسائي .

قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

هل عاهدكم الله على هذه الخصوصية لكم . .؟ أو هل اتبعتم أمر الله حتى صار لكم عنده عهد بالمغفرة ؟ وهنا يصحح الله المفاهيم ويضع حكماً عاماً يشمل الأفراد والأمم :

بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً

وهذا مثل قوله تعالى ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن . . .﴾. (النساء /١٢٣) . والمشكلة أن أكثر الناس يعملون السيئة وهم يظنون أنها كسب لهم . . لأن كل إنسان يحب نفسه ويحب لها الخير . . لكنه لا يعرف الطريق الصحيح للحصول على الخير . . فما أحوج الناس إلى من يبين لهم كيف أن المعاصي هي الخسران المبين في الدنيا قبل الآخرة . . بلغة العصر . . بالعلم . . بالإحصاء . . باستخدام وسائل الإعلام . .

وليس كل من عمل سوءاً يخلد في النار . . ومن منا لا يعمل السوء . . !! ولكن المؤمن تكفر عنه سيئاته بتوبته وإحسانه . فيبتلى بالدنيا ويجازى بها . . حتى الشوكة يشاكها المسلم تكفر عنه من سيئاته . أما من :

وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾

فهو مُصِرٌّ على المعصية لا يتوب ولا يتراجع . . فقد أحاطت به خطيئته حتى أصبح

سجينا لها تحبسه عن الإنطلاق في الآفاق السامية حيث يستمتع برضى الله . . ولذلك قالوا «لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار» لأنها تصبح كبيرة عندها . و «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» [1] ورحم الله جلال الدين الرومي حيث يقول :

اقطع القيد تحرر يا فتى يا أسيراً للهوى حتى متى ؟!

فإلى متى تأسرنا الأهواء والذنوب ؟! ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق . .﴾ (الحديد/١٦) ؟! سمع هذه الآية قاطع طريق . . وكان يترصد لقافلة في جوف الليل ورجل منها يقوم الليل ويرتل القرآن حتى تلا هذه الآية فتاب من ساعته وتعبد وطلب العلم حتى أطلق عليه عابد الحرمين . . فهلموا بنا نقطع القيود والآصار وننطلق إلى الله ورضوانه .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

ويستمر الخطاب للمؤمنين . . فيحدثهم كيف أخذ الميثاق على بني إسرائيل :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

والآية تذكّر بأمهات الأحكام في العبادات والمعاملات .

أول بنود هذا الميثاق :

لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ

فهي الركيزة الأولى في الأديان السماوية . . وهي العلاقة الأولى التي ينبغي إقامتها

---

(١) رواه الإمام أحمد .

وصيانتها كي نتمكن من إقامة العلاقات السليمة مع الناس (وهي العدل والإحسان) ومع الكون (وهي التسخير) . وكل المبادىء والنظم التي قامت لتحقيق العدل بين الناس قد فشلت في مسعاها حتى الآن لأنها قطعت العلاقة مع الله . وقد سبق أن تناولنا مفهوم (العبادة) في الإسلام عند قوله تعالى : ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم ....﴾ فهي الطاعة والخضوع .. فليس هناك من يستحق الطاعة والخضوع إلا الله .. فهو رب العالمين .. وطاعة أولي الأمر نابعة من طاعته .

والبند الثاني في الميثاق :

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا

فهو الأمر بأن تكون العلاقة مع الناس مبنية على الإحسان . وهذا الترتيب يفيد :

١ - أن أول ما ينبغي تصحيحه في عالمنا هو العلاقة مع الله .

٢ - إن من عبادة الله أن نتعامل بالإحسان مع الناس .

وقد سبق أن شرحت معنى الإحسان في تفسير سورة النساء . وأنه أرقى من العدل . (أن تعطيه حقه وزيادة من نفسك لا على حساب الآخرين) . وأن تقابل السيئة بالحسنة والتقصير بالبر والعطاء . وقد أمرنا بالإحسان مع الناس كلهم مع مراعاة الأولى فالأولى .. فالوالدين أولاً .. ثم :

وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ

لأهمية التناسق والتآلف بين أفراد العائلة . ومن لم يستطع أن يبني أسرة متماسكة متراحمة لن يحصل على أمة قوية متضامنة .

وَٱلْيَتَٰمَىٰ

وبدأ بهم قبل المساكين لأهمية الحرمان الذي نزل بهم ..

وَٱلْمَسَـٰكِينِ

قيل بأنهم الذين لا يسألون الناس إلحافاً رغم حاجتهم . . ومن المؤسف أن تذوي العفة في عالمنا . . يذكر أن سائلاً كان يمشي في الطريق قائلاً : (أين الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ؟!) فرد عليه أحدهم : (ذهبوا مع الذين لا يسألون الناس إلحافاً) .

وذهاب العفة والإحسان ينطلق من داء واحد : حب الأخذ وكره العطاء . . البحث عن الحقوق وترك الواجبات .

وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا

. . للناس جميعاً مهما كانت أديانهم وأفكارهم . و«ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء» .

وليس القصد من هذا الأمر هو المجاملة وعدم الإزعاج فقط . وإنما كما قال الحسن البصري (أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح) . وإذا أمرت بمعروف فليكن أمرك بمعروف .

إن الرغبة الصادقة بالإحسان إلى الخصم هي التي تحوله إلى ولي حميم ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (فصلت/٤٣) . إن تعويد النفس على الإحسان ليس سهلاً . . خاصة مع الخصم . . وهذا ما نشاهده في سيرة رسول الله محمد ﷺ وأصحابه الكرام في مكة المكرمة . . كيف صبروا على الأذى ، ولم يتربصوا بمن كان يمارس عليهم أقسى أنواع التعذيب والاضطهاد . . إنه بجهاده ﷺ جرّد الإنسان المسلم من الخوف من الآخر . . ولكن كيف السبيل بعد التحرر من الخوف أن نحافظ على محبة الخصم ؟ . . تأمل قوله تعالى : ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ (الشعراء/٣) . وأكثر من هذا كيف أشعر الرسول ﷺ قريشاً بإنسانية الإنسان يوم فتح مكة وبعدها . . .

إن الله سبحانه وتعالى قد دلنا على العلاج الذي نداوي به العداوة والبغضاء . . وعلى المفتاح الذي نفتح به القلوب والنفوس حتى تقبل على دعوة الله . . وكل من يدعي أن الإحسان لا يصلح واهمٌ أو عاجز عن الإرتقاء إليه .

ثم يؤكد القرآن على البندين السابقين (عبادة الله والاحسان مع الناس) بذكر عبادتين هما بمثابة الترجمة العملية لهما : إقامة الصلاة ، والزكاة .

وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ

فهل استقاموا ووفوا ؟ . .

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ

هذه الأوامر التي توجهت إلى بني إسرائيل هي ما أمر به القرآن بالذات ، وهذا يدل على :

١" ـ وحدة الديانات السماوية .

٢" ـ تعنت اليهود فإن محمداً ﷺ دعاهم إلى تنفيذ الأوامر التي عاهدوا الله عليها من قبل فأعرضوا . .

إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ

يستثنيهم الله رغم قلتهم لأن الله لا يظلم أحداً . . ولأن أحكام القرآن دقيقة تذكر القاعدة وتستثني الشواذ بينما الناس يطلقون الأحكام العامة . . فيلصقون الأوصاف والتهم على الأمم والأجناس . . حتى نسب إلى أهل كل بلدة عيب معين بينما القرآن يعلمنا الدقة العلمية .

وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾

لا تنوون العودة إلى أمر الله والتفكير فيه .

وبعد أن ذكرهم بأهم ما أمرهم به يذكرهم بأهم ما نهاهم عنه :

وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾

كان اليهود يلتزمون بما يعجبهم ويناسب مصالحهم المادية العاجلة ويتركون الباقي . فمن ذلك أن إحدى قبائلهم كانت تحالف الأوس في الجاهلية (وهي قريظة) والباقي يحالفون الخزرج . . (ولعل ذلك كان من خطتهم في الانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة لتحقيق المغانم لليهود في كل الأحوال) .

ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ

يشتركون في المعارك مع الأطراف المتناحرة ويقتل بعضهم بعضاً ويخرجون المغلوبين من ديارهم . . . ثم يفتدون الأسرى من اليهود ويطلقونهم اتباعاً لأمر التوراة . . ؟! يأخذون من الكتاب ما يعجبهم ويتركون الباقي . . ؟!

أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ

إن ترك العمل ببعض الأوامر كفر بها . . والإيمان كل لا يتجزأ . . فمن ترك بعض الأوامر الإلهية عن علم وعمد فإيمانه مشكوك فيه . . لأنه لا يستيقن أن الله أمر ونهى عن علم وحكمة .

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥﴾

فهو خزي الدنيا والآخرة لمن يفرق بين أوامر الله . . فأين المسلمون من هذا ؟! ألم يحذرنا رسول الله ﷺ «ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا . . .» ؟! فكيف يتقاتل المسلمون الآن ؟! ليست المشكلة هي وجود خلاف في الرأي . . فمن شأن الناس أن يختلفوا في كل عصر . . **ولكن فقدنا أخلاق الاختلاف وآداب الحوار** . . وتعودنا الاستبداد بالرأي ، فلا نستطيع أن نتحمل وجود وجهات نظر أخرى . . . مع أن علماءنا في الماضي كتبوا أبحاثاً في آداب المناظرة . وقرآننا يعلمنا الوداعة في الحوار حتى مع المشركين وأهل الكتاب ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ (الأنعام/١٠٨) . . ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله﴾ (آل عمران/٦٣) . . فكيف بأدب الحوار بين الإخوة في الدين ؟! ولكن أين نحن من القرآن . ؟ ومن أخلاق عباد الرحمن . . ؟

إن كلمة : الحرية تعتبر مغالطة على الصعيد الاجتماعي . . إذ لا حرية إلا في شريعة الغاب . . أما في المجتمعات فهناك القانون وهناك الالتزام . . أما في الصعيد الفكري فالحرية هي الكرامة الإنسانية ﴿لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي﴾ (البقرة/٢٥٦) . . وحرية الرأي هي مقياس الرقي في المجتمع . . وهي التي كان ينشدها أصحاب الثورة الفرنسية حتى قالوا : (قد أخالفك في الرأي . لكنني مستعد أن أموت في سبيل حريتك في التعبير عن رأيك) . وإن العنف في الحوار هو دليل العجز عن

إقامة الدليل وإقناع الفكر . فالسوط هو سلاح الضعيف العاجز . والخلافات لا تحل بالسلاح ، بل تتأجج وتستفحل . فقد تستطيع إسكات خصمك بالقوة لكنك شحنته بالكراهية فهو يتربص بك الفرصة لينقض عليك . . بينما يقرب الحوار الفكري المهذب وجهات النظر ويضيق شقة الخلاف . ومرة أخرى يجب أن نتذكر ﴿ادفع بالتي هي أحسن . .﴾ (فصلت/٣٤) . فهي قانون للعلاج . ويجب أن نتذكر أيضاً أن الخسائر التي لحقت بنا من خلافاتنا وأساليبنا المنحرفة عند الخلاف ، تعادل أضعاف ما ألحق بنا أعداؤنا في حروبنا معهم . . وذلك من براعتهم في توجيه الصراع الفكري وغفلتنا عنه . وإن عبء هذه الغفلة لا يقع على أكتاف الكبار والمسؤولين . . بل إننا جميعاً مشتركون في المسؤولية . . هل حققنا التناسق في أسرنا . .؟ في حيّنا مع جيراننا ؟ في مدارسنا .؟ في العلاقة بين المعلم والمتعلم ؟ في العلاقة بين أتباع المذاهب الفكرية المختلفة .؟ أين حرية الرأي وأخلاق الحوار . .؟! إن الأمور تبدو في عالمنا كما قال أحدهم : (نحن مستعدون لأن نتقاتل ولو على رباط حذاء) . . والصراع الفكري الآن مبني على ما حذرنا منه رسول الله ﷺ بقوله «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في أرض العرب . لكنه رضي بالتحريش بينهم» .

﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي﴾ . .؟! قد يقبل المسلم الآن أن يصلي ويصوم . . لكنه يتخاذل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . ولا يهتم بأمور المسلمين وما يحل بهم من مآسٍ . . قد يتصدق ويدفع الزكاة . . لكنه يترك فريضة طلب العلم . . ويترك الدعوة إلى الله . . لأنها تعرضه للأذى . .

وهكذا نجد المسلم يتخاذل عن أكثر الأوامر التي تحتاج إلى صبر وعزيمة . . بل يتخاذل عن الأوامر التي تخالف إلف الناس لأنها تعرضه لنقدهم . . وهنا تلتفت الآيات إلى الناس جميعاً لتطلق حكمها على هؤلاء المتخاذلين :

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

حين آثروا مصالح الدنيا والسلامة العاجلة على نعيم الآخرة .

■ ١١ ■

مواقفهم من الرسل والكتب والملائكة

"١ - موقفهم من الرسل والكتب المنزلة :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ (٩٢)﴾

كانت حجة اليهود في الإعراض عن رسالة محمد ﷺ التمسك بدينهم وشرعة أنبيائهم .. فيذكرهم بمواقفهم مع أنبيائهم ويفضح دعواهم :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾

إن هوى النفس لا يمكن أن يكون شرعاً ونظاماً يصلح لإقامة الحياة السليمة للبشر . ومن الطبيعي أن لا توافق الشريعة أهواء البشر ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض﴾ (المؤمنون/٧١) . فالحياة الاجتماعية لا تبنى على هوى الأفراد ولا على هوى الأمم .. ألم تروا كيف حطمت النازية (وهي فكرة مبنية على هوى أمة) الأمة التي نادت بها .؟ وإنما تبنى الحياة على سننها وقوانينها المودعة فيها .. والتي جاءت الشرائع السماوية لتدلنا عليها .. لكن الانجراف مع الهوى يدفع الأمم إلى تكذيب الرسل والمصلحين .. بل إن اليهود وصل بهم الأمر إلى قتل الأنبياء .. وقد حاولوا قتل عيسى ومحمد (صلوات الله عليهم) .

وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ

أهو عذر أقبح من ذنب ؟!

فلعلهم يقصدون التملص من التبعة برد الأمر إلى الطبيعة التي خلقوا عليها . . أو وصف غلظ الإعراض الذي في قلوبهم تجاه محمد ﷺ كما قال الكفار ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾ (فصلت/ ٥) . فيرد عليهم الله ببيان السنة :

بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ

فقلوبهم ليست غلفاً لا تفهم الحق بطبعها . وإنما طردهم الله من رحمته بسبب كفرهم . فالعلاقة واضحة بين عمل الإنسان وعمل الله .

فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

يستثني للإنصاف وللدقة في الحكم . ثم يجابهم بموقفهم من الرسالة الجديدة ويشن عليهم حملة تأتي مناسبة بعد عرض كل هذه الانحرافات والأخطاء :

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟
مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

كانوا يقولون للمشركين قبل مبعث محمد ﷺ : سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما بعث الله رسوله من قريش كفروا به . . حتى قال لهم

معاذ بن جبل : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته . فقال سلام بن مشكم (أخو بني النضير) : ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم [1] . فأنزل الله الآية .

كانوا يتبجحون بالقول . . فلما جاء وقت الإيمان والعمل نكصوا . . وكثير من الناس يتسرع في حماسة ـ وهو لا يقصد التبجح كاليهود ـ دون أن يقدر الجهد اللازم للعمل من تضحية ونكران للذات . . فإذا جد الجد وصار وقت العمل عجز وتخاذل وبحث عن الأعذار . وهو موقف عاطفي آفته السطحية وعدم تقدير الجهد المكافىء . . لكن موقف اليهود أشد لأنه يحمل التبجح والعنصرية . . ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ (النمل/١٤) . والآيات تكشف عن السبب الحقيقي لموقفهم هذا :

بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا

فقد حملهم على ذلك البغي والحسد وكراهية :

أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ

وإنما يريدون حصر فضل الله فيهم وحدهم .

وتصف الآية عملهم هذا بأنهم باعوا أنفسهم للكفر فبئس البيع . . وهنا تبدو طبيعة اليهود العنصرية . . فكل خير يصيب سواهم كأنه مقتطع منهم . . والتعصب مرض خبيث يدفع إلى الإعراض عن الحق ويحرم صاحبه من الاستفادة من خبرات الآخرين وعلومهم . ولا يمكن للجماعة المتصفة بالتعصب والأثرة أن تحمل رسالة عالمية . . ولذا وصف اليهود عبر التاريخ بالجمود والتقوقع على ذاتهم . وتنبأ المؤرخون للفكرة الصهيونية بالزوال في عالم يتجه بخطى حثيثة نحو الاتحاد والعالمية .

---

(١) ذكره ابن كثير عند تفسير الآية .

وينبغي للمسلم أن يعتبر من نقد المفكرين للمذاهب المعاصرة كالشيوعية والرأسمالية . فمثلاً يقول برتراند راسل: كلاهما واقع في الخطأ نفسه . . وهو الحجر على العقول بحيث لا يتاح لها أن تدرس الفكر المقابل بشكل موضوعي . فالانفتاح على كل الجهات والدراسة الموضوعية لما عند الآخرين والقدرة على الاعتراف بما عندهم من صواب ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ (الأعراف/٨٥) كل ذلك ضروري لتقديم دعوتنا العالمية .

فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

رجعوا بعد جولة الحياة الشاقة . . بعد التعب والنصب يحملون ما حصلوه فإذا به غضب على غضب وعذاب وإهانة (مقابل استكبارهم على الحق) . .

﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ

مرة أخرى يستنكر موقفهم . . ويرد على زعمهم : **﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾** فيواجههم بمواقفهم مع أنبيائهم :

قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

ويتابع التنديد بهم :

۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾

فهذا موسى عليه السلام منقذكم من فرعون والذي جاءكم بالبينات من الآيات والمعجزات . . ومع ذلك فسرعان ما انحرفتم وأشركتم . . لأنكم ظالمون . . ولم تكن عبادة العجل هي الغلطة الكبرى الوحيدة فيكم . . بل نقض الميثاق الذي أخذ عليكم تحت الطور والتهاون به . .

٢" - قالوا سمعنا وعصينا :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

وللمرة الثانية يذكر ويكرر :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ

خذوه مأخذ الجد والاهتمام ففيه صلاح الدنيا والآخرة . . واسمعوا لله وأطيعوا فإنه يعظكم ويجنبكم متاهات الضلال بتشريعه .

وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا

قالوا سمعنا بألسنتهم . . لكن أعمالهم قالت عصينا ، ولسان الحال أبلغ من المقال .

وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ

وإشراب الشيء بالشي مخالطته إياه وامتزاجه به . يقول ﷺ «حبُّك الشيء يعمي ويصم» [1] . ولعل القصد حب الذهب (المادة) خالط قلوبهم فهي منصرفة عن أمر الله متعلقة بمتاع المادة الفاني . والمرء مع من أحب . فإن أحببت الله كنت مع الله وآياته وفي الأماكن التي يحبها الله . وإن سيطر عليك حب آخر فأنت معه في الدنيا والآخرة .

قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾

وهل هكذا يكون سلوك المؤمنين ؟ ! وكيف تكون الآخرة خالصة لمن كان عنده مثل هذا الإيمان ؟ !

قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ

فالواثق بنعيم الآخرة يتشوق إليها ويتمناها . . وقد يعبر عن ذلك بكلامه . . أو يبقى ذلك في قلبه . مثل بلال ظهر البشر عليه ساعة موته وقال : غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه .

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود .

لكن اليهود كانوا يقصدون زعزعة إيمان المسلمين بدعاواهم . . ويتخذون هذا ذريعة في عدم اتباعهم لمحمد ﷺ . فالقرآن يفضحهم .

فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾

وهل هناك من يتمنى الموت ؟ وهل التفكير في الانتحار أو الدعاء على النفس بالموت هو المقصود ؟؟!

قيل : دعوا إلى المباهلة على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فنكلوا عن ذلك .

ومن المعلوم أن الانتحار والدعاء على النفس حرام في الإسلام . ولكن من يتمنى الوصول إلى الدار الآخرة يبذل روحه في سبيل الحق في مواطن البذل . فقد كان الصحابة يتمنون الشهادة قبل المعارك وأثناءها . لكن اليهود أبعد الناس عن ذلك:

وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

بسبب أعمالهم . وأسندت إلى اليد لأن أكثر الأعمال تزاول باليد ، وهو مجاز . فيذكرهم ويهددهم بعلم الله :

وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾

ثم يبين حرصهم :

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ

هكذا يعبر : حياة (نكرة) بدون تعيين . . حياة بأي شكل كانت . . كريمة ؟ . ذليلة . ؟ المهم عندهم حياة . .

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾

أيْ أن من المشركين من يشاركهم في هذا الحرص . أو أن حرصهم أشد من حرص المشركين الذين لا يؤمنون بيوم الحساب .

وينبغي لنا أن نقف أمام الآية ونتساءل : هل حال المسلمين اليوم أفضل من هؤلاء ؟ كيف يكون الشيوعي والبوذي أكثر تضحية وفداءً من المسلم المعاصر ؟ ! إن هؤلاء يرمون بأنفسهم على الموت في سبيل قضيتهم مع أنهم لا يؤمنون باليوم الآخر والمسلمون الآن يفضلون حياة القطيع الذي يسام الخسف على البذل . . ! إن المؤمن يفضل الموت على حياة المهانة .

أهوى الحياة كريمة ، لا قيد لا إرهاب لا استخفاف بالإنسان
فإذا سقطت سقطت أحمل عزتي يغلي دم الأحرار في شرياني

﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

٣" ـ موقفهم من الملائكة :

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

ومن الأساليب التي كانوا يتملصون بها من الإيمان بمحمد ﷺ قولهم : جبريل عدو لنا ولا يأتي إلا بالحرب والشدة والقتال . . ولو كان ميكائيل هو الذي يأتيك لآمنا لأنه ينزل بالرحمة والقطر والنبات . فيرد عليهم دعواهم بأربع حجج :

فالقرآن أولاً من عند الله ـ لا من عند جبريل ـ وقد نزله على قلبك بإذن الله .

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ

وثانياً : مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

من الكتب السماوية فهو يحمل برهانه معه .

وثالثاً : وَهُدًى

. . أي ولو كان في الماضي يأتيكم بالعذاب فإنه الآن قد جاءكم بالنصح والهداية .

ورابعاً : وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾

والرسل في كل زمان تبشر بالخير للمؤمنين فلم لا تكونون منهم ؟ ! ثم يهددهم :

مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

فمن عادى مَلَكاً فكأنما عادى الله وملائكته ورسله . . ومن كذّب رسولاً فقد كذّب بكل الرسالات . . فهل رضيتم لأنفسكم الكفر . . ؟! فاستعدوا لحرب الله وعداوته .

وكان اليهود يقولون لمحمد ﷺ : ما جئتنا ببينة (أي معجزة) . فرد عليهم :

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾

هي آيات القرآن . . هي البينات والدلائل فلا يحتاج إلىٰ آية أخرى . . وآيات القرآن لما تتحدث عن العقيدة تقرن معها البرهان ، ولما تتحدث عن الأحكام تذكر منافعها والحكمة منها . فهي دليل على نفسها . كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه لا يحتاج إلى ما يظهزه . . وحين يأتي محمد ﷺ الأمي بآيات القرآن . . فإنها تحمل دليلها معها . . وحين تحدثهم هذه الآيات عن تاريخهم وما فعلوا من معاصي وما غيّروا وبدلوا في توراتهم . . وما هو موجود في كتابهم لكنهم يخفونه . . وكل هذا يتلوه نبي أمي لا يعرف من تاريخهم وأخبارهم شيئاً . . فأي بيِّنة أكبر من ذلك . . ؟!.

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾

الخارجون عن الفطرة . . والإعراض عن الحق حرصاً على رأي الآباء أو المشايخ (أي التقليد) . . وترك الحق حسداً وعنداً . . كلاهما خروج عن الفطرة .

وإذا كان البشر في الماضي يصدقون من يأتي بخارقة . . فإن البشرية قد نمت وارتقت وجاء زمن العلم وانتهى عهد المعجزات . . وينبغي للناس أن يصدقوا من يخاطب عقولهم بالأدلة وما تكشفه آيات الآفاق والأنفس من براهين على أحقية الكتاب .

٤"ـ نبذوا الكتاب واتبعوا الشياطين :

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ

كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

عهودهم في الماضي كانوا يتنصلون منها ويحتالون لتركها . . وعهودهم مع محمد ﷺ كلها نقضوها . . والإسلام يؤكد على أهمية الوفاء بالعهود مهما كانت بسيطة ويربي شخصية المسلم على الوفاء بالعهد ولو تعارض مع بعض المصالح العاجلة فإنه خير وأبقى (كما حدث في صلح الحديبية) . ﴿إن العهد كان مسؤولاً﴾ (الإسراء/٣٤) . ولقد تأثر المسلمون الأوائل بهذه التربية والتزموا منهج نبيهم ﷺ في الوفاء بالعهد . حتى يذكر أن أبا عبيدة ـ وكان قائداً لأحد جيوش المسلمين زمن عمر ـ كتب إلى الخليفة عمر يقول : إن عبداً أمَّنَ أهل بلد بالعراق . . . فكتب إليه عمر : (إن الله عظم الوفاء ـ فلا تكونون أوفياء حتى تفوا) . . فوفوا لهم وانصرفوا عنهم . .

أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

فلا تظنوا أن الخيانة من فريق منهم فقط . . فإن الأكثرية مسؤولة . . ولو كانت الأكثرية صالحة لما تجرأت الأقلية على الخيانة . . خوفاً من العقاب على الأقل . .

وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

يرسم صورة مضحكة لهم وهم يخفون كتابهم وراء ظهورهم - كالأطفال - ويتظاهرون أنهم لا يعلمون شيئاً . .

تركوا هداية الله واتبعوا ما تقوله الشياطين من الإنس في قصصها وأساطيرها (أو اتبعوا شياطين الجن في وسوستها وإضلالها للناس . .) .

وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ

أي ما تقوله وتتلوه على الناس عن عهد سليمان وسلطانه . . فقد زعموا أنه كان ساحراً وأنه سخر ما سخر عن طريق السحر الذي كان يعلمه ويستخدمه . وقد ورد في رواية أن اليهود قالوا : يزعم محمد أن سليمان نبي . . وهو ساحر .

والقرآن ينفي عن سليمان السحر بهذه الصيغة :

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ

ولكن هؤلاء الذين يوسوسون للناس ويضلونهم ويتهمون سليمان هم الذين كفروا

وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ

وسبب كفرهم أنهم

يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ

وفي ذلك إضلال كبير للبشر حيث يصرفونهم عن العلم بالأسباب الحقيقية إلى الخرافة والأوهام . . وكم عطل ذلك كشف السنن . . وكم تأخر الكشف عن أسباب كثير من الأمراض بسبب اللجوء إلى المنجم والإيمان بالسحرة . . بل إن بعض الناس حتى الآن يلجأون إلى العرَّافين والدجالين إن أصيبوا بمرض أو تعرضوا لسرقة . .

ويحتمل أن قوله تعالى : ﴿**يعلّمون الناس السحر**﴾ . يقصد به اليهود ومتابعة الحديث عن أفعالهم وضلالهم . . وبهذا تكون الجملة ﴿**وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا**﴾ جملة اعتراضية .

ولا بد لنا من وقفة أمام موضوع السحر لنحدد فيه نقاطاً هامة :

أ ـ **ما السحر** ؟ طالما أنه ذكر في القرآن مراراً (وخاصة في قصة موسى وفرعون) .

أصل معناه اللغوي : كل ما لَطُفَ مأخذه ودق وخفي سببه . وقيل : سمي وقت السَحَر (والسحور) لكونه خفياً في آخر الليل .

وحديث رسول الله ﷺ «إن من البيان لسحراً» يقصد به تأثيره الخفي في النفس . وقد وصف الله سحر سحرة فرعون : ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ (طه/٦٦) . ﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم . .﴾ (الأعراف/١١٦) .

يقول صاحب تفسير المنار : [مجموع هذه النصوص يدل على أن السحر إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكثرون فيسمون العمل بها سحراً لخفاء سببه . ويمكن أن يعد منه تأثير النفس الإنسانية في نفس أخرى] . وقد ذكر بعض المؤرخين أن سحرة فرعون استعانوا بالزئبق على إظهار العصي والحبال على أنها حيات تسعىٰ .

وفي تفسير ابن كثير ينقل ما ذكره أبو عبد الله الرازي عن أنواع السحر نلخصه بما يلي :

١ ـ سحر الكذابين والدجالين يؤثرون به على ضعاف العقول .
٢ ـ سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية (مثل الإيحاء والتنويم المغناطيسي) .
٣ ـ الاستعانة بالأرواح الأرضية وهم الجن .
٤ ـ التخيلات والأخذ بالعيون والشعبذة (ألعاب الخفة ـ أسلوب الإضاءة) .
٥ ـ الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات مركبة . (وهذا يمكن كشفه) .
٦ ـ الاستعانة بخواص الأدوية والمواد (مثل المغناطيس ـ المركبات الكيمياوية) .
٧ ـ السعي بالنميمة والمكيدة (للإيقاع بين الزوجين والأصدقاء) .

ويمكن أن نقول: إنه قد نشأ سحر جديد في عصرنا من حيث قدرته التأثيرية الخفية ـ أو بالأحرى كان موجوداً لكنه الآن قوي ونما ـ وهو مبني على دراسة علم النفس والاجتماع . . فقد بدأ الإنسان يعرف المداخل إلى النفس الإنسانية وكيف يمكن التأثير على الإنسان بل على الأمم . . وإن هذا لهو السحر الجديد الذي بني عليه فن الدعاية ويصدق عليه ما قاله الرسول عن نوع متميز من البيان : «إن من البيان لسحراً» . . وقامت عليه الحرب الفكرية . . وسخرت لها وسائل الإعلام والتوجيه . . حتى يمكن القول إن أصحاب هذا السحر الجديد قد مارسوا سلطاناً مروعاً على الأمم وكان الأحرى بهم أن يستخدموه في بناء الانسان وفي الخير . . إنهم أساؤوا استخدامه كما أساؤوا استخدام الذرة . . إذ يكفي أن يضغطوا على بضعة أزرار حتى يثيروا أمماً ويشعلوا حروباً ويحطموا نهضة . . ألا يذكرنا هذا بصورة المارد الضخم الذي يقف بين يدي الساحر منقاداً مردداً (شبيك لبيك عبدك بين يديك) . . ؟ !

ب ـ حكم الإسلام على السحر :

يضعه في الآية مرادفاً للكفر . ويقبح تعلمه (كما سنرى في تتمة الآية) .

وقد ورد في الصحيح : «من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ وفي حديث آخر : «من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ .

جـ ـ هل السحر جريمة يعاقب فاعلها ؟

جمع ابن كثير طائفة من آراء الفقهاء في الموضوع :

- فالإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف يكفرون الساحر .
- وأبو حنيفة ومالك وأحمد يكفرون من يتعلم السحر ويستعمله .
- وكتب عمر بن الخطاب : (أن اقتلوا كل ساحر وساحرة) فقتلنا ثلاث سواحر .

وصح أن حفصة سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت .

- وعند مالك وأحمد : يُقتَلُ الساحرُ المسلمُ .
- ويقول الشافعي : إن قَتل بسحره إنساناً يُقتل .
- ولا تقبل توبة الساحر عند مالك وأبي حنيفة وأحمد .
- أما الساحر من الذميين والمشركين فلا يقتل إلا إذا قتل سحره .

د ـ كيف يعتصم المسلم من شر السحر ؟ :

وردت قراءة المعوذتين على الكفين ومسح الرأس وسائر الجسد بهما : «لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما» ، وأية الكرسي من قرأها قبل أن ينام لم يقربه شيطان .

هـ ـ هل يستطيع الساحر أن يضر أو ينفع ؟ أو يغير في قدر الله ؟ !

إن اعتقد أحد بذلك فقد أشرك بالله وكفر (وتتمة الآية تقرر ذلك) ، ولكن للتوضيح . . إن الشيطان يستطيع أن يلحق الضرر بمن غفل عن ربه بالوسوسة

والانحراف . . ويكون هذا بإذن الله وقدره . . لأن الله قد أذن للشيطان بأن يحاول إضلال الإنسان : ﴿لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ .

ولا يستبعد أن يكون هناك سحر حقيقي يعرف أسبابه قلة من الناس . فإذا قاموا بالسبب وقعت النتيجة . . علماً بأن كل الأسباب لا تقع نتائجها إلا ضمن قدر الله وبإذنه . وهو القادر على تعطيل الأسباب . خاصة إذا عرف المسلم كيف يبذل جهده في الحذر والوقاية وهو ملتجىء إلى ربه . وفي عالمنا الذي نعيش فيه تكشف في كل يوم أشياء ومعارف جديدة تجعلنا نفهم سر بعض الأمور التي تجري من حولنا . . ومن لا يعرف السبب يشعر بالغموض وكأنه أمام سحر . . فإذا عُرف السبب بطل العجب . . والمسلم حين يلجأ إلى ربه ويصدق في توكله . . يحاول أن يقوم بما يستطيع من الأسباب . . فالأم لا تكون متوكلة حق التوكل حين تضع طفلها بين الحشرات وهي تقرأ له المعوذات . . !! وكذلك فيما يتعلق بمواجهة الأمراض .

نعود إلى الآية فقد قررت حتى الآن :

١ ـ التحذير الشديد من ترك العمل بكتاب الله والانصراف عنه إلى شيء آخر .

٢ ـ التحذير الشديد من تعاطي السحر والعمل به .

٣ ـ إن ما ينسبه بعضهم إلى سليمان من سحر وطلاسم لا صحة له مطلقاً . . لكن الله وهب سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من غيره ومنه تسخير الجن والريح و . . .

ولقد تضاربت الآراء حول هاروت وماروت :

فمنهم من يقول : رجلان صالحان حتى أن الناس شبهتهما بالملائكة . ومنهم من يقول : مَلِكين من ملوك الناس (لأن هناك قراءة للآية بكسر اللام) . ومنهم من يقول : ملكين أنزلهما الله لأداء دور معين في فتنة الناس في عصر من العصور .

وقد استعرض ابن كثير أحاديث ضعيفة وأقوالاً عن الصحابة والتابعين في هذين الملكين يمكن تلخيصها : بأن الملائكة استنكرت أعمال بني آدم وذنوبهم على الأرض . فقال الله لهم : اختاروا اثنين منكم . فاختاروا هاروت وماروت . فقال لهما : انزلا

لا تشركا بي شيئاً ولا تزنيا ولا تشربا الخمر . فما أمسيا من يومهما الذي نزلا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه . (وروي بهذا الإيجاز عن كعب الأحبار) .

يقول ابن كثير بعد ذكر هذه الروايات : (وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل . إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدق المعصوم . . . . وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم) ولو كان في التفصيل خير لفصله القرآن لنا .

وقد ذكر عن القاسم بن محمد أنه قال في ذلك : (لا أبالي أي ذلك كان إني آمنت به) . ﴿والراسخون في العلم يقولون : آمنا به كل من عند ربنا﴾ (آل عمران/٧) .

وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ

من المفسرين من يعتبر (ما) نافية . . فيكون المعنى أن السحر لم ينزل عليهما إنزالاً من الله بحيث يعتبر محموداً وإنما افترياه من عندهما . ومنهم من يعتبر (ما) بمعنى (الذي) فيكون المعنى : يعلمون الناس السحر والذي أنزل على الملكين . . ولا تستعمل أنزل فقط للوحي أو للأمور المحمودة ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ (الحديد / ٢٥) . وقد أنزل الله الشر والخير فتنة للناس .

وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ

مرة ثانية يطلق على السحر كفراً . وحتى هاروت وماروت يحذران الناس من السحر والعمل به .

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ

ولا يخفى أن الكيد والوقيعة والبهتان كل ذلك له أثر في إفساد العلاقات (وقد مر

معنا أن هذا نوع من السحر) .

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

والإيمان بهذا هو جوهر التوحيد . «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»(١) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ :

أن هذا السحر ينشىء هذا الأثر كما أن النار تنشىء الاحتراق بإذن الله وهو قادر على أن يعطل هذه الخاصية فيه إن شاء .

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾

كما يقول الحسن (لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه).يضرهم في دنياهم لأنه يصرفهم عن العلوم النافعة ويحقرهم في نظر المجتمع . . ويميت ضمائرهم . . ويضرهم في دينهم وآخرتهم .

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾

أي نصيب .

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

لقد باعوا أنفسهم . . وبئس الثمن الذي حصلوا عليه في المقابل : غضب الله وناره في الآخرة . بينما يبيع المؤمنون أنفسهم وأموالهم ﴿بأن لهم الجنة﴾ .

---

(١) رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟

وهذه إشارة ثالثة تفيد كفر من يتعاطى السحر .

لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

تكرر التعقيب : ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ مرتين . . وفي ذلك بيان : أن العلم كان كفيلاً بإنقاذهم . . العلم هو الخلاص من السحر . . من الكفر . . من الدجل والخرافة . . العلم هو الشفاء من الشرك . . لأن الشرك في حقيقته هو سوء فهم للأسباب . . وربط النتائج بغير أسبابها . **والقرآن يعطي الثقة للعلم في كل مناسبة** . ولا نجد فيه إشارة واحدة تدين العلم . . بل إنه يدين الجهل والظن والهوى ﴿ما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ (النجم/٢٣) .

٥" - توجيه للمؤمنين وتحذير :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

يلتفت السياق مرة أخرى إلى المؤمنين لتوعيتهم وتوجيههم ويناديهم : يا أيها الذين آمنوا . . يا أيها المخلصون حققوا الصواب في أعمالكم . . .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ

يروى أن رجلاً أتى عبدالله بن مسعود فقال : اعهد إلي (أي أوصني) فقال : إذا سمعت الله يقول : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأعرها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه .

كان اليهود يقولون لرسول الله ﷺ (راعنا) يقصدون بها شتم النبي (من الرعونة وهي الحماقة) بينما يُظن أنهم يسألونه أن يرفق بهم ويرعاهم وينتظرهم ففضح الله كيدهم ونهى المؤمنين عن قول ذلك للنبي .

فوائد من الآية :

١ - نهى المؤمنين عن التشبه بأعمال الكفار وأقوالهم : «من تشبه بقوم فهو منهم» لأن التقليد يدل على الإعجاب والحب والمرء مع من أحب[١] (اهتم بهذا ابن كثير) .

٢ - وفي المنار : راعنا من المراعاة وهي تقتضي المشاركة في الرعاية . أي : (اسمع لنا واهتم بنا نسمع لك ونهتم بك). ارعنا نرعك . . وهذا سوء أدب مع النبي ، والنهي عنه مثل النهي عن رفع الصوت ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ (الحجرات/٢) . وهي مثل قوله تعالى : ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ (النور/٦٣) . والتقصير في الأدب مع النبي يعلق عليه في الآية :

وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

فاحذروا واتركوا الألفاظ الموهمة للمساواة في خطابكم للنبي . . فكيف بالألفاظ المنافية للأدب ؟! ولمن جاء بعد الرسول حظاً من هذا التأديب . . فالعلماء والمربون إنما يقبسون ويتأسون بالأنبياء . ولا شك بأن من يعامل أستاذه ومرشده معاملة المساواة في القول والعمل يقل احترامه له حتى تقل الاستفادة منه لا من حيث كونه (معلماً) بل من حيث كونه (مربياً) . ولو شعر بأن معلمه فوقه في العلم والخلق والاستقامة لما ساوى

---

(١) راجع فصل التقليد في كتاب الإسلام على مفترق الطرق ، تأليف : محمد أسد .

نفسه به في المعاملة . ولا بد أن نبتعد بالأمر عن خطئين :

١" ـ المبالغة في الاحترام حتى يصبح المربي في نظرنا منزهاً عن الخطأ . (وهذا الخطأ يتمثل في قول بعض الصوفية : يجب أن يكون المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي المغسِّل) .

٢" ـ الإهمال وعدم معرفة قدر العالم . . كأن يقاطع أثناء كلامه . . أو يشوش عليه أثناء الحديث . . وكثيراً ما شهدنا مجلساً قُدم فيه سؤال للمربي فانبرى للجواب أحدهم من هنا وآخر من هناك . !!

والأدب السوي لا يخرج العلماء عن بشريتهم . . بل هم بشر يخطئون وقد يجانبهم الصواب في بعض الآراء والمواقف ولكن هذا لن يدفعنا للتنكر لما عندهم من خير ولن يعشى بصرنا عن رؤية الجوانب المضيئة فيهم وتقديرها والتأسي بها . . مع احترام لهم ولو خالفناهم في بعض وجهات النظر .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿واسمعوا﴾ :

ليس خاصاً بمعاصري الرسول ﷺ . فهذا كتاب الله الذي كان يتلوه عليهم يُقرأ علينا . . فكيف يقابله المسلمون ؟! إنك لتسمع اللغو في مجالس القرآن . . حتى إذا ما صادفت مجلساً فيه سماع وإنصات إذا بك تكشف أن سماعهم طرب وليس تدبراً فهم يهتزون ويصوتون كما يفعلون عند سماع الغناء . . والذين يستمعون له هل يستجيبون لأمره ؟

٤ ـ يجدر بالمؤمن أن لا يستعمل الكلمات التي تحمل معاني مزدوجة وذلك حرصاً على الوضوح والتوضيح مع من يتعامل معه ودفعاً لإثارة سوء تفاهم قد يشحن النفوس ويقطع الروابط الأخوية . فإذا كان الله ينهى عن الوقوع في إيذاء المؤمن بدون قصد وبشكل غير مباشر . . فكيف بمن يؤذي أخاه مباشرة وعن قصد .؟!

■ ١٢ ■

أمانيهم وتعصبهم

مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

في الآية يجمع بين المشركين وطائفة من أهل الكتاب تحت وصف الكفر . وهذا من دقة القرآن في التعبير وفي الحكم على الناس . فهو لا يطلق حكم الكفر على أهل الكتاب كلهم .

مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ

وفي الآية تحذير للمؤمنين من هؤلاء الذين يفرحون بالمصيبة تصيب المؤمنين ويكرهون أن ينزل عليهم خير . . ويتربصون بالمؤمنين الدوائر .

وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

ولئن كانت الصورة السابقة تقرر وجود الإخلاص عند المؤمنين لكن يعوزهم

معرفة الصواب أكثر فيعلمهم الله . . فإن صورة هؤلاء خالية من أي إخلاص أو إيمان . . فهم وإن عرفوا ما فيه نفعكم لن ينفعوكم . . ولا بد من الإخلاص والصواب معاً لنجاح العمل في الدنيا والآخرة .

ومن مواقفهم التشكيك برسالة محمد ﷺ : اعتراضهم على نسخ بعض الأحكام والآيات . فيرد الله عليهم :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾

إنهم لا يحبون أن يتنزل عليكم خير من ربكم . . ولكن الله يعدكم بمزيد من الخير .

والنسخ : هو التبديل أو إلغاء حكم آية وإبطاله . فقد ينسخ الله حكم آية أو ينسيها النبي لمصلحة . لأنه سبحانه وتعالى تعهد بحفظ القرآن . (والآية خاصة بزمن نزول القرآن) . . وقد حدث أن نسخت آيات مع نصها . بينما بقيت آيات بنصها ونسخ حكمها . كالآيات التي تتحدث عن الخمر قبل التحريم .

وفي الآية إمكانات ثلاثة :

١ ـ قد تشير إلى تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى البيت الحرام (وستأتي الآيات بعد قليل) .

٢ ـ وقد تشير إلى تعديل بعض الأوامر والتشريعات التي كانت تتابع نمو الجماعة المسلمة وأحوالها المتطورة . فترقى بهم إلى الأفضل .

٣ ـ وقد تكون إشارة إلى نزول القرآن بتعديل بعض أحكام التوراة مع تصديقه للأصول ومع الانتباه إلى أن الآية القرآنية لا تنسخ إلا بآية أخرى . وليس الأمر متروكاً لتلاعب البشر . وفي الظلال يشير إلى أن كلمة : ﴿**ما ننسخ من آية أو ننسها**﴾ تشمل المقروءة والتي هي بمعنى علامة أي معجزة أو خارقة . فقد طويت المعجزات التي جاء بها الرسل وانتهى زمنها ، وجاءت آيات الكتاب التي تخاطب العقل وتفتح طريق العلم .

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾

الخطاب للنبي ولكل من يتبعه . .

إن الأمر يحتاج إلى علم . . . وان العلم هو القدرة . . .

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

يكرر : ﴿**ألم تعلمْ**﴾ . مع أنه يتحدث عن جوانب من الإيمان . . فكأنه ينبه أن الإيمان الراسخ منبعه العلم . . وكأنه يذكر من في نفسه ضعف من المؤمنين فيتأثر من حملات اليهود وتشكيكهم . .

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

فلا تهتموا بهؤلاء ولا يهمكم إرضاؤهم فإنهم لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً فالله هو الولي . . . فالآية تحذير وتذكير وتثبيت للمؤمنين . ثم يحذرهم من **الأسئلة المعنتة** :

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾

قد يكون النهي عن سؤال المعجزات كما كان اليهود ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله . .﴾ (البقرة/٥٥). وقد يكون النهي كما ورد في آية أخرى : ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ (المائدة/١٠١) . وقد ورد في صحيح مسلم : «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم . وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» . وذلك أقرب إلى جو الآيات التي تحدثت قبل قليل عن قصة البقرة وتعنت بني اسرائيل في السؤال عنها . كذلك السؤال بمعنى المطالبة بأن يُعطوا كذا وكذا : ﴿فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض . .﴾ وينبغي بناء الإنسان على نفسية البذل والعطاء . . لأن الدنيا لا تعطي إلا

العاملين . وقد جعل الله الثمار تخرج للزارعين لا للسائلين . . ! وإن من يقلد اليهود ويقع في أخطائهم قد تبدل الكفر بالإيمان فكيف يهتدي ؟!

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨﴾

وكيف تنطلي عليكم حملات اليهود وكيدهم وهم الذين أبغضوكم وكرهوا أن يمنحكم الله من فضله وناصبوكم العداء ؟!

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾

ودقة القرآن هنا أنه لا يعمم الحكم على الجميع . بل يقول : ﴿كثير من أهل الكتاب﴾ . وهم لا يفعلون ذلك عن جهل حتى يعذروا بل :

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾

فيأتي التوجيه للمسلمين :

﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

والعفو : هو ترك العقاب على الذنب . والصفح هو الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه فيشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب .

من الآيات نستنتج :

١ ـ هذه التوجيهات نزلت بعد تكون المجتمع المسلم . ولقد كانت هذه المرحلة بمثابة إعطاء فرصة لأهل الكتاب كي يعرفوا الحق ويحترموا سمو أصحابه . . وكانت أيضاً تدريباً للمؤمنين على الدفع بالتي هي أحسن وعلاجاً لقلوب أهل الكتاب حتى تنكسر حدة العداوة فيها ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي

حميم﴾ (فصلت/٣٤) . وقد استفاد من هذه الفرصة بعضهم مثل عبد الله بن سلام ومخيريق . . بينما ازداد حقد آخرين مثل حيي بن أخطب . . حتى وجهوا قوتهم لرفع السلاح وقتال المسلمين . وعند ذلك أمر الله بقتالهم ونصر المسلمين عليهم .

٢ ـ العفو لا يكون عفواً إلا عند القدرة على الانتقام . . أما في مكة فقد أُمِر المسلمون بالصبر ـ ولم تكن لهم دولة ولا قوة ـ ولم يُسَمِّ أحد هذه المرحلة المكية بأنها مرحلة عفو . . بل صبر على الأذى .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ .

وعدٌ من الله بالنصر والغلبة على الكفار تحقق في الماضي ، ويمكن أن يتحقق في المستقبل . . سواء بالنصر في معركة مادية مسلحة . . أو في ميدان الصراع الفكري وغزو النفوس ودخول الناس في دين الله أفواجاً .

٤ ـ صحيح أن الآية تحذر من كيد الأعداء . . لكنها حين تعالج الأمر كأنها تقول للمسلمين : كل هذا الكيد والحقد لا يهم . . وإنما المهم هو تكوين الشخصية المؤمنة وتعويدها على أداء الواجب والبذل والسماحة . . المهم هو الانتصار على هوى النفس ونوازع الانتقام . . المهم هو البحث عن أفضل علاج لقلوب الأعداء ووضع خطة لمساعدتهم على الخلاص . . والسير بهذه الخطة بصبر وثبات . . وعند ذلك تنجح النفس المسلمة في الارتقاء وتفرض احترامها في الميدان . . وعندما تظهر مشاعل النور تتلاشى أوهام الظلمات .

إن هذه الفترة ليست فترة إهمال . لكنها فترة تزود وتربية وتصعيد للنفس الإنسانية حتى تستحق الخلافة في الأرض . . وجنة الله في السماء .

(١٠٩) وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ

لتزكية الأفراد ولإصلاح شؤون المجتمع .

وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ

وأبواب الخير كثيرة . . وإن الله لا يضيع مثقال ذرة من خير . . ولو ضاع المعروف مع الناس .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وهذا يحمل التهديد . . والتطمين أيضاً . فاحذر في أعمالك ونواياك فإن الناقد بصير .

وقد آن لنا أن نتحرر من هذه الإيحاءات السلبية والجاهلية التي تريد أن تصدنا عن العفو والتسامح . مثل قولهم :

ومن يفعل المعروف مع غير أهله يكن حمده ذماً عليه ويندم

ومثل قولهم عن المتسامح : ضعيفٌ أو ذليلٌ . . وإن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب . بينما رسول الله ﷺ يقول : «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً» والحقيقة هي أن من لا يقدر على العفو هو الضعيف المنهزم في معركته مع نفسه «إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» .

تعود الآيات إلى أهل الكتاب وأخطائهم وأمانيهم :

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾

يقول صاحب المنار : [طالبهم الله بالبرهان على دعواهم فقرر لنا قاعدة لا توجد في غير القرآن من الكتب السماوية وهي : أنه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه ، ولا يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها . ذلك أن الأمم التي خوطبت بالكتب السالفة لم تكن مستعدة لاستقلال الفكر ومعرفة الأمور بأدلتها . . . بينما يؤمر

النبي ﷺ ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ (يوسف/١٠٨) . وجاءت الأدلة على قدرة الله وعلمه ووحدانيته بالآيات الكونية وهي كثيرة في القرآن . وجاءت الأدلة على الأحكام القرآنية بما يكون لها من الأثر في محو الضرر والوصول إلى المنافع . . . علم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة وهكذا كان خلق السلف نهوا عن الأخذ بشيء من غير دليل . . ثم جاء الخلف فحكم بالتقليد وأمر بالتقليد ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد حتى كأن الإسلام انقلب إلى ضده] . إن القرآن يبني عقلية المسلم على النظر في الأدلة وطلب البرهان كما يقول سعيد النورسي : [**نحن خدام القرآن . تابعون للبرهان ننظر إلى الحقائق الإيمانية بالعقل والفكر والقلب . . . . والمستقبل الذي ليس فيه لغير العلم والعقل مكان لا يتسع صدره لغير حقائق** القرآن] [1] .

لقد كانت هذه التوجيهات هي التي علمت المسلمين أسلوب البحث العلمي وهي التي أوحت إلى الغرب بالمنهج التجريبي الذي بنيت عليه الحضارة الغربية . ثم يقرر القاعدة في جزاء الآخرة : وهي أن الجزاء يترتب على العمل :

بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ

وقد سبق أن قرر ما يشبه ذلك بقوله : ﴿**بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار**﴾ . وذلك رداً على أمانيهم أيضاً .

﴿**أسلم وجهه**﴾ : يرمز بذلك إلى صدق التوَجُّهِ . والإنسان يتوجه بوجهه إلى الطريق أو الغاية التي يريدها .

والإحسان : هو شعور برقابة الله يدفع إلى إتقان العمل والقيام بما فيه الخير . والآية تشير إلى القاعدة التي سبق أن تحدثنا عنها وهي أن الإخلاص والصواب شرطان

---

(١) من رسالة الخطبة الشامية ص ١٣ ، للشيخ سعيد النورسي .

لا بد منها لنجاح العمل في الدنيا وقبوله في الآخرة . يقول سعيد بن جبير رحمه الله : [بلى من أسلم : أخلص . وجهه : دينه . وهو محسن : أي اتبع فيه الرسول . فإن للعمل المتقبل شرطين : أحدهما أن يكون خالصاً لله وحده والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة . فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل] . «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» [1] . وفي هؤلاء يقول تعالى : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ (الفرقان/٢٣) .

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

وقد سبق أن قيل لآدم وزوجه : ﴿**فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ وماذا يريد الإنسان أكثر من ذلك . . ؟

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ

يروى أن يهود المدينة تماروا مع وفد نصارى نجران عند النبي ﷺ فقال كل فريق منهم ما قال في إنكار حقيقة دين الآخر ، واتهم كل منهم الآخر بأنه ليس على شيء ، كل هذا :

وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ

كل منهم يتلو كتابه . والتوراة بشرت بعيسى ، وعيسى يقول في الإنجيل أنه جاء متمماً لناموس موسى . . !!

كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

---

(١) رواه مسلم .

من مشركي العرب وغيرهم . . إنها مشكلة التعصب للملّة وكل طائفة تزعم أنها هي وحدها على حق . وكما يقول توينبي : [إصرار كل منهما على أن الضياء المنبعث من فرجة نافذته هو وحده الضياء الكامل . . وأن الأخرى إنما تعيش في غبشة الليل إن لم يكن في الظلام الدامس ، بل إن أهل كل طائفة من الدين الواحد يقفون الموقف نفسه من سائرالطوائف] (1) وهذه المواقف هي التي شجعت وقادت إلى الإلحاد والتحريف ومردّ ذلك فقدان النظرة الموضوعية وعدم القدرة على التمييز بين الإيجابي والسلبي عند كل طائفة . . والتعصب مرتبط بالجهل . . فكلما توقف النمو العلمي كلما ضاق الأفق وسيطرت النظرات الذاتية . ولهذا تشير الآية : ﴿**كذلك قال الذين لا يعلمون** . . ﴾

فإذا تصرف الذين يتلون الكتاب مثل تصرف الذين لا يعلمون . . فقد توضحت المشكلة ، وهي فقدان العلم رغم وجود الكتب السماوية . . كما بيّن ﷺ لزياد بن لبيد حال اليهود والنصارى بأنهم لا ينتفعون من كتبهم بشيء رغم قراءاتهم لكلمات هذه الكتب . فإذا كانت اليهود قد كفرت بعيسى وأنكرته وهو منهم وكانوا ينتظرونه لإعادة مجدهم وعزهم . . وإذا كانت النصارى قد رفضت التوراة وكفرت أهلها . . وهي حجتهم على دينهم . . فكيف يُعتد برأيهم في محمد ﷺ وهو من شعب غير شعبهم وقد جاء بشريعة ناسخة لشرائعهم !! إنهم لا يفهمون من الدين إلا التعصب . .

نستنتج من الآية :

١ ـ لا ينبغي للعاقل أن يحكم على شيء إلا بعد البحث ومعرفة مكان الخطأ والصواب .

٢ ـ الغفلة عن ذلك تؤدي إلى التعصب والتقليد وتخرج الإنسان من صف العلم .

٣ ـ يمكن عرض الموضوع تحت اسم : النظرة الموضوعية والنظرة الذاتية .

---

(١) توينبي ، مختصر دراسة التاريخ ، جـ٣ ، ص ١٦٥ .

٤ ـ أيهما أجدى في معالجة الخلافات بين الناس :

أن يقول كل طرف للآخر : ﴿لستم على شيء﴾ .

أم أن يعترف بالحق الموجود عند الطرف الآخر لفتح حوار في الأمور المختلف عليها ؟

القرآن يدرّب المسلمين على أن يسلكوا الطريق الثاني : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله . .﴾

■ ١٣ ■

أعظم الظلم

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾

الآية الكريمة :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ

قيل في نزولها عدة أقوال :

١ ـ أنها نزلت في النصارى عندما اتحدوا مع بختنصر البابلي على تخريب بيت المقدس والتنكيل باليهود . . يقول صاحب المنار : [إن حادثة بختنصر كانت قبل وجود المسيح بـ ٦٣٣ سنة . ولكن جاء حاكم روماني اسمه أدرينال بعد المسيح بـ ١٣٠ سنة فبنى مدينة على أطلال أورشليم وهيكلاً على أطلال هيكل سليمان وحرم على اليهود دخولها فكان اليهود يسمونه بختنصر الثاني لشدة ما قاسوا من ظلمه] .

٢ ـ قيل نزلت في مشركي العرب حيث منعوا النبي وأصحابه من دخول مكة . ﴿**وسعى في خرابها**﴾ . وأي خراب أكبر من عبادة الأصنام فيها وطرد أصحاب العقيدة الصحيحة منها . رغم أنه «ما كان أحد يصد عن هذا البيت . وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده» .

٣ ـ صاحب الظلال يقول : الآيتان تتعلقان بتحويل القبلة وسعي اليهود لصد المسلمين عن التوجه إلى الكعبة .

٤ ـ إخبار بما سيقع من أهل الكتاب في المستقبل : الصليبيين واليهود .

٥ ـ قد تشير الآية إلى كل ذلك . إضافة إلى ما عليه المسلمون الآن من صد عن المساجد وتعطيل لوظائفها . فقد فعلوا ما لا يقل عن فعل المشركين وأهل الكتاب .

وقوله : ﴿**أن يذكر فيها اسمه**﴾ :

يسمحون لك أن تذكر الله الخالق . . الله المجيب للدعاء الذي أمر بالصلاة والصيام والذي أوصى ببر الوالدين وصلة الرحم و . . . ولكن أن **تذكر الله الحاكم المشرع العادل في حكمه . . وأن الخروج عن شرعه هو شرك به . . فهذا ممنوع .**

﴿**وسعى في خرابها**﴾ : بهدمها أو بمنع كلمة الحق من أن تذكر فيها . والمسلمون الآن يهتمون بالعمارة الشكلية . . ولكن أين العمارة الداخلية . . ؟ وكثيراً ما يحدث الصد بسبب فقدان الفنية في أساليبنا . . . ويظهر ذلك مثلاً بالمقارنة بين أساليبنا في معاملة الأطفال في المسجد وأسلوب النبي ﷺ الذي كان يحمل بعض أحفاده وهو على المنبر أو أثناء الصلاة .

وإن من خراب المسجد وتعطيل دوره : أن لا يتحقق الاطمئنان في الصلاة . . وأن لا تتوفر الكفاءة العلمية والسلوكية في الخطباء والأئمة . فكيف تكون الخطب ؟!

لقد كان المسجد هو المدرسة التي يتخرج منها العلماء . . وهو القلعة التي تلد المجاهدين . . فأين حلقات العلم . . وأين مجالس الذكر والتربية للصغار والكبار والنساء . . . ؟! بل إن بعض البلدان قد أغلقت مساجدها في وجه النساء . والآية تهدد :

أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

أي ما كان يليق بهم كعباد مخلوقين عاجزين أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين معظمين لحرمات الله .

ولقد حل بنا عقاب الدنيا فلنتدارك أمرنا قبل أن يحل بنا عقاب الآخرة . وإن كل مسلم يستطيع أن يساهم في بعض الإصلاحات في هذا المجال كأن : يحث الكبار والصغار على أداء الصلاة في المسجد مع تعليمهم آداب المسجد ، ويقوم بتغذية مكتبة المسجد وتنميتها ، كما يقوم بالحث على الاهتمام بتصحيح الصلاة وإيجاد حلقات العلم للصغار والكبار في المسجد .

وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ

تأتي هذه الآية بعد ذكر المساجد وكأنها تقطع على الذهن ظناً خاطئاً . . لا تظنوا أن العبادة محدودة بالمساجد . . فإن لله المشرق والمغرب وأينما كنتم يقبل الله منكم ويراقبكم . . «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» والإسلام قد أبطل فكرة : أن العبادة في الهياكل والمعابد .

ومعنى الآية : حيثما توجهت في صلاتك فأنت متوجه إلى الله تعالى لأن كل الجهات له وهو واسع : لا يتحدد ولا يحصر . عليم : بالمتوجه إليه أينما كان . قيل :

١ ـ إن هذه الآية نزلت قبل الأمر بالتوجه إلى قبلة معينة .
٢ ـ إنها نزلت في تحويل القبلة إلى الكعبة .
٣ ـ إنها نزلت في صلاة التطوع للمسافر والتي لا يشترط فيها التوجه للقبلة .
٤ ـ إنها فيمن يجتهدون في القبلة فيخطئون فإن صلاتهم صحيحة .

وإن استقبال المسلمين للكعبة يقتضي أن يصلي أهل كل قطر إلى جهة من الجهات الأربع فهم يصلون إلى جميع الجهات . وكل ذلك توجه إلى الله :

فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

قد نتساءل : فلِمَ يشترط علينا أن نتجه إلى الكعبة إذن ؟!

١ ـ إن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود .
واستقباله بهذا المعنى مستحيلاً فقد شرع للناس مكاناً مخصوصاً يستقبلونه في عبادتهم إياه . .

٢ ـ في تحديد القبلة نلمس روح التنظيم . . وإلا فكيف يمكن أن يصلي المسلمون جماعة منتظمة دون أن تكون هناك وجهة متفق عليها . . ؟!

٣ ـ وفي ذلك تمكين ودعم لوحدة المسلمين حيث يتجهون لهدف واحد في دوائر متراصة تبدأ حول أول بيت وضع لعبادة الله وتتسع لتشمل العالم . وحتى من حيث الشكل فإن الدائرة تعبر عن الوحدة والترابط أكثر من الخط المستقيم (وكأنها تماسك لا انقطاع فيه) .

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا

قالوا : دون تحديد مَنْ هم . . لأن المشركين وأهل الكتاب اشتركوا بهذا القول .

وقبل أن يأتي الرد يأتي التنزيه .

سُبْحَانَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

إن الخالق لا يتصف بصفات المخلوق ﴿ليس كمثله شيء﴾ فالذي خضعت له السموات والأرض لا يحتاج إلى خَلَف أو مُعين فهو أبدي مستغنٍ عن خلقه ولا يستغني عنه أحد (وهو معنى الصمد) .

كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾

والقنوت : هو الطاعة والخضوع عن رضى واختيار .

وكأن الآية تعتبر الكافرين والمشركين من القلة وضآلة الشأن إلى درجة لا يستحقون فيها أي إشارة أو استثناء من قوله : ﴿**كل له قانتون**﴾ .

وهذا شبيه بقوله تعالى ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً . .﴾ (آل عمران/٨٣) ؟! . وحين نذكر قول رسول الله ﷺ : «أطّت السماء وحق لها أن تئط . . ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى . .» [1] .

إن تصور ذلك . . وتذكر أن الأرض كلها لا تعدو أن تكون ذرة في ملكوت الله . . وأنه قد تكون هناك عوالم أخرى وخلق من نوع آخر ـ قانتون ـ إن هذا يساعدنا على التدبر ويجعلنا نحس بشيء من عمق مدلول الآية . .

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

■ ١٤ ■

تجلية الحقيقة

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

وتتابع الآيات الحديث عن تنزيه الله تعالى :

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

والإبداع : هو اختراع الشيء على غير مثال سابق ودون مواد سابقة . ويقال بِدْعة : **لكل عمل أحدث على غير طريقة الرسول ﷺ ومنهج السلف** .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ﴾

روي أن المشركين هم الذين قالوا ذلك . وكانوا يقترحون أن يفجر الأنهار لهم و . . . كذلك فإن اليهود كانوا يقولون : ما جئتنا ببينة . وكذلك قالت الأقوام في الماضي :

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾

فلا فضل لليهود على المشركين ولا للمعاصرين على الأوائل . . فالجميع يواجهون الأنبياء بالاتهامات نفسها . ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون ؟ أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون﴾ (الذاريات/٥٢) .

والآية تعبر عن تشابه كلام السابقين واللاحقين بأنه تشابه في القلوب لأن القول مصدره ما في القلوب . . والكلام الخاطىء ناتج عن الفكر الخاطىء المسيطر على القلوب . وإنسان القرن العشرين يتخذ مثل هذه المواقف . . من مثل قول قوم نوح له : ﴿ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ (هود/٢٧) . ومثل قول الآخرين : ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ (المؤمنون/٣٧) . وقولهم ﴿أساطير الأولين﴾ . . فأين رقيك الفكري يا إنسان القرن العشرين . . ؟! ما زلت تردد تفاهات الأقدمين . . !!

قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

لو كانوا يريدون آية فعلاً لوجدوها في الكون المليء بالآيات وفي القرآن المعجز وفي النبي الأمي وأخلاقه السامية . لكن الآيات لا ينتفع بها إلا الموقنون . . فمن الموقنون ؟

يقول الإمام محمد عبده : [هم الذين خلصت نفوسهم من كل رأي وتقليد وتوجهوا إلى طلب الحق وأخذوا على أنفسهم العهد أن يطلبوه بدليله وبرهانه . فإذا قام عندهم البرهان اعتقدوا وأيقنوا] .

فلا تهتم بمواقف المكابرين وأدِّ واجبك ولا تسأل عنهم فلن تحاسب عليهم :

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : «أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة . فقال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين وأنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل لافظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً»(١) .

في الآية تثبيت للنبي وتحديد لوظيفته وتقرير لفردية التبعة أمام الله . ثم يحذره من اتباعهم :

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ

والناس أكثرهم هكذا . . لا يرضون حتى تتبعهم . . وكيف يمكن إرضاؤهم

---

(١) رواه البخاري وأحمد .

جميعاً إذا كانت كل جماعة على رأي مخالف للباقي ؟! فلا يهمك إرضاء الناس وفكر في رضى رب الناس . واتبع هداه فهو الحق دون سائر الملل والنحل .

والله سبحانه يعلم رسوله أن لا يرد عليهم بأسلوبهم نفسه ـ بأن يطعن في تفكيرهم ـ بل قال :

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾

والإنسان لا يتحرك ويبني حضارة إلا حين يتفاعل مع مثل أعلى ويصبح له هدف يسعى إليه . وحين يكون المثل الأعلى هو هدى الله تصبح الحضارة أرقى وأسمى لأن هداية السماء تقودك إلى الأفضل في الدنيا والآخرة .

ويمكن أن نذكر مثلاً بسيطاً عن نوع العلاقات التي ينظمها هدى الله مع الله والناس والكون لنقارنها بالعلاقات التي تنشئها المبادىء الأخرى .

	في الاسلام	في الشيوعية	في الرأسمالية
مع الله :	العبادة (الخضوع لأمره) .	مقطوعة	ضعيفة (صلاة في الكنيسة) .
مع الناس :	العدل والإحسان	ينادون بالعدل ويعجزون عنه	استكبار واستعباد .
مع الكون :	التسخير .	التسخير .	التسخير .

وللمتأمل في أوضاع الحياة الإنسانية المعاصرة أن يرى ويحكم : ماذا أثمرت المبادىء الأخرى في غياب التطبيق الفعلي للإسلام ؟ قد تكون المبادىء الأخرى قد أعطت نتائج محلية عاجلة مغرية . لكنها على المستوى العالمي أضرت بمصالح البشر . . وعلى المدى الطويل أفلست حتى محلياً . . لأنها لم تستطع أن تحقق التناسق والإشباع لحاجات الإنسان وغرائزه . وبدأ الإنسان في ظلها يبحث عن مثل أعلى جديد لأنه شعر أن الرفاهية والتمتع لا تكفي لتكون مثلاً أعلى .

ولهذا نبه القرآن دائماً إلى ضرورة التمييز بين نوعين من نتائج الأفكار والأعمال : العاجلة وما هو خيرٌ وأبقى .

وإن هدى الله يحقق في الدنيا ما هو خير وأبقى . . وهذا مثل قوله : ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ (النساء/١٣٤) . تلك إشارات سريعة حول الآية الكريمة : ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ . . . ولا بد أن تأتي دراسات وإحصاءات تشهد للآية وتجلي أبعادها أكثر .

وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

فهو التهديد المرعب موجه إلى رسول الله ﷺ وحبيبه بهذا الشكل ؟! فكيف يكون الحال معنا . . ؟! ﴿مالك من الله من ولي ولا نصير﴾ . . . فمن لك أيها الإنسان إن تخلى الله عنك . . ؟! وكيف تترك هدى الله وتتبع هوى الناس . . ؟!

إن العادات والتقاليد والمبادىء والنظم البشرية كلها معرضة للنقص والهوى . والتساهل لا يكون في ما حرّمته هداية السماء . . وإنما في الأمور المباحة حيث يمكن التساهل ومسايرة بعض الناس تأليفاً لقلوبهم .

والآية تشير إلى سنة من سنن الله : وهي أن الله يؤيد وينصر متبعي الهدى عن علم . وأنهم هم الغالبون المنصورون .

وفي آخر هذه الجولة يبيِّن : من الذين يؤمنون بالكتاب حقاً :

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ

فليس عجيباً أن لا يؤمن اليهود لأنهم غيروا وبدّلوا وتعصبوا واتبعوا الهوى . . لكن الذين يتلون الكتاب حق التلاوة يؤمنون بما أنزل إليك . ومع ذلك فالآية عامة في كل أمة أوتيت كتاباً . . فمن هم الذين يتلون الكتاب حق التلاوة ؟

يقول ابن مسعود : «والذي نفسي بيده إن حق تلاوته : أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله» . يتضمن هذا التعريف ثلاث نقاط :

١ ـ إتقانه تلاوة ولفظاً كما نزل .

٢ ـ التدبر والفهم الصحيح .

٣ ـ التنفيذ العملي لآياته .

إن تجاوب النفس مع القراءة هي التي تزيد اليقين وتورث التفاعل العملي . . ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ (الأنفال/٢) . وكان رسول الله ﷺ إذا مر بآية رحمة سأل ، وإذا مر بآية عذاب تعوذ .

وإن الوصول إلى مستوى الآية يحتاج إلى جهد متواصل وصبر كافٍ .

وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

فالخسارة عاقبة الكفر . . الخسارة في الدنيا ، والخسارة في الآخرة .

وتختم الجولة بالترغيب والترهيب كما بدأت بذلك . . فقد بدأ موعظته لهم بالتذكير بالنعمة وختمها بها أيضاً :

يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾

ليشعرهم بالكرامة ويفتح قلوبهم لقبول الموعظة والترفع عن العصيان . ثم ذكرهم بذلك في النهاية أيضاً لإزالة ما قد تحدثه لديهم هذه الموعظة ـ التي تضمنت التوبيخ ـ من نفور وكأنها محاولة أخيرة لتحريك ضمائرهم وردهم إلى جادة الصواب . .

فهي ليست تكراراً لا لزوم له . . بل إن الجولة كلها تمثل علاجاً نفسياً منوعاً لهؤلاء المنحرفين .

﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾

إن الحساب في الآخرة فردي . . ولقد كان المضلون في الدنيا يقولون : ﴿اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ (العنكبوت/١٢) . لكنهم في الآخرة يقولون : ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ . بل كنتم مجرمين﴾ (سبأ/٣٢) .

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

الفارق بسيط بين الآيتين في البداية والآيتين الأخيرتين وكأنه يعطي مجالاً للقارىء كي يميز بين البداية والختام ويستنفر الاهتمام . إن استحضار هول المحشر يدفع الى القيام بالأوامر الإلهية . وإن الترهيب والترغيب هو أحد العوامل في تحريك الفعالية عند المسلم كما ذكرنا سابقاً .

وهكذا نجد أن هذه الجولة مع بني اسرائيل قد شغلت مساحة واسعة من السورة (٨٤ آية) عشناها مع عرض تاريخي لهذه الأمة وأسباب انهيارها . . إنها دراسة حضارية توضع بين أيدينا كي نستفيد منها في بناء أمة ونتجنب السقوط . فهل اعتبر المسلمون . . ؟! «لتتبعنَّ سَنَنَ مَنْ قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا في جحر ضبّ لاتبعتموهم» [1] .

وقبل أن ننتقل من هذه الجولة سنحاول استخلاص بعض أسباب التخلف والانهيار .

---

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذري رقم ٢٠٠٢ .

من أسباب انهيار الأمم :

١ - **المطالبة بالحقوق وترك الواجب** . ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ . ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾ .

٢ - **ضعف سلطان المثل الأعلى وأولوية الغرائز** . ويمكن أن نقول : قسوة القلوب أو تخلف الضمير عن العلم . ﴿وإياي فارهبون﴾ . ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ وحرصهم على الحياة نابع من ذلك ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ .

٣ - **تعرض الكتاب للتبديل والتحريف والكتمان** . ﴿لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق﴾ . ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾ .

٤ - **فقدان النقد الذاتي** : ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ .

٥ - **فقدان الصبر** (فالصبر نتيجة للعلم) . ﴿واستعينوا بالصبر﴾ .

٦ - **الوقوع في الشرك** (وهو ناتج عن فقدان العلم) . ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ .

٧ - **النزعة المادية (الإيمان بالمحسوس)** . ﴿أرنا الله جهرة﴾ .

٨ - **العصيان والاعتداء** . ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ .

٩ - **الاستضعاف** : ﴿ضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ .

١٠ - **نقض العهود** : ﴿وإذ أخـذنا ميثاقكم . .﴾ . ﴿أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق﴾ .

١١ - **عدم الاعتبار من أحداث التاريخ** ﴿فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها﴾ .

١٢ - **التعنت والمماطلة في التنفيذ** . (قصة البقرة) .

١٣ - **الخداع والنفاق** . ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . .﴾

١٤ ـ **الغرور والأماني** . ﴿وقالوا لن تمسنا النار . .﴾.﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا . .﴾

١٥ ـ **فقدان العلم واتباع السحر والدجل** . ﴿واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ . ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾ .

ولو دققنا لوجدنا أن أكثر هذه الأسباب ترجع إلى سبب واحد هو : **فقدان العلم** .

الفصل الخامس

حَدِيثٌ عَنْ إبرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام

(١٢٤ ← ١٤١)

- دعاء إبراهيم وبناؤه البيت .
- بل ملّة إبراهيم حنيفاً . .
- قولوا : آمنا بالله وما أنزل . .

۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ
فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا
يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ
وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ
وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ
أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ
مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ
لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا
مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ
وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرۡغَبُ عَن
مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ
وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ

قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ

عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

إبراهيم عليه السلام هو الأب الذي ينتسب إليه أهل الكتاب ومشركو العرب فكأن الآيات تبين أن ملة إبراهيم هي الإسلام . وهذا النبي يدعوكم إلى الأصل الواحد للديانات كلها وهو دعوة إبراهيمَ التي حققها الله ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك﴾ . (البقرة/ ١٢٩) . فالذين انحرفوا وكذبوا . . دعواهم وانتسابهم إلى إبراهيم باطل . .

ومن جهة أخرى يقدم لموضوع تحويل القبلة . . فلا حق لليهود في الاعتراض على ذلك لأنها قبلة إبراهيم .

■ ١ ■

دعاء ابراهيم وبناؤه البيت

۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

وفي قوله تعالى :

۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ

ابتلى : امتحن . فلا بد من امتحان للمؤمن يثبت فيه صدق إيمانه . وإن الله إذا أحب عبداً ابتلاه .

والكلمات : هي الأوامر والنواهي التي وجهها الله إلى إبراهيم . من مثل أمره بذبح ولده . . وأمره أن يسكن هاجر وابنها بواد غير ذي زرع .

فَأَتَمَّهُنَّ ۖ

وهذه شهادة عظيمة لإبراهيم . لأن الإنسان بضعفه وقصوره لا يوفي الأمر حقه . . والله يشهد لإبراهيم هنا أنه أدّاها كاملة . . فاستحق بذلك مقاماً عظيماً :

قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ

يقتدى به .

والإمام : كأنه يتميز بسلطة دينية وفكرية أكثر من كونه يملك سلطة مادية . فالأئمة الأربعة حملوا هذا اللقب مع أن بعضهم اضطهد من أصحاب السلطة المادية . ولم يكن أحدهم يشغل أي منصب من مناصب السلطة . كذلك يقال الإمام محمد عبده . بينما جمع الإمام علي بن أبي طالب بين الأمرين . والأمر ليس خاصاً بإبراهيم عليه السلام . . فإن من يتصف بالاستقامة ويلزم نفسه بأداء الواجب يصبح قدوة بالنسبة لمن حوله ويحتل مكاناً قيادياً . يرجع إليه في مهمات الأمور ويستعان به في حل المشكلات .

وهنا تتحرك الطبيعة البشرية عند إبراهيم فيطلب الخير لأولاده

قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ

ويطلب ذلك للبعض لا للكل . لكن سنة الله لا تحابي أحداً . .

إن سنة الله في الإمامة أن لا ينالها الظالمون . (والإمامة تتضمن ولاء قلبياً يشعر به الناس نحو الإمام ولا يتحقق ذلك للحاكم الظالم) .

والإجابة فيها وعد بأن يكون من ذرية إبراهيم من يستحق الإمامة وينالها بينما لا يتحقق ذلك لآخرين . فليست القضية قضية حسب ونسب . .

فليس المهم أن تنحدر من آباء صالحين . . **وإنما فكرك وعملك يحددان مصيرك ومكانتك .**

قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

ولو حكموا وتمكنوا في الأرض لكنهم لا يعتبرون أئمة . . ولا يذكرون بخير ـ إلا نفاقاً وهو أمر سرعان ما يزول بزوال حكمهم ـ **فمن هم الظالمون ؟**

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ (المائدة/٤٥) .

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾

يذكر الله العرب بهذه النعمة : أنه جعل البيت الحرام مثابة للناس يحنون إليه ويقصدونه مرة بعد أخرى . . وأمنا يأمن فيه كل من يدخله . حتى إن الرجلٍ كان يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له . . وحادث الفيل لم يكن بعيداً عنهم .

أين الذين يتكلمون عن السلام ؟ هل استطاعوا إيجاد مكان يتحقق فيه الأمن والسلام كما يتحقق في هذا البلد الحرام ؟!

لقد أقام الله من هذا البلد نموذجاً واقعياً لحياة الأمن والسلام منذ إبراهيم عليه السلام والناس تحنّ وتهوي إليه . . لم تنشئه قوة القانون ومهارة رجال الأمن . . لكنه حدث بإرادة الله وسلطانه. . وبما وضع في قلوب الناس من حرمته وتعظيمه .

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾

يقول بعض المفسرين في تفسير ﴿**مقام إبراهيم**﴾ : إن مقام إبراهيم هو البيت كله (وقالوا : الحـرَم كله . . وأماكن الحج كلها) . وفي ذلك إشعار بأن اتخاذ البيت الحرام قبلة هو أمر طبيعي . وآخرون يقولون : هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عند بناء الكعبة ويناوله إسماعيل الحجارة فيضعها فوق بعضها . فإذا انتهى من مكانٍ نقله إلى آخر ووقف عليه . فلما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بعد ذلك . وهذه إحدى الثلاث التي قال عنها عمر (وافقت ربي في ثلاث . . قلت يا رسول الله لواتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت : ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾ .

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه كان يصلي ركعتين بعد الطواف عند المقام .

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾

عهدنا إلى : أي كلفنا . . كلفهم أن يكونوا سدنة هذا البيت يحافظون على طهارته من الرجس المادي والمعنوي (الأوثان والشرك والرفث وقول الزور . .) . وكل قذارة مادية أو معنوية يجب أن تبعد عن المساجد لأنها بيوت الله .

لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

من يأتي من غربة ليطوف به ومن يجاور ويقيم في البلد الحرام . . للطائف وللعاكف الجالس والمتعبد .

قيل إن معنى هذا الأمر : ﴿**طهّرا بيتي**﴾ . أن يخلصا في بنائه لله وحده . .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا

وقد استجاب الله دعوة إبراهيم : «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي . ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرَّفها ولا يختلى خلاه» . فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال ﷺ «إلا الإذخر»[1] .

طلب إبراهيم بدعائه هذا لذريته الأمن والرزق أي الضمانات المادية والمعنوية (وهي الشروط الحضارية) .

وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ

وينتبه إبراهيم إلى موعظة ربه في المرة الأولى فيستدرك بأدب العبد :

---

(١) في الصحيحين .

﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾

فيأتيه رد الله سبحانه وتعالى :

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾

إن سنة الرزق تختلف عن سنة إعطاء الإمامة للناس . . إن عطاء الدنيا يناله المؤمن والكافر بحسب السعي لها وتسخير سنن الكون . حتى إذا ما جاء في الآخرة فإن للكافر مصيراً محدداً محتوماً .

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

أما الإمامة في الدنيا فلا ينالها إلا المؤمنون الصالحون .

فالجواب فيه إيجاز وبلاغة يفهم منه أنه قد أجاب دعاء إبراهيم في المؤمنين وجعل لهم فضلاً أكبر في الآخرة بينما الآخرون محرومون منها .

والآيات تصور لنا بعض ملامح شخصية إبراهيم . . وعلى رأسها الاستجابة لأمر الله مهما كان شاقاً على النفس ـ حتى أنه يترك زوجه وولده الوحيد الذي رزق به بعد الكبر بواد غير ذي زرع ـ والقلب الكبير الذي يتسع لذريته ويحمل همّ الأجيال القادمة يضرع إلى الله أن يرسل لها من يعلمها وينقذها من الضلال .

وتنتقل بنا الآيات من مشهد ضارع إلى آخر أكثر منه خشوعاً وضراعة : فها هو إبراهيم وقد أمر ببناء البيت يباشر العمل مع ابنه إسماعيل ـ وقد صار شاباً ـ يجأران إلى الله تعالى بالدعاء :

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ﴾

مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

ودعاء إبراهيم عليه السلام يبدو جليلاً سامياً لأنه يكشف عن الأولويات في حياته ونوعية الهموم التي كانت تشغل فكره . . لقد كان يحمل هم هداية الأجيال . . ويتطلع إلى المستقبل ويحاول أن يقدم عوناً يساعد البشرية على الخلاص :

رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ

يا من تسمع أقوالنا وتعلم ما في قلوبنا . . تقبل منا ما نفعل فإن ذلك مطمح آمالنا . . واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا . . فإن الإسلام والعقيدة أغلى علينا من كل شيء في هذه الدنيا . .

أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ

متضامنة متماسكة .

وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا

علمنا المناسك علماً يصل إلى درجة الرؤية في الوضوح . والمناسك : جمع منسك : وهو غاية العبادة التي يرضى عنها الله . وغلب استعمال هذه الكلمة على أعمال الحج .

وَتُبْ عَلَيْنَآ

ألهم من يخطىء منا التوبة والرجوع إليك (تاب أي ثاب ورجع) .

إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

وكلما ازداد العبد قرباً من الله ازداد توبة واستغفاراً . ولهذا فالأنبياء هم أكثر الناس توبة واستغفاراً . بينما المسلم العادي بعيد عن تفهم ذلك . . ويظن أن مجرد البعد عن المعاصي هو غاية الإحسان .

رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ

منهم كي يفهموا عليه ولا يشكوا بإخلاصه . ورسول الله ﷺ كان يقول : «أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسىٰ» .

يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ

التي تذكر بقدرتك وألوهيتك .

وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ

والكتاب : هو أمر الله وحكمه . **والحكمة** : هي معرفة الفوائد من أمر الله . وأن حال البشرية لا يصلح إلا بتنفيذ شريعته . والمسلم الحقيقي يلتزم بالأمر الشرعي ولو لم يفهم الحكمة منه ويقول : ﴿سمعنا وأطعنا﴾ لكنه يسعى في طلب العلم ليعرف مزيداً من الحكمة فيزداد إيماناً وثباتاً . **﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ (البقرة/٢٦٩)** .

وَيُزَكِّيهِمْ

يطهر نفوسهم ويربيها على الخير . وهي نتيجة للتعليم والتعويد على الخير .

إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

لا يصعب عليك شيء . . لا يصعب عليك أن تحول الأمة الجاهلة إلى مسلمة . . وهو أمر خاضع لحكمتك تجريه في الوقت المناسب ولمن يستحق .

■ ٢ ■

بل ملة إبراهيم حنيفاً

وَمَن يَرْغَبُ عَن

مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ

وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ

قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ

وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا

وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ

ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ

إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا

وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا

مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ

حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

بأسلوب التساؤل والاستغراب يقول :

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ

من ذا الذي يزهد بملة إبراهيم ويعرض عنها . . ؟ وملة إبراهيم هي الإسلام لله ونبذ الشرك والشركاء .

إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ

أي استخف بها وامتهنها وظلمها بسوء اختياره .

وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ

اختاره الله خليلاً ورسولاً .

وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾

والإسلام هو تطبيق ما أمر الله . ولقد استجاب إبراهيم لأوامر ربه دون أي تردد .

وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ

أي بهذه المِلَّة (الإسلام) . . فكيف يدّعي المشركون أنهم على دينه . . وكيف يتنكر اليهود للإسلام ونبيه ، وهو ملة إبراهيم ووصية أبيهم يعقوب (إسرائيل) . ؟ ! ولننظر بم أوصى الأنبياء عند موتهم :

يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

إن الله قد اختار لكم أحسن منهج وأكرمكم به فتمسكوا به .يقول في المنار:

[فحافظوا على الإسلام لله والإخلاص في الانقياد إليه بحيث لا تتركوا ذلك لحظة واحدة لئلا تموتوا فيها فتموتوا غير مسلمين فإن الإنسان لا يضمن حياته بين الشهيق والزفير] .

وتلك وصية رسول الله ﷺ «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي . . عضوا عليها بالنواجذ» .

وقد يمنعك الظالمون من أن تعيش مسلماً . . ولكن أحداً لا يستطيع أن يمنعك من أن تموت مسلماً . .

ويعرض مشهد احتضار يعقوب ـ أبو اليهود ـ فيسألهم هل كنتم شهداء في هذا الموقف ؟!

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا

فأصل الأديان السماوية واحد والذي أرسل الأنبياء رب واحد وها هم أولاد يعقوب يعلنون أمام أبيهم :

وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

فكيف تتنكر ذراريهم للإسلام ورسوله ؟ !

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

وهي القاعدة التي قررها الأنبياء من قبل ﴿.. في صحف موسى . وإبراهيم الذي وفى . ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ (النجم/٣٦ ـ ٣٩) .

وقررها القرآن في قصة نوح ﴿يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ (هود /٤٦) . وقررها النبي ﷺ حين كان يكرر : يابني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً .. «يا فاطمة بنت محمد : سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً» . يقول الغزالي : (إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه والظمآن يروى بشرب والده وإن لم يشرب فالعاصي ينجو بصلاح والده) .

في حال واحدة ينتفع الإنسان ويتضرر بعمل غيره : «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة دون أن ينقص ذلك من أجورهم شيئاً .. ومن سَنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ...» .

والآية تقول إن إبراهيم وإسحاق ويعقوب .. أمة من المؤمنين فلا علاقة لها بأعقابها من الفاسقين . فإن كانت الصلة في الجاهلية هي صلة النسب والجنس فإن الأمة الواحدة عند الله هي الجماعة التي تنتسب إلى عقيدة واحدة ... ثم يناقش إدعاءات أهل الكتاب المعاصرين لمحمد ﷺ .

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

الحنيف في الأصل المائل . فإبراهيم كان مائلاً عن الملل الموجودة في زمنه مستقيماً على التوحيد مائلاً عن الكفر .

والتوجيه يدل المسلم على الأسلوب الإيجابي للخروج من الخلاف وتقريب وجهات النظر .. فالآية لم تقل : بل نتبع الرسالة الأخيرة التي جاءت لمحمد ﷺ . بل نرجع جميعاً نحن وأنتم إلى ملة إبراهيم .. أبينا وأبيكم .

إن الطريق الأمثل للوصول إلى الاتفاق بين عدة أطراف . . أن نبدأ من النقطة التي نتفق عليها نحن وأنتم . ونحن متفقون على الاعتزاز بإبراهيم وملته . . ثم يدعو المسلمين إلى إعلان وحدة الأديان ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد .

- ٣ -

قولوا : امنا بالله وما أنزل

قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ
مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا
هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ
عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

إن قول الله تعالى :

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾

مثل قوله في آل عمران : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ (آل عمران /٦٤) . **والأسباط** هم بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً ولد كل رجل منهم أمة من الناس . والمقصود : وأنبياء الأسباط (أي سائر أنبياء بني اسرائيل) .

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾

لا نفضل واحداً على الآخر . . وهذا لا يعني أن نؤمن بصحة كل ما يوجد في كتبهم الآن لأنهم بدلوا فيها . «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله»[١] .

والحقيقة أنه يجب التمييز بين ما يمكن أن نغض النظر عنه في أحاديث أهل الكتاب وبين ما يجب أن لا نصدقه بل نرد عليه . ففي قضية الافتراء على الأنبياء وزعمهم أن عيسىٰ ابن الله . . لا يمكن غض النظر . . بينما بعض الأخبار والقصص التي يذكرونها يمكن التجاوز فيها . بل وبعضها يمكن أن يتفق مع ما جاء في الإسلام .

﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾

---

(١) رواه البخاري .

إن أعرضوا عن الإيمان بالأنبياء فإنما هم طلاب اختلاف وأصحاب جدل يشاقّون الرسول ويختلفون حتى فيما بينهم .

فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

على المؤمن أن يستقيم ويلتزم بأمر الله والله يكفيه . . . ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعلْ فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ (المائدة/٦٧) .

صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ

صبغة الله : دين الله وملته . . فطرة الله التي فطر الناس عليها . ومن أحسن من الله صبغة ؟ ! تأمل في أحوال الذين اتبعوا المذاهب الأخرى كيف يتيهون ويتعذبون . . وارفع رأسك معتزاً وأعلنها على الملأ .

وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

وهكذا تبدأ الآية بكلام الله ثم تضم إليه كلام المؤمنين وفي ذلك من التشريف والتكريم والحنو ما فيه . . فلا تهتموا بكيد هؤلاء فإن الله يضمكم إلى صفه ويرعاكم .

قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾

أتحاجوننا بزعمكم أنكم أبناء الله وأحباؤه . . وأنه لن يدخل الجنة غيركم . . فمن أين جئتم بهذه الدعاوى والله رب الجميع . . ولكل منا عمله وشرط العمل الإخلاص لله «إنما الأعمال بالنيات» . .

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ﴾

في آيات أخرى يرد عليهم ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ (آل عمران /٦٧) .

﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ﴾

إنكم تعلمون أنهم كانوا قبل اليهودية والنصرانية وكانوا على الحنيفية الأولى التي لا تشرك بالله . وعندكم شهادة من الله في كتبكم عن بعثة محمد ﷺ على دين إبراهيم ولكنكم تكتمون الحق . .

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾

فاحذروا عقابه .

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

تتكرر للمرة الثانية . . في المرة الأولى جاءت بعد الحديث عن الصالحين من السلف والآن تأتي تعقيباً على المنحرفين . . فهي تقرر في الأذهان أن الاعتزاز بأعمال الآباء الأتقياء لا ينفعكم في شيء ـ في الأولى ـ وتعود لتؤكد أن انحراف الآباء لا ينبغي أن يكون عائقاً أمامنا يمنعنا من البحث عن الصواب . إن المسلم كثيراً ما يتحرج ويتأثم

من قبول أمر لم يكشفه آباؤه . . أو سبق أن عارضه بعض علماء المسلمين ، ولو جاء الدليل واضحاً . وذلك خوفاً من أن ينسب الضلال إلى السابقين . وتذكرُ هذه الآية يمكن أن يزيل العوائق ويرفع بعض الآصار عن الأذهان ـ فقد يكون للسابقين عذرهم عند الله من حيث أنهم ـ مثلاً ـ اجتهدوا فأخطأوا . . أو أن الإمكانات المحدودة في عصرهم لم تسمح لهم بأكثر مما حصلوا عليه من الأحاديث والأدلة . يقول ابن تيمية : [**إن الرجل العظيم في العلم والدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . قد يحصل منه نوع من الاجتهاد مقروناً بالظن ونوع من الهوى الخفي فيحصل بسبب ذلك ما لا ينبغي اتباعه فيه وإن كان من أولياء الله المتقين . . . ويصير فتنة لطائفتين : طائفة تعظمه فتريد تصويب ذلك الفعل واتباعه عليه . وطائفة تذمه فتجعل ذلك قادحاً في تقواه بل في إيمانه حتى تخرجه من الإيمان . . . وكل هذين الطرفين فاسد . . الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات فيحمد ويذم ويثاب ويعاقب . . هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافاً لأهل البدع**] .

ومالك بن نبي يتحدث بمثل ذلك عندما يذكر خطورة الفكرة المجسدة ومشكلة (مرحلة الأشخاص) التي يعيش فيها العالم الإسلامي فهو يحكم على الفكرة من خلال الأشخاص . . ويتعامل مع الأشخاص على أنهم : إما طاهر مقدس ، أو دنس حقير .

إن إحجام المسلم عن قبول الحق الذي أبرزه انكشاف مزيد من آيات الآفاق والأنفس . . نابع من الدوافع نفسها التي كانت تصد الجاهلي حين كان يقول في مواجهة دعوة محمد ﷺ : إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . ولا بد من إزاحة هذا الحاجز لإحراز بعض التقدم في أساليب تفكيرنا . ومن المؤسف أن هذا الحاجز تدعمه طائفتان :

١ ـ طواغيت الأرض وشياطينها الذين يهمهم إيقاف كل نمو فكري عند الناس كي لا يبلغ السفيه سن الرشد ولا يستيقظ المارد العملاق فيتحرر من قبضتهم . . انظر إلى فرعون كيف ضرب على هذا الوتر لصد الناس عن دعوة موسى . . فيوجه إليه السؤال على الملأ ﴿فما بال القرون الأولى﴾ (طه / ٥١) . هل تريد أن تسفه عقول أجدادنا ؟ ! وهل كان أسلافنا على ضلال ؟ هل تفهم أنت أكثر منهم ؟ فكيف نقبل

أفكارك التي تخالف فيها سلفنا ؟ ! فيأتي جواب موسىٰ بارعاً يقرر الحقيقة دون أن يصدم الأذهان بشكل مباشر فيتوجه بالإدانة الصريحة لما كان عليه سلفهم : ﴿قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسىٰ﴾ (طه /٥٢) . [هناك أمران مهمان أو زوجان لاستمرار الحياة ونموها . الأول : كشف الجديد من سنن الحياة . والثاني إيصال ذلك برفق ويسر وأناة إلى الآخرين دون أن يصدمهم ويزعجهم . إن هذا يشبه عملية التخدير في الجراحة الجسدية . نحن في أمس الحاجة إلى هذين الأمرين . وكلما تعمقنا في الأول ساعدنا هذا في القدرة والتمكن من الثاني][1] .

٢ ـ الطائفة الثانية ـ وهي أكثرية المسلمين ـ يدفعهم حرصهم على الإسلام وخوفهم عليه إلى رفض كل جديد والاكتفاء بما قدمه العلماء في الماضي. هم مخلصون . . لكنهم مع الأسف قد دعموا الشلل الفكري في عالمنا الإسلامي بحرصهم وتشنجهم .

والطائفة الأولى في عصرنا أصبحت تقوم بدورها بفنية ومهارة مبنية على دراسة النفوس والأمم وأساليب التأثير عليها . ففي رسالة لمالك بن نبي عن المستشرقين وأثر إنتاجهم في عالمنا . يتحدث عن الأثر المخدر الذي تخلفه كتبهم في مدح الإسلام ورجال الصدر الأول منه فإذا بالمسلم يتراخى في حالة من الرضى والأمن ويستسلم لأحلام الماضي البهيجة ويحيطها بهالة من القداسة . . فيتجمد على مفاهيم الأجداد ويوقف كل نمو فكري أو حتى محاولة للحركة .

---

(١) من كلام جودت سعيد في إحدى رسائله .

الفصل السادس

تحويل القبلة

(١٤٢ ← ١٥٢)

- بين يدي الآيات :
  - قصة التحويل وموقف أهل الكتاب .
  - الحكمة من تحويل القبلة .
  - ضرورة التميز للأمة المسلمة .
- جدال السفهاء حول القبلة :
  - سيقول السفهاء .
  - الشهادة .
- تعنت أهل الكتاب .
- المسجد الحرام قبلتنا .

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ
فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن
رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ
فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ
وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ
شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ
شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ
تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ
يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ
أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾



■ ١ ■

بين يدي الآيات

آ ـ قصة التحويل وموقف أهل الكتاب :

عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ كان أول ما نزل المدينة نزل على أخواله من الأنصار . وأنه صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً (أو سبعة عشر شهراً) . وكان يعجبه أن تكون قبلته إلى البيت . وأنه صلى أول صلاة صلاها (صلاة العصر) وصلى معه قوم . فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد ،وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَل مكة . فداروا كما هم قِبَلَ البيت . وكان الذي قد مات على القبلة قبل أن تحول قِبَل البيت رجالاً قتلوا لم ندرِ ما نقول فيهم فأنزل الله : **﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾** (البقرة/١٤٣) (1) .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس . ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً . وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم . فكان يدعو الله وينظر إلى السماء فأنزل الله عز وجل:

﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ (البقرة/١٤٤) .

أي نحوه . فارتاب من ذلك اليهود وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ فأنزل الله : **﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** (البقرة/١٤٢) (2) .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) رواه ابن أبي حاتم .

ويقول ابن عباس والجمهور : إن رسول الله ﷺ كان قد أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلي بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس . فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس .

نفهم من ذلك أنهم كانوا يتوجهون إلى الكعبة ثم أمروا بالتوجه إلى بيت المقدس (لعل ذلك عند الهجرة) ثم جاءت هذه الآيات بالتوجه إلى الكعبة .

أما موقف اليهود : ففي الوقت الذي كان فيه المسلمون يصلون إلى بيت المقدس ـ وهو قبلة اليهود ـ أخذوا يتبجحون ويقولون : طالما أنه يتجه إلى قبلتنا فديننا أفضل ويجب أن يتبعنا . وكان النبي ﷺ يقلِّب وجهه في السماء منتظراً أمر ربه دون أن ينطق لسانه بشيء تأدباً مع الله . فلما نزل تحويل القبلة انطلق اليهود يشنّون حملة تشكيك على المسلمين . فأخذوا يقولون : إن كان التحويل حقاً فصلاتكم الأولى باطلة . وإن كان باطلاً فمحمد ﷺ ليس رسولاً . .

ب ـ الحكمة من تحويل القبلة :

"١ ـ تخليص النفوس من رواسب الجاهلية : فقد تحولت القبلة أولاً عن الكعبة لحكمة تربوية . فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم ويعدونه عنوان مجدهم . وكان الله يريد استخلاص القلوب له وحده دون أن يخالطها تعصب لقوم أو وطن. والمشاعر تختلط أحياناً في النفوس فلا يمكن تحديدها إلا بوضع الإنسان في موقف فصل : عليه أن يختار إما طريق الله ورسوله أو الطريق الثاني .

"٢ ـ ثم أمر بالرجوع إلى الكعبة في الصلاة بعد أن أسلمت النفوس لله . ورجع الأمر إلى نصابه . فهو أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض . وكان في ذلك امتحان للمؤمنين : ﴿**لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه**﴾ (البقرة/١٤٣) . والتسليم لله بهذا الشكل ليس سهلاً : ﴿**وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله**﴾ . بحيث

تستجيب وتنصاع للأمر سواء فهمت الحكمة أم لم تفهم . .

عن ابن عمر رضي الله عنه : بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة . فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة [1] . (لم يبلغهم الخبر إلا في اليوم الثاني فجراً) . هكذا كانت استجابة الصحابة لأمر الله . . تنفيذ مباشر . وتمحيص المؤمنين مقصد هام في الموضوع : ﴿**لنعلم من يتبع الرسول**﴾ .

وعلم الله مطلق يشمل الغيب والشهادة والواقع والمستقبل وما في النفوس . . لكن الله تعالى لا يجازي إلا بعد أن ينتقل الأمر من عالم الغيب . . إلى الشهادة . فتقوم الحجة على الإنسان بعمله .

جـ ـ ضرورة التميز للأمة المسلمة :

وهذا التميز ضروري في المضمون والشكل . فكما أننا نتميز من حيث العقيدة عن سائر الأمم بالتوحيد الخالص . والتصور السليم لدور الإنسان في الأرض ومسؤوليته أمام الله في اليوم الآخر . كذلك يجب أن نتميز بالقبلة التي نتجه إليها وبأشكال العبادة . فالتوجه إلى الكعبة يحقق لهذه الأمة وحدة وألفة ـ حيث يتراص الجميع في دوائر حول مركز واحد ـ ويعطيها جذوراً في أعماق التاريخ . . فهي الامتداد التاريخي المستمر لأول أمة عبدت الله سبحانه وتعالى وبنت له مسجداً . ولكل شيء روح وشكل . فالإنسان روح وشكل وفطرته تحب أن تعبر عن مشاعرها بأشكال معينة . لذلك فإن العبادات في الإسلام لا تؤدى بمجرد النية أو التوجه الوجداني . . ولا بد لهذا التوجه أن يأخذ شكلاً ظاهراً معيناً مع تجريد الذات الإلهية عن كل تصور حسي ﴿ليس كمثله شيء﴾ (الشورى/١١) . والكعبة إنما هي بيت لعبادة الله اختاره الله ليكون قبلة

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

للمسلمين . وهذا هو مفرق الطريق بين الإسلام والوثنية حيث انحرف الدافع الفطري عند الوثنيين فاتخذوا الأصنام والأشكال . ويمكن أن نعتبر عمرو بن نفيل ـ الذي مات قبيل البعثة ـ مثلاً رائعاً على التطلع الفطري عند الإنسان . . فقد كان يقف في الكعبة ويقول : اللهم لو أعرف شكلاً أتعبد فيه إليك أفضل من ذلك لفعلت . ثم يخر ساجداً لربه .

وهنا تظهر روعة الإسلام في التوفيق بين الروح والشكل : ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً**﴾ (البقرة/١٤٣) .

فلا إغراق في المادية الحسية . . . ولا مشاعر وجدانية فقط . . وتميز هذه الأمة يظهر في كل الجوانب :

"١ ـ في العبادات وأشكالها .

"٢ ـ في النهي عن التشبه بغير المسلمين بالسلوك (حيث أُمر المسلمون بتغيير الشيب مثلاً مخالفة لليهود وللنصارى) وفي القول «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم . وإنما أن عبد الله ورسوله» . وفي أسلوب التحية وآداب المعاملة «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً» . وفي المظهر واللباس والحركة والسلوك . . وهذا هو معنى الآية ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ (الكافرون/٦) . إن الثقافة الإسلامية تختلف عن غيرها بأنها تعطي الأولوية للأخلاق (الدين) . بينما غيرها قد يعطي الأولوية للجمال . ويظهر هذا في الطابع العام للأمة المسلمة . بل وفي تفصيلات السلوك عند الفرد المسلم ـ تأمل في الآيات التي وصفت عباد الرحمن مثلاً ـ ويمكن أن نذكر مثلاً واحداً يتعلق بأحد مظاهر الأمة : **اللباس** . ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾ (الأعراف/٢٦) . فالآية تحدد ثلاثة أنواع :

١ ـ أدناها الذي يواري العورة ﴿يواري سوآتكم﴾ .

٢ ـ أفخرها وأجملها ﴿ريشاً﴾ .

٣ ـ أوسطها ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ .

فالآية تحدد بوضوح أن الأولوية في اللباس للمبدأ **الأخلاقي** : وهو ما يحقق التقوى في الفرد والمجتمع . (ولا ننفي المعنى الآخر للآية وهو أن التقوى خير لباس) .

وهنا تظهر خطورة التقليد لأنه يدل على إعجاب بالأسس والمبادىء . لأن الفكرة تعبر عن نفسها باللباس والحركة وأسلوب التعامل . ولهذا يقول ﷺ : «من تشبه بقوم حشر معهم» . ولهذا تحدث مالك بن نبي عن أهمية إيجاد (مصفاة) ثقافية على عتبة المجتمع تمنع دخول ما لا يناسب ثقافة الأمة . . إذ أن الاقتباس عملية خطيرة ينبغي أن تخضع لرقابة دقيقة . . وهي تشبه عمليات نقل الدم . . وقد تؤدي إلى قتل المريض إن لم تراع الزمر الدموية والشروط الأخرى . . . وكما أعطى الله سبحانه المخلية القدرة على حماية نفسها من كل دخيل يحمل الأذى بغشائها الذي لا يسمح بالدخول إلا لمن يحمل (جوازاً للمرور) . . فعلى الأمة المسلمة أن تحمي ثقافتها من الاكتساح . . والقرآن يعيد بناء شخصية الإنسان فيحرره من عقدة النقص أمام الآخرين وينبه المسلم إلى مكانته وإلى دوره الجليل :

١ ـ **فمكانة المسلم** : ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ (طه/٦٨) . ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران/١٣٩) . ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ (النساء/١٠٤) . ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ (محمد/١١) . ولقد كشف الحوار الذي دار بين عمر وأبي سفيان رضي الله عنهما بعد أحد عن تلك الصياغة الجديدة للشخصية المسلمة : (لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار . .) .

٢ ـ **ومهمته ودوره أن ينقذ العالم من الضلال ويقوده إلى الخير** : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (آل عمران/١١٠) . **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾** (البقرة/١٤٣) .

فلا ينبغي لمن كانت هذه مكانته وهذا دوره أن يقلد العالم من حوله . . ! لم يشعر ربعي بن عامر حين دخل على مجلس رستم في أبهته وعظمته أن عليه أن يغير ثوبه

المهلهل . . بل رفع رأسه عالياً حين رآهم ينحنون لرستم . . وقال جئنا لنحرر العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد . . .

كان يشعر بحاجة الناس إلى المبادىء التي يحملها . . . لقد دخل إلى العالم ليحرره ويغيره . . كذلك عمر رضي الله عنه حين دخل بثوبه المرقع إلى بلاد الشام . .

وحتى غاندي ـ وهو غير مسلم ـ كان يشعر بأنه يملك شيئاً العالم بحاجة إليه ، كان يشعر بأن له وظيفة في المجتمع العالمي . . فلم يغير لباسه . . لأنه لا يمكن **لمن يقلد أن يغير** . . لأن التقليد تعبير عن الإعجاب النفسي والموافقة . . والمسلم الآن حاله عجيبة . . الغرور يملؤه . . إذ ما زال في ذهنه أنه هو الأعلى لكنه من حيث الواقع يمثل الخادم التابع الذائب الشخصية بالعالم الغربي . . ويحلم بالقيادة ويتبجح بالأفضلية دون أن يحاول تغيير نفسه . . وانظر إلى الأطفال في عالمنا كيف يلقنون التقليد للأجانب في كل شيء منذ الصغر . **(كلمات التحية ، وحفلة عيد الميلاد ، وربطة العنق التي يطير بها فرحاً)** . . ولا يتصرف بهذا الشكل إلا المهزومون الذين يتمنون أن يظهروا بمظهر آخر غير لباس أمتهم ليبعدوا عن أنفسهم مظهر التخلف . . كما يقول ابن خلدون بأن ملوك الفرنجة في عصر أوج الحضارة الإسلامية كانوا يقلدون ملابس حكام المسلمين وأزياءهم . . فالأمم المغلوبة هي التي **تقلد** الأمة القوية . . وهو تعبير عن عجز المقلد المتخلف عن معرفة سبب التقدم الحقيقي .

وإنك لترى الفتاة في بلادنا تلبس أحدث الأزياء الأجنبية وتطيل أظافرها ثم ترمي الأوساخ هنا وهناك وتخالف النظام في أكثر المجالات . . . !

إن شخصية المسلم الآن تفتقر إلى التوازن . . فهو لا يدرك ما الذي يجب أن يأخذه وما الذي يدعه . . وقد أفقده التقليد طابعه . . ولم يلحق بركب الحضارة (كالغراب الذي قلد مشية الحجل فلم يستطع ونسي مشيته الأصلية) . فلا بد من إعادة بناء الشخصية المسلمة على أسس الثقافة الإسلامية التي تعتبر تصوراً متكاملاً للحياة . . وليس مجرد بعض التعديلات لمناهج أخرى . وهو معنى ﴿لكم دينكم ولي دين﴾

(الكافرون/٦) . ولقد أصبح المسلمون يستخفون بالتقليد في جوانب كثيرة . . ولا يشعرون أنهم بذلك قد حولوا قبلتهم من البيت الحرام إلى موسكو ونيويورك وباريس .

■ ٢ ■
جدال السفهاء حول القبلة

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

يبدأ الموضوع بإعلام المسلمين عن المستقبل والموقف الذي سيتخذه اليهود والمنافقون عند تحويل القبلة . وفي ذلك إعجاز . . كما أن فيه تهيئة للنفوس كي تخوض معركة التشكيك بتماسك .

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ

وقد وصفهم الله بالسفهاء وهم الذين خفت أحلامهم وأعرضوا عن التفكير والنظر . (السفه : اضطراب في الفكر والرأي يؤدي إلى سوء التصرف) ويأتي الجواب :

قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾

فالجهات كلها لله لا فضل لجهة على أخرى إلا بتخصيص من الله تعالى . وهو يختار لعباده الخير . . ويهدي إليه من يشاء . . والآية هنا تتحدث عن عمل الله وحده . . لكن الآيات الأخرى تفسرها : ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ (النور/٥٤) . ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ (العنكبوت/٦٩) . وهي توضح العلاقة بين العملين . والصراط المستقيم : هو أسهل وأقرب طريق يوصلك إلى الهدف بأقل ما يمكن من المشقة . وقد وصف الإسلام بأنه الصراط المستقيم لأنه يوصلك إلى سعادة الدنيا والآخرة بأقل ما يمكن من الوقت والجهد .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا

ما معنى (وسطاً) ؟

الوسط تأتي بمعنى الخير والأفضل (كما يذكر عن النبي ﷺ أنه كان من أوسطهم نسباً) وتأتي بمعنى الاعتدال : فلا إفراط ولا تفريط .

ومن كان في الوسط فإنه يستطيع رؤية الطرفين . كالحكم بين خصمين لا يعرف الحق حتى يسمع للطرفين .

وصاحب الظلال يتوسع في شرح معنى الأمة الوسط حول النقاط التالية . **فهي الأمة الوسط :**

١ - **في الاعتقاد** : (لا تؤمن بالجسد وحده ، ولا بالروح . .)
٢ - **في التفكير والشعور** : فلا تتجمد وتتقوقع ولا تنفلت وراء كل ناعق .
٣ - **في التنظيم والتنسيق** : حيث تجمع بين سلطان القانون وتربية الضمير .
٤ - **في العلاقات** : فلا تلغي حقوق الفرد من أجل الجماعة ولا بالعكس .
٥ - **في المكان** : في سرة الأرض وفي مركزها (الاستراتيجي) وعند مصادر الثروة .
٦ - **في الزمان** : فهي تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها وتحرس الرشد العقلي من بعدها . . فلا تسمح بالخرافات ولا بالغرور العقلي .

ولقد تعرض مفهوم الوسط عند عامة المسلمين إلى التغيير . فأصبح الناس يطلقون (الوسط) على التنازل والإنقاص من أمر الله بشكل يرضي العرف . . بينما الالتزام بأمر الله هو الوسط لأن شريعة الله هي الوسط . و «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً» (١) .

جاء في الحديث : «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغتَ ؟ فيقول : نعم . فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد . فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد ﷺ وأمته . قال فذلك قوله : **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾** .

قال والوسط العدل . فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم . » (٢) . وكذلك حديث «وجبت» . . «أنتم شهداء الله في الأرض» (٣) . هذا فيما يتعلق بشهادة

---

(١) انظر مختصر صحيح مسلم ١٥٤٦ .
(٢) رواه البخاري .
(٣) انظر مختصر صحيح مسلم ٤٨٤ .

الآخرة والموضوع أوسع من ذلك . فالآية تحدد دوراً هاماً للأمة المسلمة وهو أن تشهد على الناس في الدنيا أيضاً ، فتعرف أحوالهم وتحكم على عقائدهم وسياستهم وتعلق على الأحداث بالحق . .

لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ

ودور الشهادة هذا لا يمكن أن يؤدى إلا بشروط :

١ ـ **الحضور** : حتى ترى الحادث كما جرى . . والدول الكبرى ترسل مندوبين ومخبرين ومراسلين إلى جميع أنحاء العالم لينقلوا إليها الأحداث . . بل إن الأمر قد وصل بهم إلى حد إرسال أقمار صناعية إلى السماء ترصد كل ما يجري في أنحاء العالم وترسله إليهم . . بينما المسلمون إن عرفوا بعض ما يجري فهم آخر من يعلم . . فأين حضورنا بالمقارنة مع حضورهم . . ؟!

٢ ـ **الوعي والنضج** : بحيث يتمكن من شهد على إعطاء الرأي الصحيح فيما رأى . فلو أن طفلاً شهد طبيباً يجري عملية جراحية لأحد المرضى . . فهل يستطيع أن يعطي حكماً صحيحاً في الموضوع ؟

ويدخل في هذا الوعي معرفة الصواب في المبادىء وتوفر الخبرة بمشكلات الحياة وأحداثها . .

٣ ـ **العدالة والأمانة** : حتى ينقل الخبر كما هو . . ويعطي الحكم العادل فيه ونحن نرى الدول الكبرى الآن إن توفر فيها الحضور والوعي فإنها تفتقر إلى العدالة والأمانة . . ولهذا تقوم بالتعتيم على كثير من الأحداث وتبرز أحداثاً أخرى مع إلقاء أضواء خاصة عليها بحيث تبدو كما يريدون وكما يناسب بقاء استغلالهم وتسلطهم على العالم .

بينما الأمة المسلمة المعاصرة إن توفرت فيها العدالة والأمانة فإنها لا تحضر الأحداث ولا تملك الوعي والنضج الكافي للحكم فيها والتعليق عليها . ولقد تكلم

مالك بن نبي في (دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين) عن الشهادة وشروطها فقال :

١ ـ يجب أن نعرف أنفسنا (وهذا يعني دراسة القرآن والسنة . . ومعرفة تاريخ العالم الإسلامي وحاضره وأمراضه) .

٢ ـ وأن نعرف الآخرين (وهذا يعني دراسة المبادىء والحضارات الأخرى تاريخها وحاضرها . . وما عندهم من علوم مادية وإنسانية) .

٣ ـ أن نعرِّف الآخرين على أنفسنا . . (وهذا يعني معرفة أساليب الدعوة بالاعتماد على علم النفس والاجتماع) . . فأين نحن من كل ذلك ؟!

وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

والرسول هو المثال الأكمل لمرتبة الوسط وإنما تكون هذه الأمة وسطاً باتباعه في سيرته وشريعته . فكما تشهد هذه الأمة على الناس بسيرتها وارتقائها الجسدي والروحي بأنهم قد ضلوا عن القصد ، يشهد لها الرسول بما وافقت فيه سنته . ويتبرأ من الذين غيروا وبدلوا . . نلمس في الآية رفع معنويات الأمة المسلمة وتعريفها بمركزها حتى لا يؤثر فيهم كلام السفهاء الذين يتأرجحون بين الإفراط والتفريط .

وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ

قال الزمخشري في الكشاف : المراد (علم المعاينة) الذي يتعلق به الثواب والجزاء . وعلم الله يشمل عالم الغيب وعالم الشهادة . . لكن الله تعالى لا يحاسب الناس إلا بعد أن تصبح أعمالهم في عالم الشهادة وذلك من رحمته بالناس وعدله في إقامة الحجة عليهم بأعمالهم . . وعلم الله بما كان وما سيكون لا يعني إكراه الناس على سلوك طريق معين . . فقد خلق الإنسان وأعطاه القدرة على الاختيار لكنه سبحانه بعلمه المطلق يعلم ماذا سيختار هذا الإنسان . وهذا هو الفرق بين علمنا وعلم الله تعالى .

﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾

يتحول إلى الوراء . . . وهي كناية عن ارتداد الإنسان من الخير إلى الشر .

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾

إن الأمر ليس سهلاً . . إن تغيير العادة والإلف الذي تشربته النفس ودرجت عليه . . لأمر كبير . .

يقول مالك بن نبي : إن بداهة فكرة ما وصحتها لا تكفي لأن يتبناها من شعر بصحتها لأن لديه أفكاراً مسيطرة تشربها من البيئة . والفكرة المسيطرة هي الثقافة التي تلقاها الإنسان من بيئته . . والتحرر منها ليس سهلاً .

﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾

فهؤلاء يتحررون من الآصار والأغلال ويسرعون إلى الحق ويستجيبون لأمر الله . . لأنه يحررهم من الجهل والدجل .

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾

وذلك أن بعضهم تساءل عمن مات قبل التحويل . . هل ضاعت صلاته ؟

والآية تطلق الإيمان على الصلاة لأنها التعبير العملي عن الإيمان . كذلك يوجد في الآية تنبيه : إن كانت صلاتكم إيماناً واحتساباً فلن تضيع وهذا أدق من قولنا : (ليضيع صلاتكم) . إذ أن هناك صلاة ضائعة . . بل هناك صلاة توجب الويل لصاحبها . . ﴿فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراؤون . . .﴾ (الماعون/٤-٦) والتركيز في الآية على أهمية الإخلاص :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

ومن رحمته الامتحان ليتميز الصادقون . . ومن رحمته التثبيت للصادقين عند المحنة . . ومن رحمته أنه لا يضيع أجر مثقال ذرة من خير يعملها الإنسان بإخلاص . . كل هذا من بعض رحمته . . .

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ

كان ﷺ يقلب وجهه في السماء وهو يتمنى أن يوجه إلى الكعبة ولا يطلب ذلك بلسانه تأدباً مع الله .

فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ

ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في السفر فإنه يصليها راكباً إلى أي جهة كانت وقلبه متوجه إلى الكعبة . وكذلك في حالة الاشتباك في القتال . ومن جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده فإن تبين له بعد ذلك أن اتجاهه كان خطأ فليس عليه أن يعيد .

وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ

يعلمون من كتبهم أن قبلة النبي المنتظر ستكون الكعبة . لكنهم تنكروا لعلمهم وشنوا حملة تشكيك ضد الإسلام .

وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

- ٣ -

تعنت أهل الكتاب

وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

وكان ﷺ يحزنه تشككهم ويتمنى لو يقدم لهم من الأدلة ما يمحو كل شبهة لهم ، فيأتي توجيه الله له : إنهم لن يتبعوا قبلتك ولن يقتنعوا . .

وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ

لأن الذي ينقصهم ليس هو الدليل . . بل التجرد لله . وإن الرغبة في اللقاء والتفاهم مع الآخرين ينبغي أن لا تدفعنا إلى التنازل عن شيء من الحق الذي آمنا به .

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ﴾

فإذا تمسك أصحاب الباطل بباطلهم بهذا الشكل فكيف ينبغي أن يكون تمسك أهل الحق بحقهم .؟!

والآية تقرر استقامة النبي ﷺ على أمر ربه وتؤكد أنه لن يتبع أهواء الناس رغبة في استمالتهم إلى الحق . . وإن اتباع الهوى يؤدي إلى التفرق . . وهذا ما يحدث بين أتباع الدين الواحد أحياناً .

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

الخطاب موجه إلى رسول الله والمقصود هو إفهام المسلمين أن الإنسان مهما علت مكانته ولو كان نبياً لا يغتفر له أن يحيد عن أمر ربه قيد شعرة ويتبع أهواء الناس . . .

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾

وهو تعبير يطلق عند العرب على اليقين الذي لا شبهة فيه . ومع ذلك :

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

وهذا من دقة القرآن في الحكم وإنصافه فلا يعمم . . ففريق منهم يكتمون عن علم . . لكن الأكثرية لا يعلمون . وهنا تبدو **أهمية التبليغ والبيان بأحسن الوسائل الممكنة** . . بالحكمة والموعظة الحسنة . . فقد أمر موسى أن يتلطف مع فرعون ﴿فقولا له قولاً ليّناً لعله يتذكر أويخشى﴾ (طه/٤٤) يقول قتادة : هذا تلطفك ورحمتك يا رب بمن

قال : أنا ربكم الأعلى !! فكيف لطفك بمن يقول : سبحان ربي الأعلى . .؟! ثم يؤكد :

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

أي المتشككين . . وفي ذلك تثبيت للجماعة المسلمة بالتقرير والتأكيد مرة بعد أخرى .

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ﴾

يصرفهم عن التفكير والتأثر بمواقف الآخرين . . فلكل أمة اتجاه ورأي . . ولكل جماعة مذهب وخطة . . والمهم المسارعة إلى مغفرة الله والتسابق على الخير .

﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾

لأن مرجعهم إلى الله وهو القادر على الحساب فلا يعجزه أن يحاسب كل إنسان بدقة على كل ما قدم .

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

فأين الذين يتسابقون على أن يكونوا أول من ينفذ أمر الله ويستجيب له .؟ ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ (طه/٨٤) .

- ٤ -

المسجد الحرام قبلتنا

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ
أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

نجد أن الأمر :

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ
وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ
حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ

قد تكرر ثلاث مرات .؟! قال ابن عباس وغيره : لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام .

وقيل : الأول لمن يشاهد الكعبة . والثاني لمن في مكة . . والثالث لمن هو في سائر البلدان . . . ولكن من يتأمل الآيات يجد أن الأول : جاء استجابة لرغبة الرسول ﷺ . والثاني : تأكيد أن هذا هو الحق وأن رغبة الرسول ﷺ قد وافقت إرادة الله في التحويل مع تحذير من التأثر بالإشاعات . والثالث : يأتي بعده بيان لحكمة التحويل :

وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ

كي لا يقول اليهود توجه إلى قبلتنا فديننا أصح . . وكي لا يقول المشركون : كيف ترك قبلة إبراهيم وهو أول بيت لعبادة الله . .

إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ

الذين لا يقفون عند الدليل والحجة ويريدون اللجاج والجدل والكيد . . . فلا تهتموا بهم ولا تحسبوا لهم حساباً .

فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي

فالله أحق بالخشية . . وهو الذي بيده الأمر وإليه المرجع .

يقول الله عز وجل في الحديث القدسي : «وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين . فإن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة . وإن خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة» [1] .

---

(١) أخرجه ابن حبان والبيهقي .

والخوف يكون تارة لمعرفة الله تعالى وصفاته ، وتارة لمعرفة العبد بنفسه وذنوبه ، وتارة يكون بهما جميعاً : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر/٢٨) . فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه . ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له» .

وقد قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه . . بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب إليه . . ﴿ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين﴾ (الذاريات/٥٠) . لأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه . والخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام . . ولهذا قال الفضيل ابن عياض: إذا قيل لك هل تخاف الله ؟ فاسكت . فإنك إن قلت : لا كفرت. وإن قلت : نعم كذبت . (فهو يعتبر الخوف الذي لا يكف الجوارح عن المعاصي مجرد حركة خاطر لا تستحق أن تسمى خوفاً) . «من خاف أدلج . ومن أدلج بلغ المنزل» .

والخوف على مراتب . . أعلاها : خوف العارفين : وهو خوف الفراق والحجاب عن الله . (وهو خوف من تجرد لخدمة الله فلم يبق لغير الله تعالى فيه متسع) . وذلك مع بقاء الصحة والعقل فإن أوصل هذا إلى إزالتهما فهو مرض يجب علاجه . «إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي» . ومن خاف من الله حق الخوف سقط من نفسه الخوف من الناس . كما قال العزّ بن عبد السلام : (تذكرت هيبة الله فصار السلطان أمامي كالقط) . والموضوع دقيق وينبغي العناية بغرسه في نفوس الناشئة كما قال ﷺ لابن عباس وهو طفل : «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك . . » ومع ذلك لا ينبغي أن يصل بنا الخوف إلى الشلل واليأس . وإنما المؤمن بين الخوف والرجاء. وإن من يتأمل كيد أعداء الإسلام ويقظتهم وتخطيطهم . . وكيف يحيطون الدعاة بأحدث أساليب الصراع الفكري حتى ليبدو الداعي إلى الله كالفدائي الذي يغامر بكل شيء وينزل إلى الساحة معزولاً عن كل دعم . . إن من لا ينتبه إلى ذلك يسقط في غفلته . . أما إن انتبه وأبصر فقد يصاب بخوف يؤدي إلى الشلل في الحركة . (وهذا ما أشرت إليه سابقاً بأنه حالة الأمن أو اليأس : الاستسهال والاستصعاب) .

فالآيات هنا تسكب الطمأنينة في نفس المؤمن . . حين توصيه بالاستقامة والحذر وأن يكون يقظاً واعياً . . ثم لا يخاف ولا يخشى إلا الله . . فمصير البشرية ليس بأيديهم ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ (آل عمران/٥٤) . وعلى المؤمن أن يبذل كل ما في وسعه ثم يقول : ﴿كلا . إن معي ربي سيهدين﴾ (الشعراء/٦٢) . وعند ذلك تنشق البحار عن طريق النجاة . .

وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ

بهذا الدين .

وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

بتحويل القبلة إلى الجهة الصحيحة . وإن الانتقال من ظلام الجاهلية إلى نور الإيمان وطهارته من النعم الكبرى . . وقد فهم بعضهم من التحويل البشارة بالفتح وتطهير الكعبة من الشرك . . وكأن الآية تعد بذلك . وهو يشبه قوله في سورة الفتح : ﴿ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ (الفتح/٢) . وينبغي أن نذكر هنا : أن المحنة إن لم تقض عليك زادتك قوة . . وظهور المعارضة في الحق تحمل صاحبه على تنقيحه وتنقيته وتجعل علمه به مفصلاً بعد أن كان مجملاً . . ومبرهناً عليه بعد أن كان مسلَّماً . وهو ما يتحدث عنه توينبي عندما يذكر أن الحضارة هي خروج المجتمع من السكون إلى الحركة . . وذلك للرد على تحدٍ يهدد كيانهم واستقرارهم . (فتُظهر النخبة المبدعة) . وضمن هذه المحنة التي تعرض لها المسلمون يتابع التذكير بنعم الله عليهم :

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ

استجابة لدعوة إبراهيم . . وتعيد الآية نص دعوة إبراهيم وتحققها لهذه الأمة . .

يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا

والتلاوة هي مجرد التبليغ للآيات .

وَيُزَكِّيكُمْ

وهي التربية والتطهير بالقدوة الحسنة وبالأسلوب النبـوي الفذ .

وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ (١٥١)

وهو بيان الأحكام مع الحكم والفوائد منها . وتعلم أوامر القرآن وتطبيقها يطهر النفس ويزكيها ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ (التوبة/١٠٣) . والعلاقة بين التربية والتعليم وثيقة . وكأنه لفت النظر في الآية إلى أهمية التعليم للوصول إلى التزكية . . حين أحاطها بالتعليم (قبلها وبعدها) . والآية تذكرنا بموضوع الحكم والحكمة ولا بد من ذكر بعض الملاحظات عنه :

١" ـ لا يشترط لقبول الحكم الشرعي أن نعرف الحكمة . . فإن بعض الأحكام لم تظهر الحكمة منها حتى الآن. لكن المؤمنِ يؤمن بأن الحكيم العليم قد وضع كل حكم في مكانه وأمر بما فيه المصلحة . ولهذا يستجيب للأمر سواء فهم أم لم يفهم الحكمة .

٢" ـ ليس من الخطأ البحث عن الحكمة . . بل ﴿من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ (البقرة/٢٦٩) . والله قد وعد الناس أن يكشف لهم ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (فصلت/٥٣) . وإن معرفة الحكمة تزيد المسلم يقيناً وثباتاً وتجعله أشد حرصاً على تطبيق دينه .

٣" ـ من فطرة الناس أن لا يقبلوا نظاماً حتى يعرفوا مُعْظَم الفوائد في أحكامه . . قد يتركوا بعض الأمور ويغضوا النظر عن عدم معرفة الحكمة منها . . لكن مقابل الاقتناع بصلاحية أكثر ما فيه . والقرآن كثيراً ما يكشف عن الحكمة في أحكامه . . وأحياناً يشير إليها ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ (البقرة/٢١٦) .

٤" ـ ينبغي أن يوجد في المجتمع العدد الكافي من الذين يعرفون الحِكَم حتى يبينوا للناس ويحفظوا على المجتمع توازنه . كما توضع للجبن النسبة الكافية من الملح فإن نقصت فسد الجبن . وهذا مثل توفير العدد الكافي من الأطباء لضمان الحماية الصحية للمجتمع .

وإن كل شيء في الكون منظم على نسب معينة إن اختلت فسدت الأشياء ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (القمر/٤٩) . ففي الدم مثلاً كريات حمر وبيض بنسبة محددة في الجسم . لكن حين تصبح الكريات الحمر أقل من هذه النسبة . . يصاب الإنسان بفقر الدم . . وكذلك المجتمع إن قلت فيه نسبة الذين يعرفون الحكم والحكمة أصيب بفقر فكري . .

٥" ـ إن معرفة الحكمة تجعل الضمير يلحق بالعلم . . والأخلاق بالتقدم المادي .

إن الآية : **﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾** .

تثير في النفس أبعاداً . فيا أمة القرآن . . أين كنت لولا القرآن . . ؟! ويا أيها العرب ماذا كان يمكن أن تكونوا لو حذفنا الإسلام من تاريخكم . . ؟! ماذا يبقى . . ؟! تبقى العصبية والجهل والفوضى والظلم . . ! وتبقى الإغارات والثارات وأيام العرب (حرب البسوس . . يوم بعاث . . .) !

لا أنكر بعض المآثر التي كانت موجودة . . ولكن هذه المآثر لم تستطع أن تبني للعرب حضارة . . أو تجعل من القبائل أمة تحسب لها الأمم المعاصرة حساباً . ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم﴾ (الأنبياء/١٠) . فأين أنتم الآن من هذا القرآن ؟!

تراث محمد قد أهملوه ... فعاشوا في الخلائق مهملينا
تولى هادمو الأصنام قدماً ... فعاد لها أولئك يصنعونا
أباهم كان إبراهيم لكن ... أرى أمثال آزر في البنينا
أرى التفكير أدركه خمول ... ولم تبق العزائم في اشتعال

وجـلجـلة الأذان بـكـل أرض ولـكـن أيـن صـوت مـن بـلال
مـنـائـركم عـلت في كـل حي ومسجـدكم من العـبـاد خـالي

(محمد إقبال)

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾

قال الحسن البصري : (اذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي) . وقال سعيد بن جبير : (اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي . .) .

والذكر لا يكون باللسان فقط فلسان الحال أبلغ من المقال . حتى لقد سُميت مجالس العلم مجالس للذكر .

وإن الآية الكريمة تضع المفتاح بيد الإنسان وتقول له كما تكون مع ربك يكون معك . وهي مثل قوله تعالى : ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ (المائدة/١١٩) . و﴿يحبهم ويحبونه﴾ (المائدة/٥٤) . و﴿نسوا الله فنسيهم﴾ (التوبة/٦٧) .

سأل رجل رسول الله ﷺ : إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به ؟ فقال ﷺ : «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله تعالى»[1] .

﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾

. . والشكر كيف يكون ؟ ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾ (سبأ/١٣) .

والإيمان نصفه صبر ونصفه الآخر شكر . . وقد يكون الصبر عند الشدة أسهل لأن الإنسان يتذكر ربه تحت ضغطها . . بينما الذين يذكرون ربهم عند النعمة قلة . . وإن الغفلة عن الذكر والتفريط بالشكر يؤديان إلى الكفر . . ولهذا يعلق على الآية

---

(١) قال الترمذي حسن .

بقوله : ﴿**ولا تكفرون**﴾ . وقد قال بعض السلف في قوله تعالى : ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ ﴿آل عمران/١٠٢) . إن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر .

وإن كل ذلك من أجلك أنت أيها الإنسان . . فإن الذكر والشكر لا يزيد في ملك الله شيئاً . . ولكنه يمنحك السكينة والرضى . . ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾ (طه/ ١٣٠) . ولنا في أذكار رسول الله ﷺ واحة ظليلة تستروح فيها النفس من ضوضاء الدنيا وثقل وطأتها . .

الفصل السّابع

أوامر وتوجيهات

(١٥٣←١٧٧)

- الابتلاء .
- الصفا والمروة .
- عقوبة كتمان الحق .
- أدلة توحيد الله .
- الأتباع والمتبوعون في العذاب .
- تحذير من الشيطان .
- التقليد .
- الطيبات .. والمحرمات من اللحوم .
- كتمان القرآن .
- آية البر .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٖ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٖ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ

﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾
إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ
بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ
ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ
لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ
أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟

خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم
بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ
ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا
يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ
بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ
﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ
وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ
لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ
فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ

أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ
بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾
۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ
ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ
وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ
وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

■ ١ ■

الابتلاء

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

بعد أن ذكر دور هذه الأمة . . يأتي أول توجيه لها وهو الاستعانة بالصبر الصلاة على تكاليف هذا الدور العظيم . . وهو التوجيه نفسه الذي قدم لبني إسرائيل عندما استخلفوا في الأرض في الماضي :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾

والصبر هو تحمّل المكارة والشدائد في سبيل الحق بدون ضجر ولا تذمر . لذا وصف في القرآن بأنه جميل . . لأن نتائجه جميلة .

والصبر يأتي نتيجة للفهم ومعرفة مراحل الطريق . فإن من درس سيرة الأنبياء وما تعرضوا له من الأذى وكيف صبروا . . ثم جاءتهم النتائج ووصلوا إلى هدفهم . . يستطيع أن يتأسى بهم ويصبر على الأذى . .

والصبر أيضاً سبب للنجاح وتحصيل المزيد من العلم والفهم . .

يقول صاحب المنار عن الصبر [ذكر في القرآن سبعين مرة ولم تذكر فضيلة أخرى بهذا المقدار وهذا يدل على عِظم أمره . . وقد جعل التواصي به في سورة العصر مقروناً بالتواصي بالحق إذ لا بد منه للداعي إلى الحق . . . الصبر فضيلة هي أم الفضائل فما من فضيلة إلا وهي محتاجة إليها .] . .

[ومن يزعم أنه عاجز عن تحصيل هذه الملَكة فهو خائن لنفسه جاهل بما أودع الله فيه من الاستعداد فهو باحتقاره لنفسه محتقر نعمة الله عليه] .

والله لا يطلب من الإنسان ما لا قدرة له عليه ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ (البقرة/٢٨٦) . وإن من يقوم بأمر الله يحتاج إلى زاد في الطريق . . والزاد هو الصبر والصلاة . قال عبد الرحمن بن أسلم : الصبر لله في بابين . . الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأبدان والأنفس . والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء .

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

بعونه ونصرته . . وفي ذلك تثبيت وإعانة على الصبر وفي ذلك ترويض للنفس على ترقب العواقب البعيدة المدى . . دون أن تخدعك العاجلة . . ألم يقل رسول الله ﷺ لخباب حين شكا له ما يلاقي من أذى . . «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه . والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم

تستعجلون»[1] . ولقد صبروا فتحققت لهم العاقبة التي وُعِدوا بها . . ونحن قد وُعِدْنا «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار» فلا بد أن تتحقق العاقبة بشرط أن نكشف الطريق الصحيح للوصول إليها ونؤدي ما علينا ونصبر حتى يأتي أمر الله .

ويمكن أن نوجز أهم النقاط في موضوع الصبر بما يلي :

١ ـ ذكر الصبر في القرآن سبعين مرة .

٢ ـ جاء التواصي به مقروناً بالتواصي بالحق .

٣ ـ الصبر أم الفضائل . فما من فضيلة إلا وهي محتاجة إليه .

٤ ـ الصبر ملكة اكتسابية تحصل بتعويد النفس «وإنما الحلم بالتحلم» .

٥ ـ المحتمل للمكروه مع السآمة والضجر لا يعد صابراً .

٦ ـ الصبر ينشأ من الفهم والإيمان . . ويتولد بالتجربة (لأن من رأى عاقبة الصبر في أمر يكون أقدر على الصبر في أمر آخر) . وكلما زاد العلم ازدادت سعة الصدر .

٧ ـ الصبر نتيجة لما قبله وسبب لما بعده .

ثم يذكر بعدم الخوف من أخوف ما يخاف منه الإنسان وهو الموت . .

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

وإن سمة الحياة الأولى : الفاعلية والنمو والامتداد . . بينما الموت هو الخمود والانقطاع . والشهداء فاعليتهم في نصرة الحق الذي قتلوا من أجله مؤثرة ومستمرة . . والفكرة التي ماتوا من أجلها ترتوي بدمائهم . . وسيبقون قدوة للناس بفدائهم يؤثرون في توجيه الحياة إلى الأسمى . . فهم أحياء في دنيا الناس . . وهم أحياء عند ربهم . . حياة فوق إدراكنا كما ذكرت الأحاديث . . والشرط في ذلك أن يكونوا قد قتلوا في سبيل الله .

---

(١) رواه البخاري .

والآية تتابع الوصية بالصبر لأهل الشهداء وتقدم لهم العزاء بذكر مكانتهم . . ثم يبين للمؤمنين أن الابتلاء سنة للحياة لا بد أن يتعرض لها المؤمن حتى يثبت جدارته بالفوز . ويذكر أنواعاً من البلايا :

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾

هذه البلايا يمكن أن ينظر إليها من جانب آخر غير الذي تعود الناس عليه . . فهي عقبات تحرك حوافز النمو في الفرد والمجتمع . . والأمة التي لا تعترضها عقبات ومشكلات تخلد إلى الراحة والسكون فيقف النمو والابداع وتذوي الحضارة فيها . والمؤرخ توينبي يرد الحركة الحضارية إلى وجود عقبات تشكل تحدياً يدفع الناس إلى الحركة للتغلب على هذا التحدي .

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

إنا لله . . كلمة عميقة يقولها المؤمن بلسانه وقلبه وسلوكه . . فهو يلجأ إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها . . لأنه يدرك أن كيانه كله من الله وإليه يرجع . تقول أم سلمة رضي الله عنها : أتاني أبو سلمة من عند النبي ﷺ مرة فقال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به قال : «لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول : اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا فعل ذلك به» فحفظت ذلك منه . فلما توفي أبو سلمة قلتها . ثم رجعت إلى نفسي فقلت : من أين لي خير من أبي سلمة ؟ . . . فأبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه . رسول الله ﷺ[1] .

---

(١) رواه مسلم والإمام أحمد .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾

أي ثناء من الله تعالى وتكريم .؟! جاء في الحديث أن الله عز وجل يقول لملك الموت «قبضت ولد عبدي ؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده ؟» فيقول نعم فيقول عز وجل : «فما قال ؟» فيقول : حمدك واسترجع . قال «ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد»[1] . إن الآية ترفع مقام الصابرين إلى مرتبة الأنبياء الذين يصلي عليهم الله وملائكته . .

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾

في الدنيا لأنهم لا يجزعون ولا تحطمهم النوائب بل يواجهون الأحداث بالثبات ورباطة الجأش . وفي الآخرة لأنهم ينالون الدرجات العليا ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (الزمر/١٠) . ولو أن الدعاة قاموا بدراسات نفسية وإحصائية بقصد المقارنة بين الإنسان الذي يصنعه القرآن والإنسان الذي تصنعه المبادىء الأخرى لاستطاعوا أن يقدموا الإسلام بلغة العصر حين يبرهنون على أن القرآن يصوغ الشخصية الأكثر تماسكاً وتوازناً أمام معاناة الحياة .

ولا ينافي الصبر ما يكون من حزن الإنسان عند المصيبة . بل ذلك من الرحمة ورقة القلب ـ أي : ليس الصابر هو الذي لا يحس بالألم ـ فقد ورد في الصحيحين : «أن النبي ﷺ بكى عندما حضر ولده إبراهيم الموت . وقيل له : أليس قد نهيتنا عن ذلك ؟ فأخبر أنها الرحمة . إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» .

وإنما الجزع المذموم هو الذي يحمل صاحبه على ترك الأعمال المشروعة لأجل المصيبة والأخذ بعادات قبيحة ضارة ينهى عنها الشرع .

---

(١) رواه أحمد والترمذي .

■ ٢ ■

الصفا والمروة

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

قال الشعبي : كان إساف (صنم) على الصفا وكانت نائلة على المروة وكانوا يستلمونهما . فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما فنزلت الآية :

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ﴾

وقد ورد في سبب النزول حديث عروة عن عائشة قال قلتُ : أرأيتِ قول الله تعالى :

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾

فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما . فقالت عائشة : بئس ما قلت يا بن أختي إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت : فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما . ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشعر . وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ . . . فأنزل الله عزوجل : ﴿إن الصفا والمروة . . .﴾ .

ثم قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يَدعَ الطواف بهما[1] .

هذه الروايات تشعرنا بتحرج الصحابة من أمر كانوا يفعلونه في الجاهلية . فالواحد منهم كان حين يدخل في الإسلام ينسلخ من حياته في الجاهلية حتى يشك في كل عمل يقوم به الجاهليون خوفاً من أن يكون حراماً . ولقد ربى فيهم القرآن هذه الحساسية . فلما أعطت هذه التربية مفعولها أخذ يقرر ما يريد الإبقاء عليه من الشعائر الأولى بعد قطعه عن الجاهلية وربطه بعروة الإسلام ولهذا يقرر هنا : ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله**﴾ **وإن أول من سعى هاجر رضي الله عنها زوج إبراهيم . . وعلى الساعي بينهما أن يستحضر ذله وفقره وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه . . حتى يعطيه الله حاجته كما أعطى هاجر بعد سعيها .**

والشعائر . جمع شعار : وهو العلامة التي يعرف بها الشيء . فالشعائر هي الأعمال التي نقوم بها لندل على خضوعنا لله . . فهي علامات على عبوديتنا له .

وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا

والتطوع هو الزيادة على الفريضة . والآية ترغب في التطوع بكل أنواع الخير دون تخصيص .

فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

وشكر الله هنا : مقابلة العمل الحسن بالثواب الذي يستحقه وزيادة من فضل الله . وفي الآية تعليم للأدب . . فرغم أن الله غني عن العالمين . . ورغم أن العبد بعمله الصالح إنما ينفع نفسه . . فإن الله يشكر للعبد أن يقدم الخير لنفسه . . !!

---

(١) رواه الشيخان وأحمد .

- ٣ -

عقوبة كتمان الحق

إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ
لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ
﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ
عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦١﴾

قيل إن الآية : ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى . . .﴾ : نزلت في اليهود حين كتموا ما يعرفونه من حقيقة الرسول ﷺ لكن الآية عامة في كل من كتم علماً في أي زمان ومكان . فعليه أن يتوقع عقاب الله .

لأن الله أنزل الآيات : بينات . . وأنزل الهدى لإنقاذ الناس وبيّنه للناس في الكتاب حتى لا يكون خافياً فيحتج الناس بأنهم ما عرفوا الهدى . . . .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ
مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ

.. إن هؤلاء بكتمانهم يعاكسون إرادة الله . فجزاؤهم هو الغضب والطرد من رحمة الله (اللعنة) ولعنة الله كافية .. لكن الله يتابع :

﴿ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ (١٥٩)

حتى يشعر هذا الكاتم أن اللعنة تنصب عليه من كل مكان وزمان . وقد جاء في الحديث أن المعلِّمَ للخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر .. فالكون كله يتفاعل مع المؤمن الداعي ويدعو له .. ويغتاظ من الكاتم ويصب عليه اللعنات ..

وصاحب المنار يفرق بين الكتمان وترك البيان . لأن الأول ينتج عنه جهل بسيط .. بينما الثاني ينتج عنه جهل مركب .. وهو تحريف الآيات وفهمها على غير وجهها . يقول أبو هريرة : لولا آيتان من آيات الله ما حدَّثت أحداً بحديث ـ وهما آيتا الكتمان في هذه السورة وستأتي الآية الثانية بعد قليل ـ وهاتان الآيتان تلزمان المؤمن بالدعوة والبيان . ويمكن أن ندعوهما آيتي الدعوة .

ولنا أن نتساءل : هل الكتمان جريمة كبرى تستحق كل هذا العقاب ؟

لا شك بأنه لولا الكتمان لما عم الجهل بالقرآن ولما تركت أحكامه .. ولما استطاع أحد أن يخدع المسلمين ويلبس لهم الباطل بالحق ...

والآيات تستثني وتفتح باب التوبة أمام العباد ..

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١٦٠)

فشروط التوبة من هذا الذنب :

١ ـ التوبة : أي الندم في القلب .

٢ ـ الإصلاح : تغيير الحال التي كان عليها إلى الأصلح .

٣ - والبيان : وينبغي استخدام أحسن الوسائل المتاحة في كل عصر لبيان الآيات .

أما الذين ماتوا قبل أن يتوبوا من الكتمان فلا أمل في نجاتهم ويلحقهم الله بالكفار :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

فلا تخفيف ولا تأجيل . . ومن المؤسف أن هذا الأمر الذي يهدد عليه الله سبحانه بهذه الشدة . . هناك من الناس من ينصح به ويعتبره من الحكمة . . ويعتبر القيام به إلقاء بالنفس إلى الهلاك . مع أن الله أخذ الميثاق على أهل كل كتاب ﴿لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ (آل عمران/١٨٧) . وإذا أخذ الله العهد علينا بأن نبيِّن ونعلِّم . . فمن البدهي أن يكون طلب العلم فريضة . . وإلا فكيف نعلِّم دون أن نتعلم .؟!

إن من سمات المجتمع في حال الصعود والنهضة أنه يدرك خطورة عالم الأفكار فيعطي الأولوية للفكر وتنميته . . بينما يغرق في عصر تقهقره في عالم الأشياء وعالم الأشخاص (ويتمثل ذلك بالتقليد والتعلق بالزعيم والبطل المخلص) .

■ ٤ ■

أدلة توحيد الله

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

تنص آية التوحيد :

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

على وحدانية الله تعالى وسعة رحمته .

ويقصد بذلك تذكير الذين يكتمون الحق بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه لأنه لا شريك له ، وترغيب لهم حتى لا ييأسوا من رحمة الله وتوبته . ثم تأتي الأدلة على ذلك وكلمة التوحيد التي يرددها المسلم إنما تمثل عهداً يقطعه على نفسه أن لا يعبد إلا الله ولا يطيع إلا الله ولا يلجأ بحاجاته إلا إلى الله . فالله وحده هو الخالق والحاكم والمجيب للدعاء .

﴿الرحمن﴾ :

وهو اسم عام يشمل جميع أنواع الرحمة بسائر المخلوقات . يختص به الله تعالى بينما

﴿الرحيم﴾ :

تشير إلى رحمته بالمؤمنين خاصة ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ (الأحزاب/٤٣) . ويمكن أن يوصف بها غير الله تعالى .

وكل العطايا والمنافع بيده الكريمة فأين تذهبون . . ؟! ثم يسوق سبعة أدلة على هذه الآية :

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

إنها دعوة للإنسان أن يرتاد هذا الكون كالذي يراه لأول مرة مفتوح العين متوفز الحس حي القلب . ولقد منح الله الإنسان كتابين يهتدي بهما : كتاباً منزلاً (القرآن) وكتاباً مخلوقاً (الكون) . ونتذكر مرة أخرى أن آيات الله ثلاثة : آيات الكتاب ، وآيات الآفاق (الكون) ، وآيات الأنفس . وهي مصادر المعرفة للإنسان .

١" ـ ﴿خلق السموات﴾ :

ماحدود هذه السموات؟ لا أحد يعلم حتى الآن. . وإنما تحدث علماء الفلك فقالوا : إن الكون يتألف من وحدات كبرى هي المجرات الضاربة في أعماق الفضاء والتي لا نحصيها عداً ، وقوام كل مجرة آلاف ملايين الشموس . . وطول مجرتنا (درب التبان) وحدها ١٠٠ ٠٠٠ سنة ضوئية (علماً بأن الثانية الضوئية تعادل ٣٠٠ ٠٠٠ كيلو متر) وتحتوي على ١٠٠ ٠٠٠ مليون نجم . . .

وهنالك من النجوم ما لم يصل نوره إلينا بعد . . !! فهل يمكن أن نتصور حدود السموات ؟

٢" ـ ﴿والأرض﴾ :

. . وقد تكلم صاحب الظلال رحمه الله عن الأرض عند تفسير الآية ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً﴾ من سورة تبارك بكلام مفيد يحسن الرجوع إليه .

٣" ـ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

وفي تعاقبهما مصالح جمة للبشر وسائر المخلوقات .

٤" ـ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ

وإنها لنعمة من الله أن يضع خصائص معينة في الماء وفي المادة يكشفها الإنسان

ويسخرها في تسيير المراكب وتحصيل المنافع .

٥" - وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ

﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ (الأنبياء/٣٠) . حتى جسم الإنسان يتركب معظمه من الماء . ومهما كانت الأرض خصبة فإن النبات لا يستطيع أن يمتص الغذاء ما لم يأتِه الماء . .

فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ

وكأنها إشارة إلى أن الحياة النباتية سبقت ثم جاءت الحيوانات . والدابة : رمز لكل كائن حي يدب على الأرض .

٦" - وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ

توجيهها عن علم وحكمة من الله تعالى لتكون نعمة لقوم وهلاكاً لآخرين . وكانت العرب تطلق على الرياح الشرقية النافعة: الصبا، وعلى الغربية الضارة (الدبور).

وتقوم الرياح : بتلقيح المزروعات ، وتسوق السحاب إلى حيث يريد الله ، وتلقح السحاب فينزل المطر ، وتحدث التيارات البحرية الحارة والباردة ولذلك أثرٌ في حياة الأسماك وتوجيه السفن . .

٧" - وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ

ومعنى المسخَّر من (السُخْرة) **أي يخدمك بدون أجر مقابل** . والكون كله مسخر للإنسان (كما قرر القرآن) لكن لا يستطيع تسخيره إلا من عرف سننه وقوانينه . وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن الإنسان يمكن له بتقدم العلم أن يتحكم بالسحاب . . أو

ينزل مطراً صناعية . . وليس في ذلك كفر . . ولا يستدعي ذلك أن يشعر الإنسان باستعلاء على الدين واستغناء عنه . . فالله هو خالق السنن وخالق الإنسان وهو الذي أمر الكون أن يتسخر للإنسان . . وأعطى الإنسان القدرة على التعلم والتسخير . . وإن ذلك كله يستوجب الشكر والخضوع لله المنعم الرحمن الرحيم . .

لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

. . يقول العقاد في كتابه (التفكير فريضة إسلامية) : (**إن الدين يفرض التفكير . . والتفكير يفرض الدين**) .

إن الذين يعقلون هم الذين يستفيدون من الآيات. .ونحن إن لم تدلنا الآيات على الله . . إن لم نحرك عقولنا لفهم سننها والاستفادة منها في تحسين حياتنا نكون قد عطلنا عقولنا التي هي ميزة الإنسان الأولى. ﴿وقالوا لوكنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ (الملك/ ١٠) . . ولقد دفعت هذه الآيات ـ وأمثالها ـ المسلمين في الماضي إلى طلب العلوم والسعي إلى المعرفة العلمية . . . وهي تختلف كثيراً عن المعرفة العامية . فالمعرفة العلمية تتوفر عند الاختصاصي الذي إذا حدثك عن موضوع كنت تظن أنك تعرفه . . تبين لك أنك لم تكن تعرفه . . !

■ ٥ ■

الأتباع والمتبوعون في النار

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

ومع كل هذه الآيات .. فإن من الناس من يشرك بالله ولا يعرفه ..!!

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾

والند : هو المماثل .. الذي يطلب منه ما لا يطلب إلا من الله عز وجل .. والذي يطاع كما ينبغي أن يطاع الله وحده .

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾

ومظهر ذلك أنهم يتركون أمر الله من أجلهم .. لكن هناك طائفة أخرى يصفها الله :

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾

.. وكما قال ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» . **وقوة الحب لله تحصل بسببين** :

قوة المعرفة بالله ، وخلو القلب من المعارض (حب الدنيا والشهوات ..) . يقول الحسن (من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها) . ولابن تيمية كلام في الفتاوى

حول الحب والعلم ألتقط منه بعض العبارات : [القلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقاً به وديناً له . لكن يعرض لها ما يفسدها . ومعرفة الحق تقتضي محبته . ومعرفة الباطل تقتضي بغضه لما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل . لكن قد يعرض لها ما يفسدها إما من **الشبهات** التي تصدها عن التصديق بالحق وإما من **الشهوات** التي تصدها عن اتباعه (فالمغضوب عليهم صدهم الهوى والشهوات . والضالين صدهم الجهل والشبهات) . ليس كل معلوم مراداً محبوباً . ولا يلزم من كون الشيء معلوماً مصدقاً به أن يكون محبوباً معبوداً . . . إلا إذا كان القلب سليماً من المعارض . . ولا شيء أحب إلى القلوب السليمة من الله . ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (الشعراء/٨٨ ـ ٨٩) . فمن عرف الله وقلبه سليم أحبه . وكلما ازداد له معرفة ازداد حبه له . وكلما ازداد حبه له ازداد ذكره له ومعرفته بأسمائه وصفاته . فإن قوة الحب توجب كثرة ذكر المحبوب . كما أن البغض يوجب الإعراض عن ذكر المبغض . . فمن عادى الله ورسوله أعرض عن ذكره وعن ذكر ما يوجب المحبة فيضعف علمه به حتى قد ينساه ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ (الحشر/١٩) . وقد يحصل علم وتصديق مع بغض . لكن تصديق ضعيف وعلم ضعيف (مثل إبليس) .] .

وقضية الحب خطيرة . . لأن «المرء مع من أحب» كما قال رسول الله ﷺ . . والله سبحانه يقول ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (التوبة/٢٤) . وقد جمعت الآية شواغل الهوى والشهوات . . وهددت من أحبها أكثر من الله . . فهل جربنا أن نمتحن أنفسنا وحبنا لله . . ؟!

أي أختي المؤمنة . . لو ناداك ابنك في الليل وأنت نائمة لأسرعت إليه . . فكيف يفوتنا نداء المؤذن يدعونا للمثول بين يدي من ندَّعي حبه أكثر من المال والأهل والولد . . . ؟! هل نشعر بالأنس في الصلاة لأنها لقاء مع المحبوب ؟ كما عبر رسول الله ﷺ «جعلت قرة عيني في الصلاة» .

إن من يحب الله ورسوله لا يستطيع أن يخلد إلى الراحة ويسكت حين يرى الناس تتعدى حدود الله وتتنكر لآيات الله . . !

ولقد كشفت الآية : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ (آل عمران/٣١) . عن دليل الحب وبرهانه . ورحم الله من قال :

لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

فيامن تحبون الله ورسوله . . أيكون الشيوعي أكثر حباً لمذهبه منكم . . ؟!

أين حبكم وسعيكم لنصرة دينكم وأنتم ترون الحرمات تنتهك . . والآيات يكفر بها ويستهزأ بها . . ؟! أين من يكرس حياته وماله للدعوة إلى دين الله وتعليمه للناس . . ؟!

وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾

لو أنهم يرون . . لو يرى هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم باتخاذهم الأنداد . . ولو يرى هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم أنداداً لله على رقاب العباد . . فظلموا وعاثوا في الأرض بالفساد . . لو يطلعون على ذلك المشهد في الآخرة .

. . لعلموا أن القوة لله جميعاً . . وأن الله شديد العذاب . . فكيف جعلوا له أنداداً . . ؟!

﴿فكبكبوا فيها هم والغاوون . وجنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . .﴾ (الشعراء/٩٤-٩٩) .

لو أنهم يرون هذا المشهد . . حيث يتبرأ هؤلاء السادة منهم . . بعد أن كانوا في الدنيا يقولون لهم ﴿اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ (العنكبوت/١٢) . . نعم هؤلاء

الذين تركتم أمر الله من أجلهم وحرصتم على رضاهم وجعلتموهم أنداداً لله . . . وظننتم أنهم يملكون لكم ضراً أو نفعاً . . إنهم اليوم يتبرأون منكم . .

إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ

يتمنون لو مكنوا من العودة إلى الدنيا كي ينتقموا من هؤلاء السادة ويتبرأوا منهم . . ولكن ما نفع الحسرات والأماني . . ؟!

كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

فالسادة والأتباع خالدون في النار . . فلئن كان السادة طواغيت فإن الأتباع قد عبدوا الطواغيت . . وتنكروا لعقولهم وإنسانيتهم . .

إن الإسلام يعتبر جريمة الاستضعاف لا تقل عن جريمة الاستكبار . . وإن المستضعف عليه أن يتحرر من عبادة المستكبر والخضوع له إن كان يريد لنفسه ولأمته الخلاص في الدنيا والآخرة . . فإن التغيير يبدأ في نفسه [1] . ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ (العلق/١٩) .

---

(١) يراجع موضوع الاستكبار والاستضعاف في كتابي (من هدي سورة النساء) فإن فيه تفصيلاً أكثر لأبعاد المشكلة .

■ ٦ ■

تحذير من الشيطان

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

صاحب المنار يذكر صلة الآيات مع بعضها فيقول :

[الآيات الأولى بينت حال متخذي الأنداد وما سيلاقون من عذاب الله تعالى .

﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً . . .**﴾ (البقرة/١٦٥) .

. . وقد قلنا في تفسيرها إن الأنداد قسمان قسم يُتخذُ شارعاً يؤخذ برأيه في التحليل والتحريم . . وقسم يُعْتمد عليه ويُدعى في دفع المضار وجلب المنافع من طريق السلطة الغيبية لا من طريق الأسباب . . . والناس يتبع بعضهم بعضاً وسيتبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا عند رؤية العذاب وتقطع الأسباب بينهم . . والأسباب هي المنافع التي يجنيها الرؤساء من المرؤوسين والمصالح الدنيوية التي تصل بعضهم ببعض . . وفي هذه الآيات يبين تعالى أن تلك الأسباب محرمة لأنها ترجع إلى أكل الخبائث (الرشاوي والمنافع التي تعطى في المقابل) واتباع خطوات الشيطان . . . وبين سبب جمودهم على الباطل والضلال وهو الثقة بما كان عليه الآباء من غير تعقل ولا هدى] . (كما سيأتي في الآية بعدها) .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾

نداء مشفق من الله تعالى للناس جميعاً أن يأكلوا ويستمتعوا بالطيبات فإن الشيطان

يريد أن يحرم عليهم الطيبات ويجرفهم إلى الخبائث ويعودهم عليها .

إن الشرط فيما يؤكل : أن يكون حلالاً طيباً . وكأن (طيباً) هنا تفسر كلمة (حلالاً) كقوله تعالى : ﴿أحل لكم الطيبات﴾ (المائدة/٤) . والطيب : هو المستطاب ذوقاً دون أن يكون فيه ضرر للأبدان والعقول. والآية لا تقتصر على المطاعم بل في مجال المعاملات المالية . . فكل ما حرم الله من المعاملات المالية يعتبر خبيثاً سحتاً «وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به» [١] . يقول الله تعالى في الحديث القدسي : «إن كل مال منحته عبادي فهو لهم حلال . . وإني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم» [٢] .

وقد كان الجاهليون في الماضي يحرمون أنواعاً من الأنعام . . والجاهليون اليوم يحرمون بعض الطيبات . . وأحياناً يحرمون على أنفسهم بالنذور والأيمان . . وبعضهم يظن ذلك تقرباً إلى الله . . لكن الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . . ويحب منا أن نأكل من الحلال الطيب ونتوجه إليه بالشكر والحمد . دون أن ننسى أننا الأمة الوسط . . والاعتدال في كل شيء شعارنا ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ (الأعراف/٣١) . مع تذكر حاجات الآخرين . . وكان رسول الله ﷺ يجوع مع أصحابه . . ويأبى أن يستأثر بطعام من دونهم . . فإذا دعي إلى طعام استأذن لأصحابه معه . وإن الانحراف عن الاعتدال هو اتباع لخطوات الشيطان . . وحقيقة الشيطان غيبية لا نعرفها لكننا نؤمن به لأن الله حدثنا عنه ـ كما أننا نحس بوسوسته وآثاره ـ وليس هذا مناقضاً للعقل . ففي عالمنا أشياء كثيرة لا نفهم حقيقتها ولا ندركها ولا نستطيع أن نثبت بأدلة أنها مستحيلة الوجود . .

يقول ابن تيمية : (القرآن يأتي بمحاراة العقول [أي بما يحيره] ولا يأتي بمحالات العقول [أي بما هو من المحال تصديقه]) .

---

(١) رواه الحافظ بن مردويه .

(٢) رواه مسلم .

والذي ينفي وجود الشيطان إنما ينفي بدون علم أو دليل . والموقف العلمي يقتضي من الإنسان أن لا يتسرع في الإنكار بدون دليل .

وكوننا نؤمن بوجود الشيطان ليس معناه أننا لا نستطيع الانفلات من تأثيره . . فإن الله قد جعل لنا ما نعتصم به من كيده . . صحيح أنه عدو فظيع غير مرئي يبذل جهده للإيقاع بنا ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ (الأعراف/١٦) . لكن الله تعالى يقول : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ (الحجر/٤٢) . إن الآيات تحذرك من كيد الشيطان كي تستنفر انتباهك . .

وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾

وإن المؤمن يملك جهازاً إن استعمله استطاع أن يتفادى الألغام التي يزرعها الشيطان في كل الجهات . . إن معه القرآن . . يرسم له خارطة الطريق . . ويهديه إلى الصراط المستقيم الذي يوصله إلى السلامة والجنة . . وبقدر الحذر والطاعة لله يبتعد الشيطان . . وقد وصل عمر رضي الله عنه إلى مستوى رفيع حتى أن الشيطان كان يتجنب الفج الذي يمشي فيه عمر . .

وإن تطهير المجتمع من خطط الشيطان يكون بإرجاع الناس إلى طاعة الله وأن لا ينزلقوا وراء خطوات الشيطان الذي يستدرجهم خطوة خطوة . . من الأمور الصغيرة وبأساليب منوعة . . تتقدم بتقدم العلم والحضارة . . ولكن أساليب الوقاية منه أيضاً تتقدم بتقدم العلم والحضارة . إذ يمكن تسخير الكشوف والاختراعات لرفع مستوى الناس في الفهم والاستقامة . وفي ذلك تعقيم للجو العام من الجراثيم الفكرية التي يعتمد عليها الشيطان .

إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

فالشيطان يأمر **بالسوء** : أي بالأفعال السيئة . **والفحشاء** : كالوقوع في الكبائر . . **وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** . وهو أعظم مما سبق . . . **لأن التلاعب بالأفكار هو أخطر شيء في المجتمع . . . وهو الذي يؤدي إلى تحريف الدين وتغييره** . . وانظر إلى عامة المسلمين في عالمنا كيف يحرمون ويحللون بدون علم . . حتى إن الشاعر إقبال يسمي ما عليه المسلمون الآن (دين مخترع) .

إن أفظع ما يقوم به الشيطان هو صد الناس عن التعلم والتعليم . . بتزيين الكسل والاسترخاء والانغماس في تحقيق الشهوات . . وإثارة المخاوف على المصالح والمراكز . . حتى يتحقق ما وصفه رسول الله ﷺ في المجتمع الذي توقف عن طلب العلم وانحصر العلم فيه بأشخاص معينين «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء . حتى إذا لم يترك عالماً . اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[1] .

■ ٧ ■

التنفير من التقليد

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

ينفر الله من التقليد بقوله :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ

---

(١) صحيح مسلم .

هل الآية تذم اتباع الآباء مطلقاً ؟ ألم يقل يوسف عليه السلام : ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم و . . .﴾ (يوسف/٣٨) .

إن الآية تذم التقليد : وهو الاتباع بدون بصيرة وبدون علم . .

أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

التقليد هو ارتباط بالأشخاص لا بالأفكار . فالمقلد يترك الفكرة حين يفقد صلته بالشخص أو يصاب بخيبة أمل فيه (وهي مرحلة الأشخاص التي تحدث عنها مالك بن نبي) .

إن القرآن لا يرفض فكر الآباء لذاته . . وإنما يرفض لأتباعه أن يتبعوا الآباء ويقدسوا التراث بدون بصيرة أو علم . . إنه يبني الشخصية المسلمة على طلب البرهان . . فلا تقبل شيئاً دون تمحيص ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ (الإسراء/٣٦) . حتى إن رشيد رضا يقول : (إن موافقة الحق على غير بصيرة لا يعتبر هداية) لأن الهداية لا تكون بدون بصيرة . وإن الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة كلهم متفقون على أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ بقول أحد في الدين ما لم يعرف دليله ويقتنع به . وإن من اجتهد فأخطأ فله أجر . . لكن من قلد دون علم فعليه وزر .

إن الآية تعلمنا أن نصحح العلاقة مع التراث . . ومع الآباء . . ومع الرؤساء والعلماء . . بل ومع المفكرين الأجانب . . لأن الآية تتناول جميع المقلدين وتضرب لهم مثلاً : كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها . . وإذا نعق بها راعيها ودعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه وإنما تسمع صوته فقط : دعاء ونداء .

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً

ويطلق حكماً على المقلدين بالكفر . . ويقول إنهم ينعقون وينادون بشعارات لا يفهمونها هم (واستعمل السمع بمعنى الفهم) كالببغاء تردد الكلام ولا تفهمه . .

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

إنهم كالغنم مع الراعي مسخرة لإرادته . . لا تفهم لماذا دعا ولماذا زجر ودعوتها إلى الرعي أو الذبح سواء .

وصمهم بتعطيل الفكر وإغلاق منافذ المعرفة . وهو أخطر مرض نعاني منه الآن . فيا عجباً لنا نحن أمة القرآن . . !! القرآن يقول لنا : سيروا في الأرض وانظروا . . أفلا تتفكرون . . أفلا تعقلون . . قل انظروا ماذا في السموات والأرض . . اقرأوا . . لكننا نخاف من العقل ! . . ونرتعب من القراءة . . ! ونخشى على إيماننا من النظر في أفكار الآخرين وأحوالهم . . نحن لا نريد أن نقرأ أو نفكر . . بل نقلد فقط . !! ونحن مستعدون لأن نأكل لحم كل من يستنكر علينا جمودنا ونتهمه بالمروق من الدين .

■ ٨ ■

الطيبات والمحرمات من اللحوم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

النداء هنا للمؤمنين خاصة . . يكرمهم بالطيبات . . وهم يدركون أن الطيبات هي الحلال . .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾

ألا يستحق منكم هذا التكريم الشكر . .؟

﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾

وإن الأكل من الحلال يكون سبباً لتقبل الدعاء والعبادة . . يروي أبو هريرة عن رسول الله ﷺ «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً . وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ وقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب . . يا رب . . ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك .»[1] .

ويحدد المحرمات من اللحوم فهي شيء آخر غير الطيبات. .ويأتي التحديد بأداة الحصر :

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾

فيشعر بأن المحرم محدود قليل .

﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾

التي ماتت حتف أنفها من غير تذكية . . وتذكر أنواعها في سورة المائدة :

---

(١) رواه مسلم .

المنخنقة ـ الموقوذة ـ المتردية ـ النطيحة ـ ما أكل السبع ـ والميتة تعافها النفس السوية . . وتضر بالجسم . ﴿إلا ما ذكيتم﴾ : أي ذبحتم قبل أن تموت .

وَٱلدَّمَ

كذلك تعافه النفس ويضر بالجسم . ويستثنى من الميتة والدم : «أحل لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال» [1] . .

وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ

والخنزير حيوان قذر يتغذى بالقاذورات يضرب به المثل على القذارة والدناءة . . وهناك أبحاث عن ضرره وما فيه من بيوض لأنواع من الدود . . قد يقال : إن هذا يزول بوسائل الطهو الحديثة . . ؟! وينسون أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة . . فمن يستطيع أن يجزم بأنه ليس هناك آفات أخرى لم تكشف بعد . . ؟! ألا تستحق هذه الشريعة التي سبقت العلم بعشرات القرون أن نثق بها . . ؟! إنها شريعة العليم الحكيم .

وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ

وهو رفع الصوت عند الذبح بأسماء غير اسم الله . وقالوا : كل ما ذكر عليه اسم غير الله ولو مع اسم الله فهو محرم (مثل بعض الذبائح التي تقدم كنذور للأولياء وقبور الصالحين . ويفعل ذلك بعض المسلمين عن جهل) .

والتحريم هنا لضرر فكري واجتماعي . . وهذا التحريم يقصد منه إنهاء الشرك وحماية التوحيد . . وذلك لحماية العقل من الفهم الخاطىء والأوهام . .

---

(١) في آيات أخرى عند تحريم الدم قال ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ . وعلى هذا فالدم المتبقي في العروق واللحم بعد الذبح لا حرج منه .

أما إذا لم يذكر على ذبحه أي اسم . . أو جاءك لحم لا تعرف أُذْكِر عليه اسم الله أم لا (بشرط أن لا يكون مصدره من مشركين) . . فالأرجح أن يسمّي المسلم بالله عليه ويأكل منه (وقد وردت في ذلك أحاديث) . كذلك ذبيحة المسلم تؤكل ولو نسي أن يسمي الله على الذبح .

فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ

غير باغ : أي غير طالب له راغب فيه . **ولا عاد** : أي غير متجاوز قدر الضرورة . فيأكل بقدر الضرورة ولا يشبع . فمن اضطر ولم يأكل ثم مات يعتبر آثماً «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه» .

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

يوسع على عباده ويرخص لهم عند الضرورة . . فلماذا ذكر المغفرة هنا ؟ إن تحديد الاضطرار أمر دقيق جداً . ويصعب على الإنسان في مثل هذا الظرف أن يحدد تماماً المقدار الضروري لحفظ الحياة . دون أن يقع في وصف الباغي والعادي . . فعليه أن يجتهد بقدر الإمكان فإن الله يغفر له إن أخطأ . . بشرط أن لا يتعمد مجاوزة الحد .

إن الآية : ﴿**كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون**﴾ . قد حددت بوضوح من الذي يعبد الله فعلاً . .؟

إنه الذي يأكل من الحلال ويجتنب الحرام . . ويشكر الله على نعمه . . وإن معنى العبادة : الطاعة لله في ما أمر ونهى . وعلى الدعاة أن يعلموا الناس الآيات ويوضحوا لهم ما أمر ونهى حتى يتمكنوا من العبادة الصحيحة لربهم فإن كتموا ضل الناس . . وضاعت عبادة الله من الأرض . ولهذا حقَّ العقاب على كاتم القرآن . .

■ ٩ ■

كتمان القران

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾﴾

مرة ثانية يحمل على الذين يكتمون الحق :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾

ويندد بعملهم . . ويهدد عليه بأشد العقوبات . . ولا عجب في ذلك . فإن كتمان الحق يؤدي إلى : الجهل بالحق . وعند ذلك يتمكن الخبثاء من التحريف وإلباس الحق بالباطل . . وبذلك يُخذل الحق وينصر الباطل لعدم وجود من يعارضه . بينما البيان من شأنه أن يخذل الباطل : ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ (الإسراء/٨١) . فكلمة الحق تسقط الإجماع على الباطل أولاً . . ثم إنها تسبب الهزيمة المعنوية لأصحاب الباطل إذ يشعرون في أعماقهم أنهم على خطأ . ألم تر إلى فرعون وهو

يلتمس الموافقة من ملئه على قتل موسى ويحاول إلصاق التهم - التي تسوغ قتله - به ﴿ذروني أقتل موسى وليدع ربه . . إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ (غافر/٢٦) . ولو أن مؤمن آل فرعون سكت ولم يعترض ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾ (غافر/٢٨) . ؟! لأصبح القرار في حكم الإجماع لسكوت الجميع . . لكنه أوقف القرار باعتراضه وبيانه لحقيقة الأمر .

ومن المؤسف أن يزهد المسلم المعاصر بالتبليغ والبيان . . إنه لا يدرك آثار ذلك . . بل قد يصفه أحياناً بأنه سلاح العاجز . . وأنه قول بلا عمل . . !! كيف لا نتدبر قول الله تعالى : ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾ (إبراهيم/٢٤) .

إن البيان يؤثر كماً وكيفاً . . فبه يزداد أتباع الحق . . وبه نعمق فهمهم . . وبه انتشرت دعوة الإسلام أول مرة على يدي محمد ﷺ وصحبه . .

إن محمداً ﷺ كان يؤمن أن لا خلاص له من عذاب الله إلا بالبلاغ والبيان ﴿قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بلاغاً من الله ورسالاته﴾ (الجن/٢٢) . . ولهذا قال لعمه : «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه» . . . ولهذا أخذ العهد على أصحابه عند البيعة «وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم» [1] . وقد نظن أن من يتكلم ضد الدين هو الذي ينصر الباطل . . ولكن من يسكت ولا يفعل شيئاً لا يقلُّ عنه جرماً ومساهمة في نصرة الباطل . . إنه بسكوته قد عطل المعارضة . . والسكوت يعتبر إقراراً .

والمعارضة للباطل ولو كانت أصواتها قليلة لا بد أن تؤثر . . انظر إلى سعي هشام ابن عمرو في نقض صحيفة المقاطعة التي كتبتها قريش ضد المسلمين . . مع أنه كان مشركاً . لكنه استنكر هذا الظلم وكلَّم في ذلك أربعة أشخاص فوافقوه فوقف هؤلاء

---

(١) رواه مسلم .

بأصواتهم الخمسة فقط أمام نادي قريش فأسقطوا المقاطعة . وما ذلك إلا لأن صاحب الباطل ينهزم من أعماقه أمام بيان صاحب الحق .

ألم تر إلى ذاك الذي تبع محمداً ﷺ بعد أحد وهو يقول : دلوني على محمد . . لأقتلنه . . فالتفت إليه النبي ﷺ وقال : «بل أنا أقتلك» وضربه ضربة أصابته بجرح بسيط . . فولى إلى أصحابه فزعاً يصيح : قتلني محمد . . قالوا : ما بك إلا جرح بسيط . فقال : لقد قال إنه سيقتلني . . فوالله لو بصق علي لقتلني . . !! ذاك مثل حي على الهزيمة المعنوية . .

والآية ﴿جاء الحق وزهق الباطل﴾ (الإسراء/٨١) . تمثل سنة من سنن الحياة . . فإنك لا ترى الباطل منتفشاً إلا لأن الحق غائب . . سكت عنه أصحابه وكتموه . . وهذا ما أشار إليه ﷺ «إذا هابت أمتي أن تقول للظالم أنت ظالم فقد تودع منهم» . . ورغب في الخروج من هذا السكوت والكتمان بالحصول على أعلى الدرجات «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[1] . فما أبعد المسلمين الآن عن هذه المفاهيم . !

ومن الملاحظ أن أحداً لا يعترض عليك حين تسعى لتحصيل العلم . . ولكن حين تبدأ بالتعليم والبيان تنشأ الاعتراضات . كما يقول سقراط : (مهما زاد علم الإنسان لا يعترض عليه أحد ولكن حين يبدأ يعلم يبدأ الاعتراض) . ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً﴾ (الجن/١٩) . ولهذا تأتي الآيات لتؤكد على البيان وتأخذ الميثاق على أهل كل كتاب : **﴿لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾** (آل عمران/١٨٧) . ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ (الأحزاب/٣٩) . ولا شك أن عملية البيان ينبغي أن تتطور مع تطور العقول والوسائل . وينبغي أن يخاطب أهل كل عصر على قدر عقولهم . . وعلى الداعي أن

---

(١) رواه أبو داود والترمذي .

يقوم بدراسة مستمرة لمعرفة الحق على ضوء ما تكشفه آيات الآفاق والأنفس . ولمعرفة النفوس وكيفية التأثير عليها وما أفضل أساليب البيان ؟ . والتدرب على استعمال أحسن الوسائل الحديثة لعرض الحق جذاباً مؤثراً .

والآيات هنا كأنها تواجه الإنسان وتستعرض الدوافع التي تدفعه إلى كتمان الحق وترد عليها . . فلنتأمل ما هذه الدوافع التي تطلق عليها الآيات :

وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا

١ ـ الحرص على الرزق . . فيقول :

أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ

فكل مال حصلت عليه مقابل سكوتك عن الحق يعتبر سحتاً النار أولى به .

٢ ـ البقاء على الوجاهة وحتى لا يتعرض للإهانة . فيقول :

وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

فذلك هو الهوان والاحتقار .

٣ ـ الحرص على مصلحة النفس (الأنانية) فيقول :

وَلَا يُزَكِّيهِمْ

لا يطهرهم ولا يرفع قدرهم ولا يمتدحون في الدنيا والآخرة .

٤ ـ الميل إلى الراحة والدعة . . فيقول :



فأين الراحة التي فضلوها ؟!

٥ ـ ظن الربح . فيقول عنهم :

أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ

فأي خسارة أفدح من ذلك ؟!

فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾

يتعجب من غفلتهم ويسخر منهم .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ

لكي يعلن على الناس ويتحقق في واقع الأرض . لكن كتمان الآيات يؤدي إلى الجهل بها وهذا ما يؤدي إلى الاختلاف والتفرق . .

وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

ونلمس من الآية أن الله لا يعذرُ الذين يختلفون في الكتاب بل يذمهم لأن الله أعطاهم المرجع الذي يجب أن يرجعوا إليه عند الاختلاف ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ (النساء/ ٥٩) . فلا عذر للمسلمين في الاختلاف في دينهم وحتى الجهل الناتج عن الكتمان لا عذر فيه . . لأن الكتاب موجود بين أيديكم . .

■ ١٠ ■

اية البر

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

البر : هو الخير جملة . . وقد وردت في القرآن إشارات إليه لكن هذه الآية هي أوضحها حيث تفصل في أنواع البر كلها وتعدد عشرة أنواع منه .

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ

ذكر بأن الآية نزلت بشأن الضجة التي حدثت حول تحويل القبلة . . فالنصارى يصلون إلى المشرق واليهود إلى المسجد الأقصى . . وكل طائفة تتشبث برأيها . . . فأراد الله أن يبين للناس كافة : أن مجرد تولية الوجه قبلة مخصوصة ليس هو البر المقصود من الدين . وإنما شرع التوجه إلى القبلة لتذكير المصلي بالإقبال على الله والإعراض عن كل شيء آخر . . وليكون شعاراً لاجتماع الأمة . فالمراد هو طاعة الله وامتثال أمره وليس في

التوجه إلى المشرق أو غيره بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه . والآية شبيهة بما قال عن الأضاحي ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ (الحج/٣٧) .

والآية تفرق بين الحقيقة ومظهر الحقيقة . . وكل شيء له جوهر ومظهر . فالبر تصور وشعور وأعمال وسلوك . وكل العبادات كذلك لأن طبيعة الإنسان نفسه مؤلفة من روح وجسد . وينبغي أن ندرك أن الحقيقة إن وجدت فلا بد أن يوجد مظهرها (الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل) . لكن قد يوجد المظهر ولا حقيقة وراءه ، كالأزهار والفاكهة الصناعية . . والمنافقون نموذج من ذلك ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . .﴾ لكنهم ﴿كأنهم خشب مسندة﴾ (المنافقون/٤) . أشكال ميتة لا روح فيها .

وقد يصاب المسلم بمرض التشبث ببعض الأشكال بينما هو غافل عن جوهر الدين . وأتذكر في هذا المجال قصة الرجل الذي جاء يسأل عن دم البعوض يصيب الثوب هل هو نجس ؟ فقال له ابن عمر : ممن أنت ؟ قال : من أهل العراق . قال ابن عمر : عجباً لكم يا أهل العراق !! أتسأل عن دم البعوض وقد سفكتم دم ابن رسول الله ﷺ ؟! يقول ﷺ : «من دعا بدعوة جاهلية فهو جثي جهنم» قالوا : يا رسول الله وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ؟ قال «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» .

وماذا ينفع المسلم توجهه إلى الكعبة وهو يحمل روح الجاهلية فيعتز بقومه ويفخر بآبائه . . ويكره أن يرزق بالبنات ويستكبر على الضعيف ويخضع ويذل للمستكبر . . ؟!

أنواع البر :

ونلاحظ أن صفات المؤمنين التي وردت في أول السورة تأتي هنا بأسلوب آخر وبتفصيل . وتذكر الآية : البر في جانب الإيمان . وفي السلوك . وفي الأخلاق .

ففي الإيمان :

١"- وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

إيماناً يصل بالنفس إلى الإذعان حتى يكون الله ورسوله أحب إلى المؤمن من كل شيء . ويؤثر أمرهما على كل شيء . وحتى تكون مصيبته في دينه أشد عليه من المصيبة في نفسه وولده وماله . وأين هذا المستوى من إيمان الوراثة والتقليد . .؟

٢"- وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ

والإيمان به نابع من الإيمان بالله العادل الذي لن يترك الناس يعيشون ويموتون عبثاً بدون حساب .

٣"- وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

والإيمان بها أصل للإيمان بالوحي .

٤"- وَٱلْكِتَٰبِ

والإيمان به يكون بفهمه والعمل بما فيه . والعمل بما فيه هو المظهر والإخلاص لله وحده هو الحقيقة .

٥"- وَٱلنَّبِيِّۦنَ

والإيمان بهم هو الاهتداء بهديهم والتخلق بأخلاقهم .

وفي السلوك :

٦"- وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ

وهو إنفاق غير الزكاة .

أن تنفق مما تحب تطوعاً ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ (آل عمران/٩٢) . لقد دفعت هذه الآية أبا طلحة الأنصاري إلى التصدق ببستانه (بيرحاء) وهو أحب ماله إليه بل إنهم قد وصلوا في الإنفاق إلى مراتب عجيبة من الإيثار . . فلقد كانت أم المؤمنين عائشة توزع عطاءها على الفقراء وتنسى أن تحتفظ منه لنفسها بما تفطر عليه . إن الوصول إلى بعض هذه المراتب يحتاج إلى جهاد للنفس كي تتغلب على شحها ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ (التغابن/١٦) . لمن هذا الانفاق ؟

١ - لِـ : ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ

ولم يحدد الفقراء منهم . . فالظاهر - والله أعلم - أنها صلة رحم يقصد بها تقوية الروابط . . والإنفاق يكون من المال ومن البشاشة والتلطف والمقابلة بالأحسن . والقرآن هنا يعطي إشارة عامة ولا يفصل في الجزئيات . . وعلى المؤمن أن يقدر بمن يبدأ . . وكم يعطي بحسب الظروف :

٢" - وَٱلْيَتَٰمَىٰ

وقد تكون حاجتهم معنوية أكثر منها مادية .

٣" - وَٱلْمَسَٰكِينَ

الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وعيالهم ولا يسألون العطاء : «المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه»[1] .

٤" - وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ

---

(١) في الصحيحين .

المنقطع في السفر لا يتصل بأهل ولا قرابة حتى كأن السبيل أمه وأباه . (قال صاحب المنار : يوشك أن يشمل ذلك اللقيط) والحاجة مادية ومعنوية .

٥"- وَٱلسَّآئِلِينَ

وقد يسأل السائل معونة مادية في مال أو عمل . وقد يسأل المساعدة في فهم آية أو حكم مشكلة أو تعلم علم . والرسول ﷺ ما كان يرد سائلاً إلا ويعطيه إن كان يملك . «للسائل حق وإن جاء على فرس»[1] فليس من السهل على الإنسان أن يهدر كرامته بالسؤال . . والله أعلم به وحسابه عليه . . والتربية الإسلامية تربي شخصية المسلم في الأصل على التعفف والسعي بالعمل للحصول على الرزق . فهي تعلم الفقير واجبه والغني واجبه . وهو شيء فقدناه في عالمنا منذ انقطعت صلتنا الحيوية بالقرآن . إذ أصبح الجميع يطالبون بحقوقهم وقليل منهم من يتذكر واجبه .

٦"- وَفِي ٱلرِّقَابِ

وهي مساعدة من يريد المكاتبة ليتحرر . أو شراؤه وإعتاقه .

٧"- وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ

وهي صلة مع الله تزكي النفس وتعينها على تحمل الحياة . وتهيىء للمجتمع لبنات صالحة ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ (العنكبوت/٤٥) .

٨"- وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ

وهي حق معلوم مفروض على من ملك النصاب وحال عليه الحول . وهي الحد الأدنى من الإنفاق . و«في المال حق سوى الزكاة» . وهي أيضاً صلة مع الله وتربية

---

(١) رواه أحمد وأبو داود .

للنفس حتى تتحرر من الشح والرياء. وفيها صلاح كبير للمجتمع .. إذ تضمن له التكافل وتحميه من الحقد والصراع الطبقي . فهي طهارة للفرد والمجتمع .

وفي الأخلاق :

٩" - وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ

والوفاء بالعهود والعقود من أهم الفرائض التي فرضها الله تعالى لنظام المعيشة والعمران(كما يقول محمد عبده وقد افتتحت به سورة المائدة ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ (المائدة/١) . وإلا فكيف تتحقق الثقة بين الناس ؟ وهو أساس المعاملات المادية والاجتماعية . وقد كان رسول الله ﷺ قدوة حسنة لنا في هذا الموضوع . فما أبرم معاهدة مع المشركين أو اليهود إلا وكانوا هم الذين ينقضون العهد .

ويعتبر الإخلاف بالوعد في الإسلام خصلة من خصال النفاق .. ولهذا علَّم القرآن المسلمين - كي لا يخدعهم الخبثاء - أن يتبرؤوا من المعاهدة إن أحسوا بأن المشركين سيغدرون ﴿وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾ (الأنفال/٥٨) . وعند ذلك لا حرج على المسلمين إن خططوا لتأديبهم .

١٠" - وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ

أي الفقر والمرض، أو المصيبة في النفس أو الولد أو الأهل، وفي الحرب والجهاد.

وإلزام النفس بالاحتمال والثبات عند المكاره هو الفوز في الاختبار ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ (الأنفال/٣٧) . ولهذا يعقب على ذلك :

أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ

فقد برهنوا على صدقهم في تحري البر بأعمالهم . .

وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

وهذه هي صفات المتقين التي أُجملت عند بداية السورة وهذا هو الميزان الذي توزن به الشخصية المؤمنة . . فهل وزنا أنفسنا به ؟!

ولنا أن نلاحظ أن أنواع البر جاءت في صدر الآية بصيغة المفرد . . بينما يقول في النهاية عند الصفات الأخلاقية : ﴿**والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين** . .﴾ . بصيغة الجمع . . فهل هي لفتة خاصة إلى أهمية الجانب الأخلاقي . . ؟ أم أنها إشارة إلى أهمية الترابط الاجتماعي وأهمية إيجاد الجماعة التي تلتزم بهذه الصفات . . ؟ قد يكون هذا كله مقصوداً والله أعلم . هذا عدا عن تمييز الصابرين بصيغة معينة ـ إذ جاءت منصوبة خلافاً لما قبلها ـ بحيث تعتبر منصوبة على الاختصاص (وأخص الصابرين) . فللصبر مكانة خاصة في خلق المسلم وآثار هامة في حياته وعلى مجتمعه . انظر مثلاً إلى من يملك نفسه عند الغضب . . كم يستمتع ويمتع غيره ببركات الصبر . . ؟



الفصل الثامن

مِمَّا كَتَبَ اللهُ
(١٧٨←١٨٨)

- القصاص .
- الوصية .
- الصيام .
- ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ
عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ
بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ
إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ
بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ
يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ
إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ
وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ
بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾
فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ
عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ
عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ
لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم
مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ
يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ
لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ

رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ

لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

موضوعات السورة من الآن فصاعداً معظمها أحكام .. وتذكر معها أحياناً الحكمة منها .. وفي هذا القسم أحكام يبدؤها الله تعالى بقوله : ﴿كُتب عليكم﴾ . ويعقب عليها بقوله : ﴿لعلكم تتقون﴾ .... ﴿حقاً على المتقين﴾ . وهذا يدل على :

١ ـ أن هذه الأوامر مفروضة على المؤمنين .
٢ ـ والمتقون هم الذين يطبقونها .
٣ ـ ومن يطبقها يحصل على التقوى .

■ ١ ■

القصاص

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

تبيِّن الآية الكريمة : حكم القصاص في القتل عمداً . بينما تبيِّن في سورة النساء كفارة قتل الخطأ . ويروى في نزول الآية :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾

أن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في العدة والأموال فحلفوا ألا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم والمرأة منا الرجل منهم . فنزلت الآية [1] :

﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾

وابن كثير يقول عن الآية بأنها منسوخة بآية القصاص في المائدة ﴿النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف﴾ (المائدة/٤٥) .

لكن صاحب الظلال يقول : الذي يظهر لنا أن موضع هذه الآية غير موضع آية النفس بالنفس . وأن لكل منهما مجالاً غير مجال الأخرى . . فآية المائدة مجالها مجال الاعتداء الفردي من فرد على فرد أو من أفراد على أفراد . . أما هذه الآية فمجالها مجال الاعتداء الجماعي حيث تعتدي قبيلة على قبيلة أو جماعة على جماعة (أو دولة على دولة) فإذا أقيم ميزان القصاص كان الحر من هذه بالحر من تلك والعبد بالعبد و . . . وإلا فكيف تسوَّى الأمور لإنهاء القتل بينهما ؟!

أما الحكم في الجرائم الفردية فإن القاتل يقتل سواء أكان المقتول حراً أو عبداً أو أنثى ، إلا إذا قبل أهل القتيل بالدية وأسقطوا حقهم في القصاص (وهذا ما أميل إليه من بين الآراء الفقهية المتعددة في الموضوع والله أعلم) .

وإن تنفيذ مثل هذه الأحكام يردع عن الجريمة ويكون كفارة لمن ارتكبها : «من وقع في شيء من هذه المحرمات وأُخِذَ به فهو كفارة له ومن لم يؤخذ به فأمره إلى الله» .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير .

ولنا أن نلاحظ في هذا الموضوع :

١" ـ أن الحاكم المسلم هو الذي يطبق الحدود في بلده . . ويحكم في القصاص .

٢" ـ أن الحد حق لله فلا يجوز للحاكم أن يعفو عن الزاني أو السارق بل يجب أن يقيم الحد . أما القصاص فهو حق أهل القتيل . . أي إن شاء ولي القتيل عفا عن القاتل وأخذ الدية وإن شاء اقتص . .

فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ

في الآية تحريك للمشاعر النبيلة وتذكير برابطة الأخوة وترغيب في العفو .

فإذا حدث العفو فليلتزم كل طرف بواجبه . فولي المقتول يجب أن يلتزم المعروف في مطالبته بالدية :

فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ

والقاتل وأهله عليهم الإحسان في الأداء :

وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ

والإحسان أن تعطيه حقه وزيادة (إما في المال أو الكلام الطيب أو المعاملة الودود المعطاء) وفي ذلك تضميد لجراح القلب ورتق للعلاقات الأخوية التي مزقها العدوان .

ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ

وقد كان القصاص وحده هو الحكم المفروض على اليهود . . بينما نزع النصارى إلى العفو في كل شيء . . فجاء الإسلام دين الوسط الذي يمكن أن يناسب جميع المستويات وجميع الحالات مع الترغيب بالعفو . والغضب للدم فطرة وطبيعة . . والإسلام يلبيها بتقرير شريعة القصاص . . فالعدل الجازم هو الذي يكسر الحقد من النفوس . . ولكن الإسلام لا يقف عند حدود العدل وحده . . فإن العدل يغدو قسوة

في بعض الحالات . . ويعجز عن إعطاء الحل المناسب . فقد تكون الدية في بعض الحالات أفضل لأهل القتيل من القصاص ـ خاصة إذا كان القتيل هو المعيل ـ وقد يكون القاتل هو المعيل الوحيد لأسرته . ففتح المجال أمام العفو والإحسان وقبول الدية فيه تخفيف من الله ورحمته . خاصة أن الإسلام لا يفرض العفو فرضاً . . بل يحبب فيه ويدعو النفس المؤمنة إلى التسامي إليه ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ (آل عمران/١٣٤) . ألا تريدون أن تكونوا من هؤلاء الذين يحبهم الله . . ؟! فهو بذلك لا يحمل النفوس ما لا تطيق . . ولا يتركها تقف في مرحلة معينة عند منتصف الطريق . . بل يأخذ بيدها الى الأعلى . . إن العدل هو مرحلة من الارتقاء . . لكن نمو الحياة الإنسانية لا يتم إلا بالإحسان . . ﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟!﴾ (النور/٢٢) .

فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾

من اعتدى بعد أن تنازل وقبل الدية . . أو بعد أن تولى الحاكم القصاص من القاتل اعتدى على أفراد أسرة القاتل . . بدافع الثأر . . فإن الله يتوعده بعذاب أليم . . ويتعين على الحاكم ـ فوق العذاب الذي يهدد به الله ـ أن يقتله قصاصاً ولا تقبل منه الدية لأنه نكث بالعهد . . وأثار الشحناء من جديد (ويمكن الرجوع إلى أقوال العلماء في ذلك) .

وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ

وينبه هنا إلى الحكمة في هذا الحكم . . فالأمر ليس للانتقام ولا لإرواء الحقد . . لكنه لصيانة الحياة . . بل هو في ذاته حياة . . فكم من إنسان يمنعه من القتل خوفه من القصاص . وإن الاعتداء على إنسان واحد وانتهاك حرمته . . اعتداء على البشرية كلها . . ﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ (المائدة/٣٢) . وإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . والقانون بصرامته مع الجريمة يضمن الأمن للجميع . . وعلى الناس أن

يدركوا مدى أهمية القانون الذي يعطي للإنسان حرمة . . فلا يعرضوه للاستخفاف . . فإن انتهاك القانون في قضية صغيرة يعرض المجتمع كله للخطر . . فإذا اعتُدِيَ على شخص واحد دون مسوّغ وسكت الناس عن ذلك . . فإنك لن تأمن على نفسك من العدوان في مثل هذا المجتمع . . . وهكذا ترى الذين استباحوا لأنفسهم اغتيال بعض الأفراد ـ عقاباً لهم على ظلمهم ـ بدلاً من رفع أمرهم إلى القضاء ومواجهة الظالم بكلمة الحق . . قد ساهموا في فقدان الأمن لهذا المجتمع . . وحطموا حرمة القانون وحرمة الإنسان . فمن ذا الذي يأمن على نفسه أو حتى على بيته من انتهاك . . ؟! طالما عطلنا التحاكم إلى القانون . . ؟! إن السلطة القضائية هي التي تعيد الحق إلى نصابه ولا يسمح للمظلوم في المجتمع المسلم أن يأخذ حقه بيديه . . وإنما يَرفعُ مظلمته إلى الحاكم . . فإذا كان المجتمع لا يحكم بالإسلام . . بل ولا يحكم بالعدل فليس معنى ذلك أن يأخذ كل فرد صلاحية الحاكم والقاضي ، بل معناه أن المجتمع كله قد انحرف ولا بد من علاجه بالدعوة والتعليم والصبر على الأذى .

إن الذين يدركون الحكمة من القصاص هم أولوا الألباب والعقول . . ومن الناس من يدعو في هذا العصر إلى إبطال عقوبة الإعدام لأي جرم كان. . وأنا لا أدعي الإحاطة بالموضوع . . ولا أعارض ضرورة النظر في دوافع المجرم ومحاولة إصلاحه بكل الوسائل النفسية والتربوية . ولكن ألفت النظر إلى أن النظام الإسلامي لا يبدأ من العقوبات . . وإن كل من يبدأ في تطبيق الإسلام من جانب الحدود والعقوبات بينما سائر شؤون الحياة في المجتمع ملطخة بالجاهلية والنظم المستوردة . . لن يصل إلى الصورة الإسلامية المنشودة . . لقد كانت العقوبة هي آخر علاج في التربية الإسلامية .

ومع ذلك ألفت النظر إلى تلك الكلمات التي سجلها صاحب المنار في هذاالمجال: [إن من الناس . . من يحبب إليه الجرائم أو يسهلها عليه كون عقوبتها السجن الذي يراه خيراً من بيته. . وإن في مصر من الأشقياء من يسمي السجن نزلاً أو فندقاً. واشتهر عن بعض المجرمين في مصر أنهم يسمون بعض السجون العصرية (لوكاندة كولس) (وهو مدير السجون التي أسست في زمنه) . . يقول بعضهم : أسرق كذا

أو أضرب فلاناً وأشتو في لوكاندة كولس فإن الشتاء فيها أرحم وأنعم من الشتاء في بيتنا أو في الشوارع . .] .

ألا يحق لنا أن نتساءل : لماذا فكروا في إصلاح السجون ولم يفكروا في أن يبدؤا بإصلاح البيوت والمجتمعات ؟!

هل الرحمة بالإنسان تتحقق بغض النظر عن الأوضاع المجحفة والنظم الجائرة والعقائد المنحرفة والقيم الضالة . . حتى يقول أحدهم ليس العجب ممن سقط كيف سقط . . ولكن العجب كل العجب ممن نجا كيف نجا . . ؟!

وبعد ذلك لا نفكر إلا بإصلاح السجون . . !! وتخفيف العقوبات . . ؟!

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

إن تطبيق الحكم يورث التقوى على مستوى فردي واجتماعي . . وذلك في مجتمع إسلامي يلتزم بالإسلام أصلاً ويوفر الضمانات المادية والمعنوية اللازمة لكل أفراده .

■ ٢ ■

الوصية

كُتِبَ عَلَيْكُمْ
إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ
بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾
فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ
عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

الآيات الثلاث تتضمن :

١ ـ كتابة الوصية .

٢ ـ النهي عن تبديلها .

٣ ـ متى يجوز تصحيحها .

وقوله في الأول :

كُتِبَ عَلَيْكُمْ

وفي الآخر ﴿حقاً على المتقين﴾ :

يفيد تأكيد المطالبة بتحقيق الوصية . يقول ﷺ «ما حق امرىءٍ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»[1] .

وتتأكد هذه الفريضة إن تحققت هذه الشروط :

١" ـ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ

حالة الاحتضار (حضور أسبابه كالمرض . .) .

٢" ـ إِن تَرَكَ خَيْرًا

وجود الخير وفسروه على أنه المال الكثير . .

٣" ـ وجود والدين وأقربين فقراء .

فإذا أكد الشرع الوصية في المال فالوصية في الدين أولى . ورسول الله ﷺ لم يوصِ بشيء من عرض الدنيا . . وإنما أوصى قبيل وفاته بالنساء وما ملكت أيمانكم . . وبالصلاة وأن لا يتخذ قبره مسجداً . . وأعظم وصاياه جاءت في خطبة حجة الوداع . .

---

(١) رواه الشيخان .

«كلكم لآدم وآدم من تراب . . لا فضل لأبيض على أسود . . . إلا بالتقوى .
ـ ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا . .
ـ لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض .
ـ تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا . . كتاب الله وسنتي» .
ومما يؤكد الوصية بالدين ما ورد في السورة قبل قليل عن وصية إبراهيم ويعقوب.

ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

كيف نجمع بين الآية وحديث «لا وصية لوارث» ؟ قالوا :ـ يؤخذ بالحديث إذا كان الورثة متساوين (في القدرة والغنى) .
ـ ويؤخذ بالآية إذا كان بينهم عاجزون أو فقراء (كالوالدة المطلقة ، والعاجز عن الكسب من الإخوة ، أو والدين غير مسلمين) .

وقوله ﴿**بالمعروف**﴾ :
يحدد مقدار ما يجوز أن يوصي به بحيث لا يغبن الورثة ويحرمهم من حقهم . .
وقد حدد حديث سعد المروي في الصحيحين المقدار الجائز للوصية : «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس» وقد حدد له الحد الأعلى «الثلث والثلث كثير» لذا قيل : الأفضل هو الربع .

فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾

وفي ذلك تهديد لمن يتولى الإشراف على الوصية ـ ولكل من تصل يده إليها قبل إعلانها ـ فإن الله يسمع ويعلم ولا تخفى عليه خافية .

لكن قد يخطىء الموصي ـ لجهله ـ فيوصي بإقامة بدعة عند موته مثلاً وقد يوصي بمال للدجالين وأهل البدع الذين يقيمون حلقات السماع ظناً منه أن ذلك يقربه إلى الله وينفعه . .

وقد ينحرف الموصي وراء عواطفه فيحرم أحد الورثة أو يوصي لأحدهم بزيادة في المال اتباعاً للهوى . . وقد يطلّق زوجته في مرض موته ليحرمها من الإرث (كما فعل غيلان في زمن عمر فأمره عمر بمراجعة زوجاته وإلا فإنه سيورثهن منه إن مات) .

ولهذا يقول تعالى :

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا

والجنف هو الخطأ ـ وأكثره عن جهل ـ أما الإثم فهو تعمد الظلم .

فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ

وهنا يجب أن يتدخل من لديه علم فينصح للموصي قبل موته بأن يلتزم الخير في وصيته . . بل ويجوز إصلاح الوصية بعد وفاة الموصي في هذه الحالة . . فيحول المال الموصى به لأهل البدع إلى الفقراء وطلبة العلم والمستحقين . . ويلغي البدع من الوصية . . ويعيد العدل والحق إلى نصابه . .

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

فإن الله يغفر لمن يتدخل ويغير في الوصية في مثل هذه الأحوال إن كان مخلصاً متحرياً للحق والخير . . وعسى أن يغفر الله للميت الموصي أيضاً إن وجد من أبنائه أو أوليائه من يعيد الحق إلى نصابه .

■ ٣ ■

الصيام

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ
لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ
أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ
وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ
إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ
تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

تتضمن الآيات النقاط التالية :

١ ـ كتابة الصيام وعدد أيامه .

٢ ـ مسوغات تركه : المرض ـ السفر ـ الذين يطيقونه .

٣ ـ شهر رمضان شهر دراسة القرآن .

٤ ـ إرادة الله بنا اليسر .

٥ ـ الدعاء .

٦ ـ تصحيح أخطاء في فهم موضوع الصوم :

ـ في الرفث ـ في تحديد بدء الصوم وختامه ـ في الاعتكاف .

١" ـ كتابة الصيام وعدد أيامه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾

والصيام في اللغة : الإمساك والكف عن الشيء . وهو في الشريعة الإمساك عن الطعام والشراب والجماع فيما بين الفجر والمغرب [وسيأتي تحديد ذلك في الآية الأخيرة] . والآية تقرر أن الصيام قد فرض على أهل الملل السابقة . فهو ركن من أركان كل دين لأنه من أقوى العبادات ومن أعظم وسائل التهذيب . يعد نفس الصائم لتقوى الله تعالى بترك شهواته الطبيعية المباحة امتثالاً لأمره . فتقوى إرادته ويصبح أقدر على ترك المحرمات والصبر عنها . «الصيام نصف الصبر» [١] . والصيام يساعد على بلوغ التقوى كما يعقب على الآية :

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾

ويظهر ذلك من وجوه كثيرة أعظمها شأناً : أن الصيام موكول إلى الصائم لا رقيب عليه فيه إلا الله تعالى . . فهو يدرب على الشعور برقابة الله والحياء منه سبحانه . . لذا جاء في الحديث القدسي : «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به» [٢] .

ولا بد من الإشارة إلى بعض المسائل هنا :

١ ـ في النية : لا بد من تبييت الصيام من الليل : «من لم يجمع الصيام قبل الفجر

---

(١) رواه ابن ماجه وصححه .

(٢) متفق عليه .

فلا صيام له»[1] . إلا في صيام التطوع فإنه يمكن أن ينوي صباحاً .

٢ - «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر .»[2] .

٣ - «لا تزال أمتي على الفطرة ما صلوا المغرب قبل طلوع النجوم»[3] .

٤ - السحور سنة كما دلت الأحاديث على ذلك .

٥ - صلاة العشاء ينتهي وقتها في منتصف الليل (راجع مواقيت الصلاة في صحيح البخاري) . فلا يجوز تأخيرها إلى السحور .

٦ - «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[4] .

ومن الشائع بين الناس أن يعتبروا الصائم معذوراً إذا غضب وقلَّ صبره على معاملة الناس . وهذا خطأ واضح من شأنه أن يضيع شيئاً من جوهر الصوم . وقد حكي عن عائشة - وبه قال الأوزاعي -: إن الغيبة تفطر الصائم وتوجب قضاء ذلك اليوم .

وابن حزم قال : يبطله كل معصية من متعمد لها .

وقال الغزالي فيمن يعصي الله وهو صائم : إنه كمن يبني قصراً ويهدم مِصراً . و«كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش»[5] .

٧ - مفطرات الصوم المتفق عليها : الأكل والشرب والجماع - إلا إذا فعل ذلك ناسياً - والقيء عمداً لحديث «من ذرعه القيء فليس عليه قضاء ومن استقاء عمداً فليقض»[6] . (وذرعه : أي غلبه) .

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه أحمد والطبراني .

(٤) رواه الجماعة إلا مسلماً .

(٥) رواه النسائي وابن ماجه .

(٦) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه ...

٨ ـ قوله ﷺ : «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» اختلف الفقهاء هل يصوم كل بلد على رؤيته ؟!

الأقرب إلى روح الإسلام أن يصوم الجميع معاً ويفطروا معاً لأن في ذلك وحدة للمسلمين وتركاً للاختلاف .. خاصة وأن الوسائل الجديدة تساعد على رصد الهلال والاتصالات بين الدول الإسلامية أصبحت ميسرة .. بينما في الماضي كل بلد مضطر للاعتماد على نفسه . ﴿ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ...﴾ (الروم/٣٢) .

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ

ذكر ابن كثير أن هذا كان في ابتداء الإسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام . ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان ..

٢" ـ مسوغات الإفطار :

فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ

أي يقضي بعدد الأيام التي أفطرها . وهي رخصة فإن وجد المريض أو المسافر في نفسه القدرة على الصوم صام . إلا أن يسبب له ذلك ضرراً أو زيادة في المرض . والموضوع متروك إلى ضمير المسلم يقدر الأمر بحسب الظرف الذي هو فيه وقد تأتي أحوال تجعل المفطر من المسافرين أكثر أجراً من الصائم :

عن أنس قال كنا مع النبي ﷺ في سفر فمنا الصائم ومنا المفطر فنزلنا منزلاً في يوم حار أكثرنا ظلاً صاحب الكساء ومنا من يتقي الشمس بيده فسقط الصوام وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال النبي ﷺ «ذهب المفطرون اليوم بالأجر .»[1] .

---

(١) أخرجه الشيخان .

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾

أي يقدرون على صيامه ولكن بجهد شـديد . كالشيوخ الضعفاء والزمنى الذين لا يرجى برء أمراضهم والفعلة الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة (وخاصة في بلد لا تحكم بالإسلام) ، والحامل والمرضع . وتختلف الحال من إمرأة إلى أخرى فهناك من لا يؤثر عليها الصيام . .

وقيل إن الآية نزلت في أول افتراض الصيام فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً فأجزأ ذلك عنه . حتى جاءت الآية الأخرى : ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن . .**﴾ . وفيها افترض الصوم على الجميع ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾ .

إلا أصحاب الأعذار التي لا تمكن المفطر من القضاء فجاز لهم أن يطعموا مسكيناً .

﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

يفتدي بها نفسه من عذاب الله . وعن كل يوم أفطره يطعم مسكيناً .

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾

بأن صام زيادة على هذا الشهر المفروض . أو أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم .

﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

وهو تنبيه من الله إلى فوائد الصيام حتى لا يفطر المسلم إلا بعذر قاهر . . فمن فوائد الصيام :

١ ـ أنك تذكر مقدار النعم التي أغدقها الله علينا . وتدرك مدى افتقارك . .
٢ ـ تَذْكُر من لا قوت له فترحمه وتمد له يد العون ولهذا يؤثر الصوم في الكرم .
٣ ـ يُشعر بالمساواة بين الغني والفقير . . كلهم في العبادة سواء .
٤ ـ تعليم الأمة النظام في المعيشة .
٥ ـ فترة للتجديد تخرج الإنسان من (روتين) الحياة ببرنامج يومي جديد .
٦ ـ يفني المواد الفائضة والمترسبة في البدن ويطهر الأمعاء من السموم ويذيب الشحم .
٧ ـ يقوي الإرادة ويدرب الإنسان على الصبر ويخفف من وطأة الشهوة .

٣" ـ شهر القرآن :

شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ

فكان ابتداء نزوله في ليلة القدر منه .

هُدًى لِّلنَّاسِ

وصف للقرآن .

وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ

وصف لآياته فهي حجج ودلائل واضحة فيها صلاح الناس وتفرق بين الحق والباطل .

فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ

وهنا يأتي الأمر الواضح بصيام شهر رمضان وقد قيل إن اسمه مشتق من الرمضاء

وهي شدة الحر فكأنه سمي بذلك لأنه يحرق الذنوب (كما تنقى المعادن الثمينة بالنار فيذهب عنها الخبث والأخلاط) .

وفي رمضان خمسة مكاسب لهذه الأمة : الصيام ، القيام ، دراسة القرآن ، الجود والكرم فقد «كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان» ، والاعتكاف . (يراجع كذلك حديث «أعطيت أمتي في شهر رمضان خمساً لم يعطهن نبي قبلي») .

والآية تنبه إلى صلة وثيقة بين رمضان والقرآن . . ودراسة القرآن تحتاج إلى ضبط النفس . . وهذا ما يدرب عليه الصيام . . فينبغي الاستعانة بالصوم على دراسة القرآن . . فالنفس الإنسانية تكون أقرب إلى تدبر القرآن ومعانيه في رمضان .

٤"- يريد الله بكم اليسر :

وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ

ويتبين ذلك حين ننظر إلى نتائج تطبيق الأوامر الإلهية بينما الذين لا يتدبرون النتائج يشعرون بالعسر .

هذه الأوامر من الله ليست للتعجيز والإعنات . ولكنها ميسرة وفيها رخص لأصحاب الأعذار . كذلك إن عواقب هذه الأوامر تحمل لكم اليسر في حياتكم ومن ذلك مثلاً : أن الإنسان الذي تربى في مدرسة رمضان تعلم الصبر وتعود على المشقة . . وهذا النوع من الناس أقدر على خوض غمار الحياة بيسر . .

وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ

وهي إشارة إلى صلاة العيد بعد انتهاء أيام الصيام . . حيث يكبر المسلمُ الله ويحتفل بأدائه للعبادة وتقربه من الله . . وإن العيد عند المسلم احتفال بالقدرة على أداء الطاعة بعد الصيام وبعد الحج . . فهو أشد ما يفرح المسلم ويدعوه إلى الاحتفال .

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

على الهداية إلى هذا الدين الميسر . . والشكر لا يكون باللسان وحده . . ولكن لسان الحال أبلغ من المقال .

٥" ـ الدعاء :

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ

لعلهم سألوا : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فجاءت الآية . والإجابة لا تأتي بصيغة : فقل لهم إني قريب . . وإنما يتولى الإجابة سبحانه بشكل مباشر . . وكأنه يقرر في الأذهان : أن لا واسطة بيني وبينكم . . وبابي مفتوح لكم في كل وقت ولا حاجب ولا بواب . . فالله قريب من عباده جميعاً . . قريب من كل إنسان يسمع شكواه وخلجات صدره ويلبي دعاءه . وإن تصور ذلك يحير الألباب . . لكن عقولنا قاصرة عن الإحاطة بصفات الله تعالى . . ولا بد للعقل أن يعترف بعجزه هنا ويسجد ويسلِّم لخالقه . .

ومجيء آية الدعاء أثناء آيات الصيام يشعرنا بأن دعاء الصائم لا يرد (وقد ورد أن للصائم دعوة لا ترد عند فطره) . وأن الصيام يحقق القرب من الله أكثر .

أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ

والدعاء تحديد للهدف. والمؤمن حين يدعو فإنه يسأل الله أن يوفقه لمعرفة الطريقة للوصول إلى الهدف . أما الذي يدعو ولا يتخذ الأسباب الموصلة لهذا الهدف . . فهو كالمريض لا يراعي الحمية ولا يأخذ الدواء ثم يقول : اللهم اشفني وعافني . . فكأنه يقول : اللهم عطل سنتك التي قلت إنها لا تتبدل ولا تتحول لأجلي . . !! و «إن الله تعالى ليستحيي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً فيردهما خائبتين» [1] . والإجابة تكون بإحدى ثلاث : «إما أن يعجل له دعوته . وإما أن يدخرها في الأخرى له . وإما أن يكف عنه من السوء مثلها .» [2] .

فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى

فيها إشارات :

١ ـ الاستجابة لأوامر الله ونواهيه تزيد في الإيمان .

٢ ـ كما أنهم لا يطلبون حاجاتهم من أحد غيري فلا ينبغي أن يستجيبوا في الأوامر والنواهي لأحد غيري .

٣ ـ لا يكفي الاستجابة لأوامر الله وحدها بل لا بد من الإيمان معها .

٤ ـ وعند ذلك يحصلون على الرشاد :

لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

والراشد هو الذي كشف الطريق الصحيح . هو الذي عرف هدفه وعرف طريقه . . فاستحق أن يصل إلى ما يريد . . والآية كأنها تضع علاقة :

استجابة + إيمان = رشاد

وهذا يذكرنا بالقاعدة التي فصلنا فيها سابقاً :

صواب + إخلاص = نجاح في الدنيا وقبول في الآخرة

(١) رواه أبو داود والترمذي .

(٢) رواه أحمد .

٦"- تصحيح أخطاء في فهم موضوع الصوم :

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾

والرفث : هو مقدمات الجماع أو الجماع ذاته . وكلاهما مقصود هنا .

وقد ظن المسلمون لما قيل لهم : ﴿**كما كتب على الذين من قبلكم**﴾ . أنه كصيام أهل الكتاب وكانوا إذا ناموا لا يأكلون بعدها . . ويقول البراء : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله فكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله : ﴿**تختانون أنفسكم**﴾ .

. . وذكر أن عمر رجع من عند النبي ﷺ وقد سمر عنده فوقع على امرأته . . وصنع كعب مثل ذلك . . فأخبروا النبي ﷺ فنزلت الآية . . ومن الأخبار الواردة حول الآية نفهم أن الصحابة اختلفوا في اجتهادهم في الموضوع . . ولم يكن الحكم القرآني قد جاء مفصلاً فيه . والرسول ﷺ كان يقرهم على الاجتهاد في الأوامر المجملة التي لم تبين وتوضح . فجاءت الآية بالبيان : ﴿**أحل لكم**﴾ .

ولا يفهم من ذلك أنه كان محرماً ثم أحل . . ولكن تصحيح لما توهموا . .

والقرآن يلقي بظلال شفافة طاهرة حانية على العلاقة الزوجية بقوله :

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾

. . واللباس ساتر وواقٍ . . والصلة بين الزوجين تستر كلاً منهما وتقيه . وينبغي لكل واحد منهما أن يستر عيوب الآخر ولا يفضحه . . وأن يحرص على إحصان شريكه ووقايته من المفاسد والزلل . ولا يحل لأحدهما أن يكشف لأحد عما يدور بينه وبين زوجه .

---

(١) رواه البخاري .

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾

تنقصونها بعض ما أحل الله لها . فتكون الكلمة مأخوذة من (التخون) أي النقص من الشيء . أو تخونون أنفسكم إذ تعتقدون شيئاً ثم لا تلتزمون العمل به (فهي كلمة تفيد المبالغة من الخيانة) . والإشارة هامة : فإن الإنسان بارتكابه المخالفات إنما يخون نفسه . .

فهل نتدبر ذلك . ؟! ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ (يونس/٢٣) . . وكثيراً ما يذكر القرآن ﴿ظلموا أنفسهم﴾ (النساء/٦٤) . . وهو الكتاب الوحيد الذي لفت نظر الإنسان بإلحاح إلى ظلمه لنفسه . . بينما الناس يتحدثون دائماً عن ظلم الآخرين . وصحيح أن الله لم يحرم عليهم هذا الأمر منذ البداية . . لكنهم حين اعتقدوا ذلك وخالفوا اعتقادهم . . قد أذنبوا . . فاحتاجوا إلى التوبة :

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾

وهنا يربط الغريزة بالمثل الأعلى بحيث تصبح عبادة . . يقول ﷺ «وفي بضع أحدكم أجر» قالوا : يأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر ؟ فقال ﷺ «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر .»[1] . وإن الإسلام حين يسمو بهذه الغريزة حتى تصبح عبادة إنما يطهر النفس من الكبت (وهو قمع الغريزة للشعور بقذارتها) دون أن يلجأ إلى الإباحية التي تدمر المجتمع . بل تمكن من أن يغرس في النفوس العفة إن تعسَّر الزواج ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾ (النور/٣٣) .

---

(١) رواه مسلم .

ومنهم من فسر ﴿**وابتغوا ما كتب الله لكم**﴾ : بالتزام ما أحله الله في العلاقة الزوجية . ومنهم من قال بل الآية أعم من ذلك : التزموا الحلال في كل جوانب حياتكم . .

وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ

يحدد الآن وقت الإمساك من الفجر عندما ينتشر النور في الأفق وعلى قمم الجبال . وقد أمرهم رسول الله ﷺ أن يمسكوا عن الطعام عند الأذان الثاني الذي يؤذن به ابن أم مكتوم . ونهاية الصيام :

ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ

ثم يشير إلى الاعتكاف :

وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ

والاعتكاف هو الخلوة إلى الله في المساجد وعدم دخول البيوت إلا لضرورة قضاء الحاجة أو الطعام والشراب . وهو مستحب في رمضان . وكان ﷺ يعتكف العشر الأخير منه . وهي فترة تجرد لله ولهذا يمنع المباشرة لمن نوى الاعتكاف حتى عند الإفطار .

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ

. . والقرآن غالباً ما يستعمل : ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها**﴾ . ولم يستعمل ﴿**فلا تقربوها**﴾ . إلا في هذه الآية وفي الزنا وفي مال اليتيم . . والزنا وأكل مال اليتيم من الكبائر التي قلما يسلم مَنْ قَرُبَها من الوقوع فيها . ولهذا جاء النهي عن مجرد الاقتراب لتكون بينه وبينها منطقة أمان : «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه» . وقضايا

الغريزة الجنسية تحتاج إلى احتراس وابتعاد حتى لا يقع المسلم تحت جذب التيار (ولهذا أمر بغض البصر وبالحجاب والقول المعروف) .

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ

فهي رحمة الله بالناس جميعاً يبين لهم الخير ليهتدوا . وليصلوا إلى مرتبة التقوى .

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

.. لعلهم يتجنبون الشقاء والمهالك وأشواك الطريق .. لعلهم يتقون ضياع العمر والجهد فيما لا يجدي .. لعلهم يتقون عذاب النار في الآخرة .

وهكذا يختم موضوع الصيام كما بدأ : بالتقوى ..

■ ٤ ■

ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل

وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ

في الآية نهي عام عن كل أكل للمال بالباطل (ويشمل السرقة والربا والغش ..) .

ولكن تتمة الآية تخصص الرشوة .. ويلفت نظرنا قوله تعالى : ﴿**أموالكم**﴾ .

إنه إشعار بوحدة الأمة وتكافلها وأن احترام مال غيرك والاهتمام بصيانته فيه صيانة لمالك .. لأنك حين تستحل مال غيرك تجرىء الآخرين على استحلال مالك والاعتداء عليك . ﴿**بالباطل**﴾ :

أي بدون مقابل . في المنار (إن كل أجر يؤخذ على عبادة فهو أكل لأموال الناس

بالباطل) . وإن قراءة القرآن عبادة وشرط قبولها عند الله أن تكون خالصة لوجه الله فكيف تباع . .؟! إلا إذا كان القارىء يتفرغ لتعليم القرآن فيمكن أن يعطى أجر تعليمه .

وتتمة الآية تخصص الرشوة :

وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ

تدلوا : هو الإعطاء خفية بوسائل كثيرة . منها الهدية التي يكون وراءها مطمع في مكانة عند المهدى إليه .

والرشوة تعطى لمن بيده أمر تصريف أموال الناس أو أمورهم . وهو أكل بالباطل لأنه لا يعطيك من عنده شيئاً مقابل هذه الرشوة وإنما يظلم الناس في مالهم أو حقوقهم ليعطيك ويميزك بينما لا تطيب نفوس الناس بهذا الحيف الذي وقع عليهم بسبب إيثار مصلحة الراشي . وقد حذر رسول الله ﷺ كل من له وجاهة أو تولى أمراً من قبول الهدايا «ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول : هذا لكم . وهذا أهدي لي ؟! أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟! والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته . .»[1] .

وقد مر معنا عندما تحدثنا عن العدل والإحسان : ﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾ . أن المؤتمن على أي مال أو أي مصلحة من مصالح الناس عليه أن يعدل بين الناس . . لأن الإحسان لا يكون على حساب الآخرين وإلا أصبح ظلماً وإثماً .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

وللرشوة نتائج كثيرة وخيمة منها :

١ ـ وقوع الظلم على الآخرين .

٢ ـ تعويد الناس على الغش والخداع .

٣ ـ التعود على أكل المال الحرام دون جهد مقابل .

٤ ـ يفتن المستقيم في دينه حين يرى رواج الرشوة وتحقق الثراء عن طريقها .

٥ ـ ركود العمل والسعي الشريف في المجتمع .

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

والذين لا يعلمون أن الرشوة حرام مؤاخذون أيضاً . فقد كان عليهم أن يتعلموا ويحركوا عقولهم لإدراك عواقب الرشوة .



الفصل التاسع

أحكام في القتال

(١٨٩ ← ١٩٥)

- سؤال عن الأهِلَّة .
- الأمر بالقتال دون عدوان .
- الفتنة أشد من القتل .
- القتال في الشهر الحرام .

۞ يَسْـَٔلُونَكَ

عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

■ ١ ■

سؤال عن الأهلة

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

يبدأ هذا القسم بسؤال عن الأهلة :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ

ذكر أنهم سألوا : يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم . . ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان . . لا يكون على حال واحد ؟! سؤالهم كان عن السبب . ولكن الجواب جاء عن الهدف والحكمة . . وذلك لأن :

١ ـ القرآن ليس كتاباً في الفلك أو العلوم . لكنه شجع على البحث وكشف سنن الكون والحياة ؛ لأن الإنسان يملك الأداة التي تمكنه من ذلك وهي العقل . ولو أن القرآن فصل في العلوم لما كان هناك أي داع لوجود العقل .

٢ ـ ما كانت خلفيتهم العلمية في ذلك العصر تستوعب الإجابة العلمية الفلكية . ومن الأفضل أن يترك هذا لاجتهادهم .

٣ ـ كان الذي يجديهم ـ في مثل ذاك الظرف ـ أن يعرفوا الحكمة من دورة الهلال وينتبهوا إلى أهمية التوقيت والوقت .

قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ

وبحسب الهلال يحددون الأيام والأشهر ويعرفون أوقات العبادات (كالصيام والحج) .

أهمية الوقت : إن الله ربط كثيراً من العبادات بالوقت . حتى الزكاة عليك أن تترقب الوقت الذي يحول فيه الحول (السنة) على المال لتدفعها . . وفي الصلاة خاصة تعليم للمسلم كيف يقسم وقته ويستفيد من جزئيات الوقت .

وقد حلل أحد الباحثين في الحضارة (مالك بن نبي) الحضارة إلى عناصرها الأساسية فوجد أنها تتركب من : الإنسان + التراب + الوقت . غير أن التركيب لا يحدث (بين هذه الأمور الثلاثة) إلا بتدخل عنصر مُرَكِّب وهو الدين أو المثل الأعلى . فإذا ضعف سلطان المثل الأعلى بدأت الحضارة بالانهيار . .

والإنسان المتحضر هو الذي يشعر بأهمية الوقت . . فيستغل الدقائق ويخترع الأجهزة التي توفر له مزيداً من الوقت ليبني أكثر . بينما المسلمون الآن يتصرفون في الوقت بلا مبالاة وكأنهم ملوك الزمان . . وغاب عنهم أن أول ما يسأل عنه الإنسان يوم القيامة : عمره فيم أفناه . . ؟

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثواني

وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا

والموضوع مرتبط بالحج فقد كان الأنصار في الجاهلية إذا حجوا فجاؤوا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت . . فدخل رجل منهم من قبل بابه فكأنه عُيِّر بذلك فنزلت

الآية [1] .

ومرة ثانية يحدد البر :

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾

من شعر برقابة الله وفعل ما أمر به وترك ما نهي عنه . وليس البر هو الالتزام بعادة جاهلية لا معنى لها . . بل إن فيها تعسيراً وضرراً (من حيث صعوبة الدخول من ظهور البيوت ومفاجأة أهل الدار دون استئذان) . وقد ورد حديث «البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس» وينبغي أن نتذكر : أن النفس تتعرض للفساد . فالنفس التي نشأت في طاعة الله هي التي لا ترتاح للإثم . وفي قوله : ﴿ولكن البر من اتقى﴾ :

تذكير بصفات المتقين التي وردت قبل قليل عند آية البر . وفي الآية إشارات هامة :

١ ـ البر ليس بالظواهر والشكليات ولكن بالتقوى .

٢ ـ التقوى : عمل الواجبات وترك المحرمات . ولا يقوم مجتمع بدونهما (تذكير بالشجرة المحرمة) .

٣ ـ ضرورة نبذ كل ما لا فائدة فيه من التقاليد التي ليس لها أصل شرعي لأنها تصبح كالأغلال التي تكبل الإنسان وتمنعه من الحركة بحرية .

٤ ـ ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾

إن محاولة حل المشكلة من غير بابها تكون كمن يحاول دخول البيت من ظهره (كان الجاهليون يتسورون الحائط من الخلف) . ويمكن أن نذكر كمثال : إن بعضهم يتصور أن حال مشكلة الفساد الأخلاقي والتهتك في المجتمع كامن في أن تفرض

---

(١) جاء في الصحيحين .

الحكومة اللباس الإسلامي فرضاً . . ويتصور أن تحرير الأمة من التخلف يكون بمحاربة الاستعمار والتنديد به . ولا ينتبه إلى القابلية للاستعمار الموجودة في النفوس .

إن من يريد أن يؤسس بناء عادياً يسعى إلى مهندس ليصمم له البناء ويحدد المواد اللازمة وكيف توضع . . فلم لا نشعر حين نسعى إلى بناء مجتمع مسلم بالحاجة إلى خبراء درسوا الحضارات وكيف تبنى وكيف تنهار . كي يدلونا على سنة البناء ويشرفوا على عملية البناء ؟

ويمكن التعبير عن الآية ﴿**وأتوا البيوت من أبوابها**﴾ :

بأنها تتضمن تناول الموضوع فنياً بحيث تحصل على أحسن النتائج بأقل زمن وجهد ممكن .

ففي مجال تبليغ القرآن مثلاً : يلزمنا أناس فنيون يستطيعون توضيح الآيات وإبراز المعاني الهامة التي نحتاج إليها في ظروفنا الآن بأقل وقت وجهد ممكن . (تجاوز المعاني المعروفة والموضوعات التي لم تعد لها صلة بظروفنا المعاصرة مثل : مُلْك اليمين ـ تصحيح التحريف وإزاحة المعاني السلبية ـ التركيز على الإضافات التي قدمتها آيات الآفاق والأنفس . .) .

وينبغي أن نعترف أننا لم نصل إلى المستوى اللازم من الفنية في التبليغ . . والوصول إلى ذلك ليس سهلاً ولا مستحيلاً . وإنما يحتاج إلى الجهد الواعي ولا يمكن أن نصل إلى شيء بالعفوية واللا مبالاة . . وإنما بالدرس المتواصل . .

٥ ـ في الآية : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

قاعدة هامة :

تناول فني للموضوع + تقوى = فلاح . أي :
صواب + إخلاص = نجاح في الدنيا والآخرة .

وقد سبق لنا أن تناولنا هذه القاعدة القرآنية بالتفصيل .

وتأتي بعد ذلك آيات في القتال . . وكأن فيها تخصيصاً بالقتال في الشهر الحرام وهذا له صلة بموضوع الأهلة ومعرفة المواقيت .

▪ ٢ ▪

الأمر بالقتال دون عدوان

وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

ذكر أن الآية نزلت بعد الحديبية عندما خرج المسلمون لعمرة القضاء في الأشهر الحرم وقد خافوا أن لا تفي لهم قريش وأن تصدهم عن المسجد الحرام بالقوة . وكرهوا القتال في الشهر الحرام . فنزلت الآية تأذن لهم بالقتال في الشهر الحرام دفاعاً عن النفس وحين يهاجمهم المشركون .

وموضوع القتال في الإسلام دقيق ويحتاج إلى فهم وإدراك . وقد سبق لي أن عرضت بعض النقاط حوله عند تفسير الآية : ﴿**ألم تر إلى الذين قيل لهم كُفّوا أيديكم**﴾ في كتابي (من هدي سورة النساء) فأرجو مراجعته . . ومع ذلك أركز هنا على بعض النقاط :

١ ـ إن القتال لم يسمح به قبل أن يتكون المجتمع المسلم في المدينة . بل أمر المسلمون في مكة بالدعوة إلى الله وعدم الطاعة في المعصية وكيف اليد والصبر .

٢ ـ نستنتج من ذلك أن القتال أمر موجه إلى المجتمع المسلم الذي يحكم شريعة الله في علاقته مع الآخرين . وليس موجهاً لأفراد مسلمين يعيشون في مجتمع لا يحكم بالإسلام .

٣ ـ الاستنفار للقتال من صلاحيات الحاكم المسلم وليس من صلاحيات الأفراد فهو مثل إقامة الحدود . . لا ينفذها إلا الحاكم .

٤ ـ شرع القتال في الإسلام لمنع الظلم لا لمحو الكفر . لأنه : ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة/٢٥٦) . يقول ابن تيمية : (تقاتل لأجل الظلم لا لأجل الكفر . لأنه بعد أن تنتصر عليه تتركه ولو بقي كافراً) . فالإسلام يشمل جانبين :

١" ـ العدل في الحكم .

٢" ـ إقامة أركان الإسلام .

أما أركان الإسلام فتفرض على المسلم فقط (وهو مُلزم بالأول أيضاً) . وأما غير المسلم فيفرض عليه إقامة العدل فقط . فإن رفض المسلم أو الكافر العدل . . فرض عليه ولو بالقتال . بينما لا يُكره على تغيير دينه .

٥ ـ قد يخطر لنا اعتراض . . إن الله تعالى يقول : ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ (البقرة/٢٥٤) . فكيف نفهم ذلك ؟

إن الظلم نوعان : ظلم بحقِّ الله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (الأنعام/٩١) . وظلم بحق العباد . أما الآية ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ (البقرة/٢٥٤) . فإنها تشير إلى الظلم بحق الله وهو الكفر ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان/١٣) . وهذا النوع من الظلم لا يقاتل صاحبه حتى لا يكون إكراهاً على الدين . وجزاؤه عند الله . فأما إن ظَلَم العباد فهذا الذي يقاتل . مع ملاحظة أن الكافر أقرب إلى الظلم لأنه لا يحسب حساباً لرقابة الله وعقابه .

٦ ـ الحاكم إن استنفر المسلمين إلى قتال :

١" ـ عدو خارجي يكيد لهم . . فعليهم الطاعة .

٢" ـ مسلمين قد بغوا وظلموا وقتالهم فيه ردع لهم وحل للمشكلة ، فعليهم الطاعة . ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ (الحجرات/٩) .

٣" ـ إلى قتال مسلمين غير ظالمين . فلا تجوز الطاعة هنا . ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ (العلق/١٩) .

نعود إلى الآيات : ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾

فيها ثلاثة شروط :

١" ـ ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي لمنع الظلم .

٢" ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾

الذين يبدأون بالعدوان . . والظالم يُبدأ معه بالنصح والإصلاح فإما أن يرجع عن ظلمه . . أو يُصر ويزداد عدواناً فعندها يقاتل .

٣" ـ ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾

فتبدأوا من لا يريد قتالكم ولم يقع في ظلم العباد . ولا تعتدوا فتقاتلوا من لا يقاتل من النساء والشيوخ والأطفال والرهبان والمرضى والإجهاز على الجرحى ، ومن أعلن استسلامه (الأسير) ، أو طلب الصلح صادقاً . كذلك ورد النهي عن إتلاف المزروعات وتخريب المدن .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾

. . وقلب المؤمن متعلق بربه فيروعه هذا التهديد . .

- ٣ -

الفتنة أشد من القتل

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾

تفيد الآية الكريمة

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾

أن الذي يظلم ويقاتل يُقتل في أي مكان وجد فيه .

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾

فقد أذن الله لكم بمطاردتهم والانتصاف منهم .

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾

فإن القتل مع ما فيه من إزهاق للروح وسفك للدماء أخف وأهون من الجريمة التي

يرتكبها الظالمون . الفتنة : وهي تعذيب الإنسان وإكراهه على الكفر . إنهم بهذا ينتهكون حرية الفكر بأبشع أسلوب بينما الإسلام لا يسمح أن تمس هذه الحرية قيد شعرة . لأنه يثق بالعقل والفكر وأنه إن أعطي الحرية فسيصل إلى الله .

وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ

إن الله قد جعل في المكان والزمان واحة للأمان يستظل بها الناس ويستروحون عذوبة الحياة الوادعة الآمنة . . فالمسجد الحرام واحة للأمان ولا يباح رفع السلاح فيه إلا دفاعاً عن النفس وضد الذين انتهكوا حرمته .



قد ساقهم كفرهم إلى الظلم والعدوان . . فهذا جزاؤهم .

فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟

عن الظلم والقتال فاتركوهم .

فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾

. . وهي إشارة إلى إمكانية توبتهم ودخولهم في الإسلام . . فعسى أن يفعلوا ويغفر لهم .

وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

حتى لا يكون على الأرض من يكره الناس على الكفر . . وهي مهمة عالمية يحمّلها الله للمسلمين . فيطلب منهم أن يتدخلوا في الأحداث العالمية تدخلاً إيجابياً لإنقاذ

الإنسان من القمع والاضطهاد ـ وذلك بعد أن يصبح للمسلمين مجتمع قائم يحكم بالإسلام . . وهو العمل الذي بدأه رسول الله ﷺ حين أرسل رسله إلى الأمم المجاورة . . ثم قامت على هذا الهدف الفتوحات الإسلامية لتحرير العباد من عبادة العباد . . . ـ.

وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ

حتى يصبح الحكم لدين الله . . وإنَّ رفع الضغط والإكراه عن الإنسان وعقله هو الذي يؤدي إلى انتشار دين الله . فكأن الآية جمعت بين إزالة سبب الكفر وهو الفتنة . . وبين النتيجة التي ستأتي وهي أن يصبح الدين لله .

فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

فلا قتال إلا لمن يتحدى العدل . .

ـ ٤ ـ

القتال في الشهر الحرام

ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ
بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

الأشهر الحرم جعلها الله واحة أمان لكل الناس . . فمن أبى أن يستظل بهذه الواحة وأراد أن يحرم المسلمين منها فجزاؤه أن يحرم هو منها . ومن انتهك الحرمات لا تصان حرماته . فالحرمات قصاص .

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾

وقد ذكر عند الآية أنها في المؤمنين عندما خرجوا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية يقصدون العمرة فصدهم المشركون وقاتلوهم رمياً بالسهام والحجارة وكان ذلك في ذي القعدة . . . وكان النبي قد أرسل عثمان رضي الله عنه برسالة إلى قريش . . فَسَرَتْ إشاعة بأن عثمان قد قتل . . عند ذلك أخذ على المسلمين البيعة على القتال ثم لما عرف أن عثمان لم يقتل ترك القتال وآثر الصلح .

فالآيات ما زالت ترفع الحرج عن المسلم في مقابلة العدوان بمثله في الشهر الحرام .

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

تلك قاعدة في القصاص . والقصاص في المشكلات الفردية بيد الفرد صاحب الحق . . إن شاء اقتصّ وإن شاء عفا . . عن طريق الحاكم المسلم الذي يقبض على الجاني ويخير صاحب الحق في القصاص . لكن القصاص في العلاقات الدولية بيد الحاكم . . وله أن يجتهد في الأمر فإن وجد حلاً أفضل من القتال لحل المشكلات الدولية فله أن يأخذ به ، فالقصد هو منع الظلم . وتختلف الطرق لمنع الظلم باختلاف الظروف والأحوال . فقد تكون أحياناً قتالاً وقد تكون أحياناً أخرى مباحثات واتفاقيات . وأذكّر بما قلناه عند شرح : **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾** . فإن الله يعلم أن هذا الإنسان يمكن أن يصل بالتربية والعلم إلى مستوى رفيع يمكن له فيه أن يحل مشكلاته دون اللجوء إلى سفك الدماء .

إن العالم الآن اضطر إلى التفكير بحل مشكلاته سلمياً لرعبه من تطور الأسلحة

المريع الذي يهدد بدمار العالم كله .. فلعل الموضوع يتغلغل أكثر في أعماق الضمير البشري .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

لا تجاوزوا العدل في القصاص . حتى لا تفقدوا معية الله . ومثل هذه الإشارات والتعقيبات كانت تكبح جماح الغضب وحب الانتقام عند المسلمين وهم في موقف يصل فيه الغضب إلى الأوج .

ملاحظة : يجب أن نتذكر هنا ما يقوم به الغزو الفكري من عدوان وانتهاك للحرمات وأن أضرار الحرب الفكرية تفوق أضرار القتال وتدخل إلى كل بيت من بيوت المسلمين . والمسلمون يواجهون هذه الحرب دون أن يُعدُّوا الأسلحة اللازمة من الدراسة النفسية والاجتماعية . هذا إذا انتبهوا إليها وأحسوا بها ..

إن خصمنا قد درس مواضع الخلل فينا فهو يعرف من أين يدخل وكيف يتحرك ؟ فهو كالبصير الذي يتحرك بين عميان .. يفعل ما يشاء ويحرش بينهم دون أن يفطنوا إليه . وكم عطّل أفكاراً حيوية .. وكم أشعل حروباً بين الإخوة .. إنهم يخرسون كل صوت من شأنه أن يقلق النوم العام الذي نغرق فيه .. لقد تطور القتال حقاً من السلاح الأبيض إلى المدافع والقنابل .. إلى القتال بالأفكار .. وهذا النوع لم نستوعبه بعد كما ينبغي .. وهو تطور لمصلحة الإسلام والمسلمين لأن المسلم لو تيقظ فكره .. يملك الفكر الأصح والأقوى .

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾

وسبب النزول يوضح الآية التي أصبحت محرّفة المعنى في عالمنا الإسلامي .
عن أسلم : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه

ومعنا أبو أيوب الأنصاري فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة . فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية . . إنما نزلت فينا . صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار وقلنا لقد أكرمنا الله بصحبة نبيِّه ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله . . وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا . . فنزل فينا : **﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** .

فالآيات التي سبقت هذه الآية في القتال وأول الآية أمر بالإنفاق . . فالمعنى الحقيقي لها أن الهلاك هو أن تفكروا بترك الجهاد والبذل في سبيل الله وأن تستكينوا للراحة وطلب الرزق . وإنما المؤمن حياته كلها لله . .

أما فهم الناس لهذه الآية فمختلف جداً . . فهي من الآيات التي تعرضت للتحريف . . وهم يفهمون منها ترك الدعوة إلى الله إذا عرَّضك ذلك للأذى . . وترك بذل النفس والمال . . ولا غرابة فإن المسلمين في زمن ضعفهم قد فهموا الآيات بشكل معكوس . والقرآن محفوظ من التبديل لكنه معرض للتحريف في المعنى من قِبل البعض والكتمان . وإن علينا أن نصحح المفهوم الخاطىء للآيات في أذهان الناس ، ونعلّم الآيات ونبلّغها .

إن تحريف هذه الآية سيجعل الناس يظنون أن من العار أن تشارك المرأة في عملية الدعوة والتعليم لأنها تعرض نفسها لأذيَّة الخبثاء الذين لا يخافون الله . .

كيف نعتبر سمية بطلة وشهيدة ثم نحمل مثل هذه الأفكار . . ؟!

إن الانقطاع عن الإصلاح والدعوة إلى الله بدافع حفظ النفس أو العرض سيوصلنا إلى زمن يعج فيه الفساد وتنتهك فيه الأعراض . . فلا يأمن إنسان على نفسه أو ذويه . . إن ترك أداء الواجب سيضيع علينا حقوقنا على المدى الطويل . إن ترك البذل في سبيل الله من النفس والمال والعلم هو إلقاء بالأيدي إلى التهلكة . . ولهذا تواصل الآية حضها على البذل .

﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾

والإحسان ليس أن تعطي من يعطيك فقط . . وإنما ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (فصلت/٣٤) . إن من الطبيعي أن يصل الإنسان من وصله . . ولكن المحسن فعلاً من يصل من قطعه ويعطي من حرمه . وهو لا يريد بذلك إلا وجه الله . فأما من يترك الإحسان لأن الناس لم يقدروا له إحسانه فكأنما كان يريد الأجر من الناس . . !

هذه المعاني قد نعرفها كلنا . . ولكن من منا يتذكرها أثناء الحياة العملية ؟!

نحن نقدس ذواتنا ونثور لكرامتنا . . ونظن بأننا إن لم نقابل السيئة بمثلها أصابنا الضعف والذل ورسول الله ﷺ يقول : «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه»[1] . والله ينادينا ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ (المائدة/٥٤) . ألا تريدون أن تنالوا محبة الله ؟ ﴿إن الله **يحب المحسنين**﴾ .

---

(١) رواه مسلم .

الفصل العاشر

الحَجُّ وَالعُمْرَة

(١٩٦ - ٢٠٣)

- أحكام في الحج والعمرة والإحصار .
- فمَنْ فرض الحج . . .
- فإذا قضيتم مناسككم . . .

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ

فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

والموضوع مرتبط بما قبله . حيث كان الحديث عن الشهر الحرام وقتال المشركين فيه وقد صدوهم عن العمرة . والآن يتحدث عن :

■ ١ ■

أحكام في الحج والعمرة والاحصار

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

كان الحج معروفاً في الجاهلية منذ أن أذن إبراهيم بالحج . . فأقره الإسلام وأزال عنه ما أحدثوا فيه من الشرك والمنكرات وزاد فيه بعض المناسك :

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ﴾

أتموا ظاهراً بأداء المناسك على وجهها وباطناً بالإخلاص لله وحده دون رياء أو قصد التجارة ـ وهي إشارة هامة للمسلم وتعليم له أنه إذا بدأ شيئاً فعليه أن يتممه ـ أي

يجب أن يتوفر فيهما الإخلاص والصواب . ولا ينافي الإخلاص البيع والشراء أثناءهما دون أن يكون هو القصد . والفرق بين الحج والعمرة أن :

الحج	العمرة
١ ـ الحج فرض على المستطيع .	١ ـ والعمرة سنة [1] .
٢ ـ الحج له وقت محدد .	٢ ـ والعمرة ليس لها وقت محدد .
٣ ـ للحج أركان خمسة : الإحرام ـ والطواف والسعي ـ الوقوف بعرفة ـ الحلق أو التقصير	٣ ـ للعمرة أركان أربعة : الإحرام ـ الطواف والسعي ـ الحلق أو التقصير .

وللحج أعمال أخرى واجبة من قصّر في شيء منها (مثل رمي الجمار والمبيت بمنى) ، كان عليه فدية ويستثني الأحوال التي تمنع من الإتمام :

فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ

والحصر والإحصار : الحبس والتضييق . أي إن منعتم من الإتمام بمرض أو عدو أو أي سبب قاهر :

فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ

فعليه أن يذبح في المكان الذي وصل إليه (كما حدث عند صلح الحديبية) . والهدي ما يهديه الحاج والمعتمر إلى البيت الحرام من النعم ليذبح ويفرق على فقرائه .

---

(١) وهو قول الأحناف ومالك لحديث جابر : أن النبي ﷺ سئل عن ذلك فقال : «لا . وأن تعتمروا هو أفضل» رواه أحمد والترمذي . وعند الشافعية وأحمد أنها فرض لقول الله : ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ فقد عطفت على الحج وهو فرض .

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾

لا يتحلل حتى ينحر .

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾

من لم يستطع أن يتابع الإحرام واضطر إلى التحلل قبل وقته فعليه فدية : إما صيام ثلاثة أيام ، أو صدقة : إطعام ستة مساكين . أو نسك : ذبيحة .

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾

الحديث عن حج المتمتع وهو أن يحرم بعمرة فيؤديها ثم يتحلل ثم يحرم في اليوم الثامن من ذي الحجة للحج . ثم ينحر اعتباراً من يوم النحر . وهذا أفضل أنواع الحج لأن رسول الله ﷺ أمر أصحابه به وكان هو ﷺ قد ساق الهدي ـ فلا يستطيع أن يتحلل حتى يبلغ الهدي محله ـ ولهذا قال ﷺ «لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لأحرمت بعمرة» . إلا أهل الحرم فليس لهم التمتع .

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾

ونلاحظ أن الله سبحانه لم يقل : من لم يجد فلا يتمتع . وإنما أعطاه الصيام عوضاً عن الذبح . يرى ابن عمر أن يصوم السابع والثامن والتاسع من ذي الحجة . فإن لم يصمها قبل العيد فله أن يصومها في أيام التشريق (وهي رخصة خاصة لمن لم يجد الهدي أن يصوم أيام التشريق حسب قول عائشة وابن عمر رضي الله عنهما)[1] .

---

(١) من رواية البخاري . وإذا فاته صيامها في الحج لزمه قضاؤها ولا يشترط التتابع في صيامها .

﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ﴾

فأهل الحرم لا تمتع لهم .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

هذه الأحكام متعلقة بضمير المسلم .. ولهذا يحرك التقوى والخوف من عقاب الله .

- ٢ -

فمن فرض الحج ...

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾

للحج وقت معين : شوال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذي الحجة . ولا يصح الإحرام بالحج في غير هذه الأشهر .

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ

فعليه أن يتجنب أموراً :

فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ

والرفث : هو الجماع ودواعيه أو الإشارة إليه بقول أو حركة . والكلام الفاحش .

والفسوق : إتيان المعاصي كبرت أم صغرت . مثل قوله ﷺ : «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[1] . فإن نهى عن المعاصي في كل وقت فبالأحرى أثناء أداء عبادة الله تعالى . !!

والجدال : هو المشادة حتى يغضب الرجل صاحبه . والفرق بين الجدال والنقاش أن الجدال تبادل الجهل بينما النقاش تبادل العلم (أي أنه يعترض ليسمع الأدلة والبيان) . يقول الشافعي : **«ما ناقشت أحداً إلا وتمنيت أن يظهر الله الحق على لسانه»** . والداعي إلى الله عليه أن يتجنب الجدال ـ لأنه لا يأتي بخير ـ ويحاول الإفهام بالتي هي أحسن ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل/١٢٥) . أي بلطف مع بيان الحجة والدليل . والحرص على الحفاظ على الاحترام المتبادل ولو اختلفت وجهات النظر . إن هذا النهي فيه ترك لكل ما ينافي حالة التحرج والتجرد لله في فترة الحج والترفع عن غوغاء الدنيا ومشاغلها . وفيه التأدب الواجب في بيت الله الحرام لمن قصد إليه متجرداً حتى من مخيط الثياب . والوصول إلى ذلك ليس سهلاً ـ كما يتصور من لم يجرب ـ لأن هذه العبادة تمتد أياماً . . يحتك فيها الإنسان مع نماذج مختلفة من الطبائع . . كل واحد له رأيه وعاداته . . وخاصة في هذا العصر حيث يحمل كل مسلم

---

(١) ثبت في الصحيح .

مفاهيم خاطئة عن الإسلام والحج . . إن إيجاد الانسجام يحتاج إلى جهد كبير وضبط للنفس . . فإنك مطالب ولو اختلفت معهم ـ ولو كنت أنت على حق ـ بعدم الجدال أو الإيذاء بالكلام وإنما تبين ما عندك من أدلة ثم تحترم حريته في الرأي وتحافظ على ودك معه . ولهذا قال ﷺ : «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» [1] و«من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه» [2] . والذين يتمنون الحج من المسلمين يجب أن يدركوا ذلك . وإن من يعجز عن تحقيق الانسجام في أسرته أو في علاقته مع من حوله من الناس . . هل يقدر على أداء الحج المبرور الذي يغسل الذنوب . . ؟!

وبعد النهي عن فعل القبيح يحبب إليهم فعل الجميل :

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾

. . إنك ولو لم تنل تقديراً على صبرك على الناس وتحمل أذاهم والإحسان إليهم . . فإن الله يعلم . . ولا يضيع أجر مثقال ذرة من خير . .

حقاً إن الحج دورة تدريبية تعلم الصبر بكل أنواعه . . على متاعب الجسم ومتاعب النفس . وتعلم الإحسان والإيثار مع الناس .

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾

ذكر ابن عباس : كان أناس يخرجون من أهليهم ليس معهم أزودة يقولون : نحج بيت الله ولا يطعمنا ؟ فقال الله : تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس . وفي رواية أخرى (ويقولون نحن المتوكلون) . فالآية فيها :

١ ـ تصحيح لمعنى التوكل .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه عبد بن حميد في مسنده .

٢ ـ وتصحيح أيضاً لمن يظن أن عبادته يجب أن تطعمه رزق الدنيا . . وينبغي للمسلمين أن يفهموا أنهم مهما عبدوا الله بإخلاص فلن يحصلوا على الدنيا إلا إذا قاموا بأسبابها وعندها تتسخرِ لهم .

٣ ـ تعليم للمسلم أنه لا ينبغي له أن يكون عالة على أحد .

٤ ـ **﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾** :

إن رحلة الحج تحتاج إلى زاد . ورحلة الحياة تحتاج إلى زاد أيضاً وهو التقوى . إنه الغذاء الذي يحمي من الهلاك النفسي والاجتماعي (المعاصي) كما يحمي الطعام أجسامنا من الهلاك والمرض المادي . والتقوى غذاء حقيقي للنفس تزكي النفس وتعطيها قوة ومضاء تعينها على قطع رحلة الدنيا بسلام لتوصلها إلى نعيم الآخرة .

وَاتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾

يا أصحاب العقول استفيدوا من هذا العقل . فإن من يحرك عقله يعرف قيمة التقوى وأنها صيانة للفرد والمجتمع إذ لا يعيش مجتمع بدون محرمات وواجبات . فهي لكم ولا تزيد في ملك الله شيئاً .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ

وقد كانوا يخشون أن تكون التجارة محرمة أثناء الحج فتأثموا أن يتجروا في الموسم فنزلت الآية فأباحت البيع والشراء والكراء . وعبرت الآية عنها : **﴿أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾** . فإن من يسعى لطلب الحلال ملتزماً أمر الله إنما يبتغي فضل الله .

فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ

الإفاضة : الاندفاع ويقال أفاض بالكلام إذا انطلق فيه . . ووقت الوقوف من

الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر . وذلك أن الحاج (المتمتع) يحرم بالحج يوم التروية (أي الثامن من ذي الحجة) وينطلق إلى منى فيبيت فيها ثم ينطلق في اليوم التاسع إلى عرفة . وعند الغروب تبدأ الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة حيث تقول الآية :

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾

وهو منطقة محددة في مزدلفة سمي (المشعر الحرام) لأنه مَعْلَم للعبادة . وقد ورد «أن النبي أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما (أي لم يصل نوافل بينهما) شيئاً ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القصواء (ناقته) حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحده فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً فدفع قبل أن تطلع الشمس»(1) . وقد ورد أن مزدلفة كلها موقف ـ إن لم يتيسر الوقوف عند المشعر الحرام ـ ثم ينطلق فيرمي الجمار .

وقد رخص الرسول ﷺ لسودة حين استأذنت أن تنطلق للرجم قبل الفجر فكانت هذه رخصة للنساء والضعفاء (من الشيوخ والأطفال والمرضى) حتى لا يرهقهم الزحام . . ولكن المسلمين الآن تركوا المبيت والذكر عند المشعر الحرام وعمموا الرخصة على الجميع . . مع أن سودة نفسها باتت في مزدلفة ولكنها انطلقت للرجم قبل الفجر .

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾

---

(1) في صحيح مسلم .

كما أنقذكم من الضلال وعلمكم الشعارات التي تستحق أن تُردد ويُعتز بها في هذا المؤتمر الحافل ﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة . .﴾ (الحجرات/٧) . ولا يشعر بقيمة هذه الهداية إلا من درس أوضاع الأمم من حوله وعاين الضلال والجاهلية في جنبات الأرض . . وما تعانيه البشرية من شقاء بعيداً عن هداية الله ونوره . .

كذلك في الآية ترغيب . . لا تيأس من مغفرة الله مهما كنت ضالاً في ماضيك . . والحج موسم للمغفرة وفرصة لإسقاط ضلال الماضي والبدء من جديد .

ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ

عن عائشة قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحمس . وسائر العرب يقفون في عرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله : ﴿**من حيث أفاض الناس**﴾ [1] .

لقد جاء الإسلام لكي يقرر عملياً أن الناس كلهم سواء لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . فقد كلفهم في الحج أن يتجردوا من كل ما يميزهم من الثياب ليلتقوا في بيت الله إخواناً متساوين . . فدعوا عنكم العصبية والكبرياء واستغفروا الله من هذه المشاعر والأعمال التي كنتم عليها :

وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

والاستغفار لحظات من الندم واللجوء إلى الله والطمأنينة إليه لأن الإنسان يشعر بأن الله لا بد أن يجيب فقد ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ (الأنعام/١٢) . ومن يستغفر الله

---

(١) رواه البخاري .

يكون قد شعر بخطئه وتقصيره وأنه يجب أن يغير نفسه إلى الأحسن . وفي الآية تنبيهان :

١ ـ لا تظن أنك قد أديت كل ما عليك من واجبات ولم ينقصك شيء . . «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً . .» حتى لا تشعر بالأمن .

٢ ـ اطلب المغفرة والعون واسعَ إلى الأحسن دائماً وزد في الحسنات حتى تتلافى النقص ، وكثيراً ما يأمر الله بالذكر والاستغفار بعد أداء العبادات حتى لا نغتر بأنفسنا ونظن أننا أدينا كل ما علينا . . ولذا كان رسول الله ﷺ يستغفر ثلاثاً إذا فرغ من الصلاة . وعلى المسلم أن يتعلم عبارات الاستغفار من رسول الله من كتب الحديث . فقد وردت كلمات رقيقة تبعث السكينة في النفس (مثل سيد الاستغفار ـ واستغفار أبي بكر) .

■ ٣ ■

فإذا قضيتم مناسككم ...

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعۡدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

كانوا يأتون أسواق عكاظ ومجنة لا للبيع والشراء فقط . . . بل ينشدون الشعر ويتفاخرون بالآباء . . فوجههم الله لما هو خير لهم .

فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ

فهل انتهى هذا بانقضاء الجاهلية الأولى ؟! ألم نشغل عن أنفسنا بتمجيد آبائنا والافتخار بحضارتهم . . ؟! والقرآن يوجهنا : لا يجدي الفخر بالآباء والأجداد . . بل إنه قد يشغلنا عن التفكير في أمراضنا وأسباب تخلفنا ويغرقنا في استرخاء لذيذ مليء بالأحلام الفارغة . ولكن اذكروا الله وما أمركم به كذكر الآباء . . بل أشد ذكراً لأن هذا ينبهكم إلى مواضع ضعفكم ويعرفكم على أخطائكم . ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم . .﴾ . ثم يذكر صنفين من الناس ـ كنموذجين من الدعاء ـ

فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنۡيَا

آتنا . . ولا يحددون . . حسنة أم سيئة لا يَهُمُّ . . إنهم يريدون الدنيا وشهواتها فهي التي تسيطر على إحساسهم . . بينما رسول الله ﷺ يدعو «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا» . .

وكثير من الناس تستغرق وجودهم الدنيا . . فإذا دعوا فإنهم يطلبون الدنيا لهم ولأولادهم . . يطلبون لأولادهم المال والجاه والعمر الطويل . . ! ولا يخطر لهم أن يطلبوا

العلم والهدى والشهادة في سبيل الله لأنفسهم ولأولادهم ؟!

وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾

ليس له نصيب في الآخرة على الإطلاق لأنه لم يكن يهتم بها ولا يحسب لها حساباً في أعماله .

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً

يطلبون حسنة الدارين ولا يحددون نوعها . . بل يتركون أمرها إلى الله . . يختار لهم فيرضون . . والمؤمن بدعائه هذا لا يحرم نفسه من ملذات الدنيا لكنه لا يجعلها أكبر همه . . بل يطلب حسنة الدنيا لتكون طريقه إلى الآخرة ـ فالدنيا في يده لكنها ليست في قلبه لأنه يسخرها فيما يرضي الله . ورضي الله عن عمر فقد كان يقول : (والله إني لآتي زوجتي بغية الولد الصالح) . . . فالمؤمن يتمتع المتاع الطاهر الحلال الهادف فليس في حياته هذا العبث والفراغ والخواء الذي يضني الآخرين . . إنهم ولو ملكوا الدنيا كلها فلن تصل قلوبهم إلى السعادة والسكينة التي لا تعطى إلا للمؤمن . .

وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ

ولم يقل مما طلبوا . . لأن النتائج تأتي بحسب ما قدمت لها من أسباب . .

وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

يعطيهم بسرعة وفي الوقت المناسب . . فإن الله يجري الأمور بعلم وحكمة .

ونلاحظ أن الله سبحانه لم يذكر هنا الذين يطلبون الآخرة فقط . . فكأن هذا غلو

ينافي طبيعة الإنسان وفطرته . . وإن حسنة الدنيا لا تتنافى مع الآخرة . . وقد نهى رسول الله ﷺ رجلاً دعا ربه أن يعاقبه في الدنيا بدلاً من عقابه في الآخرة ، وقال له : «سبحان الله إذن لا تطيق ذلك ولا تستطيعه فهلا قلت : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة . .»[1] .

﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ

وهو الأمر الثالث بذكر الله في الحج . وهي أيام منى (أيام التشريق) وأيام منى ثلاثة .

فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ

فمن تأخر إلى الثالث فقد فعل الأفضل لأنه تطوع بزيادة في العبادة . والتقي هو الذي يدفعه خوفه من الله إلى الزيادة في العمل الصالح تطوعاً لله . .

. . أو أن المعنى : لا إثم على النوعين إذا اتقى كل منهما الله تعالى ووقف عند حدوده . فالتقوى هي التي يجب أن تحرص عليها فلا تنقص منها شيئاً ولذا فإنه يكرر الأمر بالتقوى :

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

تذكروا الحشر بين يدي الله . . فإن الحج يذكر بهذا الموقف في حرارته وزحامه . . فهل تطيقون تصور هذا اليوم ؟!

وبعد فإن الله سبحانه وتعالى قال عن الحج : ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله﴾ (الحج/٢٨) . وإن أول هذه المنافع :

---

(١) انفرد بإخراجه مسلم .

١ ـ تذكر يوم الحشر والاستعداد له . .

٢ ـ التجرد لله في رحلة ليس للدنيا وترفها فيها أي نصيب وإنما هي ذكر لله وصبر على المشقة .

٣ ـ غرس المساواة بين الناس بأسلوب عملي . . والقضاء على الاستكبار والاستضعاف . فالعبادات في الإسلام تفرض على الجميع بالشروط نفسها . ففي الصلاة يقف الملوك والصعاليك في صف واحد ويضعون رؤوسهم جميعاً على الأرض لله . وفي الصيام يمسك الجميع عن الطعام والشراب . . . وفي الحج خاصة تظهر المساواة حيث ألغى المظاهر بفرض لباس واحد على الجميع وشعارات واحدة وتحركات واحدة .

٤ ـ الحج مؤتمر إسلامي يجتمع فيه المسلمون من شتى أنحاء الأرض ليتعارفوا ويبحثوا مشكلاتهم . . وإن أصحاب المبدأ الواحد لا بد أن تكون لهم اجتماعات ولقاءات ومؤتمرات للتعارف والتعاون والتدارس . وإن الله قد هيأ للمسلمين اجتماعات كثيرة :

١" ـ اجتماع يومي (الصلاة بمسجد الحي) .

٢" ـ اجتماع أسبوعي في صلاة الجمعة .

٣" ـ اجتماع سنوي مرتين (في صلاة العيدين) .

٤" ـ اجتماع في العمر ولو مرة (في الحج) .

وإن هذا ليشعرنا بأهمية الأخوة في الله واللقاء في سبيله . . حيث تُجنَى فوائد جمة :

١" ـ من الناحية الفكرية : بسماع آيات الله وتدارسها وسماع الوعظ والتذكير وبحث المشكلات .

٢" ـ من الناحية النفسية : إذ أن المشاهد الإيمانية تؤثر على النفس . ولهذا أمر النبي ﷺ بخروج النساء إلى العيدين «ليشهدن الخير ودعوة المسلمين» .

٣" ـ من الناحية الاجتماعية : بتقوية الروابط الأخوية وتحقيق المجتمع المتماسك .

٤" ـ من الناحية العملية : حيث أن الشعائر فيها سعي وطواف . . . وفي ذلك

تدريب للمسلم على تحويل الأفكار إلى أعمال حتى تصبح كل حركة عبادة وكل عبادة حركة . بينما نجد في عالمنا اليوم : أن أكثر الذين يعملون لا يهتمون بالأفكار وفهم السنن والبحث لكشفها وتسخيرها . وطائفة أخرى يهتمون بالأفكار وكأنها تحف يتزينون بها !! فلا ينتج عنها نشاط عملي . فما أحوجنا إلى الجمع بين الفكرة والعمل . وكما يقول مالك بن نبي رحمه الله في كتابه (وجهة العالم الإسلامي) : إن العلاقة بينهما جدلية . أي أن الفكرة تصحح العمل (بالتخطيط السليم) ثم يضيف العمل تعديلات وتصحيحات على الفكرة (حتى لا يبقى التخطيط نظرياً) .

الفصل الحادي عشر

مَوْضُوعَاتٌ هَامَّةٌ عَامَّةٌ

(٢٠٤ ← ٢١٤)

- صنفان من الناس .
- ادخلوا في السلم .
- الدنيا مزيّنة للكافرين .
- الوحدة والاختلاف .
- تصحيح المفهوم عما يدخل الجنة .

وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ
عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ
فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ
لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ
بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ
رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟
فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ
إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ
وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾
سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ

ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ
(٢١٢) كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ
فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ
مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ
صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ (٢١٣) أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ
وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ
أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ (٢١٤)

- ١ -

صنفان من الناس

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

بعد آيات جاءت فيها تدريبات عملية لتهذيب النفس ووعظ وتوجيه إلى التقوى يصف لنا الآن صنفين من الناس :

١ ـ الصنف الأول :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾

أناس لم ينتفعوا بالموعظة . .

يعجبك قولهم ومظهرهم لكنهم منافقون . أو يعجبك قولهم إذا تكلموا في شؤون الدنيا وطرق جمع المال لكنهم في أمر الدين لا يفقهون . ﴿**ويُشهد الله على ما في قلبه ..**﴾ . قال العلماء : إن هذا اللفظ **آكد** من اليمين من قاله كاذباً يكون مرتداً لأنه نسب الجهل إلى الله تعالى . والصادق لا يحتاج إلى أن يشهد الله أو يقسم على كلامه لأنه يثق بنفسه ويثق به الناس .

وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾

اللدد : شدة الخصومة . يقول ﷺ : «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[1] . أي أشد الناس عداوة لمن يتودد إليهم . ومن صفات المنافق أنه : إذا خاصم فجر (فلم يتورع عن فعل شيء يضر بخصمه) . والخصام : القوة في الجدل . الآية حتى الآن **وصفت** كلامه :

١ ـ حسن القول بحيث يعجب السامع .
٢ ـ إشهاد الله على صدقه .
٣ ـ قوة الجدل .

وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ

يدعي الإصلاح وحب الخير فإذا تولى عمن يخاطبه سعى في الأرض فساداً فهو يعادي أهل الحق والفضيلة .. ويعادي المزاحمين له في الدنيا فلا يكون له هم إلا الكيد للناس وإهلاك الحرث والنسل .. الحرث : النساء . والنسل : الجيل الناشيء.فهو يسعى لدمار المجتمع .

---

(١) رواه البخاري .

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾

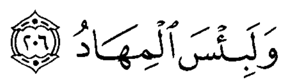
والفساد قد يصدر عن جهل وسوء فهم .. فالذي يعمل السوء بجهالة سريع التوبة يقبل النصيحة .. لكن الذي يفسد عن علم ..

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾

إذا نُصح غضب وأخذته الكبرياء والأنفة وصورت له نفسه أن النصح إهانة له .. ورحم الله عمر حين قال ـ بعد أن قال له رجل : اتق الله ـ (لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها) .. ولكن سرعان ما تغيرت المفاهيم : حتى صار بعض حكّام بني أمية يقول : من قال لي اتق الله ضربت عنقه .!! وعامة الناس الآن لا يقبلون النقد والمراجعة .

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾

تكفيه جهنم ..



إنها مهاد من نار ..!!

هذه صورة رسمت بدقة لطائفة من الناس توجد في كل عصر .. ويزداد خطرها في هذا العصر .. فلقد كان الواحد في الماضي يخدع بزخرف القول فرداً أو أفراداً .. أما الآن فقد صار بالإمكان أن يغشّ الأمة كلها باستعمال وسائل الإعلام التي قد تكون أداة للنصح العام أو التغرير العام .

٢ ـ الصنف الثاني :

قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾

يشري نفسه : أي يبيعها (لأن كلمة الشراء في العربية تستعمل للبيع والشراء) . و﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ (التوبة/١١١) . والإخبار بذلك أقوى في التوجيه من الأمر به . لأن الأمر به لا يدل على امتثال المأمورين . . والقرآن ينوع في أساليب الترغيب بالخير . فتارة بالأمر وتارة بالإغراء أو الترهيب . وإن من باع نفسه لله فقد باعها بأغلى ثمن . . وهو مرضاة الله وجنته . بينما الآخرون يبيعون حياتهم وصحتهم للشيطان . . ويشترون القلق والمرض والشقاء بالمال والوقت . . فكم من إمرأة تضحي بصحتها في سبيل الأناقة و (الموضة) . . وكم من رجل يشتري الفساد والانحلال لعياله (بالتلفاز والفيديو و . . .) . يذكر أن الآية نزلت في صهيب الرومي . وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله . وقالت له قريش : يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك وتخرج أنت ومالك . . والله لا يكون ذلك أبداً . فقال لهم : أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني ؟! قالوا : نعم . فدفع إليهم ماله فخلوا عنه . فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له : ربح البيع . فقال : وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم . وما ذاك ؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية (راجع تفسير ابن كثير) .

﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (٢٠٧)

فمن نعم الله ورأفته أن أعطاهم القدرة على بيع أنفسهم لمن شاؤوا . . ومن رأفته بالعباد وجود الذين يبيعون أنفسهم لله وإعانتهم لأن هؤلاء يبذلون أنفسهم وأموالهم في الإصلاح وتقديم الخير للجميع .

■ ٢ ■

ادخلوا في السلم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

النداء الحبيب للمؤمنين :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾

ومعنى السلم : من المفسرين من فسره بالإسلام . ومنهم من فسره بمعناه المستعمل الآن : المسالمة بين الناس وترك الحروب والقتال .

والذين فسروا السلم بالإسلام قالوا : كافة أي في جميع شرائعه . والذين فسروها بالسلام قالوا : ادخلوا جميعاً من غير أن يحيد أحد . والمعنى الثاني تدعمه الآية : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ (الأنفال/٦١) . وحتى الذين فسروا السلم

بالإسلام يقولون لأن الإسلام هو دين السلام والأمن في جميع المستويات : للفرد ـ والأسرة ـ والمجتمع .

وحتى التحية التي أمر بها الإسلام : السلام عليكم (أي : أنتم في أمان مني . .). وذلك أمر لم تصل إليه أمة من الأمم غير المسلمة وحتى أشدها ادعاءً للسلام . وهذه التحية يستعملها المسلم بشكل عام ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ (الفرقان/٦٣) . كما ذكر بعض العلماء : إذ أن السلام من آداب الإسلام والأدب تستعمله مع المسلم وغير المسلم (مثل آداب الاستئذان والمجلس و . .) إلا في ظروف خاصة مع المعتدين الظالمين فلا يلقى عليهم السلام ـ حتى لا يكون عهداً لهم بالأمان ـ إن الأمر بالدخول في السلم قد يبدو عجيباً بالنسبة للمسلم لأول وهلة لأنه تعود أن يسمع فقط ﴿قاتلوا﴾ . ولكن حتى القتال في الإسلام إنما شرع لمنع الظلم وهو آخر ما يلجأ إليه الإسلام في حل مشكلة الظلم . . فإذا أمكن حلها بسلام فهذا أفضل على شرط أن لا يزيد ذلك في ظلم الظالم واستكباره .

ولا بد أن كثيرين يتساءلون باستغراب : وهل يمكن أن يوجد السلام في الأرض ؟! وكثيرون يحتجون بقول الرسول ﷺ : الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة . . !! ولكن هل الجهاد هو القتال فقط ؟! إن جهاد النفس ومقاومة إغراء الشيطان والصراع الفكري . . كل ذلك صور من الجهاد التي لا يمكن أن تنتهي طالما أن هناك حياة . وأما الحروب فيمكن للبشرية أن ترتقي وتترفع عنها . . وصعوبة تصور ذلك ناشئة من الإلف . . فلقد كان الناس في الماضي يعتمدون على الصيد كأساس في حياتهم ولا يتصورون أن بإمكانهم الاستغناء عنه . . فلم تذهب الأيام حتى أصبح الصيد أمراً ثانوياً يلجأ إليه الناس للترفيه عن أنفسهم . . كذلك لم يتصور الناس في الماضي أن نظام ملك اليمين يمكن أن يلغى يوماً ما . . لأنهم كانوا يعيشون في ظروف كانت تعتبره ضرورة اجتماعية واقتصادية . . فإذا به يصبح أثراً بعد عين . وكذلك في موضوع القتال . فإن الإنسانية قد تصل إلى مرحلة من التقدم تلغى فيها الحروب . ويساعدنا على تصور ذلك قول الله تعالى للملائكة حين سألوا : ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها

ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟! قال : إني أعلم ما لا تعلمون﴾ (البقرة/٣٠) . فإن الله يعلم أن الإنسان سيرتقي حتى يترك سفك الدماء .

ثم إن الأمر هنا **﴿ادخلوا في السلم كافة﴾** :

يوحي بإمكانية ذلك . إذ أن الله لا يمكن أن يأمرنا بشيء لا يتحقق .

ولقد أصبح السلام الآن دعوة ينادي بها العقلاء في شتى أنحاء العالم وتؤلف فيها الكتب بل وتنادي به الشعوب ـ حتى التي ملكت أسباب القوة ـ وتخرج في مظاهرات تندد فيها بالتسلح والحروب . . فقد أصبح السلام حاجة ضرورية للبشرية في هذا العصر الذي تطورت فيه قوة الأسلحة إلى درجة تهدد بدمار الأرض والجنس البشري كله ـ إن لم تتعدَّ ذلك إلى السماء كما نسمع عن سعي أمريكا في برنامج حرب النجوم ـ وإن الذي يمنعهم الآن من استخدام القوة ليس هو الأخلاق والمبادىء بقدر ما هو الخوف من الدمار . . ولهذا صاروا يعتمدون على الحرب الفكرية أكثر ويجندون الطاقات والعلوم لها. **ولأخذ فكرة بسيطة عن ذلك يمكن أن نستعرض لقطات** سريعة من موضوع عن الأسلحة الذرية قدمه عادل المالك في برنامجه (وجوه وأحداث) في التلفاز : [في عالمنا اليوم أكثر من ٥٠ ألف سلاح نووي يبلغ مجموع قوى هذه الأسلحة الانفجارية ما يزيد على قوة قنبلة هيروشيما أكثر من مليون مرة . . أي أن لدينا ما يعادل ٤ أطنان من المتفجرات لكل فرد من أفراد الجنس البشري . . . !! قنبلة هيروشيما (في عام ١٩٤٥) : أزالت المدينة من الوجود في لحظة واحدة . . مات مباشرة أكثر من سبعين ألف شخص ولقي أكثر من سبعين ألف شخص آخرين حتفهم في الأيام التي تلت . . . أما قائد الطائرة التي ألقت بالقنبلة فقد انتحر . . .

وقد رفضت اليابان فكرة التسلح الذري رغم اقتدارها العلمي على ذلك احتراماً منها لذكرى هيروشيما . . وكرست تقدمها في المجال العلمي والصناعي . . .] . وقد **ختم موضوعه بكلام للقس كانت:[أنا قسٌّ كاثوليكي. وعلى القيادات والمجتمعات** الروحية مسؤولية ضخمة لأن نظرتنا مشتركة سواء كنا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً . . وهي أن العالم أمانة بين أيدينا . . أي أننا لا نملكه بل هو أمانة . ونؤمن أن الله هو رب

العالم بأسره ، له علينا مسؤولية مطالبة سياسي العالم بالتوقف.. فهناك أشياء نرفضها ونشمئز منها كبشر حتى لو كان فيها حمايتنا . . إننا لن نحرق الأطفال والمدن . إننا نرفض الدمار الذري .] . والحقيقة أن التقدم العلمي ـ في مجال الأسلحة ـ قد سبق ارتقاء الضمير . . حتى أنه أجبر الناس على التريث وإعادة النظر في علاقاتهم الدولية ولكن الطريق ما زالت أمامنا طويلة . . وعلينا أن نقر السلام في بيوتنا ونتعود على التعايش المحترم مع جيراننا ومن حولنا . . فذاك أساس التغيير المنشود .

وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ

إن من لا يدخل في السلم الذي يحقق العدل يكون متبعاً لخطوات الشيطان لأن إرادة الشيطان هي إيقاع العداوة بين الناس وإهلاكهم بالشقاق والقتال . ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر . . .﴾ (المائدة/٩١) . ولقد سبق أن حذرنا رسول الله ﷺ : «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب . . ولكن في التحريش بينهم»[١] .

إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾

وخطوات الشيطان : كل أمر يخالف سبيل الحق والخير والمصلحة العامة . . والشيطان عدوكم اللدود الذي أخرج أبويكم من الجنة فكيف تتبعونه . . ؟! فاحذروا أن تزل أقدامكم وراءه وإلا تعرضتم لعقوبة العزيز الحكيم :

فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ
فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

والإشارة إلى مجيء البينات تذكرنا بأهمية البيان . إذ أن الناس في معرفة الحق على

(١) رقم ١٨٠٤ من مختصر صحيح مسلم للمنذري .

ثلاثة أنواع :

١ - قوم يعلمون الحق ويتبعونه . (وهم المنعم عليهم) .
٢ - وقوم عرفوا الحق ولم يتبعوه . (وهم المغضوب عليهم - والظالمون) .
٣ - وقوم لا يعرفون الحق ويرفضونه بدون علم (وهم الضالون - والجهال) .

وينبغي أن نتذكر أن الأوامر الإلهية تشير إلى سنن كونية من يخالفها يحصل على نتائجها الوخيمة في الدنيا - عدا عن عقاب الآخرة - وأن إعراض الناس عن البينات يعرضنا جميعاً للعواقب الوخيمة . . فلماذا لا نستنفر أنفسنا للتبليغ والبيان فإن ذلك من شأنه أن يرد الأكثرية عن إعراضهم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾ (الأنبياء/٢٤) . . وإن النتائج في الدنيا تأتي بحسب الأكثرية . . فإذا عالجنا الأكثرية - مع بقاء أقلية تعرض عن علم - استطعنا أن نغير . . وإلا فإنها عقوبة السنن ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ (الأحزاب/٦٢) . عقوبة العزيز القادر الحكيم الذي يأمر بما يناسب ويعاقب في الوقت المناسب .

يقول رشيد رضا في المنار : [**إنَّ ظنَّ المغرورين بأنه يكون لهم السلطان والخلافة** في الأرض بمجرد دعوى الإيمان والإسلام مع بعض الأعمال البدنية من غير إقامة العدل في الناس والعمارة والإصلاح في الأرض . هذا من الهزء بآيات الله في كتابه وآياته في خلقه . . فإنها متفقة على أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون لعمارتها وإقامة العدل فيها .] .

ويتابع في تهديد من يتركون **البينات :**

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

﴿يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾ (الفرقان/٢٥) . . وقضي الأمر

بسرعة . . . وقد يكون التهديد بعذاب الدنيا . . أن يأتيهم الله بالعذاب في ظلل من الغمام من حيث يتوقعون الرحمة . عندها يكون العذاب أشد وقعاً وتنكيلاً . كما حدث لقوم هود حين قالوا : ﴿هذا عارض ممطرنا . . . بل هو ما استعجلتم به﴾ (الأحقاف/٢٤) . .

وهذا جزاء من يعرض عن أمر الله ولا يسعى إلى تحقيق السلام والعدل .

وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ

وأمر الله يتم بكل سهولة . . إذا قام الناس بالأسباب . . وإن لك الخيار قبل أن تضغط على زناد المسدس . . ولكن بعد أن ضغطت عليه لم تعد تنفع التوبة والندم في إيقاف نتائج الدنيا . . فالعواقب حتمية لا مفر منها . .

﴿وقضي الأمر﴾ بحسب السنن في الدنيا . . ثم يأتي حساب الله في الآخرة .



■ ٣ ■

الدنيا مزينة للكافرين

سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ

أما رأيتم ما حلَّ ببني اسرائيل حين لم يلتزموا بالبينات ؟

سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ

والآية فيها مثال من التاريخ ثم تأكيد للقاعدة :

وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾

والنعمة التي جاءت هي الآيات البينات فهي مثل البوصلة التي تدل الضائع على الاتجاه الصحيح . فمن لم يعرف قدرها وأعرض عنها تعرض للتيه والعذاب . . ألم يترك المسلمون البينات ويستبدلوا بها النظم البشرية القاصرة . . ؟ فهل أفلحوا ؟! فلنتأمل كيف يدخل الله الأمر بالسلم إلى النفوس .

يأمر به ويحذر من اتباع الشيطان الذي يريد لكم الهلاك . . ويحذر من عواقب الدنيا والآخرة . . ويضرب مثلاً من التاريخ يذكر بعاقبة من خالف السنن . . . . . . ثم يعود إلى تأكيد عموم السنة . إنها خطة محكمة من صاحب الذكر الحكيم .

في الآية السابقة تحدث عن الذين يبدلون نعمة الله . . وكأن الآية الآن تبين سبب ترك نعمة الله وآياته : وهو الافتتان بزينة الدنيا .

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

فالذين تجاوزوا الحق وأخفوه هم الذين يخدعون ببريق المظاهر ولا يدركون الحقائق . ولقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . فالذين ينزلقون وراء الشهوات لا يدركون الحقيقة إلا بعد فوات الأوان . يقول صاحب الظلال : [ينظر الصغار الغارقون في وحل الأرض المستعبدون لأهداف الأرض . . ينظـرون للذين آمنوا فيرونهم يتركون لهم وَحْلَهم وسفاسفهم ليحاولوا آمالاً كباراً لا تخصهم وحدهم ولكن

تخص البشرية كلها . . ويرونهم يعانون فيها المشقات ويقاسون فيها المتاعب ويحرمون أنفسهم اللذائذ التي يعدها الصغار خلاصة الحياة . . فلا يدركون سر اهتماماتهم العليا عندئذ يسخرون منهم ومن حرمانهم . .] . فليعلم كل من يريد التمسك بالحق أن الآخرين سيسخرون منه . . ولكن سخريتهم لا تغير من النتائج شيئاً . . فهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . ؟ ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ ؟! (الرعد/١٩) . إن سخريتهم لا تغير من الحق شيئاً . .

وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فالمهم هو المصير في ذلك اليوم . . ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟﴾ (المطففين/٣٤) .

وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

وقد كان حرصهم على الرزق هو الذي يجعلهم يتركون أمر الله . . ولكن ما أشد غفلتهم فقد طلبوا الرزق من غير بابه . ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ (النساء/١٣٤) .

«يقول ابن آدم : مالي مالي . . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت وما لبست فأبليت وما تصدقت فأمضيت ؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[1] .

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير وقال عنه صحيح .

■ ٤ ■

الوحدة والاختلاف

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢١٣)

تشير الآية إلى عهد ما قبل النبوات والناس في حالة بدائية . لكن طبيعة الإنسان أنه لا يعيش منعزلاً ولا بد له من مجتمع يعيش فيه .

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾

والمجتمع لا يقوم بدون محرمات وواجبات ـ وقد سبق أن شرحنا ذلك عند الشجرة المحرمة من قصة آدم ـ فهو بحاجة إلى قانون يوقف حرية الأفراد عند حدود معينة حتى لا يدمروا أنفسهم ومجتمعهم . . وحتى لا يختلفوا ويضلوا في تحديد هذا النظام ـ لأن الإنسان معرض للهوى والجهل ـ أنعم الله عليهم بالرسل والأنبياء وأنزل معهم النظام الذي يتصف بالحق والكمال .

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾

مبشرين لمن يقوم بالواجبات ومنذرين لمن يرتكب المحرمات .

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ﴾

إن سبب الاختلاف هو البغي . . لأن الباغي يحاول أن يأخذ شيئاً لا حق له فيه . . أو يحاول أن يمنع شيئاً لا حق له بمنعه . وسبق أن ذكرنا أن الناس بعد مجيء البينات على أصناف ثلاثة : من يعلم ويعمل . ومن يعلم ولا يعمل . ومن لا يعلم فيعرض وهم الأكثرية . وهكذا يحدث الاختلاف بين الناس . . ولا خروج من هذا الاختلاف إلا بالتبليغ والبيان لأنه بالعلم تتقارب وجهات النظر وينضم الأكثرية الذين كانوا لا يعلمون إلى صف العاملين الفاهمين .

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ﴾

هداهم بما في نفوسهم من صفاء ورغبة في الوصول إلى الحق . وهذه فطرة الإنسان ما لم تفسد .

وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يدعو «اللهم اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك» . وكثيراً ما يعبر المسلمون عن حيرتهم أمام الآراء المختلفة : فكيف نعرف الصحيح ؟! والآية تقول : **﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾** .

وزيادة العلم والاطلاع على الأمر من جميع جوانبه هو الذي يوصل إلى الحق ويخرج من الخلاف ـ ولكن هذا يحتاج إلى صدق في طلب الحق واجتهاد في السعي . .

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾

والآية تذكر عمل الله وحده . . لكننا نعرف أن عمل الله يأتي كثمرة وعطية لمن أدى ما عليه من عمل . ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ (النور/٥٤) .

في الآية إشارة إلى إمكانية أن يصل الناس إلى مرحلة الأمة الواحدة . فلقد أعطاهم الله الرغبة والإمكانية لذلك ونزل عليهم القانون الذي يضمن لهم هذا الاتحاد . . وستأتي آيات الآفاق والأنفس ـ كلما انكشف منها شيء ـ لتؤكد لهم أن قانون الله هو الحق الذي يصلح لهم حياتهم وآخرتهم . . فعلى الدعاة أن يعملوا دون كلل أو يأس على تبليغ آيات الله لإنقاذ الناس من الاختلاف والنزاع . أما قول الله تعالى في سورة هود : ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . .﴾ (هود/١١٨) . فمعناه : أن الله لو شاء لخلقهم مجبرين على أن يكونوا أمة **واحدة** كما خلق الملائكة بدون قدرة على **الاختيار فهم ﴿لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون﴾ (التحريم/٦)** . ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ حتى الآن ﴿إلا من رحم ربك﴾ (هود/١١٩) . فهؤلاء يبحثون عن الحق ليصلوا إلى الوفاق ويخرجوا الناس من الاختلاف . ﴿ولذلك خلقهم﴾ (هود/١١٩) . حتى يرتفعوا إلى هذا المستوى ويدخلوا في رحمة الله ويحققوا الأمة الواحدة .

إن فهم الآية بهذا الشكل أقرب إلى تنزيه الله عن الظلم . سبحانه هو الرحمن الرحيم وفي ذلك تبشير بإمكانية الخروج من الاختلاف والوصول إلى أمة واحدة عالمية .

■ ٥ ■

تصحيح المفهوم عما يدخل الجنة

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

الآية السابقة تحدثت عن التفرق والاختلاف بحيث تبدو معرفة الحق ليست سهلة وإنما تحتاج منا إلى جهد واجتهاد ودراسة لآيات الله في الكتاب وفي الآفاق والأنفس . . وهنا قد يشعر المسلم بالصعوبة ويتكاسل عن بذل الجهد اللازم . وقد يتساءل : لم لا يكون الحق ميسوراً بدون جهد . . ؟! فكأن الآية هنا تنبهه :

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾

هل الجنة رخيصة إلى هذا الحد حتى تصل إليها دون دفع الثمن . . ؟!

إن الحق ميسور فعلاً لمن أراد أن يصل إليه فحرك عقله ودرس الآيات . . أما الكسالى فليس لهم أمل في ذلك .

الحسبان : هو الظن . . أي الفكرة التي لم يقم عليها دليل . فإن قام عليها دليل صارت علماً . فالحسبان (والظن) هو النظرة الذاتية (أن تنظر إلى الموضوع من خلال

رغباتك). بينما العلم هو النظرة الموضوعية (أن تنظر الى الموضوع كما هو في حقيقته). والنظرة الموضوعية فيما يتعلق بدخول الجنة : هي أن تعرف الجهد اللازم المكافىء .

إن دخول الجنة له سنة . فهل تظنون أنكم فوق السنن والقوانين ؟! بل لا بد أن يحدث لكم كما حدث للذين من قبلكم .. ﴿مسَّتهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾ .

فقد امتحنوا وتعرضوا للمشقة ومستهم البأساء (الفقر ـ الضر في غير النفس) ، والضراء (الضر في النفس من مرض أو قتل) ، وزلزلوا أي حدثت لهم شكوك في نفوسهم من قسوة ما تعرضوا له من أذى إلى **درجة** :

حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ

ولقد تعرض المسلمون ـ عند نزول القرآن ـ لبلايا كثيرة في العهد المكي ثم في أحد والأحزاب و . . . . ومع ذلك فإن الله يقول لهم : إلى الآن لم يصبكم ما أصاب الذين سبقوكم بالإيمان في الماضي . . وهذا يذكرنا بحديث خباب حين شكا إلى رسول الله ﷺ . . فقال له ﷺ : «إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه . . والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . . ولكنكم قوم تستعجلون» [1] .

فلا تظن أن بإمكانك أن تستعجل الطريق وتتجنب المحن والابتلاء . فإن الله لا ينصر إلا بعد امتحان . . ولا تدخل الجنة إلا إذا فزت بالامتحان .

وإن إيماننا بحتمية الامتحان لا يعني الاستسلام للعقبات . . ولا يعني ترك إعمال الفكر في الخطة المشروعة التي توافق سنة النبي التي من شأنها أن تجنبنا قدراً أكبر من العقبات والمحن . . بل إن التزام منهج النبي ﷺ يخفف أكبر قدر ممكن من العقبات . .

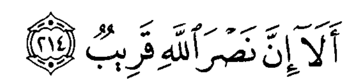
---

(١) رواه البخاري .

ويعرض المؤمن لامتحان يتناسب مع إمكاناته ويشحذ همته للتغلب عليه . . (ولا ننسى أهمية وجود عقبات تتحدى الإنسان حتى يتحرك ويبدع) .

وينبغي لنا أن نقف أمام المحن التي تعرض لنا بموضوعية . . ونحاول تأمل أسبابها . . فإن كثيراً من المحن تنتج من أخطائنا وعدم التزامنا للمنهج السليم ، فإذا كشفنا الطريق الصحيحة (منهج الرسول في الدعوة) وحاولنا الالتزام والتصحيح باستمرار . . بقيت المشقة الطبيعية التي لا بد منها لتحقيق النهضة والارتقاء . . وهذا ما يجب الصبر عليه . . وأن نتذكر صبر السابقين . .

كذلك قول النبي ﷺ : «ولكنكم قوم تستعجلون» لا يعني ترك الاجتهاد للوصول إلى أحسن النتائج بأقل وقت وجهد ممكنين . . خاصة بعد أن فتح لنا التقدم العلمي وسائل جديدة تختزل الوقت والجهد . ولكن الاستعجال المستنكر هو التفكير الصبياني الذي لا يدرك الجهد المكافىء والوقت اللازم للوصول ، **وهو** محاولة القفز من فوق السنن . . والدخول إلى البيوت من غير أبوابها . . والموضوع دقيق : إذ أن الاستسهال لا يوصل إلى الهدف . . والاستصعاب يؤدي إلى اليأس وترك السعي . . وقد يبدو الموقفان متناقضين . ولكن الانتقال من الاستسهال إلى الاستصعاب أمر مألوف . لأن كلا الموقفين يفتقر إلى إدراك الجهد اللازم بذله للوصول الى الهدف . فمن الطبيعي أن يتحول من الاستسهال إلى الاستصعاب حين يفشل بتفكيره السطحي في الوصول إلى ما يريد . وذلك موضوع يتعلق بالترهيب والترغيب في القرآن . . إذ أن المؤمن لا يتحرك ولا يفلح إلا إذا كان بين الخوف **والرجاء** .



متى يكون نصر الله قريباً ؟!

حين يبذل المؤمن الجهد المكافىء ويثبت على منهج نبيه ﷺ ولا يتراجع إن أصابته البأساء والضراء . . عندها يأتي نصر الله .

أما الذين تزعزعهم الفتنة ويتخلون عن فكرتهم أمام العقبات فقد ضرب الله لهم مثلاً آخر : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة . . . .﴾ (الحج/١١) .

الفصل الثاني عشر

أَسْئِلَة .. وَإِجَابَاتُهَا
(٢١٥ ـ ٢٢٠)

- ماذا ينفقون ؟
- القتال والشهر الحرام ؟
- الخمر والميسر ؟
- اليتامى ؟

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ
مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾
كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟
شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ
ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ
حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ
مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ
هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ

وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ
أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ
خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ
ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

وقبل أن أتناول الآيات سأستعرض أنواع الأسئلة :

١ ـ نوع أمر به الله : ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ (النحل/٤٣) . وأهل الذكر : هم أهل القرآن (أكثر الناس دراسة للقرآن وعملاً به) . وقصة الذي أصيب بجرح في رأسه وأصابته جنابة . فاستفتى أصحابه ، فقالوا : لا نرى إلا أن تغتسل . فاغتسل فمات . . فلامهم رسول الله ﷺ . هذه القصة معروفة . . فالجاهل مأمور بالسؤال كي يعرف الحق . . ولا يجوز الإعراض عنه ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ (الضحى/١٠) . وهي تشمل من يسأل علماً .

٢ ـ نوع نهى عنه : ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ (المائدة/١٠١) . ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟﴾ (البقرة/١٠٨) . وذلك عندما يريد السائل التعنت والجدال . . أو اقتراح شيء على الله ورسوله . . وقد روى أبو هريرة قال : خطب بنا رسول الله ﷺ فقال : «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا» فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت . حتى قالها ثلاثاً . فقال رسول الله ﷺ : «لو قلت : نعم لوجبت ولما استطعتم» ثم قال : «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم . وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[1] .

٣ ـ نوع يقرره ويجيب عنه . **والأسئلة** التي في الآيات هنا من هذا النوع .

ولا شك بأن الاسئلة وحدها لا يمكن أن تكون طريقاً للعلم . بل الدراسة والتدبر وحسن السماع وبذل الجهد في قراءة وجهات النظر المتعددة وأدلتها . . . والفرق شاسع بين من سأل فسمع وجهة نظر واحدة . . وبين من قرأ كل ما قيل في الموضوع !!

---

(١) صحيح مسلم .

- ١ -

ماذا ينفقون ؟

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

الحديث الآن عن الإنفاق :

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾

والإنفاق يتعلق بغريزة التملك عند الانسان . والإسلام ينظم هذه الغريزة فلا يلغيها - كما يريد النظام الشيوعي أن يفعل - ولا يطلقها دون حد أو قيد - كما تفعل الانظمة الحرة - وإنما يعترف بها ويخضعها للمثل الأعلى . . فهو الدين الوسط الذي تجنب الخطأين . وموقفه من الغرائز هو الذي يحقق النمو للمجتمع (وقد سبق أن بحثنا ذلك عند الشجرة المحرمة) . فكيف كانت خطة الاسلام مع غريزة التملك ؟

١ - احترام الملكية الفردية وأباح الكسب الحلال .

٢ - حرم الاعتداء على ملكية الآخرين (السرقة - الربا - **الغش** - الربح الفاحش) . . .

٣ - وضع أنظمة لا تسمح بتضخم الثروة في يد واحدة (الإرث يفتت الثروة - الزكاة . . .) .

٤ - ربّى الضمير بحيث يتحسس مشاكل مجتمعه ويسارع لمساعدة إخوانه . وغرس في نفس المسلم أن المال لله ومن ينفق في الخير يعوضه الله .

والسؤال في الآية عن الانفاق العام وليس عن الزكاة . وقد سألوا ماذا ينفقون ؟ فجاء الجواب :

قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ

. . فالإنفاق ليس مقتصراً على نوع معين من الرزق . بل من كل خير . . (من **علمه** - من معونته - من أخلاقه الحسنة) .

كذلك فالآية تشير إلى أن الإنفاق لا يكون من الرديء ولكن من الجيد .

ويأتي الجواب ليحدد أيضاً على من ينفق :

فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ

يبدأ من الأقرب مراعاة للفطرة . . الوالدين - ثم صلة الرحم - ثم صلة الرحمة . .

وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

لا يحزنك نكران الناس ولا تكف عن الإحسان فإن الله عليم لا ينسى ما قدمت ولا يضيع عليك الجزاء .

■ ٢ ■

القتال والشهر الحرام

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

ثم ينتقل إلى القتال :

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ

تحدثت الآية السابقة عن بذل المال وهذه تتحدث عن بذل النفس وهو تنظيم لغريزة حب البقاء . وإن دخول الجنة له ثمن ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ (التوبة/١١١) . وقد فرض الله عليكم القتال لمنع الظلم . وهو أمر كريه إلى النفس لكنه ضمن شروطه الإسلامية فيه خير كثير . . فهو يقمع الظلم ويحمي الأمة ويعيد الأمن لحياة الإنسان . وما طعم الحياة إن لم يأمن الانسان فيها على ماله وحياته وعرضه . ؟! إن القتال كالدواء المر وكرهكم ليس دليلاً على بطلان فائدته . فقد يكره الإنسان **ما ينفعه** وقد يحب ما يضره . . وذلك حين يعجز عن تقدير نتائج الأمر القريبة والبعيدة (العاجلة وما هو خير وأبقى) تقديراً واعياً دقيقاً . فالإنسان مثلاً يحب الاسترخاء والدعة والراحة . . لكن النتائج البعيدة لذلك كيف تكون ؟ بينما الجهاد والاجتهاد والصبر أمور صعبة وثقيلة على النفس . . لكن نتائجها البعيدة رائعة . . فإذا قصر الانسان تفكيره على العاجلة خسر خسراناً كبيراً .

فالآية تحذر من النظر الذاتي وتدعو المؤمن إلى التفكير الموضوعي الذي يقلب الأمر وينظر إليه من جميع جوانبه . ويبدأ في ذلك من مثال ـ وهو موضوع القتال ـ ثم يعمم الأمر ويستخرج منه قاعدة **عامة** :

وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

فقد أمر ونهى عن علم وحكمة وتقدير لعواقب الأمور . . ومهما كان علمكم ومهما ارتقى . . فإنه لن يصل إلى مستوى علم الله الخالق المدبر . . وإن من يؤمن بعلم الله يسلِّم لأمره ولو لم يدرك عواقبه وحكمته . وحتى في قضاء الله وقدره . . وقد حدثتنا سورة الكهف ـ في قصة موسى والرجل الصالح ـ كيف أن قدر الله يكون خيراً للمؤمن ولو رأى فيه المشقة . . ولو أخذ مظهر المصيبة ـ فلعل الله دفع بها مصائب أكبر . ولهذا فإن المؤمن يبذل جهده في أداء ما عليه ثم يسلِّم أمره لله ويرضى بقضائه . وموضوع القتال هام وينبغي للمرأة المؤمنة أن تفهمه جيداً لأن الرجال يتربون على يديها ويتشربون

منها المفاهيم فهي التي تبث فيهم روح الجهاد أو التخاذل . إن المرأة هي التي تتولى تحريض الرجل . . وبقاؤها في الجهل والتخلف يعوق كل بادرة خير ويقدم المزيد من الهزائم للعالم الاسلامي .

يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ

نزلت الآية في سرية عبدالله بن جحش - قبل بدر وبعد الإذن بالقتال - وقد بعثه الرسول ﷺ مع ثمانية من المهاجرين ومعه كتاب مغلق . . فقال له : «اخرج أنت **وأصحابك حتى إذا سرت يومين فافتح كتابك فانظر فيه. فما أمرتك به فامض له** ولا تستكره أحداً من أصحابك على الذهاب معك» . . فلما سار يومين فتح الكتاب فإذا فيه : «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل بطن نخلة (بين مكة والطائف) ترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم ولا تكرهنَّ أحداً على المسير معك من أصحابك» . . **فمضى لما أمره** رسول **الله** ﷺ. . . . **فمرت عير لقريش تحمل تجارة، فيها عمرو بن** الحضرمي وثلاثة آخرون . . فقتلت السرية عمراً بن الحضرمي وأسرت اثنين وَفرَّ الرابع وغنمت العير . وكانوا يظنون أنهم في اليوم الأخير من جمادى الآخرة فإذا به الأول من رجب . . . فلما رجعوا إلى رسول الله ﷺ قال : «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» **وأبى أن يأخذ شيئاً . فأسقط في أيديهم وظنوا أنهم هلكوا وعنّفهم** المسلمون . . **وقالت** قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم . . وأخذوا يروجون حرباً من الدعاية ضد النبي وأصحابه . فنزلت الآية . فأخذ النبي العير وفدى الأسيرين [1] .

قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ

فالآية تؤكد حرمة انتهاك الشهر الحرام . . لكن هناك ما هو أكبر . .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير .

وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ

وكل ذلك فعلته قريش . . فالمسلمون لم يبدؤوا العدوان بل بدأته قريش . فصدت الناس عن سبيل الله وكفرت بالله وبحرمة المسجد الحرام فأخرجت أهله منه . . وفتنت الناس عن دينهم .

وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ

إن تعذيب الإنسان حتى يترك دينه أفظع من كل ذلك. . وإن قتل الضمير والكرامة الإنسانية أفظع وأشد جرماً من قتل الجسم . فالآية تفيد :

١" ـ أن اختيار أهون الضررين هو الصواب إن لم يكن لك بد من أحدهما . فقد يكون القتال في الشهر الحرام هو الأصوب إن كان فيه دفع لكل هذه المفاسد .

٢" ـ إن من دأب الكفار والضعفاء أنهم يحاولون في كل زمان أن يفتشوا عن أخطاء المؤمنين ويشهروا بها . ولكن ذلك لا يؤثر على المؤمنين . . بل يفيدهم . .

عداتي لهم فضل عليَّ ومِنَّة فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا
همُ كشفوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟

فهم حريصون على المضي إلى آخر الشوط في الكفر والصد والعدوان .

وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ

إنها الفتنة والمحنة .. وليس الكلام كالمعاناة فقد يتزلزل المؤمن تحت وطأة التعذيب .. فتأتي الآيات للتثبيت والتحذير .. والمؤمن عند المحنة يراجع أعماله ويبحث عن الخلل فيها .. فإن الخطأ البسيط له أثره .

لحظة يا صاحبي إن تَغْفلِ ألف ميل زاد بعد المنزل

ولقد كانت أسماء تقول حين تحس الصداع : بذنبي .. وما يغفر الله أكثر .

فإن كشف خطأً تاب إلى الله وصحح . وإلا فإنها محن الطريق إلى الله فعليه أن يصبر . تأمل في قول المؤمنين يوم الخندق عندما رأوا جحافل العرب تزحف إليهم : ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله﴾ (الأحزاب/٢٢) . لقد كانوا يعلمون أن الله وعدهم أن يعرضهم للفتنة والامتحان فإن ثبتوا جاء نصره . وإن من ذاق حلاوة الإيمان وعرف الله لا يرتد عن دينه .. وإنما يرتد من لم يبلغ الإيمان إلى أعماقه .. فأولئك حبطت أعمالهم وخسروا ما قدموا من صالحات .

فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾

... فهل يستوي عذاب الناس بعذاب الله ؟ وفي المقابل يعرض صورة المؤمنين المجاهدين الثابتين :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

إن قلوب المؤمنين متعلقة بالله تشعر بفضله ورحمته حتى في قلب المحنة . ولقد وجد أصحاب الكهف رحمة الله في كهف حقير بعد أن هجروا قصورهم وترفها طالبين رحمة الله ،﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ...﴾ (الكهف/١٦) .

■ ٣ ■

الخمر والميسر

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ

ثم يأتي السؤال عن الخمر والميسر :

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ

الخمر من المحرمات الأساسية وذلك لأنه يعطل أشرف ما في الانسان وهو العقل . (وسميت كذلك لأنها تخامر العقل وتغطيه) . والميسر : هو القمار . والتشابه بينهما هو حالة الإدمان التي تجعل المرء عبداً لا يستطيع فكاكاً .

وقد جاء الإسلام والعرب غارقون في الخمر والميسر . . كشأن الناس في كل جاهلية . . تضيع منهم الأهداف فيحاولون شغل فراغهم . وهذه الآية تعتبر أول خطوة في التحريم الذي جاء على مراحل . وقد تحدثت عن ذلك في سورة النساء عند الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ (النساء/٤٣) .

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾

إن التفكير في هذه الأمور من الناحية الدنيوية فقط قد يُظهر بعض المنافع . . لكن رؤية العواقب كلها في الدنيا والآخرة هو الذي نفتقر إليه . لذلك يأتي التوجيه في آخر الآية : **﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾** .

ولقد شعر كثير من الصحابة حين نزلت هذه الآية أنها توحي بالتحريم طالما أن الإثم أكبر من النفع والخسائر أعظم من الفوائد . . بينما تساءل عمر فجاءت الآيات الأخرى . إنه أسلوب العليم الحكيم في معالجة الأمر من جذوره أولاً بإعطاء الإنسان الهدف الذي يكرس له حياته ويشغل وقته بالعبادة التي أصبحت حبيبة إلى قلبه . ثم بالتدريج ثانياً في كسر العادة وإزالتها من حياة المسلم. وعلينا أن نميز بين الأمور التي أعلن الاسلام عليها الحرب من أول لحظة . . مثل الشرك وظلم الناس والتقليد وإهمال التفكير . . والأمور التي تدرج في القضاء عليها مثل الخمر والميسر والزنى . . وإن هذا التمييز ضروري لكل من يتصدى لعملية الهدم والبناء والتغيير الاجتماعي .

ويتكرر السؤال عن الإنفاق :

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾

فيأتي الجواب مختلفاً عن الأول . فالجواب الأول حدد فيه نوع الإنفاق وجهته . بينما يحدد الآن المقدار والدرجة .

﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾

أي الفائض عن الحاجة . وقد روي أن معاذاً وثعلبة قالا : يا رسول الله إن لنا

أرقاء وأهلين فما ننفق من أموالنا ؟ فنزلت الآية . أي مما يزيد عن نفقة الأهل والعيال . . وهنا لا بد من تأمل بعض النقاط :

١ ـ المراد بهذا الإنفاق غير الزكاة المفروضة . إذ أن في المال حقاً سوى الزكاة وكان الصحابة يسألون عن هذا الحق ومقداره . وهذا النوع قد يؤديه صاحبه ابتغاء مرضاة الله ـ وهو الأكمل والأجمل ـ فإن لم يفعل واحتاجت إليه الدولة المسلمة أخذته فأنفقته في المصالح العامة للأمة . أي أنه يحق للدولة المسـلمة أن تفرض الضرائب على الفائض من أموال المسلمين إذا كانت المصلحة العامة تقتضي ذلك . ولعل هذا ما أشارت إليه الآية ﴿خذ العفو . . .﴾ (الأعراف/١٩٩) . والخطاب للنبي باعتباره حاكم المسلمين . . فله أن يأخذ من فضول أموال الناس للقيام بالمشاريع .

٢ ـ تحديد العفو : يقول صاحب المنار : [هل المراد الزيادة عن حاجة اليوم أو الشهر أو السنة ؟!] وذكر أن النبي ادخر لأهله قوت سنة وقال : [إن القرآن أطلق العفو ليقدره كل قوم بحسب ما يليق بحالهم] . وذكر حديث «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول» . إن تحديد الفائض هنا يحتاج إلى ذوق إسلامي . . فهو الفائض عن الحاجات الضرورية وليس عن الحاجات الكمالية . . لأن من يظن أنه محتاج إلى الكماليات فإنه لن يجد الفائض فهي لا تنتهي . ويذكرني هذا بمن سأل : هل الحج فرض عليَّ قبل أن أشتري بيتاً ؟ وكأن الذين يسكنون في بيوتٍ مستأجرة قد سقط عنهم الحج ؟!

إن الغارقين في الدنيا لا يمكن أن يفهموا ويحددوا الفائض . . إنهم لم يتأملوا قول رسول الله ﷺ : «من بات آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما سيقت له الدنيا بحذافيرها» .

٣ ـ كل أمر من أوامر الله يحتاج إلى ذوق وحكمة حتى يوضع في مكانه. فإن القرآن وحده لا يكفي ـ والعقل وحده لا يكفي . وإنما نزل القرآن لأولي الألباب فهم الذين يفهمون مقاصده . إن القرآن لا يلغي العقل بل يحركه لأقصى مدى حتى يضع

كل حكم في مكانه لذلك يقول في آخر الآية : ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾

فالأمة الوسط تهتم بإصلاح الدنيا لأنها الطريق إلى الفوز بالآخرة . (ولصاحب المنار كلام جيد هنا يحسن الرجوع إليه) .

٤ ـ ليس هذا مناقضاً للدعاء : اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا . لأن الذي يغرق في الدنيا لا يفكر إلا بمصلحة نفسه الدنيوية . أما التفكير بمصالح الأمة في الدنيا والآخرة فيحتاج إلى ناس يؤثرون الآخرة ويعملون فكرهم .

٥ ـ جاء في تفسير المنار : [النكتة في الجمع بين الخمر والميسر والسؤال عن الإنفاق : هي إظهار الفرق بين طائفة تسرف في المال في الإثم وبما يعود عليها وعلى الناس بالضرر . وطائفة أخرى تنفق في البر لترفع مستوى الأمة وتسد حاجة ذوي الحاجات . . . وأفضل ما يرفع الأمة في هذا العصر : التربية والتعليم .] .

٦ ـ الإسلام يرتقي بالانسان بالتدرج في مسألة الإنفاق . فهو يبدأ من :
١" ـ الإنفاق من الفائض . ثم ينتقل إلى درجة أعلى .
٢" ـ ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ (آل عمران/٩٢) . ثم أعلى من ذلك .
٣" ـ ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة﴾ (الحشر/٩) . . . حتى إن عائشة رضي الله عنها توزع كل ما جاءها من عطاء وتنسى أن تحتفظ لنفسها بدرهم تشتري به طعاماً لإفطارها . وتقول لجاريتها : لو ذكرتني لفعلت !!

٧ ـ وإن ميزة الإسلام أنه يحل مشكلة الفقر مع إيجاد المحبة والتماسك بين الطرفين في المجتمع . . بينما الأنظمة الأخرى تغذي الحقد الطبقي والصراع . وقد نددت الآيات

بالمترفين . . واعتبرت الترف الجريمة الأولى لأصحاب الشمال ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ (الواقعة/٤٥) . ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ (الاسراء/١٦) . والعلة في المترفين هي العطالة في التعامل مع المال وعدم تسخيره لمثل أعلى سام . وأتذكر هنا ما قاله أحدهم بعد محاضرة عن تخلف العالم الإسلامي وقد جاءته امرأة تعرفه على نفسها بأنها (داعية) ـ ويداها ملأى بالحلي ـ فقال : (سيدتي حتى تصبحي مجرد مسلمة ينبغي أن ترسلي كل ما في يديك إلى الذين يموتون من الجوع) .

٨ ـ استعملت الآية كلمة العفو بالذات ولم يقل الفائض مثلاً . . فلعلها إشارة مقصودة إلى ضرورة التسامح والعفو . . فهو الحاجة اليومية للحياة في مجتمع . .

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعليك أن تنفق من العفو فأنت أيضاً محتاج إلى من يعفو عنك .

■ ٤ ■

اليتامى

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

ونفهم من الروايات المذكورة في نزول الآية أن الصحابة : قد تحرجوا من مال اليتامى بعد نزول ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ (الأنعام/١٥٢) . و ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ (النساء/١٠) .

فجعلوا يعزلون طعام اليتيم وشرابه عن طعامهم وشرابهم . فإن فضل له شيء من طعامه يحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ .

ولقد جاءت الوصية باليتيم دون تحديد لحالته المادية لأنه فقد أعز شيء في الدنيا : حنان الوالدين . ولئن وجد في الماضي يُتمٌ طبيعي . . فقد رأينا في عصرنا يتماً صناعياً . . يَنْتزعُ من الطفل والديه حرصاً على المادة وزيادة الانتاج . . وتحت شعار (التحرر الاقتصادي للمرأة) . . !! ويرمي بأجيال من الأطفال إلى محاضن جماعية . . إن توفرت فيها الرعاية المادية فإنها خاوية من حنان الأبوين ومن صدر الأم خاصة . . فمن لهذا اليتيم الجديد الضعيف . . ؟! وكيف رضيت أمه أن تتخلى عنه وتسلمه إلى الأيدي الغريبة . . مقابل حفنة من مال . ؟! حقاً لقد أصبح المال والإنتاج أغلى من الإنسان . . وقد كان اليتامى يتعرضون لظلم كبير في الجاهلية ـ ولا سيما المرأة اليتيمة ـ فجاءت الآيات تحذر وتنذر . . فدفع الورع الصحابة الى فصل مال اليتيم فأصابه الضر في ذلك . فجاءت الآية :

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ

فالمهم أن تفكر في حل يحقق لليتيم مصلحة أكثر .

وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ

وقد يؤثر في نفوسهم هذا العزل ويزيد من شعورهم بالحرمان . . فمخالطتهم أفضل لأنها تعوضهم بالمحبة الأخوية عن حنان الأبوين .

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ

فطالما نيتكم أن تحققوا له ما فيه مصلحته واجتهدتم في سلوك أحسن طريق في ذلك فإن الله يرفع عنكم الحرج .

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ

لكن الله لا يريد لكم العسر والمشقة وقد سبق أن جاء التوجيه لولي اليتيم في سورة النساء ﴿ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ (النساء/٦) . لأنه يقوم على تدبير شؤون اليتيم ومصالحه . .

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

عزيز : قادر على معاقبة من يخالف ويتلاعب . وحكيم لا يأمر إلا بما فيه الخير واليسر والصلاح . فلا تحولوا شريعته الحكيمة السمحة إلى عنت وعسر .

الفصل الثالث عشر

أَحْكَامٌ فِي الزَّوَاجِ وَالطَّلَاقِ

(٢٢١ ← ٢٤٢)

- أساس بناء الأسرة .
- العلاقة الزوجية :
  - في المحيض .
  - في الكيفية .
- القسم ويمين اللغو .
- أحكام في الخلافات الزوجية :
  - الإيلاء .
  - عدة المطلقة .
  - درجة الرجال .
  - الطلاق وحقوق الفريقين .
  - النهي عن الإمساك ضراراً ، والعضل .
- حكم الرضاع والفصال .
- بعد وفاة الزوج :
  - عدة الوفاة .
  - خِطبة المعتدة .
- متاع المطلقة قبل المساس .
- حافظوا على الصلوات .
- متاع المطلقات .

وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ
مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ
يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ
يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ
وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ
عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ
وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ
أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾
نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ
وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٤﴾
لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ
قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ
أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنۡ عَزَمُواْ

ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ
بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ
أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ
فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ
فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن
تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ
ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ
بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ
زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن
يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۗ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۗ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟

نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ
يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾
وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ
أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ
مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ
يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ
حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ
وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ
وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ
فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ
أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ
ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾
وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ
أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ
فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ

﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ
أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ
وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ
وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ
مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ
قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟
ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ
وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾
حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ
قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ
فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ

﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً
لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن
مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ
بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

إن توسع القرآن في تفصيل أحكام الأسرة يشعرنا :

١" ـ بأهمية الأسرة فهي المحضن الرئيس للإنسان . وهي الخلية الأولى في المجتمع . فالإصلاح يبدأ من الأساس بتنظيم هذه الخلية وضمان سلامتها وصلاحيتها للعطاء .

٢" ـ طفولة الإنسان طويلة المدى ـ بالنسبة للحيوان ـ ويتشرب المفاهيم خلالها من أسرته فلا يتحقق المحضن السليم إلا إذا بني على الإيمان بالله واليوم الآخر .

٣" ـ لتربية الطفل لا نبدأ به منذ ولادته ولكن ينبغي العناية بوالديه قبل ذلك . وذلك من حرص الإسلام على ترقية النوع ـ فليست الغاية من الزواج هي مجرد إرواء الغريزة وبقاء النوع وهذا ما يميز الإنسان عن الحيوان ـ وكل ما نراه من عيوب عند أطفالنا ناتج عن عيوبنا بالإضافة إلى ما يتلقون من مفاهيم سلبية من المجتمع عامة «فأبواه يهودانه» .

وسنلاحظ أثناء تناولنا لهذه الأحكام في الأسرة :

١" ـ أنها ترد بدقة وتفصيل لكنها لا تذكر جافة مجردة ـ كما هي في كتب الفقه والقانون ـ إنها تُعَرض بأسلوب يوحي بقداسة الموضوع وخطورته . . ويربط كل حكم برقابة الله ويجعل التقوى هي الضمان الأول . فما أسهل الاحتيال على النصوص والقوانين إن فقدت التقوى ولا سيما في المسائل العائلية .

٢" ـ كذلك تأتي الأحكام وهي تستوعب ضعف الإنسان ونقصه وتعرضه للخطأ ـ فهي ليست مثالية خيالية ـ وهي تأخذ بيده وترتقي به إلى مستوى أفضل (مثاليةواقعية) .

٣" ـ سنرى مدى رعاية الله للمرأة وكرامتها وحقوقها . فقد أعطاها الضمانات اللازمة لكي تؤدي دورها . . وملأ نفوس الرجال خوفاً من غبنها . (راجع ظلال القرآن عند هذه الآيات). وتبدأ هذه الأحكام من :

- ١ -

أساس بناء الأسرة

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

إن الإيمان هو الأساس الذي تبنى عليه الأسرة :

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ﴾

وقد نزلت في هذا الموضوع ثلاث آيات مدنية :

الأولى : هي هذه . وتتحدث عن البداية والاختيار . حيث يجب على المؤمن والمؤمنة إعطاء الأولوية للإيمان عند الاختيار .

الثانية : في سورة الأحزاب ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله

والدار الآخرة . .﴾ (الأحزاب/٢٨) . فالذي بنى أسرة ينبغي له أن يعيد النظر في الأساس الذي بنيت عليه ـ اقتداء برسول الله ﷺ ـ فإذا لم يكن الإيمان هو الأساس فهدمها أولى . ولم يذكر إلا طرفاً واحداً : وهو الرجل يخير زوجته فإن آثرت الدنيا على الله ورسوله يطلقها .

الثالثة : في سورة الممتحنة في السنة السادسة في الحديبية : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لاهنَّ حِلٌّ لهم ولاهم يحلون لهنَّ . . . . ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ (الممتحنة/١٠) . فالخطاب للطرفين رجالاً ونساءً .

وعلة التحريم :

أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ

حرام أن يربط الزواج بين قلبين لا يجتمعان على عقيدة . . حرام أن يجتمع زوجان على هدفين مختلفين . . فأي تمزق وأي صراع . . ؟! ومن أين تأتي المودة والرحمة والسكينة لهذه الخلية ؟! والأمر يختلط علينا الآن . . فالاسم مسلم أو مسلمة . . ولكن أين الالتزام الفعلي بأمر الله ؟! وينبغي أن نفهم الإيمان على حقيقته : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ (النساء/٦٥) . ولا ينبغي للمؤمن ولا للمؤمنة أن يتورط مع شريك يعطي الأولوية للحياة الدنيا وزينتها . **﴿أولئك يدعون إلى النار﴾** .

وحتى حين تكون الأسرة قائمة فينبغي التدقيق في أهداف الشريك ، فإن كانت الدنيا هي أكبر همه وعجزت المحاولات الصادقة عن توحيد الهدف بين الطرفين فالأولى فك هذا الرباط وهدم هذا البناء الفاسد .

وقد يرد سؤال هنا : كيف سمح بالزواج من الكتابية ؟

إن الآية : ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب﴾ (المائدة/٥) . اشترطت فيها

أن : تكون مؤمنة بدينها . ومحصنة أي عفيفة ذات أخلاق وسيرة حسنة . . وهكذا نرى أن الكتابية عندها الخطوط العريضة في الدين : الايمان بالله - واليوم الآخر والأنبياء - وتؤمن بوجوب العمل الصالح - يبقى أنها قد لا تؤمن بنبوة محمد ﷺ . وهذا ناتج عن الجهل بما جاء به ﷺ . وكثيراً ما يظهر للكتابية من معاشرة المسلم والحياة في بيئة مسلمة جمال الإسلام وصدق محمد ﷺ . وأذكر في هذا المجال أن المؤرخ توينبي اعترف أن الإسلام قد خطا بالإنسانية نحو السماحة والانفتاح في العلاقات بعيداً عن التعصب حين سمح لأتباعه بالزواج من أتباع الديانات السماوية الأخرى .

علماً بأن بعض العلماء حرم الزواج منها إن كانت تؤمن بالتثليث أو بُنُوَّة عيسى لله . . كذلك لا بد أن ننتبه أن هناك ظروفاً تجعل المباح مكروهاً لضرره . فقد كره عمر ابن الخطاب الزواج من الكتابية خشية كساد المؤمنات. وصاحب الظلال وصاحب المنار ذكرا أن هذه الزيجات في هذا العصر شر على البيت المسلم . وأخطر شيء في الموضوع تربية الأولاد لأن الأم هي صاحبة الدور الأكبر فيها .

ولا بد أن نلاحظ أنه في العصور الأولى كان ميزان القوة يميل لمصلحة المسلمين . . وفي ذلك تألف لأهل الكتاب . ومخالطتهم والإحسان إليهم والارتباط معهم بالمصاهرة من شأنه كسر الحواجز النفسية والتعرف على الاسلام . أما الآن فإن ميزان القوة قد اختل . . وكثيراً ما يفقد الشاب المسلم دينه والتزامه بزواجه من الأجنبية بدلاً من أن تصحح نظرها هي إلى الإسلام . فالموضوع يأخذ طابع الرخصة . . وأصعب شيء في الأمور أن تختار أهون الشرين .

أما لماذا لا يسمح للمؤمنة بالزواج من كتابي ؟ فلأمور كثيرة منها :

١ - أن القوامة في كل الأديان للرجل وإليه ينسب الأولاد ويأخذون دينه . وهذا يضيق عليها .

٢ - لن تجد المسلمة كرامتها في هذا الزواج - بعكس الكتابية - لأن :

١" - زوجها لا يؤمن بمحمد ﷺ ولا يحترم كتابها المقدس .

٢" ـ تحرم من حقوقها المالية التي قررها لها الإسلام (كالمهر والميراث والنفقة وحرية التصرف في المال . . .) .

وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

ويأتي التعقيب الكريم : ﴿ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ هكذا يخطط الله للبشر ويبين لهم ضرورة الانتباه إلى النتائج ووضعها في الحساب عند التخطيط .

فالقاعدة : هي أن الاهتمام والتخطيط للأمر يعطي النتائج الطيبة مع بقاء شواذ . وحين يراعى ذلك في بناء الأسر فإن أكثرها يُعطي ثماراً طيبة . . والذين يعترضون على ذلك إنما يذكرون حالات شاذة ويريدون ترك الأمر للمصادفة . بينما يأمرنا الله بالتدبر والتخطيط والقيام بالأسباب . . فإن حصل خلل في النتائج نعود وندقق ونراجع فلعل في الأمر نقصاً أو خطأً فإن لم نجد ، عندها نصبر ونحتسب ولسنا مؤاخذين . .

■ ٢ ■

العلاقة الزوجية

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

٣- في المحيض :

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾

ذكر ابن كثير في سبب النزول أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يجالسوها . فسأل الصحابة عن ذلك فنزلت الآية فقال ﷺ : «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» . فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل إلا أن يخالفنا . فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا : يا رسول الله . أفلا نجامعهن؟ (نكاية باليهود) فتغير وجه رسول الله ﷺ . وقد ذهب أكثر العلماء إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج لعدة أحاديث منها :

«كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها ثوباً» [1] . وفسروا قوله تعالى :

﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾

أي في الفرج (موضع الحيض) . وقد بين لهم العلة قبل ذلك : ﴿قل هو أذى﴾ . ففي ذلك أذى وضرر على الرجل والمرأة . ويمكن إدراك ذلك طبياً . ومن فعل ذلك فقد أثم . فهل عليه كفارة ؟ اختلفوا في ذلك . والأرجح أن لا كفارة عليه ـ إذ لم يأت خبر صحيح في ذلك ـ وإنما يستغفر الله ويتوب إليه .

وصاحب الفطرة السليمة ينفر ذوقه من الأمر الذي نفر منه الله وبين أن فيه أذى

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾

يقول ابن عباس : حتى يطهرن : أي من الدم . فإذا تطهرن : أي بالماء . فلا بد

---

(١) ذكره ابن كثير عن أبي داود .

من التطهر بالماء . ولو على الأقل تطهير موضع الحيض .

﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾

أي في الفرج .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾

فلا يغلق الباب دون من يخطىء ويضعف ، ولكن يجب أن ينوي عدم العودة .

﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾

المتنزهين عن المخالفة . . . والمتطهرين من الذنوب التي تلوث نفس المؤمن بالتوبة والاستغفار .

٢" ـ العلاقة الجنسية في الكيفية :

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾

أي : كيف شئتم . وذكر سبب نزولها أن عمر بن الخطاب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله هلكت . قال ﷺ : «ما الذي أهلكك ؟ قال : حولت رحلي البارحة (كناية عن إتيان زوجته من خلفها) . قال : فلمْ يرد عليه شيئاً . . فأوحى الله إلى رسوله هذه الآية . وقال ﷺ : «أقبل وأدبِر واتقِ الدُّبر والحيضة» [1] .

وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن إتيان المرأة في دبرها . منها : «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدُّبر» [2] . وذلك واضح من الآية : ﴿حرث لكم﴾ .

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه الترمذي والنسائي .

فهو موضع الزرع والولد .

﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾

أي ليكن هذا عملاً تتقدمون به إلى الله . . وإن التزام المسلم بالحلال واجتنابه الحرام في هذه العلاقة طلباً لمرضاة الله إنما هو نوع من العبادة كما قال ﷺ فاستغربوا أن يكون للرجل أجر في إتيان شهوته . فقال ﷺ : «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر»[1] . ولهذا ورد التوجه بدعاء إلى الله عند الجماع : «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا . فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً .»[2] . ولعل في الآية توجيهاً للرجل أن يبدأ بالتلطف عند إتيان أهله .

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

وهكذا ربطت العلاقة الزوجية بالله ربطاً محكماً . فالمؤمنون يقفون عند حدود الله وقاية لأنفسهم . . فينعمون ببشارة الله لهم . . ويركنون إلى كنفه واثقين بصدق وعده .

وقفت أمام الآية الكريمة فأذهلتني بإعجازها . . فهي من أروع التعابير وأكثرها أدباً وصدقاً في وصف العلاقة الجنسية في البيت المؤمن . . إنها تصور العلاقة هادفة نبيلة يبتغي بها المؤمن القرب من الله . . إنها تبين الحلال وتبيح الاستمتاع بكلمات نظيفة لا يجد القارىء أرقى منها حتى لا يجد حرجاً في تلاوتها على أي ملأ . . . وشعرت بالرثاء لمن حرموا من تذوق آيات القرآن وحكم الاسلام . . أولئك الذين تحدثوا عن الكتب والعقد النفسية الناجمة عن تنازع المثل الأعلى مع الغرائز . . إنهم يعيشون صراعاً نفسياً إذا انتصر فيه المثل الأعلى وقعوا في الكبت . . وإذا انتصرت الغرائز فقدوا طمأنينة

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه البخاري .

النفس ووقعوا تحت نير الشعور بالإثم . . !! كالمستجير من الرمضاء بالنار . . فأين هذا من النفس المطمئنة التي لم يحدث فيها هذا النزاع ؟

■ ٣ ■

القسم ويمين اللغو

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)﴾

نفهم من قوله تعالى :

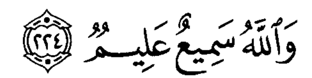
﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ﴾

لا تجعلوا الحلف بالله مانعاً لكم من عمل البر والتقوى والإصلاح بين الناس . فإذا حلفتم ألا تفعلوا خيراً فكفروا عن أيمانكم وأتوا الخير ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾ . والدليل على ذلك أحاديث كثيرة منها : «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير» [1] . و «والله لأن يَلَجَّ أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله من أن يعطي كفارته التي افترض

(١) رواه مسلم .

الله عليه»[1] . وهذا مثل ما حدث مع أبي بكر رضي الله عنه حين أقسم أن لا يبر مسطحاً ـ قريبه الذي شارك في حديث الإفك ـ فأنزل الله ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى . . .﴾ (النور/٢٢) . فقال أبو بكر : بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي . فكفر عن يمينه وعاد إلى نفقته على مسطح . وصاحب المنار يقول [معنى الآية : لا تجعلوا اسم الله معرضاً لأيمانكم . أي لا تكثروا الحلف بالله تعالى كراهية التعود على ذلك . وهذا يجعلكم أقرب إلى أن تبروا وتتقوا وأبعد عن الكذب والحنث . . ويجعل منكم موضع ثقة الناس فتتمكنوا من الإصلاح بينهم . . أما كثير الحلف فهو ساقط الاعتبار بين الناس مهين عندهم ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ . بل إنه لا يثق بنفسه فهو يشعر بأنه لا يُصَدَّق فيحلف] .

وإن تعريض اسم الله تعالى للحلف بدون ضرورة ولا حاجة يدل على ضعف الشعور بهيبة الله وجلاله عند الحالف .



وهذا وعيد لمن يكثر الحلف . وترغيب لمن يكفِّر .

لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ

ويمين اللغو يُعرِّفه صاحب الظلال بقوله : (ما جرى به اللسان عفواً ولغواً من غير قصد) ، وذكر حديثاً : «اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته : كلا والله . وبلى والله»[2] . . وقد ورد عن ابن عباس : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان (لأن الغضب يذهب الوعي) . والأيمان ثلاثة :

١ ـ **يمين اللغو** : وهو الذي لا تنعقد النية على ما وراءه إنما يلغو به اللسان . قال

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه أبو داود .

الإمام مالك : أحسن ما سمعت في ذلك أن اللغو حلف الإنسان على الشيء يستيقن أنه كذلك ثم يوجد بخلافه فلا كفارة فيه .

٢ ـ **اليمين المنعقدة** : وهي التي ينوي الحالف الأخذ بها أو الترك لما حلف عليه . فهي التي تستوجب الكفارة عند الحنث . وهي التي تقول عنها الآية :

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾

ويجب الحنث بها إن كان مؤداها الامتناع عن فعل خير أو الإقدام على شر .

ويدخل في ذلك النذر فحكمه كالحَلْف في الوفاء وفي الكفارة عند التحلل . مع التنبيه إلى كراهية النذر الذي فيه شرط (إن حصل لي كذا فعلت كذا من الصدقات) . والأفضل أن يتقرب الإنسان إلى ربه بالطاعات عندما يكون في ضيق ويدعو بالفرج . أما النذر الذي ليس فيه شرط فهو عبادة ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ (مريم/٢٦) . وهو كاليمين من حيث وجوب الحنث به إن كان فيه ترك للأفضل أو تحريم ما أحل الله .

٣ ـ **يمين الغموس** : وهو أن يحلف على شيء وهو يعلم أنه كاذب آثم ليرضي به أحداً أو يقتطع به مالاً فهذا أعظم من أن تكون له كفارة . (يغمس صاحبه في النار) . وقد سأل أعرابي النبي ﷺ : ما الكبائر ؟ قال : الإشراك بالله . قال : ثم ماذا ؟ قال عقوق الوالدين . قال ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس . قلت : وما اليمين الغموس ؟ قال : التي يقتطع بها مال امرىءٍ مسلم هو فيها كاذب»[1] .

أما كفارة اليمين المنعقدة فقد ذكرت في سورة أخرى ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم . . .﴾ (المائدة/٨٩) . من الحنث . . ولا تعودوا لسانكم على الحلف الكثير . فإن أخطاءكم تنتقل إلى أبنائكم . . وصيانة الجيل الجديد من العادات السيئة تتطلب منا مراقبة الذات

---

(١) رواه البخاري .

وضبط اللسان ، إضافة إلى تعويدهم على الصدق والثقة بكلامهم دون استحلافهم .
ويعقب على حديثه عن الأيمان :

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ٢٢٥﴾

.. حليم عن مؤاخذة العباد بكل ما يفلت منهم ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ (فاطر/٤٥) .

■ ٤ ■

أحكام في الخلافات الزوجية

١" ـ الإيلاء .

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٢٦ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٢٧﴾

والإيلاء : أن يحلف الزوج أن لا يقرب زوجته إما لأجل معين أو لأجل غير محدود . والحياة الزوجية تمر بها أزمات قد تدفع الزوج إلى مثل هذه المواقف .. تنفيساً عن غضبه .. أو تربية وتأديباً .. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ اعتزل نساءه شهراً حين طالبنه بالتوسعة في النفقة تأديباً لهن . ثم خيّرهنَّ بين الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله . فاخترن الله ورسوله .

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾

ولكن حتى لا يصبح الأمر إعناتاً للمرأة حدد الله للإيلاء حداً أقصى لا يجوز تجاوزه

(أربعة أشهر) مراعاة لقدرة المرأة على الاحتمال . وحتى لا تفسد نفسية الزوجين وهي المدة التي وقف عندها عمر بن الخطاب وقال : لا أحبس أحداً من الجياش (الجند) أكثر منها [1] . وهذه المدة كافية كي يختبر الزوج نفسه ويفكر في حياته الزوجية فإما أن يعود إلى استئنافها وتصحيحها ، وإما أن يظل في نفرته فالأوْلى أن تفك هذه الرابطة لأن الله لم يجعل الزواج سجناً لا فكاك منه ـ فإذا أقسم على اعتزال امرأته لمدة أقل من أربعة أشهر فله أن يرجع إلى زوجته عند انتهاء المدة التي حددها . وله أن يرجع قبل الانتهاء ويكفر عن يمينه . أما إن أقسم دون أن يحدد مدة أو أنه حدد أكثر من أربعة أشهر . . فعليه أن يرجع إلى زوجته بعد مضي أربعة أشهر ويكفر عن يمينه وإلا كان من حقها أن تطلب الطلاق من الحاكم .

فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾

غفور لما بدر من الزوج من تقصير ولما فعلته الزوجة من تنفير وإغضاب لزوجها . وفي ذلك تذكير بالتسامح .

وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

يسمع ويعلم من تسبب في هدم هذه الأسرة . فليحذر الزوجان ولا يتسرعا وراء الغضب . . ولا يغترا بكلام الناس فإن الناس قد تدين المظلوم وتلومه . . ولكن الله لا تخفى عليه خافية .

٢" ـ عدة المطلقة :

وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ

---

(١) رواه مالك في الموطأ . وفيه أنه سأل حفصة رضي الله عنها : كم أكثر ما تصبر المرأة على زوجها ؟ فقالت : ستة أشهر أو أربعة أشهر .

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ﴾

القروء جمع قرء : وفيه قولان : الحيض ـ الطهر بين الحيضتين .

يتربصن : أي ينتظرن . لكنها تحمل معنى المراقبة . فعلى المطلقة أن تمسك زمام نفسها وتتربص بها ـ وقد قيل أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ـ والمرأة حين تطلق تشعر بجرح في كبريائها وتريد أن تثبت أن الطلاق لم يكن لنقص أو عيب فيها فترغب في الزواج مرة أخرى . . ولكن العليم الحكيم يراعي مصلحة الأسرة ككل فيأمر بالانتظار مدة العدة حتى تتأكد من عدم حملها من زوجها السابق . وعسى أن يلتئم شمل الأسرة من جديد .

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ﴾

تحريك الإيمان بالله واليوم الآخر خير دواء للنفس الجريحة . وعودتها إلى زوجها أفضل للجميع .

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًاۚ﴾

وبذلك يفتح الله الفرص أمام الصلح ويذكر بالإيمان بالله والحساب أمامه في اليوم الآخر . ولو تركت النفوس في نفورها وترك كل إنسان يتصرف على هواه لفسدت الحياة .

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾

والعدة فترة لمراجعة النفس عند الزوجين . فقد يبدو لهما أن الأسباب التي دفعتهما إلى ذلك أسباب تافهة يمكن التغاضي عنها . مع تذكر الاحتياطات الأخرى التي وضعها الله في وجه الطلاق (لا تطلق وهي حائض ـ العدة في بيت الزوج) . وكذلك يراد من العدة صيانة الأنساب من الاختلاط وحماية الطفل وتحسين ظروف أسرته بقدر الإمكان .

وهذه هي الطلقة الأولى ويحق لزوجها أن يراجعها أثناء العدة . فإن مضت العدة وأراد أن يرجعها فلا بد من عقد ومهر جديدين . وأما لفظ الطلاق ثلاثاً من المرة الأولى : فلا يقع إلا واحداً . (وقد خالف ذلك عمر فأوقع الطلاق ثلاثاً حتى لا يحل للرجل أن يرجع إليها حتى تنكح زوجاً آخر . وذلك تأديباً للناس . وسمي هذا طلاق البدعة) .

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾

فللزوج الأولوية في إرجاع زوجته بشرط أن يكون الدافع هو الإصلاح .

٣" : درجة الرجال :

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

وفي مجال الإصلاح بين الزوجين تذكّر الآيات بالتساوي في الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء ويستثني درجة الرجال وهي القوامة والرئاسة . وصحيح أن هذه القوامة تستلزم الطاعة من المرأة . . لكنها مسؤولية كبرى توضع على كاهل الرجل بحيث يكون المسؤول الأول عن كل ما يصيب تلك المؤسسة الهامة في المجتمع : وهي الأسرة[١] .

---

(١) راجع تفسير الآية ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ في كتابنا : من هدي سورة النساء .

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾

وموضوع القوامة ملتبس على كثير من المسلمين ويسيئون فهمه واستخدامه . لكن من فهم الإسلام وعاش حياة إسلامية يدرك الأمر بواقعية ولا يشعر بأي حرج منه . والمرأة التي تؤدي واجبها هي التي تحصل على حقوقها . والله تعالى يقول : ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ (المائدة/٤٨) . و﴿أحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ (البقرة/١٩٥) . . فهل المحسنون هم الذين يحرصون على حقوقهم في الدنيا ؟ إن من يؤدي واجبات أكثر هو الذي يفوز في الدنيا والآخرة .

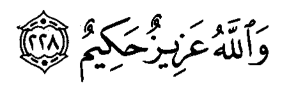
والأسرة مؤسسة صغيرة لا يستقيم أمرها بدون رئيس يدير شؤونها . والله سبحانه وتعالى حين وزع الوظائف والمسؤوليات في الأسرة راعى في ذلك فطرة الرجل والمرأة ومؤهلات كل منهما ومدى تفرغه . . فالمرأة مشغولة بصناعة الجيل ـ وهي أخطر صناعة في المجتمع ـ ولا بد أن تعطى التفرغ الكافي لأداء دورها ويُهيأ لها من يرعاها وينفق عليها . ولذا كلف الرجل بالقوامة على الأسرة . وإن من ينظر إلى الموضوع بتجرد يرَى أن في ذلك إكراماً للمرأة وعوناً لها . وإن هذا التوزيع للوظائف لا يبنى عليه أي تفضيل في الدنيا والآخرة . فقد جاءت الآيات لتضع المرأة إلى جانب الرجل في التكليف والثواب والعقاب ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات . .﴾ (الأحزاب/٣٥) . يقول ﷺ : «إنما النساء شقائق الرجال» .

ولا بد من إعداد المرأة وتربيتها وتعليمها بالقدر الذي يسمح لها بأداء دورها في صناعة الأجيال (ترقية النوع) ، وحسن التبعّل . وإن مهمتها تتطلب تحصيلاً علمياً عالياً في العلوم الإنسانية ـ إلى جانب علمها بدينها ـ فأين المرأة المؤمنة المعاصرة من ذلك كله . . . ؟![1] .

---

(١) انظر تفسير المنار فقد توسع الشيخ رشيد رضا في بيان أهمية تعليم المرأة عند هذه الآية .

ومع ذلك فإن المشكلة لا تحل عن طريق المطالبة بحقوق المرأة . . بل بالسير في طريق الواجب . ويأتي التعقيب :



قادر على عقاب من يقصر في واجبه من الرجال والنساء وحكيم في توزيع المهام والمسؤوليات . ووضع الأحكام في مكانها المناسب تماماً .

٤" ـ الطلاق وحقوق الفريقين :

الطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ
فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

تذكر الآية عدد الطلقات ، وحق المطلقة في المهر والنفقة ، وحالة الخلع . وقد كان الطلاق في الجاهلية بدون حدود ولا قيود . ثم إن رجلاً من الأنصار اختلف مع زوجته فوجد عليها في نفسه فقال : والله لا آويك ولا أفارقك . قالت : وكيف ذلك ! قال : أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك . فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزلت الآية :

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾

ومن حكمة الله تعالى أن ينزل الحكم عند الحاجة إليه . وعند ذلك يشعر المسلم بصلته مع الله وأن عين الله ترعاه وتراقبه . . ويشعر بنعمة الله ورحمته فيغدو أكثر تمسكاً بالحكم .

﴿فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾

بعد طلاقها مرتين فإن عليه أن يفكر ويتأنى ، لأن الثالثة فيها بينونة كبرى ، فإما أن يقرر إمساكاً بمعروف يتعاشر فيه مع زوجته بشرع الله ويعاملها بالمعروف . . أو يخلي سبيلها بإحسان فقد آن له أن يقرر بعد هذه التجارب : هل يمكنه التفاهم والانسجام مع زوجته أم لا . .

والتسريح بإحسان يعني أن يكون كلا الطرفين حريصاً على عدم إيذاء الآخر ويعطيه حقوقه . . وزيادة (لأن الإحسان أكثر من العدل) . ولهذا يذكر الرجل بحقوق المرأة المالية :

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾

فإذا كان التفريق نتيجة كره الرجل لزوجته فعليه أن يؤدي لها مهرها ونفقتها ولا يأخذ منها شيئاً مما أعطاها إلا في حالة واحدة . . وأما إذا كان التفريق نتيجة المخالعة حيث تكون المرأة فيها هي الكارهة الراغبة في الطلاق ـ دون أن يكون للزوج أي ذنب أو تقصير معها ـ فعليها أن تفتدي نفسها فترد إليه المهر أو النفقة ـ أو أكثر ـ وذلك بالتراضي بينهما .

﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ﴾

﴿ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾

فالأساس : هو إقامة حدود الله بحيث يؤدي كل طرف واجبه الذي أمره به الله . فكما أن للرجل أن يطلق زوجته إن وجد أنه عاجز عن معاشرتها بالمعروف على أن يعطيها حقوقها كاملة . . فإن للمرأة أيضاً أن تطلب الخلع إن وجدت في نفسها نفوراً وخشيت أن تقصر مع زوجها فلا تعطيه حقوق الزوجية التي فرضها الله عليها . وعليها أن تفتدي نفسها برد ما أعطاها من مهر لأنه لا ذنب له في نفورها . . فالإسلام لا يرغم المرأة على حياة تكرهها ، لكنه لا يظلم الرجل أيضاً ولا يضيع عليه ما أنفق دون ذنب جناه . وقد ذكر أن امرأة ثابت بن قيس قالت للنبي ﷺ : ما أعيب عليه في خلق ولا دين ولكن أكره الكفر في الإسلام . فقال ﷺ : «أتردين عليه حديقته ؟» وكانت مهراً لها . قالت : نعم . فقال ﷺ لثابت : «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة»[1] .

ويعقب على الحكم :

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾

هذه الأحكام هي الحدود للحياة الإسلامية . فلا تُخرج نفسك من الإسلام بتعديها . . فهي العدل الصادر عن الحكيم العليم الذي يشرع للواقع بحلول واقعية عادلة . .

والتحذير في الآية : ﴿فلا تعتدوها﴾ يختلف عن التحذير في موضوعات أخرى ﴿فلا تقربوها﴾ لاختلاف الموضوع . فالأحكام هنا تتعلق بمشكلات واقعية قد تدفع الإنسان إلى حالة من الغضب يتعدى فيها حكم الله فيصبح ظالماً .

---

(١) رواه البخاري .

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾

وهي الثالثة وعندها تكون المرأة قد بانت من زوجها بينونة كبرى بمجرد إيقاعها فلا رجعة فيها أثناء العدة .

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾

الزوج الثاني طلاقاً طبيعياً دون ضغط من الأول أو أي تلاعب واحتيال :

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾

فالمهم هو إقامة حدود الله وأحكامه . ولعل هذه التجربة الجديدة تكون فيها عبرة للزوجين ويعرف كل منهما قدر شريكه .

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾

فالذين عندهم علم هم الذين يستفيدون من بيان الله لهذه الأحكام والحدود . ويدركون قيمتها في الحياة .

٥" ـ النهي عن الإمساك ضراراً والعَضْل :

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ

يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

قال الله تعالى :

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ

عن ابن عباس : كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها ثم يطلقها ثم يفعل ذلك يضارها ويعضلها فأنزل الله الآية .

والآيات تكشف لنا عن مدى الظلم الذي كان يقع على المرأة وأساليب الجاهلية في معاملتها والإسلام يبطل ذلك كله .

وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ

إن الضرار عدوان على المرأة وقد جاءت الشريعة للتسهيل لا للإيذاء والتعذيب .

وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ

لأن الله تعالى ﴿خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾ (النساء/١) .

١ ـ فالزوجان نفس واحدة يتألم كل منهما لما يؤذي الآخر . والله يُحْيي هذه المعاني الكريمة هنا .

٢ ـ والذي يضار زوجته قد ظلم نفسه بالدنيا بسلوك طريق الشر والاعتداء فلن يرتاح ضميره ولن يشعر بالأمن .

٣ ـ وظلم نفسه ﴿وقد خاب من دساها﴾ (الشمس/١٠) . حين عودها على الظلم والعدوان .

٤ ـ الضرار صيغة من الضرر تعطي معنى المشاركة . وذلك فيه إشعار بأن ضره إياها يستلزم ضرها إياه . فقد ظلم نفسه بجعل المرأة وعصبتها أعداء له يحاولون ضره . كما أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب . .

٥ ـ وحين يُسْهِم في إشاعة الظلم والضر في المجتمع فإنه سيتعرض للظلم أيضاً لأن نجاة الفرد في الدنيا متعلقة بنجاة مجتمعه إلى حد كبير . والمجتمع الظالم لا يأمن فيه أحد .

٦ ـ وظلم نفسه بتعريضها لغضب الله وعقابه في الدنيا والآخرة .

والقرآن لا يهتم بظلم الناس لك بقدر ما يركز على ظلمك لنفسك . لأن جوهر المشاكل كامن في هذه النقطة ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ (آل عمران/١٦٥) . فهل جربنا أن نؤدي ما علينا من واجب وأن نلتزم الحدود التي حدها الله ونعامل بالمعروف حتى عند النفور والكراهية ؟

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ

بالاحتيال عليها والتلاعب بها . وإن من يحلف بالطلاق لأتفه الأسباب أو أثناء اللهو والمزاح تناله الآية بالتحذير . ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب . قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟!﴾ (التوبة/٦٥) . وقد قال بعض السلف : «المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بربه» .

بعد التحذير يأتي التذكير بالنعمة :

وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ

والتذكير للنساء والرجال بنعمة الهداية إلى الدين العادل الذي حرم الظلم على المرأة والرجل «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي فلا تظالموا . . » . واذكروا من هذه النعم ﴿أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . . ﴾ (الروم/٢١) .

وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ

والكتاب هو الأحكام . والحكمة هي أن تعرف أن سعادة البشرية في هذه الأحكام . ومعرفة الحكم مع حكمته هي التي تحدث العظة والعبرة الباعثة على الامتثال لأمر الله .

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾

كل هذه التوجيهات تعظيم لعقد الزوجية وتأكيدٌ على إنصاف الزوجة . .

وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ

والعضل : هو منع المرأة من الزواج . وكان من عادتهم في الجاهلية أن يتحكم الرجال في تزويج النساء (ولي أمرها) . وقد ورد في سبب النزول أن معقل بن يسار قال : كان لي أخت فأتاني ابن عم لي فأنكحتها إياه فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت العدة فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطاب فقلت له : يا لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها ؟ والله لا ترجع إليك أبداً . وكان رجلاً لابأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه . فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله الآية . فلما سمعها معقل : قال سمعاً لربي وطاعة . ثم دعاه فقال : أزوجك وأكرمك وكفر عن يمينه[1] .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

هكذا كان خضوعهم لأمر الله ولو كان فيه مخالفة للهوى والتقاليد والتعرض لنقد الناس . وتمضي الآيات في ربط الأحكام بالإيمان .

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

وتتضمن الآية إشارات هامة :

١ ـ هذا الحكم نصيحة وموعظة من الله ، والمؤمن هو الذي يستفيد ويطبق .

٢ ـ وهو أزكى لكم وأطهر لأعراضكم وفيه صيانة للمجتمع من الفاحشة .

٣ ـ إن الله يعلم كل شيء وعلمكم أنتم قليل ومحدود . ولا يأمركم إلا بما فيه صلاحكم .

■ ٥ ■

حكم الرضاع والفصال

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

واجب الأم نحو طفلها إرضاعه لمدة سنتين لمن أراد أن يتم الرضاعة .

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ

وواجب الأب :

وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ

تأمين نفقة الأم خلال هذه الفترة بالمعروف أي حسب العرف وحسب قدرة الرجل .

لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ

إن المشكلات لا تحل إلا بأداء الواجب . ومما لا شك فيه أن طريق الواجب ثقيل ولا يستهوي الجماهير . . وكثيراً ما يخطىء الزعماء حين يلوحون للجماهير بالحقوق فإن طريق الحقوق سهلة مغرية لكن سرعان ما تنكشف الحقيقة ويعجز الزعماء عن إعطاء هذه الحقوق . . لأن أداء الواجب هو الذي يصنع الحقوق . بينما دعا الأنبياء الناس إلى طريق الواجبات . . «أدوا ما عليكم واسألوا الله الذي لكم» .

لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ

كأن تمنع الأم من إرضاع ولدها وتحرم منه نكاية بها . وكذلك لا يجوز أن تمتنع المرأة من حضانة الطفل وإرضاعه نكاية بالرجل . لأن الضّحية في الحالتين هو الطفل . وإن رحمة الله بالإنسان تفوق رحمة والديه . . إذ يتوجه بهذه الوصايا ليحمى الطفل من اندفاع والديه وراء نوازع الانتقام والنكاية .

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾

في حالة وفاة الوالد فالوارث له يرث بالإضافة إلى الأموال المشكلات والمسؤوليات التي كانت على الوالد . فعليه أن ينفق على والدة الطفل ويقوم بحقها ويترك الإضرار بها .

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾

ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الطرف الآخر . وذلك رعاية لمصلحة الطفل . يقول صاحب المنار : [إذا كان الله تعالى يشدد مثل هذا التشديد في الحرص على حقوق طفل فكيف بمن يكون بيدهم أمر الأمة ولا يسألون عن المظلوم والمحروم والضائع حقه في هذا المجتمع . . وكيف يجوز لهم أن يستبدوا برأيهم فيما يتعلق بمصير الأمة ، والقرآن لا يبيح هذا الاستبداد للأم أو الأب في أمر ولدهما . ؟ !] .

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾

إن اتفق الوالدان على أن ترضع الطفل ظئر (مرضعة) فلا بأس . وينبغي أن يكون الباعث هو مصلحة الطفل أيضاً .

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾

أي دون أن يضيع حق الأم أو حق المرضعة . فتعطى الأم حقها في النفقة والمرضعة الأجرة (بالمعروف) أي مع الإحسان حتى تحرص أكثر على العناية بالطفل . ويعقب :

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

إن موضوع الأسرة بالغ الأهمية . وإن من يعجز عن تحقيق العدل وأداء الواجب في الأسرة فهو بالتالي أعجز عن أن يعدل في المجتمع . . والأسرة التي تتعرض للإستبداد والظلم هي نواة الأمة التي تخضع للإستبداد .

■ ٦ ■

بعد وفاة الزوج

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

١" - عدة الوفاة :

وإذا مات الزوج فماذا تفعل الزوجة ؟

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾

يتربصن بأنفسهن ويحذرن منها فإن في النفس صفتين : لوامة وأمارة بالسوء . وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام والحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن . وقد سئل ابن مسعود عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها . فقال : أقول فيها برأيي فإن يك صواباً فمن الله وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملاً ؛ لها صداق مثلها ، وعليها العدة ، ولها الميراث . فقام معقل بن يسار فقال : سمعت رسول الله ﷺ قضى به في بروع بنت واشق ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً[1] .

ويشمل الحكم الشابات والعجائز ولا يستثنى من ذلك إلا الحامل لوجود نص خاص : ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن أجلهن﴾ .

فعدتها تستمر حتى وضعها .

والعدة فيها : الإحداد وهو ترك الطيب والزينة والثياب المزينة والحلي . وأن لا تبيت في غير بيتها . . والإحداد على غير الزوج لا يجوز أكثر من ثلاثة أيام .

فالعدة ليست لاستبراء الرحم فحسب وإنما هي احترامٌ للعلاقة الزوجية واحترام لأهل الزوج وأولاده حتى لا يخدش شعورهم . . والمدة التي حددها الإسلام فيها تخفيف كبير فقد كانت المرأة في الجاهلية تعتد سنة . . كما أنها الآن تتشدد أكثر . . أو لا تلتزم بالعدة إطلاقاً . وهو من نقض عرى الإسلام «ترك الحكم بما أنزل الله» كما أخبر النبي ﷺ .

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾

---

(١) أخرجه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي .

فلا حرج عليهن في التزين والتعرض للزواج بعد انقضاء العدة .

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

وفي ذلك تحذير للنساء من الزلل وتحذير لأوليائهن من التعنت والعضل لهن .

٢" ـ خطبة المعتدة :

تتحدث الآيات بعد ذلك عن الخطبة ومداها الجائز :

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾

هذا الحكم في خطبة المرأة التي توفي عنها زوجها أو المطلقة المبثوثة (ثلاثاً) . فيجوز للرجل أن يُعرِّض لها برغبته أثناء عدتها . والتعريض هو التلميح . كأن يقول لوليها : لا تسبقني بها (أي لا تزوجها حتى تعلمني) . وقد ثبت أن النبي ﷺ قال لفاطمة بنت قيس حين طلقت ثلاثاً : فإذا حللت فآذنيني» . فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد فزوجها إياه [١] .

أما المطلقة دون الثلاث فلا يجوز لأحد غير زوجها التعريض أو التصريح بخطبتها .

﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾

فالله مطلع على القلوب ولا يكلف العبد ما ليس في وسعه .

---

(١) تفسير ابن كثير .

﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾

أي لا يخبرها سراً أنه سيخطبها بعد انقضاء عدتها . . أو لا يتواعد ويتعاهد معها على ذلك . .

﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًاۚ﴾

إلا التلميح والتعريض .

﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ﴾

فلا يجوز أن يعزم على الزواج منها قبل انقضاء العدة . . ولا يجوز العقد ـ ولو بدون دخول ـ قبل ذلك .

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ﴾

عبارة يرتجف قلب المؤمن لها . . حتى ليحاسب نفسه على الخواطر والنوايا فلا يضمر إلا الخير . والعجيب أننا لو قلنا فلان مُراقب ـ من قبل البشر ـ فإن هذه الكلمة تهز النفوس وترعبها . . فكيف لو أحسسنا أننا نتحرك وسط آلات تصوير ولاقطات للصوت . . ؟ بل وسط أجهزة تصل بها الدقة إلى تسجيل المشاعر والخلجات ﴿خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ ؟! (غافر/١٩) .

ومع ذلك لا ييئسنا من رحمته :

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

يؤخر العقوبة عسىٰ أن نتوب .

■ ٧ ■

متاع المطلقة قبل المساس

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

إن قوله تعالى :

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ﴾

يرفع الحرج عن الطلاق قبل الدخول إن أحس ببوادر الفشل فهو خير من المتابعة في تجربة فاشلة تزداد تعقيداً على مر الأيام . لا حرج من الطلاق ولكن الله يأمر المطلق :

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾

والمتعة غير النفقة . وهي أن يترك لها شيئا يعوضها عن خيبة أملها وانكسار قلبها . وهذه المتعة حق للمرأة أمر الله به . . وإن لم يكن لها حد معين (لأن المرأة لم يحدد لها مهر) فعليه أن يعطيها بقدر ما تسمح نفسه وحالته المادية . والمسلمون الآن لا يعملون بهذا الأمر .

مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

بالمعروف : يُعطى دون منٍّ أو أذى وإنما عن طيب خاطر مصحوباً بالكلام الطيب . . وهذا أمر واجب على المحسنين .

وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ

فإذا كان هناك مهر متفق عليه فعلى المطلق أن يعطيها نصف المهر متعة عند الطلاق .

إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ

فإن تسامحت المرأة أو أولياؤها فله أن يقبل منهم إن ردوا عليه المال . ويرغب في العفو والتسامح :

وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ

وذلك محواً للجفاء بين الطرفين فالإسلام حريص على ترميم الروابط الاجتماعية دائماً حتى في حالة النزاع والانفصال بين عائلتين فإن القرآن يضمد الجراح ويمسح على الآلام بإشاعة جو التسامح والعفو للحفاظ على المجتمع المسلم المترابط كالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء . . .

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾

ولو أن علاقة الزوجية والمصاهرة ستزول ولكن هناك صلة أخرى يجب المحافظة عليها وهي أخوة الإيمان . فاحرصوا على التعامل بالفضل والإحسان فإن الله لا يخفى عليه إحسانكم .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

ولن يضيع أجركم . .

٨

حافظوا على الصلوات

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾

ما الذي جعل موضوع الصلاة يدخل بين هذه الأحكام المتعلقة بالزواج والطلاق ؟!

١ - بعض المفسرين قال : إن هذه الآية لإبراز أهمية الصلاة . فلا تشغلّك مشكلات الحياة عن أداء الصلاة والمحافظة عليها في أوقاتها . وإنك حين تنخلع من المشكلات وتقف لتناجي الله وتستشعر رقابته فإن هذا يمنعك من العدوان والعصيان ويدفعك إلى الحرص على تطبيق هذه الأحكام . .

٢ ـ يقول صاحب الظلال : ما كان قلبي يطمئن لما ذكر المفسرون حول هذه النقطة إلى أن فتح الله لي الحكمة من وجود الآية هنا . . فكل الناس يعرفون أن الصلاة عبادة ينقطع فيها العبد إلى الله لكن ليس كلهم يدرك أن القيام بهذه الأحكام هو عبادة لله كالصلاة . فجاءت الصلاة بين هذه الأحكام لينتبه المسلم إلى هذه الحزمة من العبادات .

٣ ـ القرآن كتاب الحياة فبينما الإنسان يعالج مشكلاته العائلية إذا بالمنادي ينادي للصلاة . وبينما هو يشتغل بالرزق وتحصيله إذا بمنادي الجهاد . . ولذلك لم تجمع الآيات وتوزع بحسب موضوعاتها (قسم للصلاة وقسم للإنفاق . . .) وإنما حفلت الآيات بموضوعات شتى لتصور حياة المسلم ولتكون الزاد اليومي له .

حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ

والمحافظة على الصلوات يتضمن :

١ ـ إقامتها في أوقاتها . وقد سئل ﷺ : أي الأعمال أفضل ؟ فقال ﷺ : «الصلاة لوقتها»[1] .

٢ ـ والمحافظة عليها شكلا وروحاً : و «أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله»[2] .

وحين يتفرغ المؤمن من هموم الدنيا ويتجه إلى الله في صلاته . . عندها يتذوق حلاوة الصلاة .

وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ

الأرجح من مجموع الروايات أنها صلاة العصر لقوله ﷺ يوم الأحزاب «شغلونا

---

(١) مختصر صحيح مسلم ٢٢٧..

(٢) رواه الطبراني

عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً»[1] . وقد يكون التركيز على أهمية الصلاة الوسطى لأنها في وقت الراحة بالنسبة لبعضهم ووقت حركة الأسواق بالنسبة لآخرين . والله أعلم (أو وقت تجتمع فيه ملائكة الليل مع ملائكة النهار) .

وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾

وقد كانوا يتكلمون أثناء الصلاة ويردون السلام على من سلم فأمروا بالسكوت ﴿قانتين﴾ . . والقنوت يتضمن معاني عدة منها : الخشوع والتفرغ لذكر الله ـ طول القيام في الصلاة ـ الطاعة لله عن رغبة من القلب .

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا

ففي حالة الخوف يجوز لهم أداء الصلاة وهم مشاة أو أثناء الركوب . ولكن لا يجوز لهم تركها أبداً أو تأجيلها ـ إلى غير أوقات الجمع ـ لقضائها بعد .

وفي ذلك :

١ ـ تيسير من الله تعالى ورفع للعنت .

٢ ـ إشعار بأهمية الصلاة في وقتها فلا عذر لك في تركها وقد جعل الله لكل عذر رخصة .

وفي سورة النساء جاء حكم صلاة الخوف (جماعة) وذلك حين يكون العدو بعيداً . . . أما هنا ﴿فرجالاً أو ركباناً﴾ :

فهي حين يحدث الالتحام وتتداخل الصفوف . وقد ورد عن كثير من الصحابة أن صلاة الخوف تكون ركعة واحدة في تلك الحال .

والحقيقة أن المؤمن في حالة الخوف . . وفي الميدان ـ وخصمه يوجه إليه

---

(١) رواه أحمد وأخرجه الشيخان .

الضربات ـ يكون أحوج ما يكون إلى الصلاة . . فهي التي ترفع معنوياته وتثبته في المعركة .

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

ففي حالة الأمن أدوا الصلاة كما علمكم الله ـ عن طريق رسوله ـ أو اذكروا الله واشكروه على ما أنعم به عليكم وما أنزل لكم من العلم الذي أخرجكم من الظلمات إلى النور .

■ ٩ ■

متاع المطلقات

﴿٢٣٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

تعود الآيات لمتابعة الموضوع :

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً﴾

لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ

الآية تقرر حق المتوفى عنها زوجها في وصية منه تسمح لها بالبقاء في بيته والعيش من مالهِ لمدة حول كامل . . وقد علمنا أن العدة أربعة أشهر وعشرة أيام وهي مفروضة على الزوجة . أما إذا أوصى الزوج ببقائها في البيت لمدة سنة مع تأمين حاجاتها فإن شاءت أخذت بهذه الوصية وإن شاءت خرجت بعد العدة . فلها الحق والحرية في الخروج أو البقاء وليس لأهل الزوج أن يتدخلوا في ذلك .

فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ

وفي الآية إشارة إلى أن الفرد الواحد تؤثر مخالفته لأمر الله على الجماعة كلها ولهذا تعطى الصلاحية للجماعة بمنعه ورده إلى أمر الله (ولنذكر حديث السفينة) .

وهنا يقول لجماعة المسلمين : إن خرجت هذه المرأة بعد العدة فليس في ذلك ضرر عليكم . ﴿فلا جناح عليكم﴾ ، ولا إثم من تركها تفعل ما تشاء بنفسها بالمعروف (ضمن الشرع) .

وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

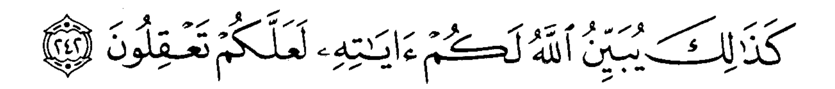
تهديد للنساء إن خرجن عن أمر الله وللرجال إن حاولوا التضييق عليها والتحكم بها . فالله يشرع عن حكمة ويضع كل حكم في مكانه .

وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾

لما نزلت الآية السابقة في المتعة وقال فيها : ﴿متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ . كأن بعضهم ظن أن المتعة ليست فرضاً على الجميع وإنما هي لمن أراد أن

يُحسن في معاملته . . ومرتبة الإحسان أعلى من العدل وتاركها لا يأثم وإنما يكون تاركاً للأفضل . فكأن الآية هنا جاءت لتؤكد على حق المطلقات في المتعة وأن ذلك : ﴿حقاً على المتقين﴾ . والتقوى هي الإيمان . . هي فعل الواجبات وترك المحرّمات خوفاً من الله ورغبة برضاه فالمتعة تسكن الآلام بعد عملية البتر هذه (الطلاق) وتخفف غضب النفوس .

ويعقب على الأحكام السابقة كلها :



لعلكم تحركون هذه العقول وتنتفعون بها . وإن العقل الذي لا يحرك يصدأ ويتعود على الركود - كالآلة التي تركت دون تشغيل - والمسلمون الآن كأن عقولهم في إجازة مفتوحة . فهم زاهدون في التفكير ودراسة الأفكار . ومنهم من يقول يكفينا القرآن والسنة ولا علاقة لنا بالأفكار والدراسات . . وينسون حديث زياد بن لبيد عن ذهاب العلم . . والقرآن إنما نزل لأولي الألباب فلا ينتفع منه إلا الذين يعقلون ويتفكرون . وعالم المعرفة يتقدم بتسارع عجيب عند الأمم الأخرى . . وأمة الإسلام راكدة نائمة . . فمتى نصحو . . ؟ !



الفصل الرّابع عشر

قِصَصٌ مِنَ التَّارِيخِ لِلاعْتِبَار

(٢٤٣←٢٥٢)

- الألوف الهاربون من الموت .
- طالوت وجالوت .

۞ أَلَمۡ تَرَ
إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ
فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾
مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا
كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾
أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ
لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ
هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ
قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا
مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ
إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ
لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ
قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ

مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ
عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ
يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾
فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم
بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ
مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟
لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾
وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ

عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ
دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم
بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

في الآيات العشر التالية يعرض تجربتين من التاريخ : الأولى عن مجهولين ـ والثانية عن بني إسرائيل .

ـ ١ ـ

الألوف الهاربون من الموت

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

في تفسير المنار يقول : إن الآية تشير إلى بعض حقائق علم الاجتماع . وإن كتاب الله يتجلى منه في كل عصر للعارفين بالله ما لم يتجلَّ لسواهم فهو الكتاب الذي لا تنتهي هدايته . . وإن هذه الأمة كالمطر (كما ورد في الحديث) «مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره» . يحدثنا القرآن عن هؤلاء دون أن يعين عددهم أو بلدهم . . ولو كان في ذلك فائدة لذكر . . ويفتتح الحديث بقوله : ﴿ألم تر﴾ ؟!

والرؤية تكون تاريخية (تقرأ الحادثة من التاريخ) . . وتكون مثلية أي أن ترى في الواقع ما يشابه ذلك .

فعندما يأتي السؤال :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾

فإن هذه الحادثة متكررة في التاريخ وفي عالمنا المعاصر . فكأن الآية تأمر بتأمل الأسباب والنتائج للوصول إلى السنن . فهو بحث في حياة الأمم وموتها (وهو موضوع علم الاجتماع) . كي نعرف كيف يبدأ المرض في الأمة ونسخر هذه المعرفة .

والإشارة إلى الكمية هنا : ﴿وهم ألوف﴾ :

تفيد عدم جدوى الكثرة إذا كانت النوعية هشة كما أفاد حديث القصعة «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى القصعة» فتساءل الصحابة : (أَو مِن قِلَّة نحن يومئذ) . قال : «بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل» . وشخص الرسول ﷺ المرض بأنه (الوَهَن) حب الدنيا وكراهية الموت . وهو القابلية للاستعمار . حيث تخضع الملايين لجيش احتلال قد لا يتعدى بضعة آلاف . . وملايين المسلمين الآن كأنهم لا وجود لهم . . والخروج من الديار ليس سهلاً ـ فقد قرنه الله مرة بقتل النفس ـ ولكن الحرص على الحياة يدفع إلى الخروج . . وكثيرون يظنون أن الفرار من الطغيان ينجي من الموت . . لكنه في الحقيقة سبب للموت حيث يمكن الأعداء من السيطرة على الأمة . وهذا التحليل الخاطىء يوقع في النتيجة الوخيمة :

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾

وهكذا فإن النتائج لا تأتي بحسب الأهداف والغايات ولكنها تأتي بحسب السلوك والأسباب التي قمت بها . . وهكذا ينتج التصور الخاطىء سلوكاً خاطئاً فيؤدي ذلك إلى عواقب وخيمة . فالعلاقة وثيقة بين الحلقات الثلاثة : الفكر والسلوك والنتيجة . والآية الكريمة ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد/١١) . قد ربطت بين الأخيرة والأولى . . فالنتيجة الواقعية تأتي بحسب ما في الأنفس من تصور (لأنه هو الذي

يوحي بسلوك معين) . بينما المسلمون الآن يقطعون هذه الحلقات الثلاث عن بعضها . فالتغيير ينبغي أن يتركز على ما في الأنفس ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد/١١) . وتعني الآية الكريمة : ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ : إما موت حقيقي . . وإما معنوي : وهو موت الأمة بالذل والتخلف .

ثُمَّ أَحْيَاهُمْ

كذلك قد تعني حدوث النهضة والوعي فكأن الأمة قد بعثت من جديد . فالآية بينت كيف أن الله جعل ضعف الأمة في الترف والجبن وترك الجهاد والبذل . . وهذا ما يغري الأمة القوية بالسيطرة عليها وهدم بنائها القديم المتداعي . . وعندها يشعر المغلوبون بضرورة النهضة فيعتبرون ويبدأون من جديد (كما أن الاستعمار أحياناً يؤدي خدمة إلى المستَعْمَرين إذ يضطرهم إلى الاستيقاظ والتحرك) . فهذه سنة من سنن الاجتماع قد بينها الله :

إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

فهم غافلون عن السنن وعن فضل الله في بيانها فمن أين لهم أن يشكروا ؟ وقد يحدث الشكر على الهدية باللسان . ولكن عدم الانتفاع بالهدية يفقد الشكر معناه العملي . والله قد أعطانا العقل هدية . فمن لم ينتفع به تنكر لفضل الله ولم يؤد واجب الشكر .

وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

يأتي الآن الأمر بالقتال ثم الأمر بالبذل والإنفاق . . وذلك بعد أن بين فائدة بذل النفس في حياة الأمة . فهو الذي ينقذ من الموت . . وهكذا نجد أن الأمر هنا يأتي بعد بيان حكمته ووجه الحاجة إليه . فبذل النفس والمال يحفظان على الأمة حياتها وعزتها . .

وهذا ما يغفل عنه الإنسان بسبب إيثار المنفعة العاجلة الفردية ، ولكن الأمة إن سقطت شقي الجميع . . ولهذا يتكرر التنبيه في القرآن على ضرورة الأمرين :

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

فكل حركة وكل غفلة وكل إهمال مسجل عليك .

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

ويشترط فيه أن يكون حسناً . . أي خالصاً لله لا رياء فيه . . ودون منّ أو أذى لمن تعطي . . ومن الجيد الحسن لا الرديء . والآية تشوق وترغب في الإنفاق بأسلوب جديد يدفع إلى التنافس .

فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً

في الدنيا : سعادة وراحة ضمير وبركة في الرزق . . وفي الآخرة نعيماً وقرباً من الله . .

وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

فهو الذي أعطاك وهو الذي يبسط الرزق لعباده فاحذروا أن يقبضه عنكم . . ثم ترجعون إليه . . سمع الصحابة الآية فتنافسوا في الإنفاق . فأقرض أبو الدحداح حائطه لله وفيه ستمائة نخلة . . وأنفق عثمان تجارة جاءته إلى المدينة في سنة عسرة وأقرضها كلها لله . وكأنه قد سمي الإنفاق هنا قرضاً ليوحي بتأكيد ثواب الله عليه .

كذلك ينبغي أن نفهم من قوله تعالى : ﴿**والله يقبض ويبسط**﴾ : على أن زرق الله يأتي وفق سنن وله أسباب .

٢٠

طالوت وجالوت

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟
لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ
هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ
قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا
مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ
لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ
قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ
مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ
عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ
يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

مرة ثانية يطلب منا أن ننظر فيما سيقص علينا لفهم السنن .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾

إن كلمة الملأ في قوله تعالى : تعني أهل الحل والعقد من كل قوم . وهم الوجهاء والأشراف وسموا (ملأ) لأنهم يملؤون العيون والقلوب هيبة .

﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

فقد مكث بنو إسرائيل على طريق الاستقامة مدة من الزمن ثم أحدثوا وعبدوا الأصنام ولم يزل بينهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . . حتى سلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم وأسروا وسلبوهم التابوت وفيه التوراة كما يقال . . ثم شعروا بانتفاضة العقيدة في عهد أحد الأنبياء ـ ولم يذكر اسمه هنا ـ فتوجهوا إليه : ﴿ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ .

وكان سبط الملوك فيهم قد فني فلم يبق لهم ملك . فظنوا كما يظن كثيرون الآن أن السبب في ذلهم وضعفهم هو فقدان القائد فحاول نبيهم أن ينبههم إلى السبب الحقيقي :

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾

كيف لا نقاتل وكل الدوافع تدفعنا إلى ذلك ؟ فقد طردونا من ديارنا وأسروا أبناءنا . . ومع ذلك :

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

هذه الحماسة الفائرة لم تدم . . فسرعان ما تراجعوا عن وعدهم وانسحبوا إلا أقلية منهم ـ وقد استثناهم للإنصاف والدقة في الحكم ـ ويحكم الله عليهم بأنهم ظالمون . . فقد عرفوا أنهم على حق وعدوهم على باطل وتبجحوا بالشجاعة ثم تخاذلوا . . لقد ظلموا أنفسهم وأمتهم وقائدهم الذي خذلوه . وينبغي الانتباه إلى موضوع الحماس فقد يكون مزيفاً . . وحتى لو كان صادقاً فإن الحماس وحده لا يكفي لأنه لا ينطوي على معرفة الجهد اللازم لتحقيق الأمر . . وإنما هو طفرة عاطفية غير مدروسة تندفع إلى الأمر باستسهال . . فإذا واجهتها الصعوبات والعقبات انقلبت إلى الاستصعاب وتخلت عن الأمر . وقد سبق أن ذكرت قاعدة للأعمال الناجحة في الدنيا والمقبولة في الآخرة إذ لا بد أن يتوفر فيها الإخلاص والصواب معاً . . وكلما ازداد الوعي والإدراك لمتطلبات الطريق ازداد الثبات على أداء الواجب .

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ﴾

كأن الآية السابقة قد أوجزت القصة والآن تأتي بعض التفاصيل . . فقد عين الله لهم ملكاً . . فكيف كان موقفهم ؟

أخذوا ينتحلون الأعذار للتملص من الأمر . . وكشف الموقف عن ما في أذهانهم من مفاهيم خاطئة حول القيادة . . فهم ينظرون إليها على أنها مركز وجاهة لا على أنها مسؤولية جسيمة يخاف المؤمن أن يقصر فيها . .

﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ﴾

استنكروا تعيينه لأنه لم يكن من سلالة بيت يهوذا (سبط الملك) . ولأنه لا يملك مالاً كثيراً . . استنكروا أن يكون الملك من غير الشرفاء والأغنياء لأنهم اعتادوا أن يخضعوا لهؤلاء ويميزوهم عن غيرهم وإن لم تكن لهم ميزة في المعرفة والأخلاق والمآثر . . فكأنهم يقولون : يجب أن يكون الملك من طبقة المستكبرين حتى نخضع له . . وقد كشفوا بذلك عما فيهم من استضعاف وفساد رأي . لكن الله أراد أن يحدث فيهم (ثورة ثقافية) بتعيين هذا الملك لتغيير القيم الزائفة عندهم . وكشف لهم نبيهم عن حكمة الله في اختياره :

قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ

اختاره لما فيه من ميزات في الإخلاص والصواب .

وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ

فهي المؤهلات الحقيقية اللازمة للملك .

فالعلم يعطي القدرة للإنسان على فهم الحاضر والاعتبار من الماضي والتنبؤ للمستقبل والتخطيط له . كما أن الجسم العليل لا يستطيع القيام بأعباء القيادة من سهر وجد وتعب . فكأن الله يقول لهم : قد جمعت لطالوت القدرة الفهمية والقدرة المادية .

وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾

واسع في عطائه وفضله وعليم بمن يستحق هذا الفضل . . ففي الرد نبههم إلى ثلاثة جوانب :

١ ـ أن الله اختاره .

٢ ـ زاده بسطة في العلم والجسم .

٣ ـ الملك يعطيه الله حسب أسباب وسنن (ولا مجال للفوضى والصدف في

ذلك)[1] . .

لكن من طبيعة بني إسرائيل أن الأدلة المنطقية لا تكفيهم . . وقد كانت البشرية حينها في طور ما قبل الرشد فالبرهان العلمي قد لا يكفي . ولهذا يأيتهم برهان غيبي أيضاً وهو معجزة الإتيان بالتابوت .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

والتابوت : قيل إنه صندوق كانت فيه الألواح التي نزلت على موسى وشيء من مخلفات أنبيائهم .

وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ

وكانوا يستفتحون به في المعارك ويشعرون بالسكينة طالما أنه معهم . . حتى سلب منهم وقت ضعفهم . . فجعل الله علامة ملك طالوت أن يعود إليهم التابوت .

تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

وقد جاءت الآية معجزة تدفعهم إلى التسليم .

ولا بد أن ننتبه هنا إلى أن أسلوب المعجزات قد انتهى . . منذ جاءت آيات القرآن لتكون هي معجزة محمد ﷺ للناس أجمعين . . إذ أن البشرية لما بدأت في طور الرشد والنضج ختم الله الرسالات السماوية بكتاب علمي تحدى به الناس . . وكلما

---

(١) كتب المودودي حول سنة إيتاء الملك مقالة بعنوان (الصلاح والفساد) في كتابه (نحو ثورة سلمية) تدور حول الآية ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ .

ارتقت البشرية أكثر كلما ازدادت الحاجة إلى التحدث للناس بأسلوب العلم . فمن الطبيعي أن تختلف الأدلة على موضوع واحد من عصر إلى عصر . . انظر مثلاً كيف جاء الدليل لإبراهيم عندما سأل ﴿كيف تحيي الموتى﴾ معجزة يراها بعينيه . . بينما جاء الجواب للمشرك الذي سأل محمداً ﷺ ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ (يس /٧٨) نقاشاً علمياً منطقياً ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة . .﴾ (يس /٧٩) . والآن نحن في عالم تنكشف فيه باستمرار آيات من الآفاق والأنفس . . وعلى المسلم أن يتابع هذه الإضافات ليقدم شهادة آيات الآفاق والأنفس لهذا القرآن بأنه الحق .

المشهد الثاني من قصة طالوت وجالوت :

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ

وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم
بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو
فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ
نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

وهنا تنتقل بنا القصة إلى المشهد الثاني فنرى طالوت وقد خرج مع جنوده للقتال . . وذلك من إيجاز القرآن وبلاغته في عرض القصص . . إذ ليست الغاية هي السرد للإمتاع ولكن للعبرة .

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ

وقد امتحن جيش طالوت ثلاث مرات :

١ ـ قبل تهيؤ الجيش وعند تعيين طالوت عليهم قائداً وكيف استنكروا ذلك . وقد اقتضىٰ موقفهم هذا من طالوت مزيداً من الاختبار لهم . لأن طاعة الجند للقائد وثقتهم به من شروط النصر . وأحوج القواد إلى اختبار الجيش من وُليَ على قوم وهم له كارهون .

٢ ـ فكان الاختبار الثاني في مدى طاعة الجند وقدرتهم على الصبر والانضباط . . وهو المقياس الذي تقاس به قوة الجيش .

قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ
مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ

يبل بها ظمأه .

فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ

فكان من الخير أن ينفصل الذين خالفوا أمر القائد عن الجيش لأنهم بذرة الضعف والهزيمة ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ (التوبة /٤٧) . والجيش ليس بعدد الجنود . ولكن بالإرادة القوية والقلب الصامد والطاعة والانضباط المتوفرة عندهم ـ علماً بأن الطاعة للقائد تكون في غير معصية الله ـ وقد دلت هذه التجربة الجديدة على :

١ ـ أن الحماس وحده لا يكفي . ولا بد من الامتحان العملي لمقدار الصمود .

٢ ـ مدى صلابة القائد حيث أنه لم يتأثر من تخلف الأكثرية ومضى لأمر ربه مع النخبة .

٣ ـ ثم جاء الامتحان الثالث عندما رأوا أعداءهم .

فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ

فكان الامتحان الأول في نقد مفهوم الزعامة ، وكان ثورة على المفاهيم السلبية المميتة . والثاني في مفهوم الطاعة في غير معصية الله للقائد الذي توفر فيه العلم والقوة . والثالث في ميدان المعركة . ومقدار الثبات عند مجالدة العدو . وهنا ثبتت الفئة المختارة .

قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

فقد كانوا يدركون أن النوعية أهم من الكمية . وهذا ما ينبغي فهمه بدقة دون

إفراط ولا تفريط فالمجتمع يحتاج إلى كمية معينة من الذين حصلوا الإخلاص والصواب كي يحفظوا تماسكه كما يحتاج الطعام إلىٰ نسبة معينة من الملح حتى لا يفسد . والإخلاص المتوفر عند الجماهير لا بد أن يلتقي بالصواب عند القادة حتى تفلح الأمة .

وإن هؤلاء حين قالوا : **﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾** .

قد حددوا الموضوع : بأن وجود كمية من الصابرين كاف للنصر . والصابر هو الذي يستمر في أداء واجبه ولا توقفه العقبات مهما كانت . ولا يستطيع الإنسان أن يصبر ويستمر ما لم يكن على يقين بأن الطريق التي يمشي فيها هي الصحيحة . فالصبر مصدره العلم والإيمان (الصواب والإخلاص) . والصابرون هم الذي أدركوا كيف تجري الأمور فقاموا بالأسباب وصبروا حتىٰ تأتي النتائج .

وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

إن المؤمن يدرك ضعفه . . وأنه محتاج إلى فيض من العون الإلهي . . إنه يقوم بالأسباب أكثر من الذين لا يؤمنون بإرادة الله ويؤلهون السبب ، ويتوكل على الله ويدعوه أكثر من الذي يرد كل شيء إلى إرادة الله وينكر السبب . ونجد في دعائهم ترتيباً هاماً : فهم يطلبون الصبر أولاً لأنه سبب في الثبات الذي هو سبب من أسباب النصر . . فدعاؤهم يدل على أدب المؤمن ووعيه (إذ لم يطلبوا النصر فحسب) هذا في معركة مكشوفة . . ومعارك الحياة ومحنها لا يثبت فيها إلا من يؤمن بلقاء الله ويدرك عقبات الطريق فيؤدي واجبه ويصبر . . ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ (النساء/ ١٠٤) . وإن رجاء الآخرة يجعل الموت فوزاً في نظر المؤمن .
وجاءت النتيجة :

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

وإن عدداً قليلاً فيه الإيمان بلقاء الله والصبر والثبات والطاعة للقائد المؤمن يستطيع أن يحقق النصر أكثر من جيش جرار تتخلله الأهواء والخلافات والضعف . .

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾

فقد طلب جالوت المبارزة فلم يجرؤ أحد من بني إسرائيل على الخروج له . فخرج له داود وهو غلام يرعى الغنم فضربه بمقلاعه فأصاب الحجر رأسه فصرعه . .

﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾

ذكر أن طالوت جعل لمن يقتل جالوت أن يزوجه ابنته ويحكمه في ملكه . .

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾

النبوة وآيات الزبور التي نزلت عليه .

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾

وقد أشار في آيات أخرى ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم﴾ (الانبياء/٨٠) وهي صناعة الزرد والدروع وعدة الحرب . ثم يعقب على القصة :

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ
لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾

فالغاية من الصراع هي صلاح الأرض والتمكين للخير . وإن الله يدفع الشر عن الناس بثبات أتباع الحق ونضالهم في سبيله ؛ فهي سنة من سنن الحياة أن الفساد لا يدفع عن الأرض إلا بوجود أتباع الحق وجهودهم ولهذا قال في آية أخرى ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ (الروم/٤١) . فظهور الفساد دليل على تقصير أتباع الحق . فإذا كانت هذه الآية تفسر الغاية والحكمة من الحروب فإن هذا لا يعني تأكيد استمرار الحروب إلى آخر الحياة الدنيا . صحيح أنه ﷺ أكد أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة . . لكن القتال هو صورة واحدة من صور الجهاد . وقد ظهر من العلماء من يتنبأ بانقراض الحروب في المستقبل . منهم المؤرخ أرنولدتوينبي إذ يؤكد ذلك في كتابه (حرب وحضارة) ويستدل على ذلك بدراسة لتطور الحرب عبر العصور ويقارنها مع الصيد فيقول : [مثل تدجين الحيوانات كان يقوم الصياد بمهمة من الأهمية بمكان كبير لأنها كانت تؤمن له القوت . أما الجندي فكان يجعل الحياة أكثر احتمالاً والعدالة أقرب لأنه محاط بالبرابرة المتوحشين . . لقد كان أحسن الرجال يتخصصون في هذه المجالات ، وكانوا موضع التبجيل والاحترام عن حق ، وقد ورث الإنسان المعاصر عنهم غرائزهم وصفاتهم . ولكن مهمتهم اليوم أصبحت أقل ضرورة منها في السابق . بل إن مهمة الصياد قد أصبحت اليوم دون شك غير ذات فائدة] إذ بسبب التقدم الاقتصادي [تتوقف مهمة الصيد عن أن تكون وسيلة للحياة لتتحول تدريجياً إلى رياضة لا فائدة اقتصادية منها] .

ويقول عن الحرب إنها مؤسسة فات أوانها وقد استخدمت أيضاً في أوربا في القرن الثامن عشر كالصيد لتسلية الملوك . [الحرب ككل شيء متطور لا تبقى على حالها متجمدة بل تنمو باضطراد . . لقد خلقت الحرب ذات يوم ومرت في طور الشباب وهي الآن تسير نحو الشيخوخة . . وسيكف أحفادنا عنها عندما يصلون إلى مرتبة الرجل المتفوق (سوبرمان)] .

فكما أن التقدم العلمي والفني جعل الصيد كوسيلة للرزق يصبح طريقة بدائية لا فائدة فيها الآن حيث ظهرت وسائل جديدة مختلفة للرزق . . وكذلك الحرب فقد

كانت تستعمل في الماضي لنشر فكرة أو لتحقيق العدل في الأرض . . فإن اللجوء إليها الآن يعني إبادة البشر بسبب تطور الأسلحة . . بينما تزداد الحرب الفكرية تطوراً وارتقاء . . وتبرز أكثر فأكثر قوة العلم والفهم . . (أنا الفهم لي القدرة)[1] . وذلك ما يوحي به قوله تعالى للملائكة ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ (البقرة/ ٣٠) ولو كان لنا أن نجتاز الحاضر إلى المستقبل فلربما رأينا أسلحتنا تعرض في متاحف المستقبل تستثير اشمئزاز المشاهدين من همجيتنا ووحشيتنا . .

ومع ذلك فإن الآية ﴿ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ :

تؤكد على أهمية الصراع ـ ولو كان فكرياً ـ لصلاح الأرض . يقول عماد الدين خليل عن الآية «إن هذا التدافع والصراع المركوز في جبلة بني آدم يقود إلى تحريك الحياة نحو الأحسن وتخطي مواقع الركون والسكون والفساد ومنح القدرة للقوى الإنسانية الخيرة كي تشد عزائمها وتصقل قدراتها المقاومة الصاعدة في غمرة التحديات المتعاقبة التي يطرحها الصراع . .»[2] . وهذا يتفق مع فكرة توينبي عن أهمية وجود التحدي المناسب لخروج الأمة من السكون إلى الحركة حيث تبني حضارة وتستمر في نموها الحضاري بالاستجابة الجيدة للتحديات المتتالية . . وإلا فسدت الحياة وأسنت . . وتراخت الأمة وانحلت .

ثم يأتي التعقيب الثاني على المقطع كله :

تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ

هذه القصص . . وهذه السنن الاجتماعية التي يعرضها القرآن هي آيات الله . . والآية هي العلامة توضع على الطريق لترشد السالك . . فهي الدليل والبرهان .

---

(١) عبارة من التوراة .

(٢) صفحة ٢٤٢ من كتاب التفسير الإسلامي للتاريخ عماد الدين خليل .

نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ

فإنك لم ترها ولم تسمع بها من قبل وهذا دليل على أنك من المرسلين .

وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

وقد يكون المعنى : أنت من المرسلين وسيحصل معك مثل ما حصل للأولين .
فاعتبروا وخذوا بهذه الآيات والسنن التي أرشدكم الله إليها .



الفصل الخامس عشر

مَوضُوعَاتٌ مُتَفَرِّقَة

(٢٥٣←٢٦٠)

- تفاضل الرسل .
- الأمر بالإنفاق .
- آية الكرسي .
- لا إكراه في الدين .
- ولاية الله للمؤمنين .
- ثلاث قصص إيمانية .

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ
وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ
مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟
فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟
مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا
شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ
ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا
شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ
وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ
مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ
ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ
ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ
أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي
بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي
كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ
عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ
بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ
قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ
فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ
حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى
ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

تفاضل الرسل

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

تبين هذه الآيات تفاضل الرسل :

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ

كان معظم الجدل في الآيات التي تحدثت عن بني إسرائيل بين المسلمين واليهود حول الرسل . . فتأتي الآية هنا لتقرر أن الرسل جماعة واحدة وإنما اختلف أتباعهم . . فإذا فضل الله بعضهم بميزات معينة فلا شأن للناس في ذلك وعليهم أن يؤمنوا ويحترموا الجميع .

استعمل الله تعالى عبارة : ﴿**تلك الرسل**﴾ :

للإشعار بأنهم جماعة واحدة ـ كأنهم كيان واحد ـ معروفة .

وفي قصة المعراج يذكر ﷺ أنه رأى الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله تعالى . ولكن الأمر ينبغي أن يؤخذ بدقة فلا ننسى قول الله المتكرر في القرآن :

﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ (البقرة/٢٨٥) .

وقد قال ﷺ : «الأنبياء إخوة من علات (أي من أمهات شتى) وأمهاتهم شتى ودينهم واحد» [١] . وقال أبو هريرة : بينما يهودي يعرض سلعة له أعطي بها شيئاً كرهه قال : لا والذي اصطفى موسى على البشر . قال فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه قال : تقول : والذي اصطفى موسى على البشر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ؟ قال فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا أبا القاسم إن لي ذمة وعهداً وقال : فلان لطم وجهي . فقال رسول الله ﷺ : «لم لطمت وجهه» قال : قال يا رسول الله : والذي اصطفى موسى على البشر وأنت بين أظهرنا . قال : فغضب رسول الله ﷺ حتى عرف الغضب في وجهه ثم قال : «لا تفضلوا بين أنبياء الله فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله . قال : ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث أو في أول من بُعث فإذا موسى آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث قبلي . ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى» [٢] . ونهى عن تفضيله على يونس بن متى بالذات لأن الله تعالى قال : ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ (القلم/٤٨) . من ناحية الايمان لا يكون تفاضل ، ويجب أن نؤمن بالجميع على قدم المساواة . . وأما من ناحية اتباع الشريعة فقد أمرنا باتباع شريعة محمد ﷺ ـ وهنا التفضيل ـ لأنها الرسالة الأخيرة التي نسخت ما قبلها لاتصافها :

١ ـ بالعموم فهي ليست خاصة بقوم أو عصر . .

٢ ـ بالحفظ من التبديل : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ .

٣ ـ بالصلاحية إلى يوم القيامة لأنها أعطت الثقة بالعلم ودعمت الاستنارة بآيات الآفاق والأنفس فكأن الآية تقول : لئن فضل محمد ﷺ ورسالته بهذه المزايا وغيرها فقد فضل الرسل بميزات .

مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ

وبقدر ما يكون تعلقنا بنبينا أكثر يكون تسامحنا مع أصحاب الأديان الأخرى . بل إن الله يقول : ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾ (الجاثية/١٤) . . . لكن المسلمين اليوم عاجزون عن التسامح وترك التعصب فيما بينهم . . إنهم عاجزون عن التعايش مع بعضهم . . فكيف بعلاقتهم مع أصحاب الأديان الأخرى . .؟!

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم

وقد اقتتل أتباع الرسل بسبب التفريق بين الرسل وذلك ناجم عن عدم التمسك بما جاء به الرسل . والتاريخ مليء بمثل هذه الحروب الناجمة عن سوء فهم الديانات والتشنج عند التمسك بها . وقد شاء الله أن يمتحن الناس بترك الأمر لفهمهم . .

مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ

فلقد قدم لهم العون بنزول البينات . .

وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ

والمتعصبون هم الذين يقعون في الكفر لأنهم يتنكرون لباقي الرسل والديانات . .

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

فقد اقتضت مشيئته أن يترك الإنسان يختار لنفسه الطريق والمصير كي يستحق الثواب أو العقاب . . فلا تطلبوا السلام من الله وتتركوا السعي إليه . فالسلام يتحقق بجهود البشر وقد أعطوا القدرة عليه ثم أمر الله المؤمنين بالإنفاق .

■ ٢ ■

الأمر بالانفاق

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بالإنفاق بقوله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾

حين ذكر المؤمنين في الآية السابقة . بقوله : ﴿فمنهم من آمن﴾ .

توجه بالنداء إلى الذين آمنوا بالرسل أن ينفقوا فهو الدليل على صدق إيمانهم وحرصهم على رضى الله . . ويأتي النداء للمؤمن بأحب الأسماء إليه أن ينفق مما أعطاه الله قبل أن تفوت الفرصة فلا ينفع بعدها الندم .

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾

فلا يمكن لك أن تشتري نفسك من العذاب ولا تنفعك الصداقة . . ولا تقبل فيك الشفاعة .

والآية تستعمل هنا أسلوب الترهيب بينما ورد الأمر بالإنفاق في القسم السابق بالترغيب . قيل إن هذه الآية تتحدث عن الزكاة المفروضة : ﴿مما رزقناكم﴾ .

ولهذا جاء التهديد . بينما الآية السابقة تتحدث عن الصدقة تطوعاً فكان فيها الوعد والترغيب بالمضاعفة . والقرآن يضع المسلم دائماً بين الخوف والرجاء حتى يكون في توتر دائم (أحسن حالات الفعالية) ، ويعقب :

وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

قال البيضاوي : يريد والتاركون للزكاة هم الذين ظلموا أنفسهم . فهي كقوله في سورة فصلت : ﴿وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة﴾ (فصلت/٦-٧) . والظلم نوعان :

١ ـ ظلم بحق الله وهو الكفر . وهذا حسابه على الله (وهو ظلم للنفس) .

٢ ـ وظلم بحق العباد . وهذا الذي يقاتل لمنعه من الظلم . وغالباً ما يدفع الكفر إلى الظلم بجميع أنواعه . . ولهذا يقول : ﴿**والكافرون هم الظالمون**﴾ . فعلى الأقل ظلموا أنفسهم . .

■ ٣ ■

اية الكرسي

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ
أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا
شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ
وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

الآيات الباقية في هذا القسم تهتم بترسيخ العقيدة : الله واليوم الآخر . والعقيدة هي فكرة الإنسان ونوعية علاقته مع : الله والكون والناس . وموضوعات القرآن هي :

الله	الإنسان	الكون	اليوم الآخر
خلق الإنسان وسخر له الكون وسيحاسب الإنسان على خلافته	عبد لله ـ سخر له الكون وكلف بالخلافة ويسأل عنها في اليوم الآخر	خلقه الله فهو دليل على قدرته وسخر للإنسان	يوم الحساب حيث يعطى المحسن الجنة والمسيء النار .

والقرآن يعرض الأفكار بطرائق وأساليب منوعة ﴿ولقد صرفنا﴾ . وهذا يعلمنا أهمية تكرار الفكرة وتنويع الأمثلة عليها حتى ترسخ في الذهن .

وقد ورد في فضل آية الكرسي أحاديث كثيرة تفيد أنها أعظم آية في الكتاب [1] . وأن من قرأها قبل نومه فإنه لا يزال عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح [2] . فلنتدبر الآية :

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

لا خالق ولا مجيب للدعاء ولا حاكم سواه . . فليس في الوجود صاحب سلطة حقيقية على النفوس بحيث تعتقد أن بيده منح الخير ورفع الضر بتسخير الأسباب أو بإبطال السنن الكونية إلا هو .

ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ

وقد روي عن ابن عباس : (أعظم أسماء الله الحي القيوم) . قال صاحب المنار: [إن ذات الله تعالى لا تشبه الذوات وصفاته لا تشبه الصفات. حياة الله تعالى ذاتية وحياة الإنسان من الله تعالى ـ حياة الله أزلية وحياة الإنسان فانية ـ حياة الله هي التي تفيض الحياة على كل حي وحياة الانسان خاصة به . وكذلك العلم والتدبير والارادة . . كل ذلك ناقص في الإنسان والله تعالى منزهٌ عن النقص وإليه ينتهي الكمال المطلق . .].

(١) رواه مسلم عن أبي بن كعب .
(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة .

القيوم : القائم بنفسه لا بغيره وهو مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يتصور وجود شيء ولا دوام وجوده إلا به .

لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ

سنة : نعاس . فلا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه ولا يحتاج إلى الراحة . بل هو قائم على كل نفس بما كسبت . «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه . يرفع إليه عمل النهار مثل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار . حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» [1] . والآيات والأحاديث التي تحدثت عن صفات الله تعالى نؤمن بها كما وردت دون تعطيل ولا تأويل ولا تمثيل . إذ : ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ . (الشورى/١١) . (وهو مذهب أهل السنة) .

لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ

فخذوا أوامره ونواهيه بعين الاعتبار .

مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ

وقد سبق أن ذكرنا أن القرآن ذكر نوعين من الشفاعة : منفية ومثبتة . وقد ثبتت الشفاعة لمحمد ﷺ لكنه لن يشفع إلا لمن تبع دينه .

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ

وهذا تأكيد لنفي الشفاعة لأن الشفاعة تكون حين يخفى على الحاكم بعض أمر المتهم فيشفع له من يعلم حقيقة خبره . وقد فسر ابن تيمية الشفاعة المثبتة : بأن الشافع

---

(١) في الصحيح عن أبي موسى .

لم يغير شيئاً من علمه (أي علم الله) ولم يحدث تأثيراً ما في إرادته تعالى . وبذلك تظهر كرامة الله لعبده بما أوقع الفعل عقب دعائه . كما أن هذه الآية الكريمة تشمل الحاضر والماضي والمستقبل . وتشمل الزمان والمكان .

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ

علم الله شامل . . بينما الناس لا يعلمون إلا ما شاء الله لهم . . وبقدر ما يفتح لهم . فكيف يُفتنون بهذا العلم ويعرضون عن العليم الحكيم ؟!

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

والكرسي من عالم الغيب الذي نؤمن به ولا نبحث عن حقيقته ولا نتكلم فيه بالرأي (كما يقول صاحب المنار) .

فقد وسع كرسيه وملكه وسلطانه السموات والأرض .

وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا

لا يُعجزه لأن هذا الكون كله بضخامته المذهلة ضمن كرسي الله . . فهل تستطيع أن تفلت من حسابه ؟!

وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ (٢٥٥)

وإن الآية كلها تملأ القلب بعظمة الله وجلاله وكماله . ولو تدبر المسلمون الآية لشعروا بالحياء من غفلتهم وأعمالهم . .

■ ٤ ■

لا إكراه في الدين

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٥٦)

وقد روي في نزولها أنه كانت المرأة تكون قعلاة (لا يعيش لها ولد) فتجعل على نفسها إن عاش لها أن تهوده . فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار . فقالوا : لا ندع أبناءنا . فأنزل الله [١] :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾

كذلك قيل إنها نزلت في رجل من الأنصار يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان . وكان هو مسلماً فقال للنبي ﷺ ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية فنزلت الآية [٢] .

وهي أعم من ذلك . إذ أنها تشير إلى أساس من أسس الدعوة إلى الإسلام . فالإيمان هو أصل الدين وهو إذعان النفس ولا يكون الإذعان بالإلزام بل بالبيان والبرهان ، ولهذا قال تعالى بعد نفي الإكراه[٣] :

﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾

---

(١) رواه أبو داود والنسائي .

(٢) أخرجه ابن جرير .

(٣) هذا ما نص عليه صاحب المنار .

إن مهمة الداعي أن يبلغ الآيات ويبين الرشد من الغي بأحسن أسلوب ممكن . . إذ أن الإنسان أعطي عقلاً مميزاً وأعطي حرية الاختيار ﴿إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر﴾ (الغاشية/٢٢) . وفي الآية تكريم للإنسان واحترام لفكره وإرادته . . وتقرير لحريته في الاعتقاد . . وهي أول حق من حقوق الإنسان . وهي الحرية الوحيدة التي لا يجوز أن تمس أو يحجر عليها . . بينما يحكم القانون سائر جوانب حياة الإنسان . ولقد كان الإسلام هو أول من قرر هذا الحق وأعطاه للإنسان بشكل عملي . . حتى إنه شرع القتال لرفع الإكراه عن الناس وتحريرهم من الأغلال والعقبات التي تحول بينهم وبين معرفة الرشد من الغي ـ وقد سبق أن ذكرتُ أن القتال شرع لمنع الظلم لا لمنع الكفر ـ وربما حدثت بعض الأخطاء عند الفتوحات في تاريخنا لكنها صدرت عن المسلمين لا عن الإسلام . . وذلك عندما بدأ المسلمون يفقدون الصلة مع قرآنهم شيئاً فشيئاً . ومع ذلك فإن هذه الأخطاء لا يمكن أن تقارن مع ما كان يجري في العالم من اضطهاد ديني ومجازر للذين يخالفون الدولة في دينها بل وما زال يجري حتى الآن في عصرٍ نادى بحقوق الإنسان . . وكمثال بسيط فإن الشيوعيين قتلوا من المسلمين خلال ٢٥ سنة ٢٦ مليوناً . . !!!

لا بد أن نضع الآية كمبدأ إسلامي لا يجوز أن نحيد عنه في التربية والدعوة إلى الله . فإن هذا ما يميزنا عن أصحاب المبادىء الأخرى : نحن لا نفرض أفكارنا على الناس بالقوة .

ولا بد أن نتذكر شيئاً آخر عند الآية : وهو أنه لا إكراه في الدين قبل أن تختار الإسلام ، أما بعد أن اخترت الإسلام فأنت ملزم بتطبيق أحكامه .

فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ

الطاغوت : كل من تكون طاعته سبباً للطغيان والخروج عن الحق من مخلوق يعبد ورئيس يقلد وهوى يتبع (حسبما ورد في تفسير المنار) ، وفي تفاسير أخرى : هو الداعي إلى غير طريق الإسلام والمنفذ لغير شرع الله .

﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾

يصدق ويطبق أمر الله .

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾

والعروة تستعمل في الثوب للتثبيت . فهي الصلة المتينة «لا انفصام لها» ويقول الطبري . هي لا إله إلا الله . فالآية تقرر أن المسلم لا يكون متمسكاً بأسباب النجاة حتى يفعل أمرين :

١ ـ يكفر بالطاغوت فيرفض كل مبدأ غير الإسلام .

٢ ـ ويؤمن بالله فيلتزم بشرع الله . أي أننا بحاجة إلى عمليتين : هدم وبناء . . تنحية وتنمية في نفوسنا وسلوكنا حتى يتجدد الإيمان . .

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

وفي ذلك ترغيب وترهيب . .

■ ٥ ■

ولاية الله للمؤمنين

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

والمؤمن الذي يستمسك بالعروة الوثقى يفوز بولاية الله .

وذلك كقوله : ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ (محمد/١١) . إن وقع هذه الكلمة أعظم من أن يفسر . . فالإنسان في كدحه في الحياة يحتاج إلى ملجأ يحتمي به ويتطلع إلى قوة يستند إليها . . إنه بأمس الحاجة إلى أن يشعر أنّ له مولى يلجأ إليه ويشكو له ويدعوه ويرجوه . .

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

كأنه سبحانه يقول : لا تستصعبوا الطريق (الكفر بالطاغوت والإيمان بالله) فإن الله سيأخذ بأيديكم ويخرجكم من الظلمات إلى النور . «وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» [1] وإن من يتبع الطريق التي يأمر بها الله يمشي في النور فلا يخاف ولا يضل ولا يشقى .

وفي الآية إشارة إلى أن طريق الحق واحد (النور) لكن طرق الضلال كثيرة (الظلمات) . ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ . (الاعراف/١٥٣) .

---

(١) رواه مسلم .

■ ٦ ■

ثلاث قصص إيمانية

١" ـ قصة الذي حاج إبراهيم :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ
أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى
بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى
كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

كأن الآية السابقة قاعدة يذكر عليها ثلاثة أمثلة (ثلاث قصص) تؤكد أن الله يتولى الذين آمنوا ويخرجهم من الحيرة والجهل إلى الهداية والمعرفة . انظروا إلى إبراهيم كيف كان يهتدي بولاية الله له إلى الحجج والبراهين في نقاشه مع الطاغوت . .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ

ومحمد ﷺ لم ير هذه الحادثة . ولكن الله يقص عليه . ومن درس التاريخ كأنه رأى الأحداث . فهي حث على دراسة التاريخ . وتعرض علينا الآية طاغوت زمن إبراهيم يناقش إبراهيم في الربوبية (أي لا خالق إلا الله) ، وقد غره ملكه وسلطانه .

أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ

فدفعه إلى ادعاء الربوبية بدلاً من الشكر لله .

إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ

.. سأله الطاغوت عن ربه الذي يدعو لعبادته وقد كسر الأصنام وسفه أحلام عابديها لأجله . فأجاب بذلك . والكلام في الإنشاء والتكوين لا في اتخاذ أسباب الحياة والموت . لكن الطاغوت إما أنه لم يفهم أو أنه تجاهل قصة إبراهيم فأجابه :

قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ

والإحياء حين ينسب إلى الإنسان يعني أنه يتخذ أسباب الحياة ويستعمل سنة الله في الحياة . فالطبيب يُسهم في إحياء الناس لأنه يستخدم سنة من سنن الحياة (الدواء) . فهل يمكن أن يقال إن الطبيب صار إلهاً . .؟! فلما أحس إبراهيم أن الطاغوت استغل موضع الالتباس قال له :

قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ

. . إن الله هو الذي وضع للحياة والموت سنناً ولسير الكون نظاماً . . فإن كنت تفعل كما يفعل فغير لنا نظام شروق الشمس . . فليس الذي يستخدم سنن الكون إلهاً . . وإنما الإله الذي خلق السنن وقادر على تعطيلها . . (وكأن قصة محاولة إحراق إبراهيم تكمل هذه المحاجة حيث رأى الناس كيف أن الذي خلق سنة الإحراق بالنار قادرٌ على تعطيلها فجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم) . والإنسان مهما اتسع سلطانه العلمي والمادي فإنه يستخدم السنن التي وضعها الله له في الكون ولا يستطيع أن يغيرها . عند ذلك :

فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ

لأنه قهر بالحجة الناصعة . . ولكنه مع ذلك لم يؤمن .

وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

والظالم هو الذي عرف الحق ولم يتبعه . فمرضه الاستكبار عن الحق . بينما الضال مرضه هو الجهل (وهو مرض أكثرية المعرضين) .

٢" ـ قصة الذي مر على قرية :

أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

وهو المثال الثاني لولاية الله للمؤمنين .

أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ

لا يخبرنا القرآن ما اسم القرية . . ولا من الذي مر عليها . . ولو كان في ذلك

فائدة لذكره . . والآية تقرر أن الشبهة قد تعرض للمؤمن وهو مؤمن فيطلب المخرج منها بالبرهان فيهديه الله إليه .

وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا

خالية ساقطة سقوفها . . أو أنها خاوية من السكان وقائمة على سقوفها . . المهم أن التعبير يفيد الخراب والخلو من السكان . فلما رأى هذا المنظر تذكر اليوم الآخر وفكر : كيف يمكن أن يبعث الله القرية . .؟

قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ

أي لم يتغير ولم يفسد .

وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ

والأرجح أن الحمار قد تعرت عظامه وتفسخت . . ليكون هذا التباين في المصائر والجميع في مكان واحد ويتعرضون لمؤثرات جوية وبيئية واحدة . . آية أخرى على القدرة التي لا يعجزها شيء . .

وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا

أي نرفعها ونركب بعضها على بعض .

ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

وقد سبق أن ذكرت أن المعجزات المادية كانت أدلة للبشرية في عصر طفولتها . . بينما اختلف الدليل في عصر محمد ﷺ فأصبح علمياً ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ (يس/٧٩) . ﴿كما بدأكم تعودون﴾ (الأعراف/٢٩) . وقد حدثهم القرآن عن النشأة الأولى ومراحل الجنين ﴿فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً﴾ (المؤمنون/١٤) . وقد رأى الناس بالعلم ذلك كله وعرفوا أن أول نسيج يتكون في الجنين هو العظمي . . وهنا حين تحدث عن الإحياء والبعث بدأ من العظام ﴿كما بدأكم تعودون﴾ (الأعراف/٢٩) .

٣" - إبراهيم يطلب رؤية الإحياء :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

وهو المثال الثالث :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ

هو مؤمن بالبعث ولكن يود لو يرى كيف يحدث هذا .

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾

وطلب المزيد من العلم والرغبة في الوقوف على أسرار الخليقة مما فطر الله عليه الإنسان .

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾

أي اجمعهن . فذبحهن وقطعهن وخلط أجزاءهن :

﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾

فدعاهن فرأى معجزة الله في بعثهن وإعادتهن . .

﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

لا يعجزه شيء . والغرض من القصتين الأخيرتين : تأكيد أهمية الإيمان باليوم الآخر . . إذ أن من يؤمن بالبعث والجزاء يحسب له في حياته كل حساب .

كما أن الآيتين تشيران إلى سر إحياء الموتى . وأن الله سبحانه وتعالى قادر على إظهار الحياة بغير طريقة الولادة والتفريخ . . وإن هذا السر العظيم ـ سر الموت والحياة ـ جدير بالتأمل والخشوع من الإنسان الذي يقف أمامه ضعيفاً عاجزاً .

الفصل السّادس عشر

في الأَمْوَال

(بحث في الاقتصاد الإسلامي)
(٢٦١ ← ٢٨٣)

- الإنفاق في سبيل الله .
- تحريم الربا .
- مشروعية الدَّيْن وتنظيمه .
- الرّهان .

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ
لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ
أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ
أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟
صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ
تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ
شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾
وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ
وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ

لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ
فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ
فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا
لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم
بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ
﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ
وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾
يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾
وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ
يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟
ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ
فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ

وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ

فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ
ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ
فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ
ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى
ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبُۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ

فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾

۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾

نحن الآن أمام بحث في الاقتصاد الإسلامي . والآيات التالية فيها توجيه وتنظيم لغريزة التملك عند الإنسان . وفيها ذكر لأربعة أنواع من المعاملات المالية :

ـ ١ ـ

الانفاق في سبيل الله

يضرب الله المثل المادي لتوضيح المثل الاجتماعي فيقول :

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ

وإن أكثر الناس لا يدركون أن بقاء الفقر في الأمة بقاء للجهل والمرض فيها . وبقاء الأمة في التخلف يؤثر على كل فرد فيها لأنه يعرضه للأوبئة الجسمية والفكرية . والآيات بعد أن أكدت البعث والحساب تأمر بالإنفاق في سبيل الله ؛ لأن الإيمان بالبعث للجزاء هو من أقوى الدوافع لبذل المال . ويعلق رشيد رضا في تفسير المنار على هذه الآيات بقوله : [إن ما ينفقونه في المصالح يضاعف لهم أضعافاً كثيرة فهو مفيد لهم في دنياهم . . . وحثهم على أن يجعلوا الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ليكون مفيداً لهم في آخرتهم أيضاً] . والإنفاق نوعان : فريضة وتطوع . والتطوع له درجات : الإنفاق من الفائض ، والإنفاق مما تحب، والإيثار. والحديث هنا عن إنفاق التطوع ويمثل الجزاء عليه إن توفر فيه الإخلاص لله : كمثل أجر مَنْ بذر في أخصب أرض فنما أحسن نمو فجاءت غلته مضاعفة سبعمائة ضعف .

وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

يضاعف بأكثر من ذلك عن علم ومعرفة بمن يستحق . وهو مشهد للنمو في الأعمال التي توفر فيها الإخلاص والصواب يجب أن نذكره دائماً حتى لا نزهد في الأعمال مهما كانت صغيرة .

وقد كان المثل زراعياً وهو ما يناسب العصر الذي نزلت فيه الآيات ، والعربي الذي يعيش في الصحراء . . ويظل المثل مفهوماً ومؤثراً على مر الأيام . . كما أن بإمكان الداعي المعاصر أن يضرب أمثالاً صناعية للنمو تناسب مدارك الناس .

وللإنفاق **شروط** كي تظل ثماره نامية وأجره مستمراً . منها ما هو قبل الإنفاق ومنها ما هو أثناءه ، ومنها ما هو بعده . والآيات تبدأ من الأخير : **شرط** ما بعد الإنفاق :

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى

والمنُّ : أن تذكر من أعطيت بإنعامك عليه . والأذى : أن تذكر لغيره أنك أحسنت إلى فلان . . وهذا أشد على نفسه من المنِّ بينك وبينه . وهذا هو أخطر الشروط وأصعبها لأن الشيطان يظل حريصاً على إغرائك بالمن والأذى كي يبطل عملك والفرصة أمامه إلى آخر حياتك . والمنفق بعد أن قام بالعمل واستوفى الشروط الأولى . . قد يكون مخلصاً صادقاً . . لكنه إن لم يحذر فقد ينزلق ولا سيما عندما يواجه بنكران الجميل ـ وهو كثير في الناس ـ فيثور غضبه ويندفع في المن والأذى . وهذا يضيع العمل ويجعله هباء منثوراً . ولهذا عبر في آيات أخرى بقوله : ﴿من جاء بالحسنة فله . .﴾ (القصص/٨٤) . إذ أن المهم في الأمر أن يستطيع المحافظة على الحسنة حتى يأتي بها إلى الله .

لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

طالما حرصوا على شروط الإنفاق .

﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى

أن تعفو عن السائل ولو ألح في الطلب وتجاوز الحد وتقول له قولاً فيه معروف (كأن تعتذر منه أو تدعو الله له أو تنصح له فذلك أفضل من أن تتصدق عليه ثم تؤذيه . فكرامة الإنسان أغلى من المال . والكلام الطيب ليس خيراً من الصدقة . لكنه خير من صدقة يتبعها أذى .

وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾

تعزية للفقراء وتعليقاً لقلوبهم بالله . وفي ذلك أيضاً تهديد وتذكير للأغنياء بالغني الذي أعطاهم وهو في غنى عنهم . وهو حليم يعطيهم المهلة كي يتوبوا .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ

ومن الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : «المنان بما أعطى» [1] . ويذكر في الآية مثلاً يوضح كيف يبطل المن والأذى الصدقة :

كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

فمن يفعل ذلك يكون كالذي ينفق رياء وافتخاراً . .

فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ

حجر صلد .

عَلَيْهِ تُرَابٌ

---

(١) رواه مسلم .

فيظن أنه تربة خصبة .

﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾

مطر غزير .

﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ﴾

وكشف عن حقيقته . والمنافقون تكشف المحن عن حقائقهم ويضيعون أعمالهم .

﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾

وعمل الله لا يحدث (المنع من الهداية) حتى يحدث عمل العبد (الكفر) .

ويأتي المثل الثالث زراعياً أيضاً ؛ لبيان جزاء من ينفق ابتغاء مرضاة الله وتطهيراً لنفسه . .

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾

وارتفاع الجنة يعطيها أكبر نصيب من الشمس والهواء وتسقى بماء المطر النقي فتكون أصفى وأزكى ثمراً . فإن أصابها مطر غزير أعطت ثمرها ضعفين .

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّۗ﴾

قليل من المطر . وإن الأرض الصالحة الخصبة تعطي ثمارها وإن كان المطر قليلاً .

فقد يكون العمل الطيب صغيراً لكن ثماره لا تتخلف . وذلك مثل أيضاً للقلب المؤمن كيف يزكو ويزداد صلة بالله بالصدقات ويزكو ماله ويضاعف له الله فيه . . وتزكو حياة الجماعة المؤمنة بالإنفاق وتنمو (كما يقول صاحب الظلال) .

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

بصير بالأعمال وبصير بالنوايا من ورائها .

ويضرب مثلاً آخر لمن ينفق رياء أو يبطل إنفاقه بالمن والأذى . وقد كان المثل الأول قد وضح فضيحة المرائي وانكشاف أمره . بينما الآن يبين خسارته لكل شيء في وقت يكون فيه بأمس الحاجة والعجز . .

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ

والصدقة في أصلها وآثارها كالجنة الظليلة المخصبة المثمرة . . فمن ذا الذي يود أن تكون له هذه الجنة ثم يرسل عليها المن والأذى يمحقها محقاً كما يمحق الجنة إعصار فيه نار . ومتى ؟ في أشد ساعاته عجزاً عن إنقاذها وحاجة إلى ظلها ونعيمها . .

وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ

والإعصار : الرياح الشديدة باردة جداً أو حارة جداً وكلاهما يحرق الشجر والزرع . فمن يتمنى مثل هذا المصير في الآخرة ؟!

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

لأن التفكير في العاقبة هو الذي يغير النفس والسلوك بعد ذلك . وقد لاحظنا أن الأمثلة الأربعة زراعية وفيها تشبيه النفس بالتربة . وأنواع النفوس كأنواع التربة (كما جاء في الحديث) : صالحة ، وأجادب ، وقيعان . وقد تمكن العلم من التدخل في تصنيع التربة وتحويل المجدبة إلى خصبة . فمتى يرتقي العلم أكثر - في المجال الإنساني - حتى يتمكن من تغيير النفوس واستصلاحها حتى تعطي أحسن ما يمكن من الثمار . ما الذي يجب أن نحذف من الإنسان وما الذي يجب أن نضيفه وكيف نحذف ونضيف حتى نخرج الإنسان العدل الذي أينما توجهه يأت بخير . .؟! ثم يأتي شرط أثناء الإنفاق :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ

وهي إشارة إلى الكسب والتجارة .

وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ

من محصول زراعي أو معادن أو نفط . . فالآية تستوعب جميع أنواع المال .

وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ

ولا تقصدوا إلى الرديء فتتصدقون منه .

وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ

والقرآن يطالب المؤمن أن يقف الموقف الذي يجب أن تقفه الناس منه فلو قدَّم لك أحدهم هدية رديئة لما قبلتها إلا بغض النظر وضيق في النفس .

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

فإن كان الفقير يقبل الرديء لحاجته . . فإن الله الغني لا يتقبل هذه الصدقة . وإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً . وهو حميد : يشكر للمنفق ويثني عليه ويعطيه أجره

مضاعفاً . والنفس يعتريها الشح وتحتاج إلى مجاهدة ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ (الحشر/٩) . حتى تتحرر من الأثرة والأنانية . . ولا بد أن يرتقي المؤمن حتى يصبح أمر الله أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه . . وينتصر على وسوسة الشيطان الذي يدخل إلى الإنسان من الأثرة والأنانية ويحرك فيه دوافع البخل . . فتأتي الآية لتذكّر أن الإنفاق لا يتحقق إلا بشرط أولي هو التغلب على وسوسة الشيطان .

ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ

فهو يلقي في النفس بوساوس : لا تتصدق حتى لا تفتقر . . وهذا الفقير كسول لا يستحق الصدقة . . هل أنت أكرم من ربه . . ؟

هذه الوساوس ترسخ في النفس الحرص على المال . . وهو أمر إن تمكن من النفس أدى إلى ارتكاب الفواحش . . فقد وأدوا البنات خوفاً من الفقر . وأكلوا الربا حرصاً على المال . واستباحوا الإغارة والسلب والنهب . وكان البخل من أشد الفواحش عند العرب .

وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا

فجزاء الصدقة المغفرة . . والفضل هو الزيادة في الدنيا والآخرة . .

وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾

يعطي عن سعة وعلم بما في النفوس . وشتان بين وعد السميع العليم الواسع الفضل ووعد الشيطان الذي يغرر بالناس دون علم . ومن فضل الله في الدنيا للمنفق : أن يعطى السعادة وراحة النفس وحب الناس له . وهناك عطاء آخر من نوع مختلف جدير باهتمام المؤمن وسعيه وطلبه . . إنه الحكمة . .

يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ

والحكمة هي إدراك المقاصد والمنافع من الأحكام الشرعية والقدرة على التبصر ووضع الأمور في مواضعها .

وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا

والآية تذكر عمل الله وحده . ولكن ينبغي أن نتذكر العلاقة بين عمل الله وعمل العبد .

فكل إنسان كاتب بالقوة ـ أي أعطاه الله القدرة على الكتابة ـ لكنه لا يتحول إلى كاتب بالفعل إلا بالتعلم وبذل الجهد والمعاناة . والحكمة كذلك . . فقد أعطى الله تعالى العقول للجميع كي يفكروا . . فمن تعب واجتهد في تنمية وعيه وإدراكه . . فكأنما يغذي ويربي الحكمة في نفسه حتى تنمو بالمعاناة . أما من يعطي عقله إجازة مفتوحة فلا يمكن أن تظهر الحكمة عنده . ولهذا يعقب :

وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

وقد عرَّف ابن عباس : «الحكمة هي الفقه في القرآن» أي معرفة ما فيه من الهدى والأحكام بعللها وحكمها . ولعل هذا ما أشار إليه ﷺ بقوله : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» . وهذا الموضوع من ألزم ما يكون للداعي لأن الله قال : ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل/١٢٥) . بحيث لا يؤدي أمرك بالمعروف إلى منكر أكبر . . وهو أمر يحتاج إلى يقظة فكر وقدرة على مراقبة العواقب ومراجعة النفس .

فالحكمة هي العلم الصحيح المحرك للإرادة إلى العمل النافع . وآلة الحكمة العقل السليم المستقل الذي لا يحكم إلا بالدليل . والحكمة تحرك الإرادة وتوفر القدرة [وإذا توفرت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة تحقق المراد] كما يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله .

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾

أيُّ نفقة مادية كانت أم معنوية . . والنذر : نوع من أنواع النفقة يوجبه المنفق على نفسه مقدراً بقدر معلوم . ويشترط فيه أن يكون لوجه الله ـ لا باسم أحد من الأولياء ـ ولا يستحب النذر الذي يشترط فيه على ربه لأنه يدل على بخل صاحبه في الطاعة مع الله .

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾

أولئك الذين يظلمون الفقراء بمنعهم مما أوجبه الله لهم . وترك الوفاء بالنذر وأداء الحقوق للآخرين هو ظلم للنفس وللآخرين . . وإن الإنفاق ضمان للمجتمع ضد الظلم والهزات الإجتماعية والثورات الدامية . . إن الإنفاق يجعل المجتمع كالجسد الواحد المتماسك . وإن الإنفاق يمحو السيئات ﴿**إن الحسنات يذهبن السيئات**﴾ . بشرط أن لا تضيع الحسنة بالمن والأذى . . فلنحرص في الحفاظ على الحسنة . . ولنجتهد في محو السيئة والتخلص منها .

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ﴾

في الآية مدح الإبداء والإخفاء . ونلمس تفضيل الإخفاء .

والإبداء والإخفاء يقتضي منا إعمال الفكر حتى نضع كل أمر في مكانه . فقد قيل بأن إخفاء صدقة التطوع أولى «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله» بينما إظهار الفريضة أفضل لأن فيه إقامة لدين الله وإظهار له . وبعضهم قال : الإظهار أفضل في التطوع لمن يـرجو اقتداء الناس به «من سنّ سنة حسنة فله أجرها

وأجر من عمل بها» . والحكمة هي التي تعطي الإنسان القدرة على التمييز فيعرف متى يخفي ومتى يعلن . وفقدان الحكمة يؤدي إلى : الإعلان في غير مكانه ـ وهذا ما يؤدي إلى الرياء ـ أو الإخفاء في غير مكانه . يقول صاحب المنار : [من الناس من يظن أن إخفاء كل أعمال الخير أفضل من إظهارها وأنه خير للإنسان أن يكون مغموراً من أن يكون معروفاً بَالخير مقتدى به فأين من هذا الظن قوله تعالى : ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ (السجدة/٢٤) . فهل يكون الإمام الذي يقتدى به في الخير مغموراً مجهولاً ؟!) . وفي قوله تعالى : **﴿وتؤتوها الفقراء﴾** :

أطلق اللفظ ولم يقل فقراءكم . فدل على أن الصدقة تعطى لكل فقير وإن كان كافراً . . لكن الزكاة لها مصارفها المحددة في القرآن وهي خاصة بالمسلمين وقد ورد في الصحيحين : «في كل كبد رطبة أجر» . .

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

عن ابن عباس : «أن النبي ﷺ كان يأمرنا ألا نتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية»[1] . فالآية تؤكد الإشارة السابقة وترفع الحرج من الإنفاق على غير المسلمين ، لأن الرحمة بالفقير لا ينبغي أن تتوقف على نوعية دينه وأفكاره . ومن شأن المؤمن أن يكون خيره عاماً . وهذه وثبة بالبشرية تطهرها من التعصب بكل أشكاله . وقد حدثت في وقت مبكر . . لم يفكر فيه الناس بحقوق الإنسان مجردة عن كل الملابسات . . بل إننا شهدنا في عصرنا هذا كيف قدمت بعثات التنصير مساعداتها في مجاعة أفريقيا . . فقد قصرت المساعدة على النصارى حتى اضطر كثيرون بدافع العوز والجوع إلى إعلان تنصرهم كي يحصلوا على المساعدة .

إن المسلم يشعر بأنه مكلف بإنقاذ العالم . . وأن عليه أن يكون مصدر خير للجميع .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن عباس .

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾

لست مكلفاً بهداية الناس وإنما عليك البلاغ . والمسلم مطالب بالتبليغ والبيان ولا يسأل عن إعراض الناس ؛ لأن للهداية قانوناً ذكره في آيات أخرى : ﴿إن تطيعوه تهتدوا﴾ . وهي التي تفسر قوله هنا :

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ
وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ

فلا تظنوا أنكم خسرتم ما أنفقتم . وقد قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها عن الشاة التي تصدقوا بها إلا كتفها : «بقيت كلها إلا كتفها» .

في الآية ثلاث لفتات :

١ ـ ﴿فلأنفسكم﴾ .
٢ ـ ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ .
٣ ـ ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ .

هذه التأكيدات المطولة في موضوع الإنفاق نفهم منها :

١ ـ أهمية الإنفاق في حياة المجتمع .
٢ ـ طبيعة النفس البشرية المعرضة للشح وحاجتها الدائمة إلى التحريك .
٣ ـ اشتهر العرب قبل الإسلام بالكرم ولكنه كان طلباً للذكر والصيت الحسن بين الناس .

وبعد أن أمرت الآيات بإيتاء الفقراء عامة مهما كان دينهم . يأتي بيان لأحق الناس بالصدقة .

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

ورد أن الآية نزلت في أهل الصفة . وهم من فقراء المهاجرين لم يكن لأكثرهم مأوى لذلك كانوا يقيمون في صفة المسجد وهي موضع مظلل منه (والصفة هي الظلة) . وقد هاجروا بدينهم وتركوا أموالهم فهم محصورون في سبيل الله بهذه الهجرة وبحبس أنفسهم على حفظ القرآن : للفهم والاهتداء والعمل به ولحفظ أصل الدين بحفظه ، والتعلم من رسول الله ﷺ وحفظ حديثه (مثل أبي هريرة) . والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فكل من تنطبق عليه هذه الصفات هو المقصود . وقد ذكر لهم خمس صفات :

١" - ﴿أحصروا في سبيل الله﴾ :

والمراد بالإحصار المانع من الكسب : ما كان ترك الكسب فيه بسبب اضطراري . فإن ترك الكسب مختاراً لم يحل له أن يأخذ الصدقة . . مثل المرابطين على الحدود (وقد أصبحت لهم الآن أجور) . ولكن كثيرين في عالمنا الإسلامي يرابطون على حدود ثغرات لم تخصص لهم أجور . . كالمجاهدين في أفغانستان . والذين يهتمون بنشر الوعي وتعليم القرآن . والذين يسهرون على حراسة مبادىء المجتمع . والباحثين والعلماء الذين يتطلب منهم اختصاصهم التفرغ للدراسة والبحث .

٢" - ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

والضرب في الأرض هو السعي والسفر طلباً للرزق . فالقادر على الكسب ولو بالسفر لا يحل له أن يأكل الصدقة .

٣" - ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾

فهم فقراء كرام يكتمون الحاجة كأنما يغطون العورة .

٤"- ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾

بآثار الحاجة في الوجه أو الهيئة مما لم يستطيعوا إخفاءه وهذه السيماء لا تتعين بهيئة خاصة ، وإنما تترك لفراسة المؤمن الذي يتحرى المستحقين .

٥"- ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾

(أي إلحاحاً) . «ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان . ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس»[1] . والسؤال محرم في الإسلام لغير ضرورة . ولقد كان من تربية الرسول ﷺ لأصحابه : أن بعضهم عاهده على أن لا يسأل الناس شيئاً . . فكان أحدهم يسقط منه سوطه فلا يطلب من أحد أن يناوله إياه حتى ينزل هو عن دابته ويأخذه بنفسه . .

هؤلاء الفقراء الكرام لا يُعْطَون إلا سراً وفي تلطف لا يخدش إباءهم وكرامتهم ولهذا جاء التعقيب على الآية موحياً بإخفاء الصدقة :

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾

ومما يلفت النظر في الآية : هذا الوصف الفريد للفقير المسلم . فلقد رسمت الآية للفقير المسلم صورة راقية جداً لا يتصف بها أغنياؤنا الآن فكيف بالفقراء . . ؟!

والتربية القرآنية قائمة على تعليم كل فرد أن يؤدي واجبه . . فالآية السابقة ذكرت واجب الفقير المؤمن وهو التعفف . . . بينما تأتي الآية التالية عن واجب الغني المؤمن :

---

(١) مروي في الصحيح .

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾

والآية تمثل نصاً عاماً شاملاً لكل طرائق الإنفاق وكل أوقاته . . كل في موضعه ولكل ظرف ما يناسبه . وأذكر في هذا المجال طرفة تروى : أن أحد الفقراء كان يقول : أين الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ؟ فأجابه آخر : ذهبوا مع الذين لا يسألون الناس إلحافاً . . وهكذا أصبح كل منا يفكر في واجبات الآخرين وتقصيرهم . . فما أمر الله به الأغنياء صار هوى الفقراء . . وما أمر الله به الفقراء صار هوى الأغنياء . . (نحن نرى القشة في عين الجار ولا نرى الخشبة في عيوننا) كما يقول مالك بن نبي . ولا خلاص لنا إلا بأن نبدأ من واجبنا . . فالأغنياء والفقراء حين يؤدون واجبهم :

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

فلا يخافون ولا يحزنون يوم الفزع الأكبر .

يأتي بعد ذلك موضوع الربا . وكأن الترتيب بهذا الشكل يظهر التناقض بين الأمرين : فالمتصدق يعطي المال بغير عوض يقابله . والمرابي يأخذ المال بغير عوض يقابله .

■ ٢ ■

تحريم الربا

والربا هو كسب بدون جهد (كالطفيلي يبتلع جهد الآخرين) . وهو موضوع له آثاره الخطرة في الدنيا والآخرة . . ولكن المسلمين قد تهاونوا فيه ووقعوا تحت نيره . والربا نوعان :

آ ـ **ربا النسيئة** : وهو دين يتفق الطرفان على وفائه في وقت معين ، فإذا لم يستطع الدائن الوفاء أجله مقابل زيادة يدفعها . (ولذا يُشك في بيع التقسيط لأن سعره بالتقسيط يزيد عن سعره عند البيع المباشر . وهذا موضوع نترك مناقشته للمختصين) .

ب ـ **ربا الفضل** : ويوضحه ما رواه مسلم أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ بشيء من التمر (ويبدو أنه من صنف جيد) فقال له ﷺ : «ما هذا من تمرنا» ؟ فقال الرجل : بعنا تمرنا صاعين بصاع . فقال ﷺ : «ذلك الربا . ردوه ثم بيعوا تمرنا ثم اشتروا لنا من هذا» . فربا الفضل هو بيع النقود بالنقود أو الطعام بالطعام مع الزيادة . فلا يجوز التبادل المباشر بين الجيد والرديء لاحتمال الغبن . وإنما يباع الرديء بشيء آخر . ثم يشترى من الجيد [1] . وعلى المسلم أن يحترس في تجارته من الغبن ويبتعد عن الشبهات .

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾

للآية تفسيران :

١ ـ **رأي الجمهور** : أن المراد بالقيام هو القيام من القبر عند البعث . وأن الله تعالى جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون كالمصروعين .

٢ ـ **في الظلال والمنار** : أن الآية تشبه المرابي في الدنيا بالمتخبط المصروع . والمس : هو الجنون . جاء في المنار : [أولئك الذين فتنهم المال واستعبدهم حتى ضريت نفوسهم بجمعه وجعلوه مقصوداً لذاته تخرج نفوسهم عن الاعتدال ويظهر ذلك في حركاتهم وأعمالهم . . . وهو أثر اضطراب نفوسهم وتغير أخلاقهم . . لا بد أن يبعثوا عليه فإن المرء يبعث على ما مات عليه] . وقد ورد في الحديث مشهد المرابي « . . رجل يسبح في بحر من الدم وعلى الشاطىء رجل عنده حجارة . . فكلما قارب الرجل أن

---

(١) يراجع بحث الربا في صفحة ١٣٠ من الجزء الثالث من فقه السنة لسيد سابق . لفهم الموضوع أكثر .

يخرج ألقمه حجراً فعاد من حيث أتى»[1] . . فآكل الربا يسبح في دماء الناس ولا يشبع . . وإن آكل الربا قد أسلم نفسه للشيطان فهو يسيطر عليه ويتلاعب به .

ولا بد من الانتباه فقد أصبح للربا صور متعددة في عالمنا الآن . (كما أخذت الخمر أشكالاً وأسماء متعددة) . وقد حرص رسول الله ﷺ على تنقية البيع من كل أشكال الغبن والتغرير و«إن الحلال بينٌ وإن الحرام بينٌ وبينهما مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه . ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه»[2] . لكن الحلال والحرام لا يكونان بيّنين إلا بعد الدراسة والتدبر لما جاء في القرآن والسنة حول الموضوع من تفصيلات .

يقول صاحب الظلال : [والذين يأكلون الربا ليسوا هم الذين يأخذون الفائدة الربوية وحدهم ـ وإن كانوا أول من يتوجه إليه التهديد ـ وإنما هم أهل المجتمع الربوي كلهم « . . لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه[3] . . » . إن العالم الذي نعيش فيه اليوم هو عالم القلق والاضطراب . . . والأمراض العصبية والنفسية باعتراف عقلاء أهله وعلمائه . . وبمشاهدات المراقبين والزائرين . . (فكأنه يتخبطه الشيطان من المس) . . . . الاقتصاد ينمو ولكنه لا ينمو سوياً بحيث تتوزع خيرات نموه على البشرية كلها وإنما مائلاً إلى جانب المرابين . . الذين يقرضون الصناعة والتجارة . . ويجبرونها على أن تسير في طريق معين ليس هدفه الأول سد مصالح البشر وحاجاتهم . . ولكن انتاج ما يحقق أعلى قدر من الربح ولو حطم الملايين وحرم الملايين وأفسد حياة الملايين . . .] .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ

إنهم يحاولون تلبيس الأمور ويستغلون الغموض وجهل الناس في تزوير الحقائق . . فالبيع يختلف عن الربا في عدة جوانب منها :

١ ـ يحتمل البيع الخسارة والربح بينما الربا ربح مضمون .

٢ ـ البيع فيه سعي وجهد . بينما الربا ربح بدون جهد .

٣ ـ عمليات التجارة نافعة للحياة محركة لها بينما عمليات الربا مفسدة للحياة البشرية . ويصعب على الإنسان المعاصر أن يفهم هذا ولكن الدراسة والبحث تظهر الحقيقـة . وقد كتب المودودي كتاباً في الربا حاول فيه أن يبين كيف أن هذا النظام يسمم حياة البشرية .

٤ ـ ولهذا فقد أحل الله البيع وحرم الربا . . والفرق شاسع بين الحلال الطيب والحرام الخبيث .

فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ

هذا التحريم موعظة للناس من أجل سعادتهم في الدنيا والآخرة . فمن استفاد ترك الربا . .

فَلَهُۥ مَا سَلَفَ

أي له ما مضى على أن ينتهي عن أكل الربا ويتوب عنه .

وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ

وهذا ما يوحي بالتحرج والخوف من العقاب . ولهذا فمن الأفضل رد الربا الماضي إلى أصحابه إن تمكن فهو أضمن للمغفرة . أما من أكل الربا بعد النهي عنه فقد هدده بأشد الوعيد .

وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾
يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ

في الظاهر يُظَنُّ أن الصدقة تُنقص المال والربا يزيده . . تلك نظرة سطحية . . ولكن الله يبيد مال الربا ويقضي عليه . وإن البركة ليست في ضخامة الموارد بقدر ما هي في الاستمتاع الطيب الآمن بهذه الموارد .

أما كيف يمحق الله الربا فهذا يحتاج إلى دراسة فنية دقيقة تظهر كيف يمحق الله المجتمع الذي يتعامل بالربا .

وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾

وكفى بآكل الربا هذا الوصف من الله تعالى . ذكر صاحب المنار أن المرابي لا يشعر باللذة بالمال لاشتغاله الدائم بمحاولة تضخيمه ولمقت الناس له وحقدهم عليه . بينما المودودي يتحدث عن المحق الاجتماعي . . حيث أن نسبة الفقراء تزداد في المجتمع الذي يتعامل بالربا وتتردى أحواله عموماً . . وفي مقابل صورة الكفر والإثم والمحق . . يعرض صورة الإيمان والعمل الصالح والعطاء . .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

ويخص من العمل الصالح الصلاة والزكاة بالذكر لأنهما أعظم أركان العبادة النفسية والمالية . والمجتمع الذي يحققهما مجتمع آمن .

وإبراز الزكاة هنا في مواجهة الربا مقصود . فالزكاة ـ على عكس الربا ـ بذل

وعطاء بدون مقابل . يقول صاحب الظلال : [بهتت صورة الزكاة حتى أصبحت هذه الأجيال تحسبها إحساناً فردياً هزيلاً لا ينهض على أساسه نظام عصري . . ولكن كم تكون ضخامة حصيلة الزكاة وهي تتناول ٢,٥٪ من أصل رؤوس الأموال الأهلية مع ربحها . . تحصلها الدولة المسلمة حقاً مفروضاً لا إحساناً فردياً وتكفل بها كل من تقصر به وسائله . . حيث يشعر كل فرد أن حياته وحياة أولاده مكفولة في كل حالة . .] . هذا بعض ما تقول عنه الآية : **﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** .

وفي ظل هذا الرخاء الآمن يهتف بالمؤمنين الهتاف الأخير ليحولوا حياتهم عن النظام الربوي المقيت . . وإلا فهي الحرب المعلنة من الله ورسوله بدلاً من الأمن .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾

ذكر في نزول الآية أن طائفتين من ثقيف ومن بني مخزوم كان بينهم ربا في الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذه منهم . . . وقالت طائفة من بني مخزوم : لا نؤدي الربا في الإسلام . . فكتب نائب مكة إلى رسول الله ﷺ في ذلك فنزلت الآية . فكتب بها رسول الله ﷺ إليه . وأمر عامله على مكة أن يحارب هؤلاء إن لم يكفوا عن التعامل بالربا فقالوا : نتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا . . .

وقد بدأ الأمر بالتقوى لأنها هي الدافع إلى ترك الربا : **﴿وذروا ما بقي من الربا﴾** . وترك لهم ما سلف لأنه لا تحريم بغير نص . ثم إن تصفية الماضي قد تخلق هزة اقتصادية في هذا المجال ، أما بعد نزول الحكم فمن وقع في الربا ثم تاب عنه فعليه أن يحاول تصفية ماله ما استطاع وقد بدأ النبي ﷺ في إلغاء الربا من عمه : «وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد . .» وذلك في خطبة حجة الوداع . **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** . فالاستجابة هي دليل الإيمان .

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

فقد أعلن الله ورسوله الحرب على من لم ينتهِ . . . فهل تطيق حرباً مع الله ورسوله ؟! والحقيقة أن الربا يستتبع حرباً عامة على الأعصاب والقلوب وعلى البركة والرخاء وعلى السعادة والطمأنينة . والإمام في المجتمع الإسلامي مكلف أن يحارب الذين يصرون على النظام الربوي .

وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾

فإن أردتم استرداد رؤوس أموالكم التي هي ديون على الناس ـ مع حذف الربا منها ـ فلا ترهقوهم وأعطوهم مهلة إن كانوا معسرين :

وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ

فالمعسر لا يطارد من صاحب الدَّيْن . . والمجتمع المسلم لا يترك هذا المعسر ويتخلى عنه بل إن له حظاً من الزكاة : ﴿**إنما الصدقات للفقراء . . . والغارمين**﴾ .

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل من أنظر معسراً أو تجاوز عنه وسامحه بالدين . .

وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

فهي دعوة إلى المسامحة مع المعسر فهو خير لكم جميعاً في الدنيا والآخرة .

وإن مزيداً من العلم يكشف لكم الحكمة من هذه التوجيهات ويدفعكم إلى التطبيق . عن أبي ذر رضي الله عنه ﷺ : «إن الأكثرين هم الأقلّون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا (عن يمينه وعن شماله ومن خلفه) . . وقليل ما هم» [1] .

ويربط هذه التوجيهات التي تنظم وتهذب غريزة التملك عند الإنسان بالإيمان بالله

---

(١) متفق عليه .

والتذكير باليوم الآخر :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

تذكر بعض الروايات أن هذه الآية ـ مع آيات الربا التي قبلها ـ هي آخر آية نزلت من القرآن الكريم . . فهي النداء الأخير للمؤمنين جميعاً أن يستعدوا لذلك اليوم .

كان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك . . .

كذلك فإن الآية تمثل حملة أخيرة على الربا في القرآن . . هذا النظام الذي تئنّ البشرية تحت وطأته . . والذي بدأ بعض علماء الاقتصاد يتحدثون عن ويلاته (كما ذكر صاحب الظلال عن الدكتور شاخت الألماني) .

وعلى المرأة المؤمنة أن تدرك أن لها دوراً في الموضوع . إنها بحرصها على الحلال في الرزق تشعر زوجها أنها تفضل الجوع على المال الحرام . وتصبر على العوز ولا تصبر على الحرام . . وإن لموقف المرأة أثراً خطيراً في هذا المجال . فالرجل قد ينزلق تحت وطأة تأمين حاجات الأسرة ورفع مستواها المالي . . وتطلع الزوجة إلى ذلك يؤثر لا شعورياً عليه .

■ ٣ ■

مشروعية الدين وتنظيمه

إنه لمما يسترعي الانتباه أن تكون أطول آية في القرآن هي آية الدين . . ولعلها إشارة واضحة إلى أن التعامل وفق شريعة الله هو أهم جانب في هذا الدين فأبرز جانب في التوحيد ألا تشرك بالله حاكماً ومشرعاً . كما أنها توحي بطبيعة هذا الدين فهو يعتبر تنظيم التعامل المالي وتحقيق العدل والتنمية الخيرة فيه جزءاً هاماً من العبادة ، تحقيقاً لخلافة الإنسان على الأرض . يقول صاحب المنار : [الكلام في الأموال بدأ بالترغيب في الصدقات وذلك محض الرحمة ، وثنى بالنهي عن الربا الذي هو محض القساوة ، ثم جاء بأحكام الدين والتجارة والرهن وهي محض العدالة] . فكأنه أمر بالإحسان ترغيباً ونهى عن الظلم تحريماً وأمر بالعدل فرضاً .

والآيات بهذا الترتيب توحي أيضاً بأن القصد ليس هو إضاعة المال وترك استثماره وإنما هو الكسب من حلال والاستثمار من حلال والإنفاق في طرق الخير .

وقد تضمنت الآية خمسة عشر أمراً ونهياً تستوفي التشريع القانوني بدقة مع ربطه بالضمير والتقوى . والإعجاز كامن في تحقيق الدقة التشريعية المطلقة مع الجمال الفني . .

وللدين أركان :

١ ـ المعطي .

٢ ـ الآخذ .

٣ ـ المدة .

٤ ـ الكمية .

٥ ـ الكتابة (الضمان) وهي تشمل عناصر :

١" ـ الكتابة .

٢" ـ الكاتب .

٣" ـ الشاهدين .

٤" ـ ولي الآخذ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾

النداء يوحي باهتمام الله بعباده يوجههم ويرعاهم ويشرع لهم .

﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

يذكر عناصر الموضوع الأولية ثم يشرح في الأخير .

﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾

بصيغة الأمر . . ولذا قالوا الكتابة واجبة ومن لم يكتب فقد عصى ربه . وقال بعضهم : بل إنه سنة فقد كان واجباً ثم نسخ بقوله **﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾** .

أما صاحب الظلال فيقول : ما زال الأمر للوجوب . أما موضوع الإئتمان فهو رخصة للسفر فقط .

والكتابة سبب في ضمان الحقوق وتنظيم العلاقات المالية بين الناس على الحق والعدل . وعدم القيام بهذا السبب لا بد أن تكون له نتائج دنيوية . كشأن سائر سنن الله في الدنيا . ومن ترك الأسباب حصل على نتائج حتمية في الدنيا ولو تاب إلى الله . لأن التوبة تعفي من عقاب الآخرة ولا تعفي من عقاب الدنيا على التفريط .

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾

فلا بد من وجود كاتب بينهما ولو كانا يعرفان الكتابة احتياطاً . ويشترط في الكاتب العدل . وتتضمن الكلمة النزاهة وتستلزم العلم بشروط المعاملات التي تحفظ الحقوق كي يكتب النص الواضح الذي لا يحتمل تأويلات متعددة تخلق نزاعاً . . ولا بد أن نتذكر أن هذه الآية قد نزلت على أمة وصفت بالأمية . . فأمرتها بالكتابة . . وأمرتها بايجاد المقتدرين على كتابة العقود .

وهي خطوة هامة لإخراج العرب من البداوة والهامشية إلى أمة متحضرة اختارها الله لأداء رسالة فلا بد لها من القراءة والكتابة لإقامة حضارة ونشرها ونقلها للناس .

وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ

فزكاة العلم أن تعين إخوانك به .

فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا

أي لا يحسن تدبير أموره .

أَوْ ضَعِيفًا

أي صغيراً أو ضعيف العقل ،

أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ

لجهل أو عجز في لسانه .

فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ

وهو تحذير حتى لا يتهاون الولي لأن الدين لا يخصه شخصياً .

وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ

والشهيد : من شهد الشيء وحضره . وقد اتفق العلماء على شروط في الشاهد منها :

الإسلام لقوله ﴿من رجالكم﴾ والعدالة لقوله في آية أخرى : ﴿**أشهدوا ذوي عدل منكم**﴾ .

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾

والرضا يشمل الشروط السابقة من الإسلام والعدالة . . كما أنه يقصد به رضا الطرفين به . فلماذا رجل وامرأتان ؟

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾

فهناك احتمال نسيان المرأة لموضوع الشهادة بتفاصيله [ومن طبع البشر أن يقوى تذكرهم للأمور التي تهمهم ويكثر اشتغالهم بها] كما يقول في المنار . فقد ينشأ الضلال أو النسيان من قلة خبرة المرأة بالمعاملات المالية والعقود . وبالرغم مِنْ أن كثيرات الآن يشتغلن في أعمال مالية واقتصادية لكن أكثرية النساء يتوجهن باهتمامهن إلى وظيفتهن الطبيعية . . الأسرة وتربية الأطفال والشؤون الاجتماعية . . ولهذا فإن الأحكام تناط بالأكثرية .

ويستحسن الرجوع إلى كتاب (المرأة بين الفقه والقانون) للدكتور المرحوم مصطفى السباعي - بالإضافة إلى ما جاء في الظلال والمنار - فقد أضاف بأن شهادة النساء لا تقبل في الجنايات عند كثير من الفقهاء لأنها لا تحضر مجالس الخصومات التي تنتهي بالجرائم وإذا حضرت فقلَّ أن تستطيع البقاء إلى أن تشهد الجريمة . . فهي إن لم تستطع الفرار تغمض عينيها وتصرخ أو يغمى عليها . . فكيف تتمكن من أداء الشهادة وتصف الجريمة والمجرم وكيف وقعت ؟ !

وقد قبلت الشريعة شهادتها وحدها فيما تطلع عليه دون الرجال غالباً . . مثل قبول شهادتها وحدها في إثبات الولادة . فالمسألة ليست مسألة إكرام وإهانة . . وإنما مسألة تثبت في الأحكام واحتياط في القضاء .

أما الحديث الوارد «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن» فسألته إحداهن: يا رسول الله ما نقصان العقل والدين ؟ فقال : «أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل . وتمكث الليالي لا تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين»(١) . فلا يفهم منه أن الرسول ﷺ يقرر حتمية النقصان وإنما يذكر أسباب النقصان . . فإن عوِّضت هذه الأسباب فلا نقصان . فقد ضرب الله مثلاً للمؤمنين ـ في مجال الإيمان ـ بمريم وآسية . وهذا يعني تفوقهما في الدين . . ولو كان رسول الله ﷺ يؤمن بحتمية نقصان عقل المرأة لما سمع مشورة أم سلمة ونفذ اقتراحها (بعد الحديبية) . ولما سعى بتوجيهاته إلى إشراك المرأة في المجال الاجتماعي والديني (كأمره بخروج النساء إلى العيدين ليشهدن الخير ودعوة المسلمين) . ولما خصص للنساء موعداً يعلمهن فيه . . ثم إنه زيادة على ذلك كيف نفسر تعلم الصحابة من أمهات المؤمنين وأخذ رأيهن في مسائل الدين . حتى قالوا : كنا صحابة رسول الله ﷺ إذا أشكل علينا أمر سألنا عائشة رضي الله عنها ؟

لكن الرسول ﷺ كأنه أراد أن ينبه المرأة إلى خطورة تأثيرها على الرجل وأن تستغل ذلك في التوجيه إلى الخير «إن حسن تبعل إحداكن يعدل كل ذلك» . وأعود فأقول إن بعض الفوارق في التكاليف بين الرجل والمرأة ـ والتي أشارت إليها بعض الآيات أو الأحاديث ـ ترجع إلى اختلاف في المواهب تتناسب مع اختلاف الاختصاصات علماً بأن الموهبة ينميها السعي والكسب والممارسة . . ولو نقص ذلك عند الرجل لأنقص من كفاءته وخبرته . . وإذا حصَّلَتْه امرأة تفوقت به على رجال .

وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ۚ

قال مجاهد : (إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار . وإذا شهدت فدعيت فأجب) . والجمهور على أنه يجب الإجابة إن كان قد شهد عند الكتابة .

---

(١) رواه مسلم .

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾

قد يشعر الناس الآن بالإهانة لو طلب الدائن الكتابة . بينما في المجتمع الذي يحرص على تعلم آيات الله وتطبيقها فالمدين هو الذي يطلب الكتابة ويملها .

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾

فهو يحقق العدل أكثر ويعين الشاهد على القيام بشهادته دون التباس ويمنع الشك والريبة من النفوس فهي ضمانات لصيانة شبكة العلاقات بين المؤمنين .

﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾

فالإعفاء من الكتابة هنا رخصة كما تدل الآية : **﴿فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾** .

أما الإشهاد فهو واجب . . ومنهم من قال إن الإشهاد أيضاً للندب . والأولى الإشهاد في المبايعات الكبيرة . . فإذا كانت لأجل صارت كالدين تجب فيها الكتابة والشهادة .

وكما علم الكتاب والشهداء أن يؤدوا واجبهم ولا يتخلفوا . . فإنه الآن يقرر لهم حقوقهم . . فيعلم الناس واجبهم تجاه الكتاب والشهداء .

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾

روى ابن جرير : أن الرجل كان يجيء الكاتب فيقول اكتب لي . فيعتذر بعذره ويدل على غيره فلا يقبل منه . ويقال له : إنك قد أمرت أن تكتب فيلزم بذلك ويضار

فنزلت . فالقرآن ينسق بين التكاليف والضمانات . فالكتاب والشهداء معرضون لسخط أحد الطرفين المتعاقدين في أحيان كثيرة فلا بد من وجود الضمانات التي تحميهم وتعينهم على أداء واجبهم بدقة . وعلى الدولة المسلمة أن تحيطهم بحصانة قانونية وكلمة : ﴿يضار﴾ : تدل على المشاركة . ليفهم الإنسان أن ضره لغيره هو ضر لنفسه في الدنيا والآخرة . وإن من يُسْهم في إشاعة الظلم والضر في المجتمع سيتضرر هو أيضاً .

وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ

يصبح الفسق صفة فيكم . ويربط الأوامر بتقوى الله .

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ

اتقوه فإنه يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم والحفاظ على تماسككم .

وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

قال البيضاوي : كرر لفظ ﴿الله﴾ . في الجمل الثلاث لاستقلالها : الأولى حث على التقوى ، والثانية وعد بإنعامه ، والثالثة تعظيم لشأنه .

يذكر صاحب المنار هنا نقطة : وهي أن بعض مدعي التصوف يزعمون أن الآية تقرر أن التقوى تكون سبباً للعلم . وأن سلوك الطريقة الصوفية تثمر العلوم الإلهية وعلم النفس وغيره بدون تعلم ويسمونه (العلم اللدني) . ولكن لو كانت ﴿يعلمكم﴾ نتيجة وجواباً للطلب ﴿واتقوا الله﴾ : لجاءت مجزومة . ولكنها معطوفة عطفاً مستقلاً . ثم إن العلم لا ينال إلا بالطلب والكسب ، وقد سبق أن تحدثت عن ذلك عند موضوع الإخلاص والصواب . والآية هنا تذكر شرطي العمل ولكن بمصطلح آخر : التقوى (الإخلاص) والعلم (الصواب) . وعلى المسلم أن يوفر هذين الشرطين في كل أعماله ويسعى لزيادتهما ثم إن العلم هو الذي يثمر التقوى ﴿إنما يخشىٰ الله من

عباده العلماء﴾ (فاطر/٢٨) صحيح أن الإخلاص يدفع إلى طلب العلم لكن الإخلاص لا يبدأ إلا بعد حد أدنى من العلم بالمبدأ الذي ستؤمن به وتخلص له . ولا بد من الرجوع إلى كتاب العمل قدرة وإرادة [1] لفهم الموضوع بوضوح أكثر .

■ ٤ ■

الرهان

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا

فإذا اضطر في السفر إلى الدين ولم يكن بالإمكان الكتابة :

فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ

أي يعطي المدينُ صاحبَ المال شيئاً يقارب في ثمنه كمية الدَّين. على أن يسترد عند رد المال . وقيل بأن الرهان رخصة في السفر وغيره عند عدم تيسر الكتابة . وقد رهن النبي ﷺ درعه في المدينة ليهودي .

فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ

فإن ضياع الأمانة بين الناس يضيع الثقة ويمزق المجتمع .

وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ

---

(١) جودت سعيد ، العمل قدرة وإرادة ، حيث يستخدم القدرة مقابل الصواب والإرادة مقابل (الإخلاص) .

فموضع الإثم هو قلب الإنسان ولبُّه . وفي ذلك تنفير مروع لإحساس المؤمن . . إذ أن القلوب هي موضع نظر الله تعالى وعلى أساسها تقبل الأعمال . .

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (٢٨٣)

الفصل السابع عشر

خِتَامُ السُّورَة

(٢٨٤ ← ٢٨٦)

خِتَامُ السُّورَة

(٢٨٤ ← ٢٨٦)

لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

بعد ذكر هذه المعاملات المالية بيـن المؤمنين . . يعود إلى العلاقة مع الله . وبعد كل ما جاء في السورة من موضوعات وأحكام تختم بربط القلوب بالله والتذكير بعلمه ورقابته . وهذا الختام يأتي متناسقاً مع البدء حيث بدأ بالمتقين : ﴿**الذين يؤمنون بما أنزل إليك**﴾ .

وهنا في الختام : ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون**﴾ .

وفي هذا الختام اختصار وإشارات إلى أهم موضوعات السورة . ففي السورة تكاليف كثيرة للأمة المسلمة . . كما أنها عرضت نكول بني إسرائيل عن تكاليفهم . . فيقول هنا : ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾ .

ويأتي الدعاء والاستغاثة بالله من الوقوع في أخطاء الأمم الماضية : ﴿**ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا**﴾ .

وقد أمر المسلمون بالجهاد في السورة . . فيأتي الالتجاء إلى الله تعالى : ﴿**وانصرنا على القوم الكافرين**﴾ .

لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ

فالذي نزل هذه الآيات هو الذي له ما في السموات والأرض . فاعرف قدر هذه الآيات . . وتلقَّ أمر الله بأدب العارف المؤمن .

وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ

وما في النفس المقصود به هنا : المفاهيم والقيم والأفكار المسيطرة على النفس لأن السلوك ينتج عن ذلك كله .

يقول صاحب المنار : [الأشياء الثابتة في أنفسكم وتصدر عنها أعمالكم كالحقد والحسد وألفة المنكرات وقصد السوء وفساد النية وخبث السريرة ، وهذه الصفات هي الأصل في الشقاوة وعليها مدار الحساب . ولا يدخل في هذا ما يمر في النفس من الخواطر والوساوس] . وقد ورد عن أبي هريرة أنه : «لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لله ما في السموات . . ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوه ﷺ ثم جثوا على

الركب فقالوا : يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة . وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها . فقال ﷺ «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ ! بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» . فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾ .

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل : **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾ [1] .

ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الآية منسوخة بما بعدها . واحتجوا أيضاً بالحديث «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»[2] .

لكن صاحب المنار يعترض على ذلك بأن النبي ﷺ لم يصرح بأن الآية منسوخة وإنما بعض الصحابة فهم أنها نسخت . والقول بالنسخ ممنوع لأن :

١ - ﴿**يحاسبكم به الله**﴾ خبر . والأخبار لا تنسخ كما هو معروف في علم الأصول .

٢ - وإن كسب القلب وعمله مما دل الكتاب والسنة والإجماع والقياس على ثبوته والجزاء عليه ظهر أثره على الجوارح أم لم يظهر . وهو ما دلت عليه الآية . فالقول بنسخها إبطال للشريعة .

٣ - أما الخواطر السانحة وحديث النفس العارض الذي لا يصل إلى درجة القصد والعزم فلا يدخل في مفهوم الآية .

٤ - إن تكليف ما ليس في الوسع ينافي الحكمة الإلهية . فهو لم يقع حتى يقال نسخ .

٥ - النسخ : أن يشرع حكم يوافق مصلحة المكلفين ثم يطرأ زمن يصبح الحكم فيه مخالفاً للمصلحة . وليس الموضوع من هذا القبيل . وكأن الصحابة خافوا أن

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

(٢) في الصحيحين .

يؤاخذوا على ما كان باقياً في أنفسهم من أثر الجاهلية مع خوفهم الشديد من الله واعتقاد النقص بأنفسهم ومن الواضح أن من يبتعد في سلوكه عن السوء يصبح أقل تفكيراً في السوء من الذي يفعله . وإن موضوع (ما بالنفس) هام جداً وله أثره . إذ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وفي الصلاة تدريب يومي على السيطرة على ما في النفس . . ويمكن للإنسان أن يدرب نفسه على التركيز في الموضوعات الهامة حتى تصبح شغل نفسه .

فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ

بحسب علمه بما في النفس ونوعية ما يدور فيها وبحسب ما يأتي السلوك العملي . . فقد ورد بأنه من هم بسيئة فلم يفعلها كتبت له حسنة .

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ

وأي تكريم للمؤمنين حين يقرن إيمانهم بإيمان الرسول ﷺ وإن الإيمان الكامل يقتضي عدم التفريق بين الكتب والرسل .

كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ

وقد سبق أن قلت عند موضوع تفاضل الرسل : إننا لا نفرق بين الرسل من حيث الإيمان والحب والاحترام . لكن الاتباع يكون لآخر الأنبياء . . وعناصر الإيمان هذه كلها نابعة من الإيمان بالله .

وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

إن الله سبحانه وتعالى يلوح للناس جميعاً بهذه النخبة المؤمنة ويباهي بصفاتها ومواقفها . . حتى أنه يضم دعاءهم إلى آيات القرآن فيجمع كلامهم إلى كلام الله فأي تكريم وأي حب . . ؟! . . . ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ :

فهو التوجه الخاشع الخاضع المستكين إلى الله والالتجاء إليه خوفاً من المصير في يوم الحساب . وإنها لكلمة لا يكفي أن تقال باللسان .

ولقد قالها الصحابة بأعمالهم قبل لسانهم وخشعت لها قلوبهم . . فبذلوا لله أموالهم وأولادهم وأرواحهم . . فأين نحن من ذلك ؟! ولسان الحال أفصح من المقال .

إن بني إسرائيل لم يقولوا : (سمعنا وعصينا) بلسانهم . . بل قالتها أعمالهم . . ولقد سلك المسلمون طريق من قبلهم واتبعوا سننهم . . حتى دخلوا جحر الضب . . وما هو أضيق منه .

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا

وموضوع الوسع هام وملتبس على الناس . فكل ما شرع الله في كتابه كان في وسع الانسان . فمن يعتذر ويقول : ليس في وسعي . . إنما يتهرب من العمل ويهمل ما عنده من قدرة ويحاول تبرير تقصيره .

وللفرد وسع (أي طاقة) وللمجتمع وسع . . وهو ينمو ويتسع مع بذل الجهد . فالذي يتعب ويبذل الجهد حتى يجعل من أسرته متناسقة متفاهمة . . يصبح في وسعه أن يساهم في إصلاح أمر الأقارب والجيران مثلاً . . وكلما ازداد الوسع اتساعاً ازدادت المسؤولية والتكاليف. والله تعالى حين يقول : ﴿سخر لكم ما في السموات وما في الأرض﴾ (الجاثية /١٣) فإنه يقرر أن الإنسان في وسعه أن يسخر ما في السموات والأرض ويجعلها تخدم مصالحه . . والإنسان مطالب أن يجد ويجتهد حتى يرتفع إلى هذا المستوى . والآية فيها إيحاء كريم لاستنهاض الهمة كلما ضعفت على طول الطريق وتحريك لعزيمة المؤمن حتى يقوم بالتكاليف فإذا ثقل العبء عليه أدرك أنه وهن منه وليس إعناتاً من الله ولا طلباً للمستحيل .

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾

يقرر فردية التبعة في الآخرة . فكل إنسان مسؤول عن نفسه وهذا يجعله يتمسك بحقه في حرية التصرف طالما أنه سيلقى جزاءه وحده فلا حق للزوج أو الأب أو الحاكم في فرض ما لا يرضي الله أو المنع من طاعة الله . وكأنما سمع المؤمنون هذه الحقيقة وأدركوها . . فهاهم يتوجهون بقلوبهم إلى الله في هذا الدعاء الخائف الخاشع . . أمام موضوع المسؤولية والتكليف . وكأننا نرى صفوف المؤمنين قائمة تدعو بخشوع :

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

والمؤاخذة هي العقاب وهي من الأخذ لأن من يراد عقابه يؤخذ قهراً . . وقد يقال : إن النسيان والخطأ لا مؤاخذة عليهما أصلاً لأنهما صدرا بدون إرادة . . ! !

لكن النسيان غالباً ما يكون من عدم الاهتمام (ومعروف أن الإنسان ينسى ما لا يحب) ، ولذلك يؤاخذ الناس بعضهم بعضاً بالنسيان ولا يقبلونه عذراً . ﴿رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ (طه/١٢٦) . والخطأ ينشأ من التساهل وعدم الاحتياط والتروي . ولذلك أوجبت الشريعة الدية في قتل الخطأ والضمان في إتلاف الخطأ . فالمؤاخذة على النسيان والخطأ مما جاءت به الشريعة وجرى عليه عرف الناس في معاملاتهم وقوانينهم . ولو لم يكن النسيان والخطأ ذنباً لما طلب الغفران عليهما . وإن نور الإقبال على الله يمحو ظلمة التقصير . ويثمر المغفرة .

أما إن كان الخطأ بعد الاجتهاد وبذل الجهد فإن الله يعد عليه بالأجر .

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾

والإصر هو العبء الثقيل يأصر صاحبه أي يحبسه في مكانه . والقصد به إما التكاليف الشاقة أو العقوبات التي نزلت على السابقين أو المفاهيم الخاطئة التي تسبب تعقيد الحياة والغلو في الدين وقد بعث رسول الله ﷺ ليضع عن الناس : ﴿إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ .

فالذين آمنوا به أخذوا يتحررون من الآصار . . . وعلى رأسها العبودية للبشر . . . والخضوع للتقاليد . . فلقد أعطى القرآن الحرية للعقل بأن يعمل ويفكر بعيداً عن القيود . . بعيداً عن التقاليد . . . بعيداً عن التشخيص .

إن الفهم المحرف لآيات الله هو أكبر إصر رزح تحته المسلمون قروناً حتى أَلِفوه وخافوا أن يخرجوا عنه . . وإنها لمهمة كبيرة تلك التي تقع على كاهل الدعاة المجددين . . أن يرفعوا الآصار والأغلال عن عقول المسلمين في هذا العصر .

رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ

يقول في المنار : [من العقوبة أو من البلايا والفتن والمحن] وينفي أن يكون القصد : ما لا طاقة لنا به من الأحكام والشرائع . لأن الله سبحانه تنزه عن تكليف الناس ما لا يطيقون . .

وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ

العفو : هو محو أثر الذنب وعدم العقوبة عليه . والغفران هو ستر الذنب وعدم فضح الفاعل . وارحمنا في الدنيا بالتوفيق إلى ما يرضيك وفي الآخرة بإدخالنا الجنة . فإنه لا يدخلها أحد إلا بأن تتغمده برحمتك . هذه هي نفسية المؤمن : عمل بكل ما في الوسع وشعور مع ذلك بالتقصير ورجاء بالله لا ينقطع . وفي النهاية يعلنون انتسابهم لله وحده ويلجأون إليه طالبين النصر والعون في جهادهم . . .

أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

عن ابن عباس : بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ، ما فتح قط . قال فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال له : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته [١] .

وهكذا تنتهي جولتنا مع هذه السورة . وأتذكر هنا ما قيل عن الصحابة بأنهم كانوا يتعلمون العشر من الآيات لا يجاوزونها حتى يعملوا بها .

وعلى المسلم أن لا يستهين بما حصل من علم وعمل . . ولا يغتر بما أنجز فيقعد عن السعي إلى المزيد . وإنما التوازن أن تعرف مكانك وموطىء قدميك . ثم تتقدم إلى هدفك لأنك إن وقفت تصبح متأخراً عاجزاً في عالم يتسارع فيه التقدم العلمي بشكل مذهل .

﴿وقل رب زدني علماً﴾
لك الحمد يا رب . فاهدني لأقرب من هذا رشداً

---

(١) رواه مسلم والنسائي .



دَلِيلُ الأَفْكار



موضوعات القرآن . (العلاقات الثلاث ـ اليوم الآخر) .
لمحة عن سورة البقرة وفضلها .
هيكل السورة .

١ ـ المتقون . الكافرون . المنافقون :

ـ الأحرف في أول السور (أهمية الكتابة) .
الاختزال بالرمز .
ـ الكتاب لا ريب فيه .
ـ لكل عصر براهينه . النموذج الذي يصنعه القرآن هو البرهان الآن .
ـ الكتاب هدى للمتقين .
ـ تعريف التقوى .

ـ صفات المتقين :

١ ـ الإيمان بالغيب .
الاستعمال الغربي لكلمة الغيب .
سوء فهم المسلمين للغيب .
٢ ـ إقامة الصلاة : توفر الإخلاص والصواب فيها .
٣ ـ الإنفاق مما رزق الله : (ليس المال فقط) .
تطهير النفس من الشح ـ نفسية العطاء .
سعادتنا لا تتحقق الا بإسعاد الآخرين .
الإنفاق يحمي من الحقد والصراع الطبقي .

٤ ـ الإيمان بالرسل والكتب المنزلة كلها :

الإيمان بالجميع والاتباع للقرآن .

٥ ـ اليقين بالآخرة :

كيف يصل الإيمان بها إلى درجة اليقين .

تحدث القرآن عن الآخرة من حيث : المبرر والإمكان ـ والفائدة الدنيوية .

ـ **الإيمان بالآخرة** : هو الضمان الأول للاستقامة .

حديث وحيد الدين خان عن الآخرة (ص ١٧) .

ـ **اعتراض** : المتحضرون الآن لا يؤمنون بها وعندهم صدق ؟

الرد : أخلاقهم نسبية مصلحية . الأخلاق لا تنهار دفعة واحدة . والحضارة يقاس عمرها بالأجيال .

ـ **عاقبة المتقين** : الهدى والفلاح في الدنيا والآخرة .

النتائج في الدنيا جماعية .

أهمية المراجعة عند الفشل ـ وهذا مفقود في عالمنا .

ـ **الذين كفروا** : معنى الكفر . القلب في القرآن .

وسائل المعرفة ـ معنى ختم الله .

المسلم الآن لا يرى إلا جانباً واحداً : عمل الله .

العلاقة بين عمل الله وعمل العبد .

التوبة لا تعفي من نتائج الدنيا . وإنما هي للمغفرة .

فهم المحكمات يعين على فهم المتشابهات .

ـ **الاعتراض بحديث كتب الرزق والأجل والعمل والمصير .**

علم الله بالمستقبل لا يسلب الانسان قدرته على الاختيار .

معنى تنزيه الله وأن علمه وقدرته ليست مثلنا . دعاء لجودت سعيد .

ـ **ابن تيمية** : ذكر أربعة أنواع من القدر .

ـ **عاقبة الكافرين** : هل يفهم من ذلك ترك إنذارهم ؟

مرض **الأكثرية** : الجهل وهذا يمكن علاجه كما بشرنا الله ورسوله .

- **المنافقون** : تعريف الرياء والإخلاص .

المؤمن في حالة توتر بين الخوف والرجاء .

نوعي النفاق - ظهور النفاق بعد بدر .

تشابه بين النفاق والاستضعاف .

هل ستر الذنوب يعتبر نفاقاً ؟ ستر الطاعة .

كيف يعامل المسلم المنافقين .

صفات المنافقين :

١ - **الخداع** .

٢ - **مرض القلب** : حديث الغزالي عنه .

فزادهم الله مرضاً - لهم عذاب بكذبهم .

٣ - **يفسدون ويقولون نحن مصلحون** .

«لا يشعرون» - موضوع اللا شعور .

المهم معرفة كيفية العبور إلى الشعور واللا شعور للتغيير .

عقبات في طريق العلم :

١ - يكفينا القرآن والسنة .

٢ - العلم لا يوثق به .

٣ - الذين برعوا في العلوم الآن غير مسلمين .

إهمال العلوم الانسانية خاصة بدعوى أن الصحابة لم يعرفوها .

الصحابة سعوا حتى سبقوا في علوم عصرهم .

عدم معرفة سنة صيانة المجتمع يجعلنا نفقده .

لا بد من إعداد المهندسين الاجتماعيين .

٤ - قولهم : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟

هم السفهاء ولكن لا يعلمون .

العلم هو كشف السنة والتسخير .

٥ ـ تلون مواقفهم .

الله يستهزىء بهم ـ اشتروا الضلالة بالهدى سلامة الفرد بالدنيا مرتبطة بسلامة المجتمع . كمثل الذي استوقد ناراً ـ تعطيل وسائل المعرفة أو كصيّب من السماء . (مثلان للمنافقين) .

كلما أضاء لهم مشوا . . وإذا أظلم عليهم قاموا . . التردد .

٢ ـ دعوة عامة للايمان والدليل ايات الكون والكتاب

ـ دعوة عالمية إلى عبادة الرب للوصول الى التقوى .

ـ معنى : الرب والعبادة من كتاب المودودي . (ص٤٠) .

ـ خلقكم والذين من قبلكم ـ مشكلة تقديس الأشخاص .

وينتج عنها :

١ ـ نسبية الثبات على الفكرة .

٢ ـ نقصان في إدراك الحق .

ـ القرآن يركز على ضرورة تجريد الحق عن الأشخاص .

ـ الذين يستمعون الحق فيتبعون أحسنه .

٣ ـ يخدم عمليات الصراع الفكري ضدنا .

ـ وصية الرسول بتجنب مواضع التهم .

ـ أهمية الفصل بين الإسلام والمسلم .

ـ ارتباط التجسيد بالتقليد .

ـ المشكلة في فقدان العلم الذي يصحح فهمنا للكتاب والسنة .

نحن في مرحلة الأشخاص .

ـ بعض آيات كتاب الكون التي تدل على الخالق .

- لا تجعلوا لله أنداداً .
- يتحداهم بآيات الكتاب .
- معجزات الأنبياء بحسب الفن الذي مَهرَ به قومهم .
- معجزة محمد ﷺ العلم (القرآن) .
- الموقف العلمي :
١ - لا تنكر بدون دليل .
٢ - اطلب شهادة أهل الاختصاص .
- «ولن تفعلوا» - فاتقوا النار .
- الايمان باليوم الآخر دافع محرك للبذل .
- الترهيب والترغيب يحدث الفعالية ولكن بشروط .
- متى يتخلص الانسان من الاستصعاب والاستسهال .
ملاحظات حول الترهيب والترغيب في القرآن .
- وأتوا به متشابهاً .

- الإخلاص والصواب :

- شرطا النجاح والقبول للعمل .
- **في الأمور :**
١ - التعبدية .
٢ - الدنيوية .
- **الصواب** : آيات الكتاب والآفاق والأنفس .
- التسخير يعطى لمن استخدم السنن .
- الرد على الاعتراض بالحالات الشاذة .
- أمثلة على فقدان أحد الشرطين .
- **الوعد بالاستخلاف :**
إيمان + عمل صالح .

- هل النقص في الإخلاص أم الصواب .
- **ملاحظات أخيرة في الموضوع :**
١ - **أيهما أولاً :** الإخلاص أم الصواب ؟
٢ - **الإخلاص بدون صواب :** إما أن ينفجر أو يبدأ في الضمور .
تمييز بين الإخلاص والصواب .
- ضرب الأمثلة في القرآن .
- الحياء وسط بين انحرافين .
- ضرب الأمثلة يرفع من قيمة الموضوع .
- نماذج من أمثلة القرآن .
- يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً (هم كثير من حيث الأثر) .
- يضل الله الفاسقين .

- صفاتهم :

١ - ينقضون العهد .
٢ - يقطعون ما أمر الله بوصله .
٣ - يفسدون في الأرض .

- عاقبتهم :

- كيف تكفرون ؟! والأدلة أمامكم :
الحياة والموت والبعث - خلق الأرض والسماء .
خلق لكم : إشارة إلى التسخير .
- ظن المسلم أن العطايا تأتيه بطريقة سحرية غامضة .

٣ - قصة استخلاف ادم

- إني جاعل في الأرض خليفة .

- الله يسمح للملائكة أن تسأل - أعلم ما لا تعلمون .
- علم آدم الأسماء واختبر الملائكة .
- السجود لآدم - ابليس استكبر .
- لا تقربا هذه الشجرة - أزلهما الشيطان .
- اهبطوا بعضكم لبعض عدو .
- آدم يستغفر ويتوب الله عليه .
- الوعد بمجيء الهدى فمن آمن نجا ومن كفر فهم أهل النار .
- تفاعل الانسان مع الهدى هو الذي أنشأ الحضارات .

بعض العبر من قصة استخلاف آدم :

١ - الانسان حتى الآن لم يرتفع إلى علم الله فيه .
٢ - الشجرة المحرمة : أهمية القانون (وهو عكس الحرية) .
لا حرية إلا في اختيار الدين (القانون) .
تختلف القوانين من حيث المصدر - أصلَحُها الذي لا يَكبت ولا يُفلت .
٣ - تكريم الانسان .
٤ - مسؤولية الانسان .
٥ - أولوية القيم الأخلاقية .
٦ - آدم قال : ظلمت نفسي .
المسلم الذي لا يرى في مشكلاته إلا جانب كيد الأعداء .
٧ - النهي عن مجرد الاقتراب .
٨ - قلة المحرمات وكثرة الطيبات .

٤ - جولة مع بني اسرائيل :

- عوامل تخلف الأمم وتقدمها .
- اذكروا نعمتي .

- أوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم :
- أداء الواجبات يثمر الحقوق .
- طريق الأنبياء : أداء الواجب .
- هل يمكن أن تبدأ النهضة بتوزيع الحقوق ؟؟
- كيف بدأ المسلمون ـ الثورة الشيوعية .
الصين ـ اسرائيل ـ غاندي .
- من تخلى عن دوره في الدنيا هل ينال الآخرة ؟
- المجتمعات ثلاثة أنواع بحسب أداء الواجب .
- أجيال ونحن في التيه ـ إبدأ من نفسك .
- وإياي فارهبون : الدافع لأداء الواجب .
- وهو المثل الأعلى للأمة المسلمة .
- المثل الأعلى يحرك الإرادة . ولا بد من الصواب .
- في طور الصعود : الأولوية للمثل الأعلى .
- آمنوا ولا تشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً .
- وإياي فاتقون . بدلاً من الخوف من الناس .
- إلباس الحق بالباطل .
- سببه كتمان الحق . الكتمان من أكبر الذنوب .
- أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا .
- أتأمرون بالبر وتنسون أنفسكم (النقد الذاتي) .
- القدوة يضاعف له العذاب على التقصير .
- استعينوا بالصبر والصلاة .
- العلاقة بين الصبر والعلم جدلية .
- من كان يرجو الآخرة صبر أكثر (المصابرة) .
- لا تستسهلوا (إنها لكبيرة إلا على الخاشعين) .
- من هم الخاشعون .

ـ تكرار النداء للتذكير بنعمة الله .
ـ تفضيلهم على العالمين في زمانهم . (التفضيل وشرطه) .
ـ الإدعاء : مرض كل أمة تقلص عملها وتضخم كلامها .
ـ نظرة المسلمين الآن إلى الأمم المتقدمة .
ـ المقياس الذي توزن به الأمم . دون بخس لما تفوقوا فيه .
ـ صاحب المنار وقوله في الآية .
ـ بعد الترغيب ترهيب .
ـ معنى الشفاعة . ومتى لا تقبل .
ـ الايمان البارد لا يتغلب على العقبات البسيطة . فكيف نقدم على العزائم .؟
ـ التوازن بالحرص على الجانبين : الإخلاص والصواب .
ـ نجاتهم من آل فرعون .
ـ القرآن ينظر إلى الأمة على أنها كيان واحد عبر الأزمنة .
ـ العذاب والنجاة : بلاء عظيم .
ـ القرآن أول كتاب يعطي الأهمية الكبرى للتاريخ .
ـ صلة الماضي بالحاضر بالمستقبل .
ـ ميعاد موسى مع ربه وعبادتهم العجل .
ـ عفو الله وايتاء موسى الكتاب ـ والتوبة عليهم .
ـ أهمية المحن والفتن لقياس عملية التغيير الفكري .
ـ لكل عصر عجول . . والتوحيد ينال بالعلم .
ـ طلبهم رؤية الله جهرة (النزعة المادية) .
ـ بعثناكم ـ ظللنا عليكم الغمام ـ المن والسلوى .
ـ القرآن يركز على ظلم الانسان لنفسه .
ـ الأمر بدخول القرية سجداً فبدلوا فأنزل عليهم الرجز .
ـ الاستثناء من دقة القرآن وعدله .
ـ كل تبديل لأمر الله يستوجب العذاب .

- اخراج الماء من الحجر .
- قد علم كل أناس مشربهم (التنظيم والفرز) .
- لن نصبر على طعام واحد .
- لم يتحرروا كلياً من نفسية الاستضعاف .
- المشكلة تحل بالبدء من المستضعف .

- أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟
- اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم .
- **التفسير المادي للانحطاط** : سياسة التجويع .
- سياسة التجويع عامل منبه وليس مخدراً .
- المشكلة في الانسان الذي يؤثر الدعة على التحرر .
- إعطاء الأولوية للغرائز عامل كبير في السقوط .
- ضربت عليهم الذلة والمسكنة والغضب .
- الآية تكشف عن الأسباب .
- لا تهم الأسماء والانتماءات وإنما لب الدين .
- اللب هو الفكر والعمل .. وهذا ما يحرر من الخوف والحزن .
- **الميثاق** : خذوا ما آتيناكم بقوة .
- العطالة وشروط الفعالية .
- واذكروا ما فيه - آفة العلم النسيان .
- **الارتباط بين** : الحماس - الذكر - التقوى .
- هل بالامكان تقوية الذاكرة؟
- إقرأ القرآن وكأنه يتنزل عليك .
- قصة الاعتداء في السبت . ومسخهم قردة .
- عبرة للأجيال وموعظة للمتقين .
- التاريخ علم له مراحل ثلاث .
- قصة البقرة .

- ماطلوا وتعنتوا فشدد الله عليهم .
- ويريكم آياته لعلكم تعقلون .
- بعض العبر من القصة .
- **قسوة القلوب** : أشد من الحجارة .
- تخلف الضمير عن العلم .
- **هل العلم موجود؟ وكيف نعالج قسوة القلب؟**
- يخشى الله من عباده العلماء .
- العلم الذي وصلوا إليه ناقص .
  ١ - تقدموا في الآفاق فقط .
  ٢ - الرسوخ في العلم .
- العلم بما هو خير وأبقى .
- **الخطاب للمؤمنين** : تطمعون بإيمانهم وهم يحرِّفون؟!
- **هل معنى ذلك** : ترك الدعوة والتبليغ معهم؟
- الأميون لا يعلمون بل يظنون .
- الأماني مرض يصيب الأمة في حالة انحطاطها .
- **صنفان** : العامة (أميون) - الذين يبدلون ويحرفون .
- لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة .
- **قول توينبي** : الكبرياء يسبق السقوط .
- وثنية عبادة الذات الفانية .
- التعليم هو الدواء . . كي تتجدد النخبة المبدعة .
- **تصحيح المفهوم** : من هو الذي يخلد في النار .
- أحاطت به خطيئته .
- **في المقابل** : المؤمنون العاملون .
- أخذ الميثاق بعبادة الله والإحسان .
- أول ما ينبغي تصحيحه العلاقة مع الله .

- التعامل بالإحسان هو من عبادة الله .
- معنى الإحسان - ومع من يكون .
- **دواء العداوة** : الرغبة الصادقة بالإحسان .
- عجز من يدعي أن الإحسان لا يصلح مع الجميع .
- علاقة الصلاة والزكاة بالأمرين السابقين .
- دعوة الأنبياء واحدة - تعنت اليهود - أخذ الميثاق بترك القتل والاعتداء .
- أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟!
- **جزاؤهم** : خزي في الدنيا والآخرة .
- فقدنا أخلاق الاختلاف وآداب الحوار .
- العنف في الحوار دليل العجز في الدليل .
- الخلاف يستفحل باستعمال السلاح .
- الاستعمار يغذي منطق القوة فينا .
- هل القادة وحدهم هم المسؤولون ؟!
- التفريق بين أوامر الله عندنا .
- اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة .
- مواقفهم من أنبيائهم .
- الحياة الاجتماعية تبنى على السنن لا على الهوى .
- لعنهم الله بكفرهم .
- كانوا يستفتحون على الذين كفروا .
- التبجح بالقول والتخاذل عند العمل .
- يريدون حصر فضل الله فيهم . (العنصرية) .
- جزاؤهم .
- لم تقتلون أنبياءكم إذن ؟! وعبدتم العجل .
- أشربوا في قلوبهم العجل .
- زعموا أن الآخرة خالصة لهم - الرد عليهم .

- هم أحرص الناس على حياة .
- الرد على عداوتهم لجبريل .
- الرد على طلبهم البينات .
- **الآيات الآن** : هي آيات الآفاق والأنفس .
- نبذهم للعهود ـ أهمية الوفاء بالعهود .
- تنكرهم للرسول واتباعهم للشياطين .
- ما كفر سليمان ـ السحر كفر .
١ ـ ما هو السحر . الرازي يذكر أنواعه .
- السحر الجديد : معرفة كيف يحرك الفرد والأمة (الصراع الفكري) .
٢ ـ حكم الاسلام على السحر .
٣ ـ هل هو جريمة يعاقب عليها ؟
٤ ـ كيف يعتصم المسلم من شر السحر ؟
٥ ـ هل يضر الساحر أو ينفع ؟
- هاروت وماروت من هما ؟
- وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله .
- يتعلمون ما يضرهم . بئس ما شروا به أنفسهم .
- ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ . العلم هو الخلاص .
- أيها المخلصون حققوا الصواب .
- لا تقولوا راعنا .
- **فوائد** :
١ ـ عدم التشبه بالكفار .
٢ ـ المنار : الأدب مع النبي والمربي من بعده .
٣ ـ واسمعوا .
٤ ـ ترك الكلمات ذات المعنيين .
- الكفار لا يحبون لكم الخير .

- نسخ الآيات والإتيان بخير منها أو مثلها .
- في الآية احتمالات ثلاثة .
- تكرار (ألم تعلم) - تثبيت المؤمنين .
- تحذير من الأسئلة المعنتة .
- بناء الإنسان على العطاء لا على السؤال .
- يحبون أن ترتدوا حسداً لكم .
- فاعفوا واصفحوا .

١ - نزلت بعد تكون مجتمع مسلم (تربية وعلاج) .

٢ - لا يكون العفو إلا مع القدرة . (الصبر) .

٣ - حتى يأتي الله بأمره .

٤ - كيدهم لا يهم . وإنما تربية المؤمن وخطة العلاج .

- الصلاة والزكاة وافعلوا الخير تجدوه عند الله .
- **من أمانيهم** : لن يدخل الجنة غيرنا .
- **هاتوا برهانكم** : النهي عن الأخذ بشيء من غير دليل .
- **القاعدة في جزاء الآخرة** : الإخلاص والإحسان .
- **قولهم** : ليست النصارى على شيء .
- قال الذين لا يعلمون مثل قولهم (التعصب) .
- فقدان العلم يعطل الاستفادة من الكتب المنزلة .
- نستنتج من الآية .
- من أظلم ممن منع ذكر الله في المساجد .

في الآية عدة أقوال (٥) .

- معنى ﴿**وسعى في خرابها**﴾ - تهديدهم .
- لكل مسلم دور في تجديد فعالية المسجد .
- لله المشرق والمغرب (العبادة ليست في المسجد فقط) .
- فلم التوجه إلى الكعبة إذن ؟

- **قالوا** : اتخذ الله ولداً . . الرد عليهم .
- كل له قانتون .
- الذين لا يعلمون يطلبون آية .
- تشابهت قلوبهم .
- بينا الآيات لقوم يوقنون .
- تثبيت للنبي وتحديد وظيفته .
- تحذير النبي من اتباع اليهود والنصارى .
- هدى الله هو الهدى .
- **نوعان من النتائج** : العاجلة ـ ما هو خير وأبقى .
- من هم المؤمنون بالكتاب حقاً ؟
- معنى ﴿**يتلونه حق تلاوته**﴾ .
- **ختام الجولة** : الترغيب والترهيب .
- دراسة حضارية توضع بين أيدينا .
- من أسباب انهيار الأمم .

٥ ـ قصة ابراهيم

- ابتلاه الله بكلمات فأتمهن .
- جاعلك للناس إماماً .
- لا ينال عهدي الظالمين .
- جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً .
- اتخذوا من مقام ابراهيم مصلى .
- تكليف ابراهيم واسماعيل بتطهير البيت .
- طلب ابراهيم الأمن والرزق لهذا البلد .
- من كفر أمتعه قليلاً ثم له عذاب الآخرة .
- يرفعان القواعد من البيت ويدعوان .

- الدعاء تحديد للهدف - يحمل هم هداية الأجيال .
- من يرغب عن ملة ابراهيم ؟
- ابراهيم ويعقوب يوصيان بالاسلام .
- لا تموتن إلا وأنتم مسلمون - وحدة الديانات .
- لا تسألون عما كانوا يعملون .
- بل ملة ابراهيم - طريق الخروج من الاختلاف .
- دعوة الجميع إلى الإيمان بما نزل على الأنبياء .
- إن تولوا فهم في شقاق - يكفيكهم الله .
- من أحسن من الله صبغة ؟
- الله رب الجميع . والإنسان بعمله وإخلاصه .
- الرد على قولهم أن الأنبياء كانوا هوداً أو نصارى .
- تلك أمة قد خلت .
- خطر الوقوف عند فهم الآباء .
- الفكرة المجسدة (مرحلة الأشخاص) .
- إزاحة حاجز تقليد الآباء الذي تدعمه طائفتان .
١ - **الطواغيت** . قول فرعون : ﴿فما بال القرون الأولى﴾ .
أمران مهمان : كشف الجديد من السنن . وإيصاله برفق .
٢ - المخلصون الجاهلون يخافون على الاسلام .
- كتابات المستشرقين في مدح الاسلام والسلف .

٦ - تحويل القبلة

١ - قصة التحويل وموقف اليهود من ذلك .

٢ - الحكمة من التحويل :

١" - تمحيص القلوب لله .
٢" - امتحان المؤمنين .

٣ ـ ضرورة الاختصاص والتميز للأمة المسلمة .

العبادات تناسب الانسان : روح وشكل .

النهي عن التشبه بغير المسلمين بالسلوك .

الثقافة الاسلامية تعطي الاولوية للأخلاق .

عملية الاقتباس خطيرة ويجب أن تخضع لرقابة دقيقة .

مكانة المسلم ـ دوره : انقاذ العالم .

لا يمكن لمن يقلد العالم أن يغيره .

قول ابن خلدون عن تقليد المغلوب للغالب .

فقدان التوازن لعدم إدراك السبب الحقيقي في التقدم ـ **التقليد** : تحويل القبلة إلى الآخرين .

٤ ـ شرح الآيات :

- تهيئة لنفوس المؤمنين .
- جعلناكم أمة وسطا ـ (تحريف معنى الوسط) .
- لتكونوا شهداء على الناس (في الآخرة والدنيا) .
- شروط الشهادة ـ (دور المسلم لمالك بن نبي) .
- لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب .
- تغيير العادة والإلف ليس سهلاً .
- ما كان ليضيع إيمانكم (صلاتكم) .
- فول وجهك شطر المسجد الحرام .
- الذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه الحق .
- النهي عن اتباع أهوائهم .
- استبقوا الخيرات .
- فول وجهك . .

  تكرارها ثلاث مرات .
- فلا تخشوهم واخشوني .

الحذر من الأعداء ـ وأن لا تخشى إلا الله .

ـ هذا من إتمام النعمة والهداية .

ـ المحنة إن لم تقض عليك زادتك قوة . (التحدي) .

ـ استجابة دعوة ابراهيم بإرسال الرسول ﷺ .

ـ التزكية ـ موضوع الحكم والحكمة :

١ ـ لا يشترط للتنفيذ معرفة الحكمة .

٢ ـ معرفتها أفضل .

٣ ـ من فطرة الناس أن لا يقبلوا نظاماً إلا إذا عرفوا الحكمة من معظم أحكامه

٤ ـ إيجاد العدد الكافي من العارفين .

٥ ـ معرفتها تجعل الضمير يلحق بالعلم .

ـ أين كنتم لولا القرآن ؟

ـ فاذكروني أذكركم . واشكروا . .

٧ ـ أوامر وتوجيهات

٢ ـ **الابتلاء** : استعينوا بالصبر والصلاة .

ـ سبع نقاط هامة في الصبر .

ـ لا تقولوا عن الشهداء أموات بل أحياء .

ـ الابتلاء سنة ـ أنواع من البلايا .

ـ من هم الصابرون ـ ومكانتهم عند الله .

ـ القرآن يصوغ الشخصية الأكثر تماسكاً .

٢ ـ **الصفا والمروة** : تحرج الصحابة من كل ما كانوا عليه .

٣ ـ **عقوبة كتمان الحق** : يلعنهم الله واللاعنون .

ـ الفرق بين كتمان الحق وترك البيان .

ـ فتح باب التوبة ضمن شروطها .

ـ المجتمع الصاعد يدرك خطورة عالم الأفكار .

٤ ـ أدلة توحيد الله : الوحدانية والرحمة وربطها بما سبق .

ـ سبعة أدلة على ذلك ـ آيات الله ثلاث .

ـ والسحاب المسخر ـ التفكير والمعرفة العلمية .

ـ مع وجود الآيات . . فإن هناك من يشرك .

ـ الذين آمنوا أشد حباً لله .

كلام ابن تيمية عن الحب والعلم .

أهمية امتحان حب الله في قلوبنا .

دليل الحب الطاعة .

٥ ـ الأتباع والمتبوعون في النار .

يتبرأ الطواغيت من عبادهم .

جريمة الاستضعاف لا تقل عن الاستكبار .

٦ ـ تحذير من الشيطان :

نداء للناس عامة أن يأكلوا من الطيبات .

الانحراف عن الاعتدال اتباع للشيطان .

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ .

تطهير المجتمع من خطط الشيطان .

بم يأمر الشيطان (أن تقولوا ما لا تعلمون) .

٧ ـ التنفير من التقليد : الاتباع بدون علم .

ارتباط بالأشخاص لا بالأفكار .

يضرب مثلاً لهم بالدواب ـ تعطيل وسائل المعرفة ـ نحن نرتعب من العقل .

٨ ـ الأكل من الطيبات وبيان المحرمات :

للمؤمنين : كلوا من الطيبات واشكروا .

المحرمات من اللحوم أربعة ـ الإباحة للمضطر .

﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ .

٩ ـ كتمان القرآن : يؤدي إلى الجهل والتحريف وخذلان الحق .
زهد المسلم المعاصر بالتبليغ والبيان .
أخذ البيعة على قول الحق .
من السنن : جاء الحق وزهق الباطل .
تطوير عملية البيان لتناسب كل عصر .
ـ الرد على الدوافع التي تدفع إلى الكتمان .
ـ الكتمان يؤدي إلى الاختلاف والتفرق .

١٠ ـ آية البر : الحقيقة والمظهر .
مرض التشبث ببعض الأشكال بينما الجوهر مفقود .
أنواع البر عشرة : في الإيمان . في السلوك . في الأخلاق .
في السلوك : آتى المال على حبه . لمن الإنفاق ؟
وأقام الصلاة وآتى الزكاة .
في الأخلاق : الوفاء بالعهد ـ الصبر .
أولئك الذين صدقوا وهم المتقون .
ملاحظتان في الآية .

٨ ـ مما كتب الله

كتب عليكم ـ لعلكم تتقون .

١ ـ القصاص : سبب نزول الآية .
ـ **هل هي منسوخة** : رأي ابن كثير وصاحب الظلال .
ـ الحكم في الجرائم الفردية مع ملاحظة أمرين .
ـ الترغيب في العفو ـ ليؤد كل طرف واجبه .
ـ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة . العدل والإحسان .
ـ من اعتدى بعد ذلك له عذاب .

- **الحكمة** : لكم في القصاص حياة - أهمية حرمة القانون .
- لا يسمح للمظلوم أن يأخذ حقه بيده ولكن يرفع للقضاء .
- الذين يدركون هذا هم أولوا الألباب .
- العقوبة هي آخر علاج في التربية الاسلامية .
- **أيهما اولاً** : إصلاح السجون أم إصلاح المجتمعات .

٢ - الوصية :

١ - كتابة الوصية . الوصية في الدين . الجمع بين الآية والحديث «لا وصية لوارث» .

٢ - النهي عن تبديلها .

٣ - متى يجوز تصليحها .

٣ - الصيام :

١ - الصيام يبلغ التقوى (كتابته) .

بعض المسائل في الصيام .

٢ - كمية الصيام .

٣ - مبررات تركه .

- وعلى الذين يطيقونه فدية .
- وأن تصوموا خير لكم . (بعض فوائده) .

٤ - رمضان شهر دراسة القرآن .

٥ - إرادة الله بنا اليسر - صلاة العيد (لتكبروا الله على ما هداكم) .

٦ - الله قريب يجيب الدعاء .

- الدعاء تحديد للهدف . ولا بد من القيام بالأسباب .
- فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون .

٧ - تصحيح أخطاء في فهم موضوع الصوم :

١″ - في الرفث . ﴿هنَّ لباس لكم وأنتم . .﴾ .

- تختانون أنفسكم . ربط الغريزة بالمثل الأعلى .

٢″ - في تحديد بدء الصوم وختامه .

٣″ - في الاعتكاف .

- تلك حدود الله فلا تقربوها - يبين آياته للناس .

٤ - ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل

تتمة الآية تخصص الرشوة - أموالكم .

من نتائج الرشوة .

٩ - أحكام في القتال

١ - سؤال عن الأهلة . الجواب جاء عن الهدف .

٢ - أهمية الوقت - إتيان البيوت من ظهورها .

٣ - في الآية إشارات هامة (عددها ٥) .

٤ - وأتوا البيوت من أبوابها : أهمية تناول الموضوع بالفنية اللازمة .

٥ - تناول فني للموضوع + تقوى = فلاح .

- سبب نزول **﴿وقاتلوا في سبيل الله . .﴾** .

- نقاط هامة في موضوع القتال :

- متى سمح بالقتال ؟ وما الهدف منه ؟

- في الآية ثلاثة شروط .

- حيث ثقفتموهم - أخرجوهم كما أخرجوكم .

- الفتنة أشد من القتل (قتل حرية الفكر) .

- القتال عند المسجد الحرام - يفتح باب التوبة .

- قاتلوهم حتى لا تكون فتنة .

- رفع الإكراه عن الانسان ينشر دين الله .
- الحرمات قصاص ولو في الشهر الحرام .
- القصاص في المشكلات الفردية وفي العلاقات الدولية .
- ملاحظة : خطورة الغزو الفكري .
- سبب نزول **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** .
- التحريف الذي تعرضت له ـ ترك البذل هو الهلاك .
- وأحسنوا إن الله يحب المحسنين .

١٠ ـ الحج والعمرة

- أتموا الحج والعمرة لله ـ الفرق بينهما .
- حكم الإحصار ـ من اضطر إلى التحلل قبل وقته .
- حكم المتمتع ـ وقت الحج ـ محظورات الحج .
- ترك الجدل ولو كنت محقاً ـ الإكثار من الخير .
- **وتزودوا** : نزولها ـ ما يستفاد منها .
- خير الزاد التقوى ـ أولوا الألباب يعرفون قيمة التقوى .
- إباحة التجارة في الحج ـ الأمر بالذكر عند المشعر الحرام ـ الذكر شعار المسلم .
- أفيضوا من حيث أفاض الناس ـ واستغفروا الله .
- واذكروا الله كذكر الآباء أو أشد .
- صنفان من الناس في الدعاء ـ لهم نصيب مما كسبوا .
- الأمر الثالث بذكر الله ـ أيام منى ـ تذكر الحشر .
- بعض المنافع التي يشهدها في الحج ـ الربط بين الفكرة والعمل . .

١١ ـ موضوعات هامة عامة

صنفان من الناس :

١ ـ من يعجبك قوله :

وهو ألد الخصام (منافق) ـ صفاته ـ مصيره .

٢ ـ من يشري نفسه لله :

(سبب نزول الآية) .

٣ ـ الأمر بالدخول في السلم :

الاسلام دين السلام (حتى في التحية) ـ قد تصل البشرية إلى مرحلة من التقدم تلغى فيها الحروب .

صعوبة تصور المسلمين لذلك ناشئة من الإلف .

لقطات سريعة من موضوع عن الأسلحة الذرية . التقدم العلمي في التسلح قد سبق ارتقاء الضمير .

ـ لا تتبعوا خطوات الشيطان ـ الإعراض عن البينات يعرضنا للعقاب ـ عقوبة السنن .

ـ التهديد بعذاب الدنيا والآخرة ـ مثال : ما حل ببني اسرائيل . ثم ذكر القاعدة (عموم السنة) .

٤ ـ الدنيا مزينة للكافرين :

ويسخرون من المؤمنين .

العاقبة للتقوى والرزق على الله .

٥ ـ الوحدة والاختلاف :

عهد ما قبل النبوات .

ـ حاجة المجتمع إلى القانون ـ سبب الاختلاف البغي ـ التبليغ والبيان يخرج من الاختلاف .

معنى ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ .

٦ ـ تصحيح المفهوم عما يدخل الجنة :

الارتباط مع الآية السابقة ـ النظرة الذاتية والموضوعية ـ دخول الجنة له سنة .
ـ ضرورة التمييز بين العقبات الطبيعية وبين التي نتجت عن أخطائنا .
ـ الاستعجال المستنكر هو القفز من فوق السنن .
ـ الاستسهال والاستصعاب ـ معرفة الجهد المكافىء .

١٢ ـ أسئلة وإجاباتها

١" ـ في الإنفاق :

أنواع الأسئلة ـ الأسئلة وحدها ليست طريقة للعلم ـ تنظيم غريزة التملك .
ـ ما أنفقتم من خير ـ على من ينفق .

٢" ـ في القتال :

تنظيم لغريزة حب البقاء ـ دواء مر .
ـ قاعدة عامة ـ أهمية رؤية النتائج القريبة والبعيدة .
ـ أهمية فهم المرأة لموضوع القتال .
ـ سبب نزول ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه**﴾ .
ـ الفتنة أكبر من القتل ـ فائدتان .
ـ تثبيت المؤمن أمام المحن وتحذير من الردة .

٣" ـ في الخمر والميسر :

مراحل التحريم ـ ضرورة التمييز بين الأمور التي هاجمها الاسلام من أول لحظة وبين التي حرمها على مراحل . (تحريك الفكر للتفكير في العواقب) .

ـ تكرار السؤال عن الإنفاق ـ العفو (الفائض) .

١ ـ في المال حق سوى الزكاة .

٢ ـ تحديد المقدار .

٣ ـ القرآن لأولي الألباب .

٤ ـ مصالح الأمة في الدنيا والآخرة .

٥ ـ الجمع بين الخمر والميسر والإنفاق .

٦ ـ التدرج في الإنفاق .

٧ ـ حل مشكلة الفقر مع المحبة .

٨ ـ **العفو** : التسامح .

٤" ـ في اليتامى :

تحرج الصحابة ـ اليتم الصناعي الآن .

إصلاح لهم خير ـ لا يريد لكم العنت .

١٣ ـ أحكام في الزواج والطلاق

١" ـ أهمية الأسرة .

٢" ـ طفولة الانسان طويلة .

٣" ـ العناية بالوالدين قبل الطفل .

الاحكام بتفصيل مربوطة بالتقوى ـ وتستوعب الضعف الانساني ـ مع العناية بالمرأة .

١" ـ الأساس الذي تبنى عليه الأسرة :

آيات ثلاث في الموضوع ـ تمزق الأسرة بين هدفين ـ كيف سمح بالزواج من الكتابية ؟

تحدث ظروف تجعل المباح مكروهاً .

لم لا يسمح للمؤمنة بالزواج من كتابي ؟

التعقيب على الحكم (نتائج التخطيط) .

٢" ـ في المحيض :

سبب النزول ـ ما يحل من الحائض ـ هو أذى ـ التطهر بالماء . . التعقيب .

٣" ـ العلاقة الجنسية في الكيفية :

كيف شئتم في موضع الحرث ـ قدموا لأنفسكم .
ربط العلاقة بالله ـ لا صراع بين المثل الأعلى والغرائز .

٤" ـ القسم ويمين اللغو :

لا تجعلوا الحلف مانعاً من البر ـ لا تعرضوا اسم الله للحلف .
يمين اللغو ـ أنواع الأيمان الثلاثة ـ النذر .
كفارة اليمين المنعقدة ـ تعويد الأبناء على عدم الحلف ـ التعقيب .

٥" ـ الإيلاء :

معناه ـ الحد الأعلى له ـ العودة أو الطلاق ـ الله غفور ـ سميع عليم .

٦" ـ عدة المطلقة :

مدتها ـ يتربصن ـ التذكير بالإيمان ـ الترغيب في الصلح خاصة عند الحمل .
الحكمة من العدة . بعد العدة عقد جديد .

٧" ـ درجة الرجال :

القوامة مسؤولية ورئاسة ـ ضرورة إعداد المرأة لدورها الكبير (العلم) .
لا تحل المشكلة بالمطالبة بالحقوق ـ التعقيب .

٨" ـ الطلاق مرتان :

الطلاق في الجاهلية .

إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ـ الحقوق المالية للمطلقة ـ حالة الخلع ـ الأساس هو إقامة حدود الله ـ فلا تعتدوها .

البينونة الكبرى ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ ـ جواز المراجعة إن طلقها الآخر ـ الذين يعلمون يدركون قيمة حدود الله .

٩" ـ النهي عن الإمساك ضراراً :

من يفعل ذلك ظلم نفسه .

لا تتخذوا آيات الله هزواً ـ تذكير بنعمة الكتاب والحكمة .

توجيهات تؤكد على عظم حقوق الزوجية وتحريم ظلم المرأة .

١٠" ـ النهي عن العضل :

سبب نزولها ـ ربط الأحكام بالإيمان .

١١" ـ حكم الرضاع والفصال :

يعلم كل طرف أداء واجبه .

وصايا لحماية الطفل من اندفاع والديه في الانتقام .

وعلى الوارث مثل ذلك ـ الفصال عن تشاور بينهما .

لا حرج في إعطائه لمرضع دون ضياع حق لأحد منهم ـ تعقيب .

١٢" ـ عدة الوفاة :

مقدارها ـ إلا الحامل ـ لا حرج عليهن بعدها ـ تعقيب .

١٣" ـ الخطبة ومداها الجائز :

جواز التعريض بالخطبة أثناء العدة ـ لا تواعدوهن سراً ـ لا عقد إلا بعد انتهاء العدة ـ تحذير وترغيب .

١٤" ـ الطلاق قبل المساس : يجوز مع المتعة لها .

١ ـ حالة من لم يحدد لها مهر .
٢ ـ والتي حدد لها .
إلا إن حصل عفو ـ ترغيب في العفو ـ ترميم العلاقات .

١٥" ـ الصلاة :

تأملات حول إدخال الصلاة ضمن هذا الموضوع :
١ ـ أهميتها .
٢ ـ حزمة عبادات .
٣ ـ كتاب الحياة .
حافظوا عليها ـ الصلاة الوسطى ـ قانتين .
إن خفتم فرجالاً أو ركباناً ـ اذكروا الله كما علمكم .

١٦" ـ متاع المطلقات :

متعة المتوفى عنها زوجها بوصية .
أمرها بيدها بعد العدة (بالمعروف) ـ تعقيب .
متاع المطلقة حقاً على المتقين .
تعقيب على المقطع كله ـ لعلكم تعقلون .

١٤ ـ قصص من التاريخ للاعتبار

١" ـ الألوف الهاربة من الموت :

الرؤية تاريخية ومثلية ـ بحث في علم الاجتماع ـ الكمية والنوعية .

النتائج لا تأتي بحسب الأهداف ولكن بحسب العمل وما قاموا به من أسباب ـ العلاقة بين : الفكر والسلوك والنتيجة ـ موتوا ثم أحياهم ـ الله يبين لكم السنن ـ والناس لا يشكرون (لا ينتفعون) .

بذل النفس والمال يحفظان على الأمة حياتها وعزتها .

إيثار العاجلة يعمي عن ذلك ـ لذا يتكرر الأمر بالقتال والإنفاق ـ قرضاً حسناً ـ ترغيب في الإنفاق ـ يقبض ويبسط وإليه المرجع .

٢" ـ طالوت وجالوت :

ـ ظنوا أن سبب ضعفهم هو فقدان القائد .

ـ الحماس وحده لا يكفي ـ معرفة الجهد اللازم .

ـ مفاهيمهم الخاطئة عن القيادة .

ـ اصطفاه وزاده بسطة في العلم والجسم .

ـ سنة إيتاء الملك ـ جاءتهم آية ملكه .

ـ أسلوب المعجزات قد انتهى ـ اختلاف الأدلة على موضوع واحد من عصر إلى عصر .

ـ **امتحن الجيش** :

١ ـ عند تعيين طالوت ملكاً .

٢ ـ في مقدار الطاعة والإرادة القوية والصبر .

٣ ـ عند مواجهة جالوت وجنوده .

ـ النوعية أهم من الكمية (دون إفراط ولا تفريط) .

ـ الله مع الصابرين (الصبر مصدره العلم والإيمان) .

ـ **دعاؤهم فيه أدب ووعي** : الصبر ـ الثبات ـ النصر .

ـ هزموهم وقتل داود جالوت ـ آتاه الملك والحكمة .

ـ **الغاية من الصراع** : صلاح الأرض والتمكين للخير .

ـ ظهور الفساد دليل على تقصير أتباع الحق .

ـ تنبأ توينبي بانقراض الحرب في المستقبل . حيث يستعمل البشر وسائل أخرى لتحقيق

العدل (الحرب الفكرية) .
- أهمية الصراع لصلاح الأرض - توينبي والتحدي المناسب .
- تعقيب ثـانٍ على المقطع كله - أهمية السنن .

١٥ - موضوعات متفرقة

١" - تفاضل الرسل :

﴿تلك الرسل﴾ جماعة واحدة .
- فضلنا بعضهم على بعض - حديثه ﷺ (لا تفضلوا بين أنبياء الله) - عدم التفريق إلا في الاتباع لمحمد ﷺ .
- على قدر تعلقنا بنبينا يكون تسامحنا مع الأديان الأخرى .
- امتثال أتباع الرسل بسبب عدم اتباع البينات .
- **مشيئة الله** : أن لا يرغمهم على الهداية .

٢" - الأمر بالانفاق :

بأسلوب الترهيب هنا (ربما الزكاة) .
- الكافرون هم الظالمون - الظلم نوعان .

٣" - آية الكرسي :

تتمة الآيات في العقيدة - العقيدة تحدد نوعية العلاقات الثلاث .
- فضل الآية - معنى التوحيد - الاسم الاعظم لله .
- الصفات نؤمن بها دون تعطيل ولا تأويل ولا تمثيل .
- الشفاعة المنفية والمثبتة - العلم المطلق - الكرسي .

٤" - لا إكراه في الدين :

ما روي في نزولها ـ الايمان هو إذعان النفس ولا يتحقق بالإكراه ـ مهمة الداعي بيان الرشد ـ تكريم فكر الانسان ـ الحرية الوحيدة للفكر والقانون للحياة .

ـ الآية مبدأ أساسي في التربية والدعوة ـ بعد اختيار الدين تصبح ملزماً ـ يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله (هدم وبناء) .

٥" ـ ولاية الله للمؤمنين :

يخرجهم من الظلمات الى النور .

٦" ـ قصة الذي حاج ابراهيم :

الله خالق سنة الحياة والموت ـ هل تستطيع تغيير سنن الكون ؟ـ لا يهدي الظالمين

٧" ـ الذي مر على قرية :

أنى يحيي هذه الله ؟

الأدلة في طفولة البشرية معجزات وخوارق .

٨" ـ ابراهيم يطلب رؤية الإحياء :

أهمية الإيمان بالبعث للحساب .

١٦ ـ في الأموال

(تنظيم غريزة التملك)

١ ـ الانفاق :

فائدة الإنفاق في الدنيا والآخرة .

نوعا الإنفاق ـ نمو الأعمال التي فيها إخلاص وصواب .

المثل زراعي يناسب المخاطبين .

شروط الانفاق :

شرط ما بعد الإنفاق : ترك المنِّ والأذى ـ أخطر الشروط وأصعبها .
قول معروف خير من صدقة بعدها أذى .
ـ لا تبطلوا صدقاتكم ـ مثال لذلك (فضيحته) .
ـ مثال لبيان جزاء من ينفق ابتغاء مرضاة الله .
ـ مثال آخر لمن ينفق رياء (خسارته لكل شيء) .
ـ لعلكم تتفكرون ـ النفوس كأنواع التربة .
ـ استصلاح النفوس كاستصلاح التربة البور .
شرط أثناء الإنفاق : من الطيبات ـ الله غني حيد ـ التحرر من الشح والأنانية .
شرط ما قبل الإنفاق : التغلب على وسوسة الشيطان .
السميع العليم وعد بالفضل ـ يؤتي الحكمة : الخير الكثير .
العلاقة بين عمل الله وعمل العبد .
الحكمة هي من ألزم الأمور للداعي .
ـ علم الله بالنفقة والنذر ـ ماللظالمين من أنصار .
ـ الانفاق يحمي المجتمع من الحقد الطبقي والثورة .
ـ تفضيل الإخفاء على الإبداء في الصدقة .
ـ **الحكمة** : معرفة متى تخفي ومتى تعلن .
ـ الزكاة لمصارفها والصدقة للفقراء عامة .
ـ ﴿**ليس عليك هداهم**﴾ سبب النزول ـ المؤمن خيره عام ـ التحرر من التعصب ـ للهداية قانون .
١ ـ لأنفسكم .
٢ ـ ابتغاء وجه الله .
٣ ـ يوفَّ إليكم ولا تظلمون .
ـ فوائد من التطويل في موضوع الإنفاق .
ـ أحق الناس بالصدقة ـ كل من تنطبق عليه الصفات الخمس .

١ ـ أحصروا في سبيل الله .
٢ ـ لا يستطيعون السعي للرزق .
٣ ـ التعفف .
٤ ـ تعرفهم بسيماهم .
٥ ـ لا يسألون .
ـ الصورة الراقية للفقير المسلم ـ يعطى خفية .
ـ يعلم كل فرد أداء واجبه ـ واجب الغني ـ الجميع لهم أجرهم ـ التناقض بين الإنفاق والربا .

٢ ـ الربا :

ربا النسيئة وربا الفضل .
ـ تفسيران لـ ﴿**لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه** . .﴾ .
ـ تنقية البيع من كل أشكال الغبن ـ المجتمع الربوي .
ـ **قولهم** : البيع مثل الربا ـ أربعة فروق .
ـ هل يرد الربا الماضي إذا تاب ؟
ـ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ـ التعقيب .
ـ **في المقابل** : صورة الإيمان والعطاء ـ مجتمع آمن .
ـ ذروا ما بقي من الربا وإلا فهي الحرب من الله ورسوله .
ـ لكم رؤوس أموالكم مع إنظار المعسر ـ والصدقة خير .
ـ ﴿**واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله**﴾ آخر ما نزل .

٣ ـ الدَّيْن :

أطول آية في القرآن ـ ما نستنتج من ذلك .
ـ في الآية ١٥ أمر ونهي ـ الدقة في التشريع مع جمال الأداء وربط الأمر بالضمير ـ أركان الدين ـ فاكتبوه .

- الكتابة سبب في ضمان الحقوق - دفع الأمة في طريق العلم .
- توجيه كل طرف إلى أداء واجبه . الشهادة وشروطها - شهادة المرأة - أن تضل إحداهما .
- حديث الرسول ﷺ لا يفهم منه حتمية النقصان في عقل المرأة وإنما يبين الأسباب .
- الموهبة ينميها السعي والكسب والممارسة .
- الشهادة الأولى والثانية - التأكيد على الكتابة وبيان فوائدها - إلا في التجارة الحاضرة .
حقوق الكتاب والشهداء (يضار) - التعقيب .
شرطي العمل - العلم ينال بالطلب والسعي .
العلم يثمر التقوى (الاخلاص) .

٤ - الرهن :

رخصة للمسافر إن لم يجد كاتباً .
الأمر بأداء الأمانة ، وعدم كتمان الشهادة .

١٧ - ختام السورة

- الختام يتناسق مع الافتتاح .
- فيه إشارات إلى أهم موضوعات السورة .
- مالك السموات والأرض هو منزل هذه الآيات .
- تقرير الحساب على ما تبدي وتخفي في نفسك .
- ما فعل الصحابة عند نزولها .
- اختلافهم في نسخ الآية بما بعدها .
- **صاحب المنار** : ٥ أدلة على أنها لم تنسخ .
- يغفر ويعذب عن علم .
- المؤمنون لا يفرقون بين الرسل - التكريم للمؤمنين .

- سمعنا وأطعنا - التكليف بحسب الوسع .
- كل ما أمر الله داخل في الوسع - الوسع ينمو بالجهد - فردية التبعة في الآخرة .
- المؤمنون يتوجهون بالدعاء .
- هل يؤاخذ في حالة النسيان والخطأ ؟
- إن أخطأ بعد الاجتهاد فله أجر .
- لا تحمل علينا إصراً - الفهم المحرف من الآصار .
- لا تحملنا ما لا طاقة لنا به - طلب المغفرة والرحمة .
- انصرنا - فضل خواتيم البقرة - زدنا علماً .

من أعمال المؤلفة :

١ - سمية بنت خياط (الشهيدة الاولى) .
٢ - أم سليم بنت ملحان (الزوجة المؤمنة) .
٣ - أم حكيم بنت الحارث (العروس الشهيدة) .
٤ - الشمس والريح (مجموعة قصصية للناشئين) .
٥ - ميلاد جديد (مجموعة قصصية) .
٦ - أضواء من سورة يسٓ .
٧ - من هدي سورة لقمان .
٨ - من هدي سورة النساء .
٩ - من هدي سورة البقرة .
١٠ - من هدي سورة آل عمران .



قائمــة المرجــع

١ - تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير.
٢ - تفسير المنار، للشيخ رشيد رضا.
٣ - في ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب.
٤ - من هدي سورة النساء، للكاتبة حنان لحام.
٥ - من هدي سورة لقمان، للكاتبة حنان لحام.
٦ - صحيح البخاري، للبخاري.
٧ - مختصر صحيح مسلم، للمنذري.
٨ - سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ محمد ناصرالدين الألباني.
٩ - رياض الصالحين، للإمام النووي.
١٠ - فقه السنة، للأستاذ سيد سابق.
١١ - فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، لابن تيمية.
١٢ - البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير.
١٣ - التفسير الإسلامي للتاريخ، للدكتور عمادالدين خليل.
١٤ - أخبار عمر، للطنطاويين.
١٥ - إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي.
١٦ - مختصر دراسة التاريخ، تأليف: أرنولد توينبي.
١٧ - معالم تاريخ الإنسانية، تأليف: هـ. ج. ويلز.
١٨ - العمل قدرة وإرادة، للأستاذ جودت سعيد.
١٩ - الإنسان حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً، للأستاذ جودت سعيد.
٢٠ - الصراع الفكري، للأستاذ مالك بن نبي.
٢١ - شروط النهضة، للأستاذ مالك بن نبي.

٢٢ ـ مشكلة الأفكار، للأستاذ مالك بن نبي.
٢٣ ـ فكرة الأفريقية الأسيوية، للأستاذ مالك بن نبي.
٢٤ ـ وجهة العالم الإسلامي، للأستاذ مالك بن نبي.
٢٥ ـ الإسلام يتحدى، تأليف: وحيدالدين خان.
٢٦ ـ الإسلام على مفترق الطرق، تأليف محمد أسد.
٢٧ ـ الإسلام وأزمة الغرب، تأليف رجاء جارودي.
٢٨ ـ الطب محراب للإيمان، للدكتور خالص جلبي.
٢٩ ـ محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره، تأليف عبدالوهاب عزام.
٣٠ ـ حرب وحضارة، تأليف: أرنولد توينبي.
٣١ ـ قصة تجاربي مع الحقيقة، لغاندي.

من منشوراتنا

أولاً ـ أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع :

تأليف الاستاذ : جودت سعيد

١ ـ مذهب ابن آدم الأول (مشكلة العنف في العمل الإسلامي) .
٢ ـ الإنسان حين يكون كلاً ، وحين يكون عدلاً .
٣ ـ حتى يغيروا ما بأنفسهم .
٤ ـ فقدان التوازن الاجتماعي .
٥ ـ العمل قدرة وإرادة .
٦ ـ إقرأ وربك الأكرم .

ثانياً ـ دراسات نفسية وتربوية :

١ ـ الرسول العربي المربي . تأليف الدكتور : عبد الحميد الهاشمي
٢ ـ علم النفس التكويني . تأليف الدكتور : عبد الحميد الهاشمي .
٣ ـ الرسول المعلم ومنهجه في التعليم . تأليف الدكتور : محمد رأفت سعيد .

ثالثاً ـ نظرات في كتاب الله :

١ ـ قبس من الإعجاز تأليف الاستاذ : هشام الحمصي .
٢ ـ توجيهات قرآنية . تأليف الاستاذ : هشام الحمصي .
٣ ـ أضواء من سورة يس . تأليف السيدة : حنان لحام .
٤ ـ من هدي سورة لقمان . تأليف السيدة : حنان لحام .
٥ ـ من هدي سورة النساء . تأليف السيدة : حنان لحام .
٦ ـ من هدي سورة البقرة . تأليف السيدة : حنان لحام .
٧ ـ من هدي سورة آل عمران . تأليف السيدة : حنان لحام .

رابعاً ـ من التراث الإسلامي :

١ ـ رسالة لطيفة في أحاديث متفرقة ضعيفة .
لابن عبد الهادي ـ تحقيق الاستاذ : محمد عيد عباسي .
٢ ـ إشارات لطيفة .
لابن تيمية . جمع وتقديم الاستاذ : محمد العبده .
٣ ـ القبر أول منازل الآخرة .
للإمام القرطبي . تحقيق مكتب التحقيق لدار الثقافة للجميع .
٤ ـ التحفة العراقية في أعمال القلوب .
لابن تيمية . تحقيق : سليمان مسلم الحرش .
٥ ـ لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد .
لابن قدامة المقدسي . تحقيق الأستاذ : عبد القادر الأرناؤوط .
٦ ـ الأذكار للإمام النووي .
تحقيق الأستاذ : عبد القادر الأرناؤوط .

خامساً ـ من أخبار الصحابيات :

تأليف السيدة : حنان لحام .

١ ـ سمية بنت خياط (الشهيدة الأولى) .
٢ ـ أم سُليم بنت ملحان (الزوجة المؤمنة) .
٣ ـ أم حكيم بنت الحارث (العروس الشهيدة) .

سادساً ـ أمهات تستحق التكريم :

تأليف الأستاذ : محمد موفق سليمة

١ ـ نسيبة بنت كعب .
٢ ـ أسماء ذات النطاقين .

سابعاً ـ للجميع :

١ ـ الإدمان أقوى دافع اصطناعي .

تأليف : د . بيجيرو ـ ترجمة : د . فاروق عبد السلام .

٢ ـ ميلاد جديد (مجموعة قصصية) .

تأليف : السيدة حنان لحام .

٣ ـ الشمس والريح (مجموعة قصصية) .

تأليف : السيدة حنان لحام .

٤ ـ أناشيد فتية الحق .

تأليف : نخبة من شعراء الدعوة .

٥ ـ الشعر الجاهلي أمنحول أم صحيح النسبة ؟

تأليف : شكيب أرسلان ـ تحقيق : محمد العبده .

٦ ـ مسرحيات مؤمنة (١ ـ ٣) .

تأليف الاستاذ : محمد موفق سليمة .

٧ ـ عقوبة السارق بين القطع وضمان المسروق في الفقه الإسلامي .

تأليف الدكتور : أحمد توفيق الأحول .

٨ ـ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء .

تأليف الشيخ : عبد الله بن حمد الشبانه .

٩ ـ الموسوعة الطبية الإسلامية : مرض الأيدز ـ الطاعون الجديد .

تأليف الدكتور : خالص مجيب جلبي .

١٠ ـ العلاقات السياسية بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة في عهد الخليفة هارون الرشيد والإمبراطور شارلمان .

تأليف الدكتور : سليمان ضفيدع الرحيلي .

١١ ـ الطريق إلى العبقرية .

تأليف الدكتور : مقداد يالجن .

١٢ ـ أساليب الإقناع وغسيل الدماغ .

تأليف : أي . جي . براون ـ ترجمه بتصرف : د . عبد اللطيف الخياط .

١٣ ـ لماذا ندخن ؟!

تأليف الأستاذ : كمال عبد القادر .

ثامناً ـ للبراعم :

من رقم ١ وحتى ١٤ تأليف : الأستاذ **محمد موفق سليمة** .

ومن رقم ١٥ وحتى ١٩ تأليف الاستاذين **محيي الدين** و**محمد موفق سليمة** .

١ ـ روضة البراعم المصورة (١ ـ ٤) .

٢ ـ مسرحيات مؤمنة (١ ـ ٣) .

٣ ـ كان في قديم الزمان (١ ـ ٦) .

٤ ـ انا اقرأ وأفهم كتاب الله (١ ـ ٨) .

٥ ـ قصص السيرة (١ ـ ٦٠) .

٦ ـ سبعة يظلهم الله (١ ـ ٧) .

٧ ـ الوصايا العشر (١ ـ ١٠) .

٨ ـ العشرة المبشرون بالجنة (١ ـ ١٠) .

٩ ـ حق المسلم على المسلم (١ ـ ٦) .

١٠ ـ السباعية الرمضانية (١ ـ ٧) .

١١ ـ بعد مائدة الإفطار (١ ـ ٧) .

١٢ ـ حكايا قمر الزمان (١ ـ ٦) .

١٣ ـ بنات النبي (١ ـ ٥) .

١٤ ـ أمهات المؤمنين (١ ـ ١١) .

١٥ ـ لك يا رب نشيدي (ديوان شعر) .

١٦ ـ ثلاثيات نبوية (١ ـ ٤) .

١٧ ـ قصص من الروض النبوي (١ ـ ٣) .

١٨ ـ أجمل الحكايات ـ المجموعة الأولى (١ ـ ٥) .

١٩ ـ أجمل الحكايات ـ المجموعة الثانية (١ ـ ٤) .

المحتوى